دراسات فى
تاريخ الحروب الصليبية
(جماعة الفرسان الداوية)

دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية

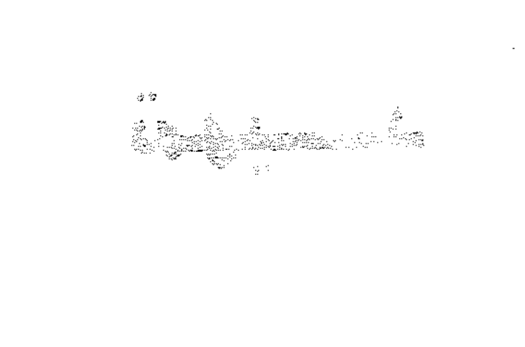
(جماعة الفرسان الداوية)

إعداد
الأستاذ الدكتور
إبراهيم خميس إبراهيم سلامه
كلية الآداب - جامعة ...

٢٠٠٢

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٧٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦


تمهيد



لما كان هذا الكتاب يتناول طرفًا من العلاقات بين الشرق والغرب في فترة زمنية محددة في تاريخ الحركة الصليبية، لذا تحتم علينا الرجوع إلى المصادر الغربية والشرقية على قدم المساواة سعيًا وراء الحقيقة التاريخية، ولقد واجهتنا في هذا المجال صعاب كثيرة، منها أن الوثائق الخاصة بجماعة الداوية قد فقد الكثير منها بعد رحيلهم من الشرق الأدنى، ونتيجة للنهاية التي انتهى بها تاريخهم على يد الملك الفرنسي فيليب الرابع (١٢٨٥ – ١٣١٤م) (٦٧٤ – ٧١٤هـ) وعلى الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها الدارسون والمتخصصون للبحث عن تلك الوثائق، إلا أن محاولاتهم لم تثمر النتيجة المرجوة.

وكان كل ما أمكن العثور عليه شذرات مبعثرة في دور الأرشيف المختلفة في الغرب الأوربي، لذا سعينا جاهدين في الحصول على ما عثر عليه أولئك الباحثون، وفي محاولة هدفها سد الفراغ الذي نتج عن فقد معظم تلك الوثائق، اعتمدنا على الخطابات المتبادلة بين أعضاء تلك الجماعة وبين هيئة رجال الدين في الغرب وعلى رأسها البابوية والحكام اللاتين في الشرق الأدنى، هذا بالإضافة إلى الإشارات الصريحة التي وردت في مؤلفات المؤرخين الغربيين المعاصرين لتلك الأحداث. ومن العقبات التي صادفتنا أيضًا أن المصادر العربية لم تُشِرْ بإسهاب ووضوح إلى أعمال تلك الجماعة بعينها، وإنما بإطلاق لقب الفرنج على فئات الصليبيين وجنسياتهم دون تخصيص فئة منهم بالذات، اللهم إلا بعض التلميحات البسيطة العابرة التي لا تشفي غلة الباحث لمعرفة وجهة النظر العربية خير معرفة فيما يتعلق بدور تلك الجماعة في أحداث الصراع الصليبي، وعلى هذا سعينا للتغلب على

تلك الصعوبة بالاعتماد أساسًا على المصادر الغربية التى أشارت بشىء من الإسهاب إلى أعمال تلك الجماعة على وجه الخصوص، مع مقارنتها بما ورد فى المصادر العربية من نتف مبعثرة هنا وهناك، وعلى هذا هدانا البحث إلى وضع المصادر الغربية فى المكانة الأولى تليها المصادر العربية.

ومن أهم المصادر الغربية التى أفدنا منها "مجموعة وثائق الداوية" Documents des Templiers التى قام بجمعها ونشرها المؤرخ دلافيل لى رو[1] Delaville le Roux وقد أوضحت لنا أن جماعة فرسان الداوية أصبحت فى عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ تنقسم إلى عدة فرق كل فرقة تتولى حماية قلعة أو قطاع خاص فى الأراضى المقدسة. كما ألقت الضوء بصورة واضحة على الأملاك والهبات والامتيازات التى تمتعت بها تلك الجماعة إبان الفترة موضوع البحث وأشارت إلى طبيعة العلاقات بين أفرادها وبين رجال الدين الغربيين واللاتين والنزاع الذى نشب بين الطرفين والذى يرجع إلى أوائل عام ١١٦٩م/ منتصف عام ٥٦٤هـ، مع بيان أسبابه، ونتائجه هذا بالإضافة إلى ذكر النزاع الذى قام بين جماعتى الداوية والاستبارية، وأسبابه، والصلح الذى تم بينهما فى فبراير ١١٧٩م / رمضان ٥٧٤هـ، كما عكست تلك الوثائق سياسة الداوية تجاه الصليبيين وطبيعة الدور الذى قاموا به وأثره على علاقاتهم بالمسلمين. فقد أوضح المرسوم البابوى الذى أصدره البابا وربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧م) (٥٨١- ٥٨٣هـ) فى ١٧ فبراير ١١٨٧م / ٦ ذى الحجة ٥٨٢هـ والذى أمر فيه جماعة الداوية بعدم إثارة الفتن فى منطقة الشرق الأدنى، حقيقة الدور الذى كانت تمارسه فى

---

[1] Le Roux, D., Documents des Templiers, Paris, 1882.

تلك الفترة والمتمثل فى الانغماس فى المنازعات مع ريموند أمير طرابس، أما المرسوم الآخر الذى أصدره البابا كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١م / ٥٨٣ - ٥٨٧هـ) فى ١٦ أبريل ١١٩٠م/ ١٩ ربيع الأول ٥٨٧هـ والذى أقر فيه منح الداوية العديد من الامتيازات وطالبهم بالاستمرار فى عملهم، فقد عكس سياسة الداوية حيال الأطراف المعنية آنذاك، وعلى هذا يتضح أهمية تلك الوثائق فى تسجيل تاريخ الجماعة.

أما عن مجموعة الخطابات المتبادلة بين أفراد تلك الجماعة وبين البابوية وهيئة رجال الدين فى الغرب والحكام اللاتين في الشرق الأدنى فقد سدت فجوة واضحة نتجت عن فقد وثائق الجماعة، وقد رجعنا إلى العديد من تلك الخطابات ومن أهمها رسالة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس اللاتينى إلى القديس برنارد دى كليرفو فى عام ١١٢٧م / ٥٢١هـ، والتى شرح فيها ظروف نشأة جماعة الداوية، وحاجتها فى تلك المرحلة إلى تأييد رجال الدين وعلى رأسهم البابا، وأيضًا الرسالة التى بعث بها البابا إسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١م / ٥٥٤ - ٥٧٧هـ) إلى مقدم الجماعة برتراند دى بلانكفورت في عام ١١٦٢م / ٥٥٧هـ والتى أشار فيها ياسهاب إلى المبادئ والنظم الخاصة بالجماعة والتى وضعت فى مؤتمر تروى عام ١١٢٨م/ ٥١٢هـ، كذلك الخطاب الذى أرسله يوستاس أمين مال الجماعة إلى مقدمها إيفرارد دى بار عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ والذى أشار فيه إلى مشاركة الداوية للصليبيين فى حصار مدينة دمشق عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ. هذا بالإضافة إلى الخطاب الذى أرسله تريكيوس فارس الداوية إلى قادة الداوية فى الغرب بعد فتح صلاح الدين لبيت المقدس عام ١١٨٨م/٥٨٤هـ وقد أوضح تريكيوس فى رسالة حقيقية الدور الذى قام

به الداوية في معركة حطين، وجهودهم في الدفـاع عن بيت المقدس وقد كان لتلك الخطابات أهمية بالغة، لأن كاتبيها كانوا معاصرين للأحداث ولذلك فهي تحمل في طياتها صفة الوثائق الرسمية لكونها تقارير كانت ترسل تباعًا إلى البابوات المتعاقبين أو إلى الحكام اللاتين في الغرب، وهي تعتبر ثقة في تاريخ جماعة فرسان الداوية، ونظرًا للمعلومات القيمة التي وردت بها، هذا بالإضافة إلى أنها أزاحت الستار عن دور الجماعة في عديد من الأحداث التاريخية التي أغفلها الكتاب الغربيون القدامى أو مروا عليها مر الكرام.

أما بالنسبة للمؤلفات الغربية، فقد سدت هي الأخرى فراغًا كبيرًا.

ويعتبر كتاب "تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحار" للمؤرخ وليم الصوري[1] William of Tyre من أهمها، فقد أشار إلى نشأة

---

[1] ولد وليم الصوري في مملكة بيت المقدس حوالي عام ١١١٠م / ٥٢٤هـ، وتلقى تعليمه في بيت المقدس، ثم التحق بالوظائف الكنسية إلى أن أصبح في عام ١١٦١م / ٥٦٦هـ أحد رجال الدين التابعين لرئيس أساقفة صور، وبعد ذلك بقليل سافر إلى أوربا ليواصل تعليمه هناك. ثم ما لبث أن عاد إلى الشرق في خريف ١١٦٣م / أواخر عام ٥٥٨هـ. ولقد بدأ وليم في الارتباط بالملك عموري الأول الذى طلب منه تسجيل عهده، بعدما عينه الملك رئيسًا لشماسة كنيسة صور، كما أرسله الملك عموري في سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل عام ١١٦٨م / ٥٦٣هـ للتفاوض في تنظيم حملة صليبية بيزنطية لغزو مصر، وبعد موت عموري عين وليم مستشارًا للمملكة الصليبية في عام ١١٧٤م / ٥٧٠هـ، ثم أصبح في العام التالي رئيسًا لأساقفة كنيسة صور، وفي عام ١١٧٨م / ٥٧٤هـ سافر إلى أوربا ولقد أتيحت لوليم بحكم المناصب العديدة التي شغلها فرصة طيبة لمعرفة بواطن الأمور في الإمارات الصليبية والبيزنطية، وساعده على ذلك إلمامه ببعض اللغات الأخرى كالعربية والفرنسية القديمة واليونانية القديمة والفارسية والعبرية فضلاً عن لغته الأصلية وهي اللاتينية، وتاريخ وفاة وليم غير معروف وإن كان يرجح أنه حدث ما بين عام ١١٨٤م / ٥٨٠هـ وعام ١١٨٧م / ٥٨٧هـ.

انظر : عمر كمال توفيق : المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد ٢١ لسنة ١٩٧٠، مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦٨، ص ١٨ - ٢٠.

تلك الجماعة وتطورها، وسجل أول معركة حربية تشارك فيها الداوية عام ١١٣٨م / ٥٣٢هـ، وإلى أول معركة قاموا بها بمفردهم ضد حامية عسقلان الفاطمية عام ١١٤١م / ٥٣٥هـ، كما أشار إلى مشاركة الداوية للملك الفرنسي لويس السابع في زحفه نحو الشرق الأدنى وتحدث عن دور الجماعة في حصار مدينة عسقلان الفاطمية للمرة الثانية عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، واتهم الداوية بالجشع وأنهم سعوا أن يكون لهم السبق في الحصول على الغنائم وعلى هذا منعوا بقية الجيش الصليبي من دخول المدينة، كما اتهمهم بنفس التهمة عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ عندما رفضوا إطلاق سراح نصر بن الوزير الفاطمي عباس طمعًا في الحصول على الفدية من طلائع بن رزيك، كذلك تحدث وليم الصورى عن معارضة الداوية لمشروع حملة الملك عمورى الأول على مصر عام ١١٦٨م/ ٥٦٤هـ، وأسباب تلك المعارضة، وأشار ياسهاب إلى علاقة الداوية بصلاح الدين الأيوبى منذ عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ وحتى عام ١١٨٠م/ ٥٧٦هـ، كذلك أشاد وليم الصورى بشجاعة بعض فرسان الداوية، والخدمات الكثيرة التى قدمتها تلك الجماعة لصالح الحركة الصليبية. ولعل اتهامه لها بالجشع إنما يرجع إلى موقف الداوية الصارم من رجال الدين الغربيين فى الشرق الأدنى والذى كان وليم الصورى واحدًا منهم مما أدى إلى قيام كثير من المنازعات بين الفريقين، وقد تدخل البابا إسكندر الثالث لحسم تلك المنازعات ووقف بجانب الداوية، هذا بالإضافة إلى معارضة الداوية لمشروع الحملة على مصر والتى كان وليم الصورى من أكبر الداعين لها، كل ذلك يوضح سبب هجوم وليم الصورى على الداوية وإلصاق تلك التهم بهم وقتذاك.

وثمة مؤرخ آخر لا يقل أهمية عن وليم الصوري هو جاك دى فيترى Jacques de Vitry وعلى الرغم من أن جاك دى فيترى[1] كان من بين رجال الدين، وعلى الرغم من أنه نقل عن وليم الصوري الكثير من الأحداث التاريخية فى كتابه المسمى "تاريخ بيت المقدس" History of Jerusalem إلا أنه لم يشر إلى تلك الاتهامات، بل أشاد فى أكثر من مناسبة بجهود الداوية وشجاعتهم، ودورهم البارز فى الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين فى منطقة الشرق الأدنى، وقد فسر جاك دى فيترى سر اختيار الداوية للراية ذات اللونين الأبيض والأسود فى بداية الأمر، ثم أوضح بعد ذلك سبب اختيار البابا الصليب الأحمر من أجل وضعه على ملابس فرسان الداوية ولكنه مع ذلك أهمل ذكر كثير من الأحداث المتعلقة بتلك الجماعة، خاصة فى صراعهم مع المسلمين، إذ مر عليها مر الكرام، لاسيما دور الداوية فى حصار عسقلان، ومعارضتهم حملة الملك عمورى على مصر، مما يوضح أنه كان منحازًا إليهم.

ومن المؤلفات الهامة أيضًا، ما كتبه المؤرخ أودو أوف ديل Odo of Deuil فى كتابه المعنون "حملة لويس السابع فى الشرق"[2] De Profection Ludovice VII Orientem وقد تحدث أودو عن فكرة الحملة الصليبية

---

[1] جاك دى فيترى: ولد حوالى عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ، وتلقى تعليمًا دينيًا، ثم أصبح من رجال الدين المرموقين، وقد قام بدور فعال فى الدعوة للحملة الصليبية الخامسة، انظر :

Jacques de Vitry, History of Jerusalem, of, P.P.T.S., Vol. XI, London, 1896, pp.III-IV.

[2] تاريخ مولد هذا المؤلف ليس معروفًا وعلى ما يبدو أنه انخرط فى السلك الكنسى فى بداية حياته حتى أنه أصبح راهبًا فى دير سانت دنيس St. Danis بفرنسا، ولقد اصطحبه الملك الفرنسى لويس السابع فى حملة على الشرق انظر :

Odo of Deuil, De Profection Ludovice VII Orientem, New York, 1948, pp. XIII-XIV.

والدعاية والإعداد لها، وعن تفاصيل مسيرة الجيش الفرنسي نحو الشرق، ودور جماعة فرسان الداوية في هذا المجال، وقيام قائدهم إيفرارد دى بار بالتوجه في سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١١٤٣ – ١١٨٠م / ٥٣٧ – ٥٧٦هـ) ليقسم له نيابة عن الملك الفرنسي بالمحافظة على الأملاك البيزنطية، وفوق هذا وذاك، فقد أشار إلى الدور الذى قام به الداوية في المعركة التي قامت بين الجيش الفرنسي والسلاجقة في يناير ١١٤٨م / شعبان ٥٤٢هـ، ونجاح الداوية في إعادة النظام والطمأنينة إلى كافة الصفوف الفرنسية مما كان له أكبر الأثر في انسحاب السلاجقة، كذلك يبين أودو إعجاب الملك الفرنسي بشجاعة الداوية وحسن نظامهم.

وقد شارك كل من المؤرخين البيزنطيين نيكتاس Nicetas في كتابه "التاريخ" Historia وكيناموس Cinnamos في كتابه "مختصر التاريخ" Epitoma Historiarum شاركا المؤرخ أدو وفي الإشادة بجهود الداوية في أثناء عبور الجيش الفرنسي للأراضي البيزنطية، كما أوضحنا حقيقة الدور الذى قام به الإمبراطور مانويل كومنين، وتوسطه لدى نور الدين من أجل إطلاق سراح أسرى الداوية ومن بينهم المقدم برتراند ذى بلانكفورت.

ويأتي كتاب "حولية ميخائيل السرياني"[1] La Chronique de Michel le Syrien في سلسلة المصادر الهامة التي اعتمدنا عليها اعتمادًا كبيرًا. فقد أشاد ميخائيل إلى نشأة الجماعة منذ أن كانت نواة صغيرة ويعتبر

---

[1] ميخائيل السرياني ولد حوالى عام ١١٢٢م / ٥١٦هـ، وكان أبوه أحد رجال الدين في مدينة ملطية. ولقد انضم ميخائيل إلى حياة التدين، وتدرج في المناصب الدينية حتى بلغ منصب بطريك السريان في مدينة أنطاكية تمام ١١٦٦م ٥٦١هـ وقد توفى في عام ١١٩٩م / ٥٩٦هـ، انظر: Michel le Syrien, La Chronique de Michel le Syrien, Paris, 1896, Vol. I pp. III-IV.

المؤرخ الوحيد الذى تحدث بإفاضة عن المبادئ التى وضعتها فى مؤتمر تروى عام ١١٢٨م / ٥٢٢هـ، ثم إنه تحدث بإسهاب عن علاقة الداوية بالأرمن، وفيما عدا ذلك فقد أشار ميخائيل إلى دور الداوية فى الفترة من عام ١١١٨م / ٥١٢هـ حتى عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ بشيء من الإيجاز، ويؤخذ عليه أنه بالرغم من اتباعه نظام التاريخ الحولى، إلا أنه يتحدث عن الوقعة التاريخية ثم يعود للكلام عنها فى وقائع سنوات أخرى، وهنا يجب ألا نغفل حوليات المؤرخ أمادى[1] Chronicles d'Amadi ويبدو أنه اطلع على بعض الوثائق الخاصة بجماعة الفرسان الداوية، وعلى هذا أفادنا فى ذكر العديد من الأحداث التاريخية، مثال ذلك أنه وضح أن تعهد الفرسان التسعة أمام البطريرك اللاتيني جورمون والملك الصليبى بلدوين الثانى كان فى مناسبتين مختلفتين، كما بين أسباب العداء بين جيرارد ريدفورد مقدم الجماعة وبين ريموند أمير طرابلس، والدور التى قامت به الجماعة فى تتويج الملك جى دى لوزجنان، كما تحدث بإسهاب عن شراء الداوية جزيرة قبرص عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ، أما فيما عدا ذلك من أحداث فقد مر عليها مر الكرام حيث اتبع هو الآخر طريقة التاريخ الحولى شأنه فى ذلك شأن ميخائيل السرياني، وقد اهتم أمادى اهتمامًا بالغًا بذكر تاريخ جزيرة قبرص، وأفاض فى الحديث عن نشاط الجماعة فى تلك الجزيرة منذ أن تم لها شراؤها فى عام ١١٩٢م / ٥١٨هـ وحتى إعادتها للملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩م / ٥٨٥ - ٥٩٥هـ).

---

(١) اختلفت الآراء حول تحديد مولد هذا المؤرخ. ولكن من المرجح أنه عاش فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى / أواخر القرن الثامن الهجرى. وكان من رجال الدين ممن أقاموا فى جزيرة قبرص. وتوفى فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى / أوائل القرن التاسع الهجرى، انظر
Amadi, Chronicles d'Amadi, Paris, 1891, pp. IV-VI.

أما عن دور الداوية فى الحملة الصليبية الثالثة فقد استقينا المادة الخاصة به عن أهم المصادر المعاصرة لتلك الفترة ومنها كتاب "الحوليات الصليبية" Chronicles of The Crusades الذى ألفه كل من ريتشارد أوف ديفزس[1] Richard of Devizes وجود فرى دى فيسنوف[2] Geoffrey de Vinsauf اللذين أوضحا أعمال الداوية المتعددة فى حصار مدينة عكا عام ١١٨٩م / ٥٨٥هـ، سواء فى حراسة المعسكر الصليبى من هجمات المسلمين أو فى قيامهم بصنع الآلات المتعددة لضرب أسوار المدينة، كما أشار إلى قيام الداوية بحماية مؤخرة الجيش الصليبى بقيادة ريتشارد قلب الأسد أثناء زحفه نحو حيفا، وقيسارية، فضلاً عن دورهم فى موقعة أرسوف عام ١١٩١م / ٥٨٧هـ، ونصيحتهم للجيش الصليبى بعدم الزحف نحو مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة كذلك تحدثا عن قيام الداوية بهدم قلعتهم فى الداروم عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ ليتسنى لهم التفرغ لمواصلة دورهم مع الملك ريتشارد قلب الأسد، وأيضًا موافقتهم مع غيرهم من القادة على ضرورة التوجه إلى مصر بهدف الاستيلاء عليها وإن كان هذا المشروع لم يدخل فى نطاق التنفيذ وقتها، كما اعتمدنا على الكتاب الذى ألفه امبرواز Ambbroise عن حملة ريتشارد قلب الأسد The Crusade of Richard Lion-Heart والذى أشار فيه إلى معظم ما جاء فى

---

[1] ريتشارد أوف ديفزس : لا يعرف الكثير عن حياته سوى أنه كان راهبًا من مقاطعة ونشستر بإنجلترا، سافر إلى الأراضي المقدسة، وكان من معاصرى الملك الإنجليزى ريتشارد الأول، انظر :
Devizes, Chronicles of the Crusades, London, 1848, p. III.

[2] جود فرى دى فيسنوف : إنجليزى المولد، له مؤلفات عديدة عن تاريخ الملك هنرى، وعن وفاة الملك ريتشارد، ولكن أهمها على الإطلاق كتابه عن حملة ريتشارد قلب الأسد، انظر
Devizes, Chronicles, PP. III-V.

كتاب ديفزس وفينسوف، وأضاف إليه أن الجماعة قد أقامت قلعة جديدة لها في مدينة يافا، ولكن أمبرواز تحدث عن أحداث الحملة على شكل قصيدة شعرية باللغة الإنجليزية القديمة وتم ترجمتها إلى الإنجليزية الحديثة.

ومن المصادر الهامة التى اعتمدنا عليها أيضًا كتاب "تاريخ هرقل"[١] Histoire d'Eracles والذى أفادنا إفادة كبيرة، فلقد انفرد بذكر تفاصيل مؤتمر عكا الصليبى عام ١١٧٨م / ٥٨٣هـ، وتضمن نص نصيحة جيرارد ريدفورد للملك جي دى لوز جنان عندما كان الجيش الصليبى معسكرًا فى صفورية في يوليو ١١٨٧م ربيع الآخر ٥٨٣هـ بالإضافة إلى أنه تحدث بإسهاب عن نزاع الداوية مع ريموند أمير طرابلس وعن هزيمتهم فى موقعة صفورية في مايو ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، كما أشار بإيجاز إلى اشتراك الداوية في موقعة حطين، واكتفى بذكر إشارات عابرة منها أنهم قاموا بحماية الراية الملكية إلى أن سقطت على يد المسلمين، كما أشار فى مواضع عديدة إلى سقوط قلاع الداوية الواحدة تلو الأخرى على يد صلاح الدين بعد موقعة حطين، وعن دور الداوية فى حصار مدينة عكا، وفى مشاركة الملك ريتشارد قلب الأسد حتى رحيله من الشرق الأدنى، وقد اتفق معه فى هذا الصدد المؤرخ بندكت أوف بتربورج[٢] Benedicti of Petroburgensis

---

(١) نشر باللغة الفرنسية القديمة فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) R.H.C. Occ وهو عبارة عن تذييل لما كتبه المؤرخ وليم الصورى ولم يعرف كاتبه، ولكن سمى بهذا الاسم لأن بداية الكتاب تبدأ بكلمة هرقل. انظر محمود سعيد عمران :الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية ١٩٧٨م، ص ١٥ (حاشية ١).

(٢) نشر كتابه فى مجموعة R.H.G.F. وكان بندكت قد تولى منصب رئيس دير بتربورج بإنجلترا عام ١١٧٧م، وتوفى عام ١١٩٣، انظر

Bendicti of Petrobugensis, Vita Henerici II Angila Regis, cf. R.H.G.F., Vol. XII, Paris, 1818, p. 6.

فى كتابه عن "حياة هنرى الثانى ملك إنجلترا" Vita Henerici II Anglia Regis إذ أشار بندكت إلى قيام صلاح الدين بقتل جميع الأسرى من الداوية بعد موقعة حطين فيما عدا مقدمهم جيرارد ريد فورد، وأورد عدد هؤلاء الأسرى كما بين استعدادات الداوية للمشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة وقيامهم بحشد قوتهم فى مدينة صور، وتحدث باسهاب عن دورهم فى حصار عكا.

ومن مجموعة المؤلفات الغربية التى يجب ألا نغفلها ما كتبه المؤرخين الإنجليز أمثال روجر دى هوفدن Roger de Hoveden فى "حولياته" Annals وروجر أوف وندفر Roger of Wendover فى كتابه "أزاهير التاريخ" The Flowers of History ومتى أوف وستمنستر Matthew of Westminister فى كتابه "زبدة التاريخ" The Flowers of History وقد ألقى أولئك المؤرخين الضوء على أحوال الغرب الأوربى إبان الفترة موضوع البحث، وأشاروا كذلك إلى الأعمال التى قامت بها جماعة فرسان الداوية فى الغرب والاستعدادات للحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة، فضلاً عن إشارات عابرة عن دور الجماعة فى الشرق الأدنى.

كذلك يجب الا نغفل ما كتبه وليم دى نانجى فى[1] حولتيه Chronicon حيث اتبع طريقة التأريخ الحولى وتحدث عن نشاط الدواية وجعلة فى عام ١١٢٠م/٥١٤هـ.

---

[1] نشر فى مجموعة R.H.G.F. وكان راهبًا فى دير القديس دينيس بفرنسا، وقد اعتمد فى مؤلفة على بعض المؤرخين الاخرين امثال جوفروادى بليه، وجيلون دى ريمز انظر: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على مصر وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، الاسكندرية ١٩٦٩، ص٨، حاشية (٤).

كما انه شارك المؤرخ وليم الصورى فى اتهام الداوية بالجشع عندما رفضوا إطلاق سراح نصر بن الوزير الفاطمى عباس. وقد أفاض فى ذكر دور الداوية فى بناء قلعة بيت جبريل فى عام ١١٧٨م/٥٧٤، وقيام صلاح الدين بتحطيمها فى العام التالى.

ومن المؤلفات الهامة التى رجعنا إليها ما جاء فى مجموعة الحجاج المسيحيين Palestine Pilgrims Text Society عن وصف الاماكن المقدسة فى الشرق والرحالة الذين قاموا بزيارتها، وقد امدت تلك المجموعة البحث بمعلومات قيمة عن تطور حركة الحج منذ فجر المسيحية وحتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى/ أوائل القرن السادس الهجرى. هذا بالاضافة إلى الاشارة لدور جماعة الفرسان الداوية فى تلك الفترة وقيامهم بأرشاد الحجاج المسيحين، واتخاذهم المغارات الجبلية كمخازن لاسلحتهم وقتذاك وقد شارك المؤرخ اينهارد Einhard فى كتابة تاريخ "حياة شارلمان" The Life of Charlemagne اولئك الحجاج فى ذكر جهود شارلمان فى تشجيع حركة الحج المسيحية فى أواخر القرن الثامن الميلادى / أواخر القرن الهجرى، كما تحدث المؤرخ فولشيير اوف شارتر Fulcher of Chartres فى كتابة "تاريخ الحملات إلى بيت المقدس" A History of Expedition to Jerusalem بنوع من المبالغة عن المضايقات التى كان يتعرض لها أولئك الحجاج فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر الميلاديين/ أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين. وفضلاً عن انه رسم صورة واضحة لأحوال المشرق الإسلامى عند مجئ الصليبيين إليه، وتتبع تأسيس الصليبيين لاماراتهم الأربع فى الشرق، لكن يؤخذ على هذا المؤرخ

أنه بالرغم من أن مؤلفة ينتهى بأحداث عام ١١٢٧م/ ٥٢١هـ، وبالرغم من أنه كان معاصرًا لتأسيس النواة الأولى لجماعة فرسان الداوية الا أنه لم يشر إلى ذلك على الاطلاق. ولعل ذلك يرجع إلى أن جماعة تلك الفترة لم تكن ذات صيت شائع آنذاك وعلى هذا تجاهل فوشير ذكر أى شئ عنها.

هذا عن المصادر الاجنبية من وثائق ومراسلات ومؤلفات لكتاب لاتين وبيزنطيين وأرمن عاصروا أحداث الفترة موضوع البحث أوكانوا على مقربة من مسرحها أو متأخرين عنها. أما عن المصادر العربية فيأتى كتاب ابن القلانس[1] ذيل تاريخ دمشق فى مقدمتها، وقد أفادنا فى كثير من النواحى، منها ما ذكره عن أحوال الشرق الادنى الاسلامى قبيل مجئ الصليبيين، وحقيقة المضايقات التى تعرض لها الحجاج المسيحيين قبل تكوين جماعة الفرسان الداوية. هذا بالاضافة إلى تصويرة الدقيق لاحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى/ النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى وقيام الصليبيين والبيزنطيين بمهاجمة مدينة بزاعة ومحاصرة قلعة شيزر عام ٥٢٢هـ /١١٣٨م.

كما أشار ابن القلانس للوقعة التى دارت بين حامية عسقلان والداوية فى عام ٥٣٥هـ/ ١١٤١م، ومهاجمة الصليبيين لعسقلان عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وقيام الداوية بالقبض على نصر بن الوزير الفاطمى عباس وتسليمه لطلائع بن رزيك عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. كما سجل الوقعة

---

(1) ابن القلانس: دمشقى الاصل وأقدم من كتبوا التاريخ المحلى لبلاد الشام، وقد خص بحولياته احداث دمشق واستكمل كتابة الهلال الصابى عن تاريخ دمشق والذى تنتهى احداثة بعام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م. وقد توفىعام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م.

انظر: عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخين العرب الاسكندرية ١٩٦٧، ص١٦٠.

التى قامت بينهم وبين نور الدين فى العام نفسه وقد نقل ابن الأثير[1] . عن ابن القلانسى فيما يتعلق بالأحداث السابقة، وزاد عليها بتوضيح موقف الداوية من الامير الارمينى ثورس والصراع بينهما عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م. كما أشار إلى هجوم صلاح الدين على قلعة الداوية فى غزة عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وعلى قلعتهم فى عسقلان عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م وتحدث عن هزيمة صلاح الدين فى موقعة الرملة في نفس العام، وبين أسباب هزيمته. كما أشار إلى قيام الداوية ببناء قلعة لهم فى بيت جبريل عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وانتصار صلاح الدين عليهم فى موقعة مرج عيون، وقيامه بتحطيم قلعة بيت جبريل فى العام التالى. وتحدث ابن الاثير عن هزيمة الداوية فى موقعتى صفورية وحطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ، وقيام صلاح الدين بقتل أسراهم فيما عدا مقدمهم جيرارد ريد فورد، واستيلائه على قلاعهم. كما أشار إلى دور الداوية فى حصار مدينة عكا، ومطالبة صلاح الدين لهم بضمان عودة الاسرى المسلمين إليه بعد استيلاء الصليبيين على مدينة عكا، ورفض الداوية تقديم هذا الضمان.

وبالنسبة لعلاقة صلاح الدين بالداوية، فقد اعتمدنا على ثلاثة مصادر أساسية منها كتاب "الفتح القسى فى الفتح القدسى" للعماد الاصفهانى[2] والذى يغلب عليه طابع الأدب، لكنه يعتبر سجلاً حافلاً

---

[1] ابن الاثير: ولد عام ٥٥٥هـ/١١٦١م فى جزيرة ابن عمر ونشأ بها، ثم أنتقل إلى مدينة الموصل وله مؤلفات عديده منها "الكامل فى التاريخ"، وكتاب "الباهر فى الدولة الأتابكية". والمعروف أنه توفى فى عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، ويذكر ابن دقماق أنه توفى عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م،
انظر: ابن دقمان: نزهة الانام فى تاريخ الاسلام (مخطوط) لوحة ٤٣ (أ)، وعن ابن الأثير انظر: عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص١٠٣.

[2] ولد بأصفهان فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م، وأمضى أيام طفولته بها حيث تعلم القرآن والأدب. وفى سنة ٥٣٤هـ/١١٤٠م رحل إلى بغداد ليتعلم على يد علمائها، ثم رحل إلى الشام فى سنة=

لاعمال صلاح الدين. وقد أفادنا في مواضع عديده، منها على سبيل المثال أشارته إلى انتصار السفن الصليبية ومن بينها سفن الداوية على السفن الإسلامية عند مدينة صور في شوال ٥٨٣هـ/ ديسمبر ١١٨٧م. هذا بالاضافة إلى رواياته التي تكشف موقف صلاح الدين من الداوية. وهناك أيضًا كتاب "النوادر والسلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد[1] . وأهم ما يتميز به هذا الكتاب أن صاحبه قد دون الاحداث دون افتعال، وعبر عن الحقائق دون تحيز، لكنه أخطأ عندما ذكر أن صلاح الدين قام بقتل جميع أسرى الداوية بعد موقعة حطين بما فيهم مقدمهم جيرارد ريدفورد.

أما الكتاب الثالث فهو "سنا البرق الشامي" لقوام الدين البندارى، الذى ألفه وأهداه إلى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م. وعلى الرغم من ورود معظم أحداثه مختصرة فى كتاب "الروضتين" لأبى شامة، والفتح القسى للعماد، إلا أنه أضاف إليها بالحديث عن التفاصيل الدقيقة لأحداث استيلاء صلاح الدين على قلعة بيت جبريل التابعة للداوية عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م.

وهناك أيضًا كتاب "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لابن واصل[2]، الذى يعتبر أهم مصدر أرخ للدولة الأيوبية كلها منذ نشأتها حتى

=٥٦٢هـ/ ١١٦٧م. ودرس بالمدرسة النورية بدمشق، وهناك اتصل بالملك نور الدين محمود ابن زنكى، لرتبة كاتبًا فى ديوان الانشاء. وبعد وفاة نور الدين دخل فى خدمة صلاح الدين.وقد توفى فى عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، انظر: الاصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٣-٢٨.

[1] التحق بخدمة صلاح الدين بعد عودته من الحج عام ٥٤٨هـ/ ١١٨٨م، وأصبح من أخص أصحابه وأقربهم منزلة إليه، حتى عينه قاضيًا للجيش. وقد توفى فى عام ٦٣٢هـ/ ١٢٢٤م، انظر: ابن شداد:النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤، ص١-٧.

[2] ولد ابن واصل فى عام ٦٠٤هـ/١٢٠٨م، وموطنه الأصلى هو مدينة حماه، ولكنه طاف بلدان الشرق الأدنى الإسلامى، وأقام فى مصر سنوات طويلة فى عهد الصالح نجم الدين أيوب،=

سقوطها، وقد انفرد بذكر أن صلاح الدين قد قام بالهجوم على قلعة بيت جبريل ثلاث مرات خلال عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م. كما انفرد بذكر رواية خروج الداوية من قلعة صفد أثناء حصار صلاح الدين لها في رمضان ٥٨٤هـ/ أكتوبر ١١٨٨م لإحضار بعض الأقوات والذخائر بعد نفاذ المؤن عندهم، ونجاح المسلمين في اكتشاف خدعتهم والقبض عليهم. هذا بالإضافة إلى الأحداث الأخرى التي تناولت علاقة صلاح الدين بالداوية حتى موته في عام ١١٩٣م/٥٨٩هـ.

ومن المصادر الهامة أيضا كتاب "الاعتبار" لأسامه بن منقذ[1] الذى أفاد البحث في الحديث عن هجوم الصليبيين على قلعة شيزر عام ١١٣٨م/ ٥٣٢هـ وعن قبض الداوية على نصر الذى قتل الخليفة الفاطمى الظافر (١١٤٩-١١٥٤م/ ٥٤٤-٥٥٤هـ) كما ذكر أن الداوية الذى أطلق عليهم لقب "أصدقائي" كانوا يختلفون في طباعهم عن الفرنج حديثى العهد في منطقة الشرق الأدنى.

ويجب ألا نغفل في هذا الصدد كتابين أمدا البحث بمعلومات غزيرة

=وشهد الحملة الصليبية السابعة، واحتضار الدولة الأيوبية، وقد توفى في عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، انظر: ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الإسكندرية ١٩٥٣، ص٤.

[1] ولد في عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، وتعلم الفروسية والشعر والادب، وقضى معظم شبابه في البلاط النورى في دمشق. وفي قصر الخليفة الفاطمى في مصر، زار بيت المقدس عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ. وله عدة مؤلفات منها "البديع في البديع"، "تاريخ القلاع والحصون"، "ازهار الأنهار"، "التاريخ البلدى"، "نصيحة اسامه"، "كتاب النوم والاحلام"، "كتاب المنازل والاديار"، "كتاب لباب الآداب"، "وكتاب الاعتبار" وقد توفى في عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، انظر: أسامه بن منقذ: الاعتبار، ترجمة فيليب حتى، الولايات المتحدة الامريكية برنستون ١٩٢٠، ص أ-ش ش.

ونعنى بهما كتاب "مرآة الزمان" لسبط بن الجوزى[1] وكتاب الروضتين لأبى شامة. ومن المصادر العربية الأخرى العديدة التى اعتمدنا عليها وأفدنا منها "أخبار مصر" لابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، "وفيات الاعيان" لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) و"كنز الدرر"، "درر التيجان" لابن أيبك (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، و"نهاية الأرب" للنويرى الكندى (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) و "نثر الجمان" للفيومى (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، و"المختصر" لابى الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، و "نزهة الانام" و "الجوهر الثمين" لابن دقمان (ت٨٠٩هـ/١٤٠٠م)، وكتاب "السلوك" للمقريزى (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)، و"عقد الجمان" للعينى (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، و"النجوم الزاهرة" لأبى المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، و "حسن المحاضرة" للسيوطى (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، و"النزهة الزاهية" لابن أبى السرور (ت١٠٢٨هـ/١٦١٩م)، و"تاريخ الدول والملوك" لابن بهادر (عاش فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى). هذا بالإضافة إلى كتب الرحالة والجغرافيين، ونذكر منهم "رحلة بنيامين التطيللى" (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) و "سفرنامه" لناصر خسرو، و "تقويم البلدان" لأبى الفدا، و"معجم البلدان" لياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

أما عن المراجع الثانوية الأجنبية من كتب المؤرخين الحديثيين فأهمهم

---

[1] الكتاب باجزائه لازال مخطوطًا، أما الجزء الذى أعتمدت عليه فهو الجزء الثامن، وهو نسخة مصورة من المخطوط وتوجد بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ١٨٧٨ب، وعدد صفحاتها ٢٩٠ من الحجم الكبير، والمخطوط عبارة عن سجل للتاريخ يبدأ منذ بدء الخليقة، وينتهى فى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م أى نفس السنة التى توفى فيها المؤلف، انظر: ابن الجوزى: مرآه الزمان، جزء ٨، ورقة ٥٢٨.

ما كتب عن جماعة الفرسان الداوية لكل من فينك Fink، وشوتمولير Shottmuller، وجملين Gmelin، وويلك Wilck، وهوفرمان Hoverman، وشوبفيرلنج Schupferling، ودويتشلاند Deutshland، وشاربنتييه Charpentier، وبيرنو Pernoud، وليزراند Lizernad، وكورزون Curzon، ودليسل Delisle، وملفيل Melville، واديسون Addison، وأدوارد Edward، هذا فضلاً عن المراجع الأخرى التي تحدثت عن الحملات الصليبية بصفة عامة وأشارت إلى دور الداوية في ثنايا ما أوردته عن الصراع بين الصليبيين والمسلمين، ومن أهم تلك المراجع ما كتبة رانسيمان Runciman، ورنيه جروسية R.Grousset، وميشو Michaud، ورهرشت Rohricht، وكلود كاهن C.Cahen، وبابير Baber، وبوز Boase، وكينج King، وماير Mayer، وهنرى تريس H.Treece، وأومان Oman، ونيكتا اليسيف Nikitta Elisseff، وأستروجروسكى Ostrogrosky، وفازيلييف Vasiliev، وديلافيل ليرو D. Le Roulx، ولاكروا Lacroix، وسيتون Setton، وسميل Smail، وفينر Viener.

كل هذه المراجع تتحدث عن نشأة الجماعة وتطورها ونظامها الديني، ولكنها مرت مرور الكرام على طبيعة العلاقات التى قامت بينها وبين مسلمى الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية بعامة، وإبان الفترة الزمنية موضوع البحث بصفة خاصة.

الفصل الأول

حركة الحج المسيحية إلى الأراضى المقدسة وأثرها فى قيام جماعة الفرسان الداوية

١-تطور حركة الحج من الغرب اللاتينى إلى الأراضى المقدسة من القرن الثالث حتى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى).

٢-أحوال الشرق الأدنى الإسلامى قبيل مجىء الصليبيين.

٣-أحوال الصليبيين فى المشرق الإسلامى.

٤-موقف الحجاج الغربيين من الصراع الصليبى الإسلامى، وأثر ذلك على نشأة جماعة الفرسان الداوية فى الأراضى المقدسة.

يشير بعض المؤرخين الغربيين الذين اهتموا بتاريخ الحروب الصليبية إلى أن الهدف الأساسي الذى تكونت من أجله جماعة الفرسان الداوية هو حماية الحجاج المسيحيين الغربيين عبر الطرق المؤدية إلى مدينة بيت المقدس، والأماكن المقدسة الأخرى، ويرجعون تأسيس هذه الجماعة إلى تطور حركة الحج من الغرب اللاتيني إلى الأراضي المقدسة منذ فجر المسيحية وحتى قيام الحركة الصليبية، فضلاً عن أحوال الصليبيين فى الشرق الأدنى الإسلامى فى أواخر القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجرى)[1] ولذا فمن الطبيعي قبل معالجة موضوع نشأة تلك الجماعة، تتبع التطور الذى طرأ على حركة الحج المسيحية عبر القرون المختلفة، والتعرف على أحوال الشرق الأدنى الإسلامي وقتذاك.

وبالنسبة لتطور حركة الحج يجب الإشارة أولاً إلى أن الدين الإسلامى أختلف عن الدين المسيحى فى مسألة الثواب الذى يناله الحاج لزيارته للأماكن المقدسة فلقد نص القرآن الكريم صراحة على القيام بالحج كفرض واجب الأداء على كل مسلم متى استطاع إليه سبيلا، وهناك العديد من الآيات القرآنية التى أشارت إلى هذا المعنى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2]

---

[1] عن نشأة جماعة فرسان الداوية انظر الفصل الأول من هذه الرسالة، ص٤٢.

[2] سورة آل عمران، آية ٩٦، ٩٧.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1] ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي﴾[2] .

هذا بعكس الدين المسيحى الذى لم ينص صراحه على الحج كفرض واجب الأداء على كل مسيحى، ولم يكن للحج علاقة بالمسيحية فى بادئ الأمر[3] ، وإن الفرد كان يقوم بزيارة الأماكن المقدسة فى بداية الأمر من تلقاء نفسه لتعقب آثار السيد المسيح والقديسين فى بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل وجبل الزيتون[4] اعتقادًا منه أنه بزيارته هذه الأماكن إنما يكفر عن آثامه وخطاياه ويقرب نفسه إلى الرب[5] .

أما عن التطور الذى طرأ على حركة الحج فى المسيحية فقد مر بعدة مراحل وظروف، ذلك أنه بعد ظهور الديانة الجديدة وانتشارها بسرعة فى الولايات الرومانية فى وقت كانت فيه الدولة الرومانية لاتزال قائمة، ولم يكن التاريخ القديم قد طوى صفحته بعد، ظن الرومان فى بداية الأمر أن تلك الديانة ليست إلا فرقة من الديانة اليهودية لذا لم يتعرضوا للمسيحيين بأذى فى تلك الفترة المبكرة ولكن عندما أدرك الرومان الفرق بين هاتين الديانتين، وأن الديانة الجديدة تدعوا إلى وحدانية الله دون عبادة الاباطرة. تغيرت نظرتهم للمسيحيين واعتبروهم فئة هدامة تهدد أوضاع الإمبراطورية

---

(1) سورة البقرة، آية١٩٦.

(2) سورة البقرة، آية ١٩٧.

(3) Runciman, S., A History of the Crusades, London, 1950, I, PP. 39-40.

(4) Bordeaux, Itinerary from Bordeaux. to Jerusalem, P.P.T.S., vol. I, part 2, London, 1887, PP. 1-3.

(5) Runciman, Op. Cit., P. 44.

الرومانية وسلامتها[1] ، وأن المسيحية تشكل دولة داخل الدولة، وتعتبر منافسًا خطيرًا لسلطة الامبراطور وتهديدًا مباشرًا لوحدة الامبراطورية التى كان يرمز لها آنذاك بعبارة "السلام الروماني" Pax Romana.

لذا بدأ الرومان يضطهدون المسيحيين خاصة فى عهد نيرون فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وبلغ هذا الاضطهاد أشده فى عهد دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذى عرف باسم "عهد الاضطهاد الأعظم"[2] . هذا بالإضافة إلى الوسائل التى لجأ إليها أباطرة روما لمنع المسيحيين من الذهاب إلى الأراضى المقدسة. وفى ظل هذه الاوضاع لم يكن طبيعيًا أن تنمو حركة الحج فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ المسيحية. ولكن بعد أن أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥-٣٣٧م) مرسوم ميلان عام ٣١٣م، واعترف بالديانة المسيحية كإحدى الديانات المصرح باعتناقها داخل الإمبراطورية الرومانية، وبعد عثور أمه هيلينا Helena على موضع الجلجثة Galgala ذلك المكان الذى وجدت فيه الأدوات التى يعتقد أنها استخدمت فى تعذيب السيد المسيح، وهى الصليب وتاج الشوك والمسامير، والحربة، وقطعة الإسفنج[3] ، وبعد قيام ابنها قسطنطين ببناء كنيسة كبيرة فى بيت المقدس فى الفترة الواقعة بين عامى ٣٢٦و ٣٣٥ عرفت باسم كنيسة القيامة أو الضريح المقدس، والتى أصبحت قبلة الحجاج

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور:أوربا العصور الوسطى، الطبعة الرابعة،القاهرة ١٩٦٦، ج١، ص٤٩-٥٢.

(2) Eusebius, Churches of Constantine at Jerusalem, Cf. P.P.T.S., Vol. I, Part I, London, 1891, P. 4.

(3) Willibald, The Hodaeparicon. of Willibald, Cf. P.P.T.S., Vol. III, Part 2, London, 1891, PP. 18-19, Saewulf, The Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the.Holy Land, cf. P.P.T.S., Vol., IV,Part 2, London, 1892, P. 9.

المسيحيين فيما بعد[1] .

وبعد كل هذا وذاك بدأ المسيحيون يتجهون إلى الشرق لزيارة الاماكن المقدسة حصولا على مرضاة الله. وتعتبر رحلة بوردو Bordeaux أول رحلة مدونة لحاج مسيحى على الرغم من أنها تمت قبل أن يكتمل بناء كنيسة القيامة ببضع سنوات[٢] . ثم تبعتها رحلات فردية أخرى لبعض الحجاج المسيحيين. ففى عام ٣٨٥م قامت سيدة تدعى سيلفيا الاقطانية Silivia Aquitania[٣] بزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق. وفى نهاية القرن الرابع الميلادى استمرت رحلات الحجاج المسيحيين الفردية لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق.

فقام القديس جيروم St. Jérome[٤] بزيارة الأماكن وقتذاك، كما

---

[1] Eusebius, op. Cit., P. 22.

[٢] بدأ الحاج المسيحى المسمى بوردو رحلته لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق عام ٣٣٣م من موانى ايطاليا، وابحر إلى القسطنطينية، ثم عبر إلى آسيا الصغرى واتجه إلى الشام عن هذه الرحلة انظر:

Bordeaux, Itincrary,PP. 1-9, 36.

[٣] سيلفيا الاقطانية: من أسرة فرنسية نبيلة، اعتنقت المسيحية ورأت ضرورة زيارة الأماكن المقدسة التى عاش فيها السيد المسيح، فأبحرت من غالة عام ٣٨٥م إلى القسطنطينية ومنها إلى الشام عبر آسيا الصغرى حيث قامت بزيارة تلك الأماكن. عن هذه الرحلة انظر:

Silivia, The Pilgrimage of Silivia of Aquitania to The Holy Places, cf. P.P.T.S., Vol. I, Part 3, London, 1891, PP.1-12.

[٤] القديس جيروم: من أسرة نبيلة كانت تقطن حدود دلماشيا (ألبانيا الحالية) سافر إلى روما حيث درس النحو والشعر الوثنى كما درس الفلسفة، وفى عام ٣٦٠م اعتنق المسيحية، وإليه يرجع الفضل فى أنه أخرج للغرب الأوربى النص اللاتينى للكتاب المقدس المعروف باسم فولجاتا Volgata وقد زار جيروم مصر وأمضى سنين حياته الأخيرة فى فلسطين حيث توفى عام ٤٢٠م ودفن فى مدينة بيت لحم. وعن رحلة جيروم وحياته انظر:

St. Jérome, The Pilgrimage of the Holy Paula, cf. P.P.T.S., Vol. I, Part 5, London, 1887, PP.3-15, Fetellus, Description of the Holy Land, cf. P.P.T.S., Vol., V, Part, I, London, 1892, P. 36.

قامت فتاة رومانية تدعى باولا Paula[1] بنفس الرحلة وتركت وصفا دقيقًا للاماكن والاديرة التى زارتها فى الشرق. ويلاحظ أن كلا من القديس جيروم وباولا قد سلكا الطريق البحرى فى رحلتهما إلى الشرق بعكس من سبقوهم والذين سلكوا الطريق البرى من القسطنطينية إلى الشام عبر آسيا الصغرى.

وفى ضوء ما سبق يتضح أن حركة الحج المسيحية بدأت بصورة فعلية فى القرن الرابع الميلادى بعد الاعتراف بالديانة الجديدة وبعد أن توقفت حركة الاضطهادات الرومانية التى شغلت القرون الثلاثة الاولى من المسيحية. وكانت الحركة فى بداية الأمر عبارة عن رحلات فردية شارك فيها الرجال والنساء باعداد قليلة وذلك على الرغم من صعوبة ومشقة الطريق من الغرب الأوربى إلى الاراضى المقدسة فى المشرق وقتذاك[2] وقد سلك هؤلاء الحجاج طريقين: احدهما برى من القسطنطينية إلى الشام عبر آسيا الصغرى، والآخر بحرى من موانى أوربا إلى ساحل الشام. واستتبع حركة الحج المسيحية إلى الأراضى المقدسة الاهتمام الزائد الذى أولاه المسيحيون لجمع أثار الرسل والقديسين، وتبجيل هذه الاثار إلى حد أن أحد رجال الدين المسيحى ذكر أنه يمكن الحصول على مساعدة الرب عند الدعاء بالقرب من مقابر هؤلاء الأبرار، وعلى هذا بدأ الغرب يهتم اهتمامًا

---

[1] تعتبر باولا أول فتاة رومانية تقوم بزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق وتنتمى إلى أسرة رومانية عريقة فى غاية الثراء، وقد قامت برحلتها لزيارة الشرق عام ٣٨٢م وظلت باولا فى فلسطين حتى توفيت ودفنت فى مدينة بيت لحم وعن رحلتها انظر:

St. Jérome, The Pilgrimage, PP. 1-3; John of Wurzburg, Description of the Holy Land, cf. P.P.T.S., Vol V., Part, 2, London, 1890, p. 55.

[2] St. Jérome, Op. Cit., P. 3.

بالغًا بالشرق باعتباره مهبط الوحي والأديان ومهد الفلسفة والعلم والمعرفة[1].

وفي خلال القرن الخامس الميلادى تطورت حركة الحج المسيحية وبدأت تتخذ شكل المجموعات الصغيرة[2]. ففي عام ٤٤٠م قام الاسقف يوسريوس Eusherius بالحج إلى الأراضى المقدسة، واصطحب معه أربعة من الحجاج المسيحيين الغربيين[3]، ثم بدأت الحركة تضعف في النصف الثاني من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الميلاديين نتيجة للأحوال المضطربة في الغرب الأوربي بسبب ظهور الوندال Vandals[4] واستيلائهم على ولاية شمال افريقية، وقيامهم بالاغارة على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا[5] وعلى هذا فلم تعد البحار آمنه للسفن التى تحمل الحجاج المسيحيين[6] فضلا عن قيام الصراع بين البيزنطيين والفرس الذين استولوا على أنطاكية[7] فاصبح الطريق البرى غير مأمون هو الآخر.

---

(1) Theodosius, The Topography of the Holy Land, cf. P.P.T.S., Vol., II, Part, 3, London, 1893,P. 13.

(2) Runciman, A History, I, PP. 40- 41.

(3) Eusherius, Description of. Jerusalem, cf., P.P.T.S., Vol., II, Part, 3, London, 1893, P. 13.

(4) الواندال. أحد الشعوب الجرمانية الذين قاوموا القوط الغربيين في اسبانيا طوال اربعة عشرة عامًا، واضطروا بعدها إلى الاتجاه إلى شمال افريقية عام ٤٢٩م تحت زعامة ملكهم جيزريك Gaiseric الذى نجح في الاستيلاء على البلاد الواقعة من طنجة حتى طرابلس الغرب كما سقطت قرطاجنة في أيديهم عام ٤٣٩م. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Painter, S., A History of the middle Ages : 284- 1500 London, 1966, PP. 25- 26, 33; Lamont,J. the World of the, Middle Ages, New York, 1919, PP. 43-44, 49, 54.

(5) Procopius, Buildings of Justinian, cf., P.P.T.S., Vol, II, Part 4, London, 1889,P.33.

(6) Runciman, A History, I, P. 42.

(7) Procopius, Building, P. 132.

وبعد أن انتصر بلزاريوس-قائد جيش جستنيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م) على الواندال عام ٥٣٣م وقضى بذلك على خطرهم[١]، انتعشت حركة الحج المسيحية من جديد، وقام انطونيوس الشهيد Antoninus Martyr بالحج إلى الاراضى المقدسة عام ٥٧٠م وصحبه عدد قليل من الحجاج المسيحيين، وقد سلكوا الطريق البحرى خلال هذه الرحلة[٢].

ثم عادت الحركة وضعفت مرة أخرى بسبب استيلاء الفرس على مدينة بيت المقدس عام ٦١٤م وتعرضهم للأبنية المقدسة داخل المدينة حيث الحقوا بعضها التخريب والدمار، وقد احدث هذا رد فعل عنيف فى العالم المسيحى وقتذاك[٣] فخاض الإمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ - ٦٤٠م) حربًا شبه مقدسة ضد الفرس في الفترة من عام ٦٢٢م حتى عام ٦٢٧م (١- ٦هـ)[٤] انتهت بعقد الصلح بين البيزنطيين والفرس بعد أن نجح الإمبراطور هرقل في استعادة مدينة بيت المقدس.

وفى تلك الفترة قامت الدولة العربية الفتية لتؤدى دورها على مسرح الأحداث. وتمكن المسلمون من فتح مدينة بيت المقدس عام ٦٣٨م (١٧هـ) فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) بعد أن أمنوا

---

(1) Procopius, Vandal War, cf., Asource. book for Medieval History, tran. by Thatcher & Mcneal, New york, 1950, PP. 11-12.

(2) Antoinus Martyr, The Holy Places Visited, cf., P.P.T.S., Vol., II, Part, 2, London, 1887, PP. 1-4.

(3) Le Roux, D., Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre (1100 - 1310), Paris, 1904, p. 5; King, E.J., The Knights Hospitallers in The Holy Land, London, 1931, pp. 5 -6.

(4) Runciman, A History, I, p. 11.

المسيحيين علـى أرواحهـم[1] وممتلكـاتهم بشـهادة المؤرخين الغربيـين أنفسـهم[2] وعادت مدينة بيت المقدس تستقبل الحجـاج المسيحيين مـرة أخـرى. ففـى عـام ٦٧٠م/ ٥٠هـ قام الحاج المسيحي أركولف Arculfus بزيارة الأمـاكن المقدسـة في الشرق واصطحب معه عددًا من الحجاج الفرنسيين[3].

ولكن سرعان ما ضعفت الحركة مرة أخرى في العقد الأخير مـن القـرن السابع، والنصف الأول من القرن الثامن الميلادى (أواخر القرن الأول والنصـف الأول من القرن الثانى الهجرى) بسبب ظهور الخطر اللمباردى[4].

وعادت الحركة من جديد بعد تدهور دولـة اللمبـارديين ولكـن بصـورة أكبر مما كانت عليه من ذى قبل، حيث بدأت تتخـذ شـكل المجموعـات الكبـيرة، ففـى عـام ٧٥٤م/ ١٣٧هـ قـام ويلبولـد Willibald[5] بـالحج إلى الأراضـى المقدسة، وقد اصطحب معه عددًا كبيرًا من الحجاج المسيحيين. وأهم مـا يلفـت الانتباه فى هذه الرحلة هو خـروج عـدد كبـير مـن أهـالى إنجلـترا لتوديـع هـؤلاء

---

(1) البلاذرى : فتوح البلدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، ص١٤٥.

(2) Le Roux, Les Hospitaliers, pp. 5 - 6; Runciman, A History, I, p. 44; King, Hospitallers, p.6;Addison,C.H.G., The Knights Templars, London, 1842, p.2.

(3) الحاج المسيحى أركولف : من أصل فينيسى زا الأماكن المقدسة حيث مكث فى مدينة بيت المقدس تسعة أشهر، ثم اتجه إلى الإسكندرية ومكث بها أربعين يومًا ومنها اتجه إلى القسطنطينية، ثم عاد إلى بلاده. عن هذه الرحلة انظر :

Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land, cf., P.P.T.S., vol. III, Part I, London, 1889, pp. 1-15.

(4) Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe, New York, 1960, p.118.

وأيضًا : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، ج١، ص١٧١.

(5) يعتبر ويلبولد أول حاج مسيحى إنجليزى يقوم بزيارة الأراضى المقدسة، وكان يشغل منصب أسقف مدينة أيخستات Eichastadt بإنجلترا، وعن رحلته انظر :

Willibald, Hodaeparicon, pp. 1 - 31.

الحجاج وخروج الأهالى مرة أخرى لاستقبالهم عند عودتهم من الرحلة[1]، مما يدل على أن فكرة الحج إلى الأراضى المقدسة قد رسخت فى عقول المسيحيين بعد أن كان الفرد يقوم بها فى أول الأمر من تلقاء نفسه ابتغاء لرضاء الرب، وغفرانًا لخطاياه. كما ساعد على نمو هذه الفكرة عند المسيحيين فى تلك الفترة الأساطير والأحاديث المبالغ فيها التى كان يرويها الحجاج المسيحيون عن المغامرات التى واجهتهم أثناء رحلاتهم إلى الأراضى المقدسة. ولذا كان هؤلاء الحجاج أكبر دعاة لحركة الحج المسيحية، هذا بالإضافة إلى تشجيع السلطات ورجال الدين فى الغربى الأوربى للمسيحيين وحثهم على التوجه إلى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة.

وقد أدى كل ذلك إلى انتعاش حركة الحج، وزاد عدد الحجاج المسيحيين بصورة كبيرة لدرجة أن الكنائس الشرقية أصبحت غير قادرة على استيعابهم وإيوائهم، ويتضح ذلك من خلال الخطاب الذى أرسله القديس بندكت St. Benedict إلى الإمبراطور شارلمان Charlemagne (٨٠٠-٨٠٤م/ ١٨٤ - ١٩٩هـ)، يشكو فيه الرهبان الموجودين فى كنيسة بيت لحم بأنهم طردوا بعض الحجاج المسيحيين من الكنيسة فى ليلة عيد الميلاد بسبب كثرة عددهم[2] مما جعل الحكام الغربيين يهتمون اهتمامًا بالغًا بتنظيم حركة الحج. فيذكر المؤرخ اينهارد Einhard أن الإمبراطور شارلمان اهتم بالأماكن المقدسة فى الشرق، وكان يوصى بعض رجال الدين المسيحى بالإشراف على ترميم وإصلاح منشآت تلك الأماكن، وكان يمدهم بالأموال اللازمة لهذا

---

(1) Willibald, Hodaeparicon, pp. 4, 32.

(2) Letter from St. Bendict to Charlemagne, Cf. Archer, The Crusades, London, 1919, p. 10.

الفرض. بالإضافة إلى أنه كان يتابع عمليات الإصلاح والترميم عن طريق إرسال مندوبين من قبله[1].

كذلك قام شارلمان ببناء العديد من المؤسسات والنزل لإيواء الحجاج فى أماكن متفرقة على الطرق البرية المؤدية إلى بيت المقدس[2]. ويذكر اينهارد أن شارلمان استغل حالة النزاع القائمة بين المسلمين والبيزنطيين، وتقرب إلى خليفة المسلمين فى تلك الفترة وهو الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م). وتذكر الرواية أن شارلمان طلب أن يمنحه الخليفة حق رعاية المسيحيين فى الشرق، وأن الخليفة أجابه إلى طلبه، كما منحه ملكية القبر المقدس[3].

ولكن هذه الرواية التى أوردها اينهارد يجب أن تؤخذ بشىء من الحذر والحيطة، خاصة وأن المصادر العربية لم تشر إلى تبادل السفارات بين عاهل الغرب وبين هارون الرشيد بكلمة واحدة[4].

وعلى أية حال، سواء كانت هذه الرواية صادقة أو غير صحيحة، فمما لاشك فيه أنها تدل على اهتمام الحكام الغربيين وعلى رأسهم الإمبراطور الجرمانى بحركة الحج المسيحية.

ولكن ما لبثت أن ضعفت حركة الحج بعد ذلك الاهتمام بسبب اضطراب الأحوال فى الشرق والغرب على السواء. إذ قامت الحروب الأهلية بين أولاد شارلمان بعد موته، أما فى الشرق فقد ثار الصراع بين العباسيين

---

(1) Einhard, The Life of Charlemagne, University of Michigan Press, U.S.A., 1960, p.44.

(2) Bernard, The Itinerary of Bernard the Wise, cf. P.P.T.S., vol. III, part 3, London, 1891, pp. 14, 17.

(3) Einhard, The Life, pp. 56 - 60.

(٤) لايزال هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث.

والبيزنطيين. وعلى هذا أصبحت طرق الحجاج غير آمنة خلال الشطر الأكبر من القرن التاسع الميلادى (معظم القرن الثالث الهجرى).

ثم نشطت حركة الحج مرة أخرى لاسيما بعد أن هدأت الأمور فى الغرب الأوربى، إلى حد ما بعد عقد معاهدة فردان عام ٨٤٣م/ ٢٢٩هـ[١]. ولذا قام الحاج برنارد Bernard بزيارة الأماكن المقدسة عام ٨٧٠م/ ٢٥٧هـ، وصحبه اثنان من الحجاج المسيحيين هما ثيودمندس Theudemundus وستيفن Stephen ، وقد سلك الجميع الطريق البحرى خلال رحلتهم من الغرب الأوربى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق[٢].

أما فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)، فقد انتعشت حركة الحج المسيحية بصورة كبيرة. ويرجع ذلك إلى استقرار الأحوال فى الغرب الأوربى وتجديد الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد الإمبراطور أوتو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣م/ ٣٢٥ - ٣٦٣هـ)[٣]، وإلى تسامح السلطات الإسلامية سواء كانت عباسية أو إخشيدية أو فاطمية تجاه الحجاج المسيحيين الذين جاءوا لزيارة الأماكن المقدسة. هذا بالإضافة إلى أن حركة الحج قد أخذت فى التمكن من نفوس المسيحيين عبر القرون السابقة. فمدينة بيت المقدس كان لها مكانة عظيمة فى نفوسهم، خاصة وأنهم يعتقدون أن المسيح قد قدّسها بمولده فيها والإقامة بها، وأن الحجاج المسيحيين كانوا يشعرون بمتعة كبيرة عند رؤيتهم لهذه الأماكن التى كانت تثير فيهم كوامن النفس كما يقول المؤرخ ستيفن رانسيمان[٤]، كما أن بُعد المسافة بين الممالك المسيحية والأراضى المقدسة لم يعد

(1) Annals Bertiniani, Cf. A Source Book of Medieval History, pp. 62 - 63.
(2) Bernard, The Itinerary, pp. 5 - 15.
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، ج١، ص٣٠٥.
(4) Runciamn, A History, pp. 44 - 45.

حائلاً دون القيام برحلات الحج فى تلك الفترة، بل كلما زادت المسافة بُعدًا، وكلما زادت مخاطر الطريق شدة؛ وكلما زادت المتاعب التى يواجهها الحاج فى الطريق ومنها الجوع والعطش وتشقق الأقدام والأيدى، والتعرض لحرارة الصيف وبرودة الشتاء، فضلاً عن الأمراض التى كانت تداهمه أثناء الطريق؛ كلما وجد فى ذلك راحة نفسية عميقة ومدعاة للاطمئنان فى غفران خطاياه وآثامه[1] .

وثمة عامل آخر ساعد على انتعاش حركة الحج فى تلك الفترة من الزمن. فقد ظهرت وقتذاك الجماعات الرهبانية، ومن بينها جماعة دير كلونى التى قامت بالإشراف على حركة الحج، وشيدت عدة مراكز لإيواء الحجاج عبر رحلتهم الطويلة[2] . ويضاف إلى ذلك تشجيع الحكام ورجال الدين فى الغرب الأوربى للمسيحيين، وحثهم على التوجه لزيارة الأماكن المقدسة. بل إن عددًا كبيرًا من رجال الدين قاموا بالحج. ففى عام ٩٢٠م/ ٣٠٨هـ، قام الأسقف الفرنسى أوليفولا Olivola بزيارة الأماكن المقدسة، وقد صحبه عدد كبير من الحجاج الفرنسيين. ثم أعقبه بعد ذلك عدد غير قليل من رؤساء الأديرة، منهم رئيس دير مونتييه Montier الفرنسى، ورئيس دير أوريلاك Aurillac الإنجليزى، ورئيس كل من دير ستافيلو Stavelot وفلافينى Flavigny الإيطاليين. ولقد اصطحب كل منهم خلال رحلته إلى الشرق عددًا كبيرًا من الحجاج الغربيين[3] .

وظلت الحركة قوية خلال القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى)، وإن كانت قد توقفت فترة قصيرة فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢٠م) الذى تعرض لبعض المبانى

---

(1) Runciman, A History, I, p. 45.
(2) Anonymus, Pilgrims, Cf. P.P.T.S., vol. VI, part I, London, 1894, p.3.
(3) nonymus, Op. Cit., pp. 9 - 23.

المقدسة فى بيت المقدس[1] ولكن سرعان ما عادت المدينة تستقبل الحجاج المسيحيين مرة أخرى[2] .

ومما ساعد على انتعاش الحركة فى خلال تلك الفترة ما حدث عام ١٠٧٠م/ ٤٦٢هـ عندما تأسست النواة الأولى لجماعة الفرسان الاسبتارية Hospitallers والتى يرجع تأسيسها إلى أن بعض التجار الأمالفيين أراد تشييد دار لإيواء وعلاج الحجاج المسيحيين، وتوفير سبل الراحة والعناية لهم داخل مدينة بيت المقدس، ولما كان هؤلا التجار على علاقة طيبة بالفاطميين -نظرًا للمعاملات التجارية بينهما- فقد أرسلوا إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٤٢٧- ٤٨٦هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٣م) طلبًا لمنحهم قطعة من الأرض فى المدينة المقدسة ليقيموا عليها تلك الدار، وقد استجاب الخليفة الفاطمى إلى طلبهم، ومنحهم قطعة من الأرض تقع فى مواجهة كنيسة القيامة حيث شيدوا تلك الدار[3] . وبذلك تكونت النواة الأولى لهذه الجماعة.

وفى خلال الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى (الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى) ضعفت حركة الحج نتيجة لاضطراب أحوال المشرق الأدنى الإسلامى الذى كان يخضع فى تلك الفترة لعديد من القوى، منها الخلافة العباسية فى بغداد، والسلاجقة فى آسيا الصغرى، والفاطميون فى مصر والشام، والبيزنطيون فى القسطنطينية. وقد أصاب الخلافة العباسية الضعف والانهيار بعد أن سيطر عليها البويهيون، ولكن بظهور الأتراك السلاجقة ومساندتهم

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة، تعليق وترجمة يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، ص٣٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة ١٢٩٩هـ، ج٣، ص٤٨.

(٢) Chroniques des St Martial نقلاً عن كتاب :

Le Roux, Les Hospitaliers, p. 9.

(3) am of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, New York, 1943, II, pp.242-243; Jacques de Vitry, History of Jerusalem, Cf. P.P.T.S., vol. XI, London, 1896, pp. 47 - 48.

للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ/ ١٠٣١- ١٠٧٤ - ١٠٧٥م) تمكن من التخلص من نفوذ البويهيين، وما لبث أن أصبح السلاجقة حماة الخلافة[١] بعد أن سيطروا على الخليفة العباسي نفسه[٢] وقد اتسعت دولة السلاجقة وشملت معظم آسيا الصغرى وأرمينية، وشمال العراق وحلب وبيت المقدس والرملة[٣]، ولكن بوفاة السلطان السلجوقي الأعظم ملكشاه (٤٦٤ - ٤٨٥هـ / ١٠٧١-١٠٩٢م) بدأت دولة السلاجقة في الضعف حيث قام صراع مرير بين أفراد الأسرة السلجوقية الحاكمة، وتفتت ملكهم إلى دويلات صغرى.

أما عن الخلافة الفاطمية فقد أصابها الضعف هي الأخرى نتيجة لتولي أمورها خلفاء ضعاف صغار السن، وتركزت السلطة الحقيقية في يد الوزراء[٤]، هذا، بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية التي كانت تعاني منها الخلافة آنذاك، وتعدد عناصر الجيش وانقسامهم، وقيام الصراع بينهم. وقد انعكست هذه الأحوال على السياسة الخارجية، وبدأت الخلافة الفاطمية تفقد بعض مدن الشام الواحدة تلو الأخرى. وعلى الرغم من محاولات الفاطميين استعادة تلك المدن إلا أنهم لم ينجحوا إلا في استعادة المدن الساحلية حتى مدينة جبيل[٥]. كما نجحوا في استعادة مدينة بيت المقدس عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م أثناء انشغال السلاجقة في الصراع مع الصليبيين في بداية الحملة الصليبية الأولى[٦].

---

[١] محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص٣٣.

[٢] محمد محمد مرسي الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٧٢، ص١٢-١٣.

[٣] ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨، ص٩٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ليدن ١٨٩٤، ج١٠، ص٣٦.

[٤] محمد محمد مرسي الشيخ : الجهاد المقدس، ص٤٣.

[٥] ابن ميسر : أخبار مصر، تحقيق هنري ماسيه، القاهرة ١٩١٩، ص٢٨.

[٦] ابن ميسر : أخبار مصر، ص٢٨.

أما عن الدولة البيزنطية فقد بدأت هي الأخرى تتعرض لهزات عنيفة ولاسيما الهزيمة الكبرى التى منى بها الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV (١٠٦٨ - ١٠٧١م/ ٤٦٠ - ٤٦٣هـ) فى موقعة ملاذكرد عام ١٠٧١م / ٤٦٤هـ على يد السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٩٥هـ / ١٠٣٦ - ١٠٧٢م)[١]. وفى الجانب الغربى فقد البيزنطيون مدينة بارى التى تعتبر آخر معاقلهم فى جنوب إيطاليا عام ١٠٧١م/ ٤٦٣هـ بعد أن استولى عليها روبرت جويسكارد زعيم النورمان[٢].

وعلى أية حال، فإن الهزائم المتتالية التى منيت بها الدولة البيزنطية فى الجبهتين الآسيوية والأوربية قد أضاعت من هيبتها، كما أن الحروب الكثيرة التى خاضتها قد أنهكت قواها.

وهكذا كان الشرق الأدنى الإسلامي منغمسًا فى الفتن والانقسامات السياسية والمذهبية، بينما كان الغرب الأوربى فى تلك الفترة يعد العدة لإرسال المحاربين الصليبيين إلى الشرق بعد أن ألقى البابا أربان الثانى Urban II (١٠٨٨- ١٠٩٩م/ ٤٨١ - ٤٩٢هـ) خطبته الشهيرة فى مؤتمر كليرمونت Clermont التى حث فيها المسيحيين على سرعة التوجه إلى الشرق[٣].

وفي ظل هذه الأوضاع استطاع الصليبيون تحقيق نصر منقطع النظير فى المنطقة خلال تلك الفترة مستغلين حالة الانقسام التى كان يعانى منها المسلمون

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥، وانظر أيضًا :
Vasiliev, A., Histoire de l'Empire Byzantin, Paris, 1932, I, pp. 467 - 470; Ostrogorsky, C., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, p. 304.

(2) Vasiliev, Op. Cit., I, p. 474.

(3) Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem (1095 - 1127), U.S.A., 1969, I, pp. 61- 69;

مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٥٨، ص١٨.

آنذاك، فقد نجح الأمير الصليبي بلدوين البولوني في الاستيلاء على مدينة الرها بعد مقتل أميرها ثورس Thoras الأرميني عام ١٠٩٨م/ ٤٩١هـ[١] وبذلك أقام الصليبيون أول إمارة صليبية لهم في المشرق الإسلامي[٢]، كما نجحوا في دخول مدينة أنطاكية يوم الجمعة ٣ يونية ١٠٩٨م/ ٢٨ جمادى الثاني ٤٩١هـ[٣] ليؤسسوا ثاني إمارة لهم في الشرق. وواصلوا تقدمهم حتى استولوا على مدينة بيت المقدس في ليلة الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٦م/ الحادى والعشرين من شعبان ٤٩٢هـ وقتلوا عددًا كبيرًا من المسلمين والمسيحيين الشرقيين واليهود داخل المدينة[٤] وقد جعلوا من بيت المقدس عاصمة لدولتهم الصليبية في قلب فلسطين.

وعلى الرغم من حالة الانقسام التى كان يعانى منها المسلمون وقتذاك، فإنهم لم يقفوا مكتوفى اليدين أمام هذا الغزو الصليبى، بل حاربوه بقدر ما سمحت به ظروفهم. ولكن نظرًا لتعدد القوى الإسلامية وضآلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٢٢، وأيضًا:

Alberti Aquensis, Historia Hierosolymitana, Cf. R.H.C. Occ., vol. IV, Paris, 1879, pp. 354 - 355.

(٢) Fulcher of Chartres, Op. Cit., I, pp. 91 - 92.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥ - ١٣٦؛ ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط)، ج٦، ورقة ٣١٨؛ بامخرمة: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، (مخطوط)، ج٣، ورقة ٤٩٦، وأيضًا:

Raimundi di Aguilers, Historia Francorum, Cf. R.H.C. Occ., vol. III, Paris, 1866, p. 253; Fulcher of Chartres, Op. Cit., I, p. 107.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦ - ١٣٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٩٣؛ العيني: عقد الجمان (مخطوط)، ج٢٠، قسم ٤، لوحة ٧٣٧؛ بامخرمة: قلادة النحر، ج٣، ورقة ٤٩٧؛ مؤلف مجهول: أعمال الفرنجة، ص١١٤ - ١١٨، وأيضًا:

Alberti Aquensis, Historia, p. 489; Raimunidi di Aguiler, Historia, p. 306; Annals de Terre Sainte, Cf. Archives de L'Orient Latin, Paris, 1884, vol. II, Part 2, p. 489; Fulcher of Chartres, A History, I, pp. 121 - 123.

إمكانياتها وانقسامها فى تلك الفترة وسوء تقدير بعضها لحقيقة الغزو الصليبى، لدرجة أن الفاطميين لم يفهموا النوايا الصليبية، بل رأوا فى الصليبيين خير نصير لهم ضد السلاجقة[١] ، ونظرًا لكل ذلك كانت جهود القوى الإسلامية ضد الصليبيين ضئيلة ومحدودة[٢] .

وكان من الطبيعى بعد أن سقطت مدينة بيت المقدس فى يد الصليبيين أن تنتعش حركة الحج المسيحية مرة أخرى. ولكن يلاحظ أن المشرق الإسلامى فى تلك الفترة أصبح ميدانًا للصراع، ومسرحًا للعمليات الحربية بين المسلمين أصحاب الأراضى والصليبيين الغزاة. ولذا كان من الطبيعى فى ظل هذه الأوضاع أن يتعرض الحجاج المسيحيون القادمون إلى المشرق للمضايقات من جانب المسلمين بل فى بعض الأحيان من جانب إخوانهم المسيحيين أيضًا. ويتضح ذلك عندما رفض المسيحيون فى بانياس إمداد الحجاج المسيحيين بالمؤن فى أوائل نوفمبر ١٠٩٩م/ ذى الحجة ٤٩٢هـ. لذا هلك عدد كبير من هؤلاء الحجاج نتيجة للجوع وقسوة المناخ[3] كما يلاحظ أن الحكام الصليبيين آنذاك بدأوا يعانون من مشكلة نقص المحاربين نتيجة لعودة أعداد كبيرة منهم إلى أوطانهم اعتقادًا منهم أنهم أوفوا بعهودهم بعد الاستيلاء على مدينة بيت المقدس[٤] . هذا، بالإضافة إلى موت البعض، ومرض وأسر البعض الآخر، لذا اكتفى الصليبيون بوضع حاميات صليبية فى المدن الرئيسية، أما الأراضى والقرى المحيطة بتلك المدن فقد ظلت فى يد المسلمين، مما جعل بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م/ ٤٩٤ - ٥١٢هـ) ملك بيت المقدس يضع خطته على أساس

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، ج١، ص٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : الجهاد المقدس، ص١٠٤.

(3) Fulcher of Chartres, A History, I, pp. 129 - 131.

(4) William of Tyre, A History, I, p. 398.

الاستيلاء على المدن الساحلية المواجهة لمملكة بيت المقدس، بهدف تأمين طرق الحجاج المسيحيين من جهة، وسهولة الاتصال بالغرب الأوربى من جهة أخرى[1]. كما عمل على استغلال وفود الحجاج المسيحيين القادمين إلى الشرق وإشراكهم معه فى صراعه مع المسلمين ففى ١٩ مايو ١١٠٢م/ ٢٨ رجب ٤٩٥هـ وصلت إلى ميناء يافا مائتى سفينة عليها عدد كبير من الحجاج الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين؛ واستطاعت هذه السفن اختراق الحصار البحرى الذى فرضه الأسطول الفاطمى حول المدينة فى تلك الفترة، كما نجح هؤلاء الحجاج فى دخول يافا وانضموا إلى قوات بلدوين الأول واستطاعوا إنزال الهزيمة بالجيش الفاطمى أمام يافا[2].

ولما كان هؤلاء المسيحيون قد اشتركوا مع الصليبيين فى محاربة المسلمين لذا كان طبيعيًا نتيجة للدور الذى لعبه هؤلاء الحجاج أن يتعرضوا بين الحين والآخر لعمليات التفتيش من قبل المسلمين فى تلك الفترة. ففى نهاية عام ١١٠٢م/ أوائل عام ٤٩٦هـ وفدت إلى الشرق مجموعة كبيرة من حجاج الشمال على رأسهم شخص يدعى سيولف Saewulf. وقد ذكر هؤلاء الحجاج أنهم تعرضوا للتفتيش من جانب المسلمين أثناء سيرهم إلى بيت المقدس[3].

وقد استمر الحجاج المسيحيون يساندون إخوانهم الصليبيين فى صراعهم مع المسلمين. ففى أبريل ١١٠٤م/ رجب ٤٩٧هـ، وصل إلى ميناء اللاذقية أسطول جنوى يتألف من سبعين سفينة عليها عدد كبير من الحجاج قاموا بمجرد وصولهم بمشاركة الصليبيين فى حصار مدينة طرابلس. وعندما

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا.. العصور الوسطى، ج١، ص٢٩٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٢٥٠، وأيضًا :

Fulcher of Chartres, Op. Cit., II, pp. 164 - 165.

(3) Saewulf, The Pilgrimage, pp. 1 - 9.

فشلوا فى الاستيلاء عليها، توجهوا إلى مدينة جبيل وضربوا الحصار حولها حتى ملكوها بالأمان[1] ، وغدروا بأهلها وسلبوا أموالهم[2] ، مما دفع المسلمين للتصدى للحجاج المسيحيين والاستمرار فى تفتيشهم. ففى عام ١١٠٧م/ ٥٠١هـ تعرضت مجموعة من الحجاج المسيحيين لتفتيش المسلمين وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس، وبصفة خاصة فى الطريق من يافا إلى مدينة بيت المقدس[3] .

وبعد أن نجح الصليبيون فى الاستيلاء على مدينة طرابلس بالساحل الشمالى فى ١٢ يوليو ١١٠٩م/ ١١ ذى الحجة ٥٠٣هـ، وأسسوا إمارة لاتينية بها[4] عمل بلدوين الأول على مواصلة سياسته التى ترمى إلى الاستيلاء على المدن الساحلية واستغل وصول أسطول نرويجى يتألف من حوالى ستين سفينة إلى ميناء عكا فى أغسطس ١١١٠م/ ربيع الآخر ٥٠٤هـ على رأسه الملك سيجورد Sigurd ملك النرويج (١١٠٣ - ١١٣٠م/ ٤٩٧ - ٥٢٤هـ) ومعه عدد كبير من الحجاج النرويجيين، وأشركه معه فى حصار مدينة صيدا حتى استسلمت لهم فى ١٩ أكتوبر ١١١٠م/ ٣ ربيع ثانى ٥٠٤هـ[5] . وعلى هذا استمرت عمليات تفتيش المسلمين للحجاج المسيحيين والتى كان من أسبابها ومبرراتها. ففى عام ١١١٣م/ ٥٠٧هـ وفدت إلى الشرق مجموعة كبيرة من الحجاج المسيحيين وقد تعرضت لمضايقات المسلمين وهى فى طريقها لزيارة

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٢٥٥، وأيضًا :

Fulcher of Chartres, A History, II, p. 176.

(3) Holy Land, Cf. P.P.T.S., vol. IV, part 3, London, 1888, pp. 1 - 8; William of Tyre, A History, I, p. 542.

(4) Fulcher of Chartres, Op. Cit., II, pp. 195 - 196.

(٥) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٧١، وأيضًا :

Fulcher of Chartres, A History, II, pp. 199 - 200.

الأماكن المقدسة فى الشرق[1].

ويشير كثير من المؤرخين الغربيين الذين عنوا بتاريخ الحركة الصليبية إلى فشل الصليبين بجيوشهم الإقطاعية فى تأمين طرق الحجاج المسيحيين[2] بسبب افتقارهم إلى حكومة قوية مستقرة فى بيت المقدس وحاجتهم إلى جيش نظامى يعمل على حماية هؤلاء الحجاج[3]. وقد اكتفى الصليبيون بوضع الحاميات الصليبية فى المدن الرئيسية، بينما ظل المسلمون يتحينون الفرصة لاسترداد أراضيهم المسلوبة[4].

كما تشير المصادر الغربية من معاصرة ومتأخرة إلى أنه نتيجة لعجز الصليبيين عن حماية هؤلاء الحجاج المسيحيين، اتفق تسعة من الفرنسان الفرنسيين المتحمسين الموجودين فى الشرق وقتذاك على أن يحيوا حياة الزهد والفقر بصفة مستمرة، وأن يكرسوا أنفسهم للعمل على حماية هؤلاء الحجاج عبر الطرق والدروب المؤدية إلى مدينة بيت المقدس والأماكن المقدسة الأخرى. وبذلك كوّن هؤلاء الفرسان التسعة النواة الأولى لما عرف باسم جماعة الفرسان الداوية التى قُدِّر لها أن تقوم بدور هام فى الصراع الصليبى الإسلامى الدائر فوق رقعة الشرق الأدنى الإسلامى، موضوع هذا الكتاب.

وفى ضوء ما سبق، يتضح أن حركة الحج المسيحية بدأت بصورة فعلية خلال القرن الرابع الميلادى، وكانت عبارة عن رحلات فردية شارك فيها

---

(1) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص١٨٦، وأيضًا :

Fulcher of Chartres, Op. Cit., II, p. 209.

(2) Oman, C.W., A History of the Art of War in the Middle Ages, London, 1924, p. 255.

(3) Runciman, A History, I, p. 3; Barber, R., The Knight & Chivalry, London, 1970, p. 225.

(4) Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1936, I, p. 181.

الرجال والنساء، وقد اتبع هؤلاء الحجاج عند انتقالهم من الغرب الأوربى إلى الأماكن المقدسة فى الشرق الإسلامى طريقين : أحدهما برى من القسطنطينية إلى الشام عبر آسيا الصغرى، والثانى بحرى من موانى أوربا إلى موانى الشام. وقد انتعشت هذه الحركة فى بعض الأوقات وضعفت فى أوقات أخرى بسبب اضطراب الأحوال فى المشرق الإسلامى أو الغرب الأوربى أو الدولة البيزنطية. واستمرت هذه الحركة حتى القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) الذى شهد تطورًا كبيرًا فيها نتيجة لتضافر عدة عوامل. حيث بدأ الحجاج يتوافدون إلى الشرق على هيئة مجموعات كبيرة مسلحة وصل عددها إلى الآلاف. وقد وجد هؤلاء الحجاج معاملة طيبة من جانب المسلمين منذ أن بدأت رحلات الحج فى عهد المسلمين حتى بداية الحروب الصليبية، فعاملهم المسلمون سواء كانوا من العباسيين أو الإخشيديين أو الفاطميين معاملة طيبة تتفق مع روح التسامح الإسلامى مع أهل الذمة.

وقبيل مجيء الصليبيين إلى الشرق الأدنى الإسلامي شهدت المنطقة فترة من الاضطرابات نتيجة للانقسام المذهبى بين المسلمين والحروب المتصلة بين المسلمين وبعضهم البعض من ناحية، وبين المسلمين والبيزنطيين من ناحية أخرى، كان لها أثرها على حركة الحج المسيحية. هذا، بالإضافة إلى أن مجيء الصليبيين إلى الشرق الأدنى الإسلامي، واستيلائهم على الكثير من المدن الإسلامية وتأسيس أربع إمارات لاتينية، بالإضافة إلى استيلائهم على العديد من مدن الساحل الشامي؛ كل هذا سبّب نوعًا من العداء الدائم بين المسلمين أصحاب الأراضى المسلوبة والصليبيين الدخلاء. وكان من الطبيعى فى ظل هذه الأوضاع المضطربة أن يتعرض الحجاج المسيحيون للتفتيش من قبل المسلمين، خاصة وأن هؤلاء الحجاج قد اشتركوا بجانب إخوانهم الصليبيين فى الصراع القائم بينهم وبين المسلمين وأصبحوا طرفًا فيه. وقد حاول الحكام الصليبيون تأمين طرق

الحجاج ولكنهم فشلوا فى تحقيق هذا الفرض لذلك تكونت تلك الجماعة التى كانت تتألف من تسعة من الفرسان الفرنسيين الذين تعهدوا بحماية هؤلاء الحجاج أثناء طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق. وكان هؤلاء الفرسان التسعة هم نواة جماعة الفرسان الداوية التى كان لها دور مؤثر فى العلاقات بين الصليبيين والمسلمين إبان الفترة الزمنية موضوع البحث، مما ستكشف عنه الفصول التالية.

يشير كثير من المؤرخين الغربيين إلى أسباب نشأة الداوية بقولهم : إن الحجاج المسيحيين اللاتين فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى بداية القرن السادس الهجرى، أصبحوا فى حاجة إلى توفير الحماية والأمن لهم، وذلك عبر الطرق والدروب التى يسلكونها لزيارة الأماكن المقدسة فى الشرق الأدنى الإسلامى[1] وعندما عجز الصليبيون الأوائل بجيوشهم الإقطاعية عن تأمين تلك الطرق لهم وحمايتهم من مضايقات المسلمين، اتفق تسعة من الفرسان الفرنسيين المتحمسين ممن كانوا فى المشرق الإسلامى فى تلك الفترة على أن يحيوا حياة الزهد والفقر بصفة مستمرة[2]، وأن يكرسوا أنفسهم للعمل على توفير الحماية لأولئك الحجاج[3].

وكان على رأس هؤلاء الفرسان: هيو دى باينز Hugh de Payens[4] وجودفرى دى سانت أومير Godfery de St. Omer ، ولقد عرض هؤلاء

(1) Smail, R.C., The Crusade in Syria and the Holy Land, U.S.A., 1973, p. 54.

(2) William of Tyre, A History, I, p. 524; Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 50; Roger of Wendover, Flowers of History, London, 1848, I, p. 469.

(3) Roger of Wendover, Op. Cit., I., p. 469; Amadi, Chroniques d'Amadi et de Strembaldi, Paris, 1891, I, p. 29.

(٤) هيو دى باينز : فارس من مقاطعة شمبانيا Champagne بشمال فرنسا، جاء مع الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى واشترك معهم فى حصار مدينة بيت المقدس. راجع :=

الفرسان هذه الفكرة على جورمون Gaurimond بطريرك بيت المقدس اللاتينى (١١١٨ - ١١٢٨م/ ٥١٦ - ٥٢٢هـ)[١] وقتها، فرجدوا منه ترحيبًا كبيرًا[٢] لما تنطوى عليه من خدمة دينية[٣].

وعرض البطريرك جورمون طلب هؤلاء الفرسان بالسماح لهم بحماية الحجاج المسيحيين على الملك الصليبى بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣١م/ ٥١٢- ٥٢٥هـ) فوافق عليه[٤]، ولم تذكر المصادر أن الملك بلدوين قد أمر بعض رجاله من الصليبيين الموجودين فى الأراضى المقدسة بمساعدة هؤلاء الفرسان فى مهمتهم الجديدة، بينما أجمعت المصادر الغربية على أنه حتى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ لم تطرأ أى زيادة على عدد هؤلاء الفرسان التسعة فى مهمتهم الجديدة[٥] وهذا يؤكد أن بلدوين لم يأمر بالفعل رجاله بمساعدة هؤلاء الفرسان الفرنسيين على الرغم من أنه كان يعلم بأن عددهم لم يكن كافيًا لحماية أفواج الحجاج القادمين إلى الشرق. ولعل هذا يوضح مدى المعاناة التى كانت تواجه الصليبيين فى الشرق الأدنى الإسلامى فى تلك الفترة نتيجة لتناقص عدد المحاربين. أو ربما أراد الملك الصليبى أن يدخر كل قواته لحشدها فى مواجهة الخلف الإسلامى من القوات الفاطمية وقوات طغتكين المشتركة التى أخذت

=Lea, H., C., A History of the Inquisition of the Middle Ages, New York, 1922, p. 88; Grousset, Histoire, I, p. 84; Addison, Templars, p. 10; Charpentier, Templiers, pp. 20 - 21.

(1) Michel le Syrin, Chronique de Michel le Syrien, Paris, 1905, III, p. 201; William of Tyre, A History, I, p. 525.

(2) Roger of Wendover, Flowers, I, p. 469.

(٣) حسن حبشى: الحروب الصليبية الأولى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧، ص٩٨.

(4) Amadi, Chroniques, I, p. 29; Lacroix, M.P., La Chevalerie et les Croisades, Paris, 1887, p. 220; Pernond, Les Templiers, p. 6; Lizerand, Dossiers, pp.4 - 5; Delisle, Memoire, p. 8; Fink, Papsttum, p. 10.

(5) William of Tyre, Op. Cit., I, p. 524; Roger of Wendover, Op. Cit., I, p. 469; Jacques of Vitry, Jerusalem, p. 50; Amadi, Op. Cit., I, p. 29.

تستعد لمواجهة الصليبيين في مايو ١١١٨م/ صفر ٥١٢هـ[1] والتي كانت تشكل تهديدًا خطيرًا لمملكة بيت المقدس الصليبية[2].

على أية حال، بعد أن وافق بلدوين على هذا الطلب، قام الفرسان الفرنسيون التسعة بالتعهد أمامه وأمام البطريرك جورمون بالعمل على حماية الحجاج المسيحيين الوافدين من الغرب وتأمين الطرق الرئيسية التي يسلكونها[3]، وخاصة الطريق من يافا إلى بيت المقدس[4]، وهو الطريق الذى شهد من قبل المضايقات التي كان الأعراب والحاميات الفاطمية يسببونها لأولئك الحجاج.

ومن طبيعة هذا العمل الذى تعهد هؤلاء الفرسان القيام به، يتضح أنه اصطبغ منذ اللحظة الأولى بالصبغة الحربية، كما أنه ربط بين هؤلاء الفرسان التسعة وبين جماعة الاسبتارية من أجل خدمة الحجاج، فهؤلاء يقومون بحمايتهم وأولئك يقومون بالعناية بهم وعلاجهم[5].

وقد تعهد أولئك الفرسان التسعة مرة أخرى أمام الملك الصليبي والبطريرك اللاتيني بأن يتبعوا نظام الرهبان[6] عن طريق الإلتزام بمبادئ العفة والورع والطاعة طوال حياتهم وبصفة مستمرة[7] وبهذا أضافوا الصبغة الدينية إلى عملهم الجديد[8]، وجمعوا بذلك بين صفتين من الصفات التي تميزت بها

---

(1) Fulcher of Chartres, A History, III, pp. 225 - 226.
(2) Setton, K.H., A History of the Crusades, Pennsylvania, 1958, I, p.412.
(3) William of Tyre, A History, I, p. 525; Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 50; Amadi, Chroniques, I, p. 29.
(4) حسن حبشي : الحروب الصليبية الأولى، ص٩٨، وأيضًا :
Grousset, Histoire, I, p. 542; Wilcke, Geschichte, p. 9.
(5) Smail, Crusade, p. 122; Prutz, Entricklung, p. 13; Gmelin, Schuld Order, pp. 9 - 10; Charpentier, L'Ordre des Templiers, p. 16.
(6) Amadi, Chroniqus, I, p. 29.
(7) Roger of Wendover, Flowers, I, p. 469.
(8) Edward, J.M., The Trail of The Templars, London, 1928, p. 43.

العصور الوسطى الأوربية وهما : الفروسية والرهبنة أى الحرب والدين. والحرب ترتبط بالجرمان والإقطاع وما يتصل به من أنظمة كالفروسية، أما الدين فقد أصبح آنذاك ألصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة.

ومما هو جدير بالذكر أن الربط بين هاتين الصفتين لم يكن أمرًا ميسور التحقيق في الغرب الأوربي، ولكن أولئك الفرسان التسعة تمكنوا من الربط بينهما بشكل واضح في الشرق الأدنى الإسلامي نتيجة للأوضاع التي كانت سائدة وقتذاك[1] وبذلك تكونت النواة الأولى لجماعة فرسان الداوية، بعد ما وجدت تربة صالحة ومناخًا ملائمًا لها. هذا ما أورده المؤرخون الغربيون حول نشأة تلك الجماعة.

وقد اختلف المؤرخون الغربيون القدامى حول تحديد الفترة التي وافق فيها الملك بلدوين الثاني على طلب هؤلاء الفرسان، والسماح لهم بممارسة عملهم الجديد بصورة فعلية. فهناك فريق على رأسه ميخائيل السرياني، ووليم الصوري وجاك دى فترى، وروجر أف وندوفر، يرون أن ذلك حدث عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ[2] بينما يرى المؤرخ أمادى Amadi أن هذه الأحداث وقعت عام ١١١٩م، ٥١٣هـ[3] وهناك رأى ثالث ينادى به وليم دى نانجى Guillelmi de Nangico خلاصته أن هذه الأحداث قد جرت فى يناير عام ١١٢٠م/ شوال ٥١٣هـ[4].

ويبدو أن اختلاف الآراء حول تحديد هذه الفترة إنما يرجع لتعدد المناسبات التي تعهد فيها هؤلاء الفرسان أمام الملك والبطريرك. ومن الأرجح أن

---

(1) Barber, The Knights, P. 225.

(2) Michel le Syrien, Chronique, III, p. 201; William of Tyre, A History, I, p.24; Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 50; Roger of Wendover, Flowers, I, 469.

(3) Amadi, Chroniques, I, p. 28.

(4) Guillelmi de Nangico, Chronicon, Cf. R.H.C.F., vol. XX, Paris, 1840, p. 726.

المناسبة الأولى جرت فى مايو ١١١٨م/ ٥١٢هـ، إذ ذكر المؤرخ روجر أف وندوفر أن هؤلاء الفرسان قد عرضوا فكرتهم على جورمون عندما أصبح بطريركًا بالفعل[1] ومن المعروف أنه اختير لتولى منصبه الجديد بعد وفاة أرنولف Arnulf البطريرك السابق فى ٢٨ أبريل ١١١٨م/ ٥ المحرم ٥١٢هـ[2].
كما ذكرت المصادر الغربية أن جورمون عرض طلب هؤلاء الفرسان على الملك بلدوين الثانى الذى وافق عليه، فتعهدوا أمامهما بحماية الحجاج. ويبدو أن هذه الوقائع جرت قبل أن ينشغل الملك بلدوين الثانى بمواجهة الحلف الإسلامى فى أواخر مايو ١١١٨م، أوائل صفر ٥١٢هـ[3]، وعلى هذا تكون المناسبة الأولى قد وقعت على وجه التحديد فى الفترة ما بين ٢٨ أبريل ١١١٨م، وأواخر مايو ١١١٨م. ومن المرجح أيضًا أن المناسبة الثانية التى تعهدوا فيها بأن يحيوا حياة الرهبنة قد تمت فى فبراير ١١١٩م/ شوال ٥١٢هـ، وذلك بعد أن فرغ بلدوين الثانى من مواجهة الحلف الإسلامى فى الفترة من مايو ١١١٨م/ صفر ٥١٢هـ وحتى سبتمبر ١١١٨م/ جمادى الأولى ٥١٢هـ[4] وقيامه بمهاجمة أذرعات[5] وحوران[6]، ثم عودته إلى بيت المقدس فى أواخر يناير ١١١٩م/ منتصف ذى القعدة ٥١٢هـ[7]، ومن هنا جاء اختلاف المؤرخين حول تحديد تاريخ تأسيس الجماعة فيما بين عامى ١١١٨م، ١١١٩م/ ٥١٢هـ.

---

(1) Roger of Wendover, Op. Cit., I, p. 469.

(2) Fulcher of Chartres, A History, III, p.221; William of Tyre, Op. Cit., I, p.524.

(٣) العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط)، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ، ج٢٠، قسم ٤، لوحة ٧٣٧.

(4) Fulcher of Chartres, A History, III, p. 226.

(٥) أذرعات: بلد يقع على أطراف الشام بالقرب من عمان. ياقوت الحموى : معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٤هـ، ج٣، ص٥٩.

(٦) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق. ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٣، ص٣٦٠.

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٣٨٢. وأيضًا :=

أما بالنسبة لرأى وليم دى نانجى فهو مستبعد لأن المصادر الغربية أجمعت على أن هؤلاء الفرسان قد حصلوا على المبادئ الخاصة بجماعتهم الجديدة فى مؤتمر تروى Troyes الذى انعقد فى ١٣ يناير ١١٢٨م/ محرم ٥٢٢هـ بعد مرور تسعة أعوام على نشأتها[١] وبإضافة تلك السنوات التسع إلى عام ١١٢٠م/ ٥١٣هـ، حسب التاريخ الذى أورده وليم دى نانجى يكون مؤتمر تروى قد عقد فى عام ١١٢٩م/ ٥٢٣هـ، وهذا مخالف للواقع التاريخى.

على أية حال، بعد أن تعهد أولئك الفرسان بحماية الحجاج المسيحيين والعيش حياة الرهبنة التى تقوم على الصلاة والطاعة والطهر والتقشف، التزموا بهذه العهود؛ إذ لا تشير المصادر إلى وقوع أى مضايقات من جانب المسلمين للحجاج الغربيين بعد ذلك. وعلى هذا يكونوا قد نجحوا فى توفير الحماية والأمن لهم[٢] حسب رأى المصادر الغربية.

وعند مناقشة تلك الآراء يتضح أن المصادر الغربية أجمعت على أن أول عمل قام به أولئك الفرسان هو حماية الحجاج الغربيين وهم فى طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة[٣]. ولكن، فى الحقيقة، إن عملية الحماية هذه لم تكن تنطبق بأى حال مع ظروف وأعداد أولئك الفرسان وقتذاك. بمعنى أنه لم يكن من المعقول أن يتولى تسعة من الفرسان حماية مئات بل آلاف من الحجاج وهم يفتقرون إلى مركز إمداد بالرجال والعتاد أو قلاع حصينة يحتمون بداخلها، ولكن من المرجح أن العمل المناسب الذى قاموا به حينذاك هو إرشاد الحجاج

= Fulcher of Chartres, Op. Cit., III, pp. 225 - 226.

(1) William of Tyre, A History, I, p. 525; Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 60; Roger of Wendover, Flowers, I, p. 469; Amadi, Chroniques, I, p. 29.

(2) Jacques de Vitry, Ibid; Schottmuller, Untergang, p. 7; Wilck, Geschichte, p.11; Hovermann, Geschichte, p. 13.

(3) William of Tyre, Op. Cit., I, pp. 524 - 525; Michel le Syrien, Chronique, III, p. 201; Jacques de Vitry, Op. Cit., p. 49; Roger of Wendover, Ibid; Amadi, Op. Cit., I, pp. 28 - 29.

وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة، خاصة وأنهم كانوا على دراية بها بعد أن اكتسبوا خبرة بمسالكها ودروبها نظرًا لإقامتهم الطويلة في الشرق الأدنى الإسلامي(١) ، ويؤكد هذا الرأى ما ذكره الرحالة ثيودريك Theoderich الذى زار الشرق الأدنى الإسلامي في تلك الفترة، «بأن هؤلاء الفرسان قد قسموا أنفسهم إلى ثلاث مجموعات وقاموا بمرافقة الحجاج في ثلاثة اتجاهات أولها من يافا إلى بيت المقدس، ثم من بيت المقدس إلى الأماكن المقدسة الأخرى في الجليل والناصرة وبيت لحم وجبل الزيتون ونهر الأردن، وأخيرًا أثناء عودة هؤلاء الحجاج من تلك الأماكن إلى الساحل الشامي»(٢) ، وبتقسيم عدد هؤلاء الفرسان إلى ثلاث مجموعات يصبح عدد المجموعة الواحدة ثلاثة فرسان وهو عدد غير كافٍ لحماية آلاف الحجاج المسيحيين؛ مما يجعلنا نضع إشارة المصادر الغربية عن مضايقات المسلمين للحجاج المسيحيين محل الريبة والشك.

وحيث إن هؤلاء الفرسان لم يكن في حوزتهم في خلال تلك الفترة أية حصون أو مراكز دفاعية تطل على الطرق التي يسلكها الحجاج المسيحيون، لذا استخدموا المغارات التي تقع في الجبال والتي تشرف على طرق الحجاج وشحنوها بالأسلحة والمؤن لاستخدامها عند الضرورة(٣). وكان هذا تطورًا خطيرًا في أهداف الجماعة ومبادئها من الناحية العسكرية.

وتؤكد المصادر الغربية التزام أولئك الفرسان بما أخذوه على أنفسهم بأن يحيوا حياة الرهبان، وعاشوا خلال تلك الفترة في زهد وتقشف، وارتدوا الملابس البسيطة غير المميزة، واعتمدوا على الهبات والعطايا التي قدمها لهم

(1) Theoderich, Description of the Holy Places, Cf., P.P.T.S., vol. V, part 4, London, 1891, pp. 46 - 47.
(2) Theoderich, Op. Cit., pp. 46 - 48.
(3) Theoderich, Op. Cit., p. 47.

إخوانهم المسيحيون[1] لذا أطلق عليهم فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأتهم لقب "الفرسان الفقراء أتباع السيد المسيح"[٢] .

وقد افتقد أولئك الفرسان إلى مكان يقيمون به فى مدينة بيت المقدس فى بداية تكوينهم، لذا سمح لهم الملك بلدوين الثانى بالإقامة فى جزء من القصر الملكى فى المدينة والذى أطلق عليه الصليبيون تجاوزًا اسم "معبد سليمان" Templum Solomonis[٣] ليقموا به بصفة مؤقتة[٤] فى بادئ الأمر، ثم سمح لهم بالإقامة الدائمة فيه بعد ذلك[٥] . ثم منحهم أخيرًا الجزء الجنوبى من معبد Templum Dominici والذى يقع بالقرب من المكان الأول[٦] وذلك حتى يتمكنوا من ممارسة شعائرهم الدينية[٧] .

وعلى ذلك يجب التفريق بين هذين المكانين اللذين حصل عليهما هؤلاء الفرسان، فالأول خصص للمأوى وتخزين العتاد العسكرى، أما الثانى فقد خصص لممارسة الأعمال الدينية[٨] . ونظرًا لإقامة هؤلاء الفرسان فى

---

(1) Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 50; Amadi, Chroniques, I, p. 29; Addison, Templars, p. 5; Fink, Papsttum, p. 12; Piquet, Les Templiers, p. 7; Melville, La Vie des Templiers, p. 23; Edward, The Trail, p. 19.

(2) Wilck, Geschichte, p. 13; Schupferling, Templerherrenorder, p. 9; Addison, Templars, pp. 5-6; King, Hospitallers, p. 31.

(٣) عندما دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس عام ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ حوّلوا المسجد الأقصى إلى قصر ملكى، وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان. انظر :
Fulcher of Chartres, A History, I, p. 93; Archives de L'Orient Latin, Paris, 1888, I, p. 92.

(4) William of Tyre, A History, I, p. 525; Jacques de Vitry, Op. Cit., p. 51.

(5) Amadi, Chroniques, I, p. 29.

(6) William of Tyre, A History, I, p. 524.

(7) Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 51.

(8) Addison, Templars, p. 10.

هذين المكانين فقد أطلق عليهم فرسان المعبد Templars نسبة إلى Templum أى معبد[1] . وقد ورد أولئك الفرسان فى المصادر العربية بمسميات مختلفة هى: "الداوية"، و"الديوية"[2] نظرًا لقسوتهم وشدتهم فى القتال[3] ، ويطلق عليهم بعض الكتاب الغربيين الحديثين اسم "الهيكليين" نظرًا لأنهم أقاموا فى المكان الذى يُعتقد أن الملك سليمان أقام عليه هيكله[4] .

وقد ذاع صيت فرسان الداوية فى الغرب الأوربى فى تلك الفترة من الزمن عن طريق الحجاج المسيحيين الذين عادوا إلى أوطانهم بعد أداء فريضة الحج، وتحدثوا عن الأعمال الكثيرة التى يقوم بها أولئك الفرسان. لذا تطلع

---

(1) Jacques de Vitry, Ibid.

[2] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٢؛ أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٣٠، ص١٣٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٤؛ أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، مطبعة وادى النيل ١٢٨٧-١٢٨٨هـ، ج٢، ص٩؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٥٦، ج٦، رقم ١، ص٦٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ج٦، ص٣٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، القاهرة ١٢٧٥هـ/ ص٤٩٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، ج٣، ص٦٥؛ ابن الجوزى: مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (مخطوط)، ج٨، ورقة ٢٥١؛ ابن أيبك: درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان (مخطوط) ورقة ٥٢٨، كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط)، ج٧، ورقة ٨؛ النويرى الكندى: نهاية الأرب فى فنون الأدب (مخطوط)، ج٢٦، ورقة ١٢٠؛ ابن دقماق: نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام (مخطوط)، لوحة ٤٦ (أ)؛ ابن الشحنة: روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر (مخطوط) ورقة ١٢٥ (ب)؛ العينى: عقد الجمان (مخطوط)، ج٢١، قسم ٣، لوحة ٦١٤؛ ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر (مخطوط) ورقة ٥٤ - ٥٥؛ ابن أبى السرور: عيون الأخبار ونزهة الأبصار (مخطوط) ورقة ١٦١ (أ).

[3] جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على مصر، الإسكندرية ١٩٦٩، ص٢٠٢.

[4] مكسيموس مونروند : تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ترجمة مكسيموس مظلوم، أورشليم ١٨٦٥، ج١، ص١٩٩.

الأمراء والنبلاء فى الغرب الأوربى إلى الانضمام لجماعتهم. ففى عام ١١٢٠م ٥١٤هـ طلب الأمير فولك Fulk كونت أنجو Anjou السماح له بالانضمام إلى صفوف الجماعة[1] كما بدأ أهل الغرب اللاتينى والصليبيون فى المشرق يغدقون بالصدقات والهبات عليها. فكان الكونت فولك يرسل لهم ثلاثين ماركًا من الفضة سنويًا[2] وحذا حذوه الكثيرون، كما أدرك الملك بلدوين الثانى الفوائد العظيمة التى ستعود على الممالك اللاتينية فى الأراضى المقدسة بتشجيع أولئك الفرسان[3]. لذا وهبهم هو وجورمون بطريرك بيت المقدس والنبلاء والبارونات أجزاء من ممتلكاتهم الخاصة فى فلسطين وفى الغرب الأوربى بصفة دائمة حتى يتزودوا منها بالمأكل والملبس[4]. وبذا تكون جماعة فرسان الداوية قد خطت خطوة أخرى فى سبيل تطورها، حيث أصبح لها مكان دائم فى بيت المقدس ودخل ثابت تتزود منه.

وتطور الأمر خطوة أخرى عندما قام رجال الدين فى الغرب الأوربى بمباركة أعمال أفرادها، وحث المسيحيين الغربيين على مساعدتهم وتقديم الهبات والعطايا لهم[5]. ونتيجة لهذا التطور الذى طرأ على جماعة الداوية، أراد هيو دى باينز أن يضفى عليها الصفة الشرعية عن طريق مباركة البابا فى روما لها والاعتراف بها، وذلك لأنها حتى تلك الفترة كانت الجماعة ذات صبغة علمانية فحسب[6] لذا عرض هيو دى باينز هذه الفكرة على الملك بلدوين الثانى الذى رأى أن الأمر يتطلب أولاً تأييدًا من أحد رجال الدين الذائعى الصيت. فوقع

(1) Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 53.
(2) Addison, Templars, p. 11.
(3) Edward, The Trail, p. 17; Gmelin, Schuld Order, p.9.
(4) William of Tyre, A History, I, p. 525; Jacuqes de Vitry, Jerusalem, p.50.
(5) Jacques de Vitry, Ibid.
(6) William of Tyre, Ibid.

اختيارهم على القديس برنارد St. Bernard[1] رئيس دير كليرفو Clairvaux بفرنسا، والذى كان قد أبدى إعجابه من قبل بهذه الجماعة الجديدة، وما تقدمه من خدمات للحجاج المسيحيين[2]. فبعث الملك بلدوين الثانى برسالة إلى القديس برنارد مع اثنين من فرسان الداوية هما أندرو Andrew وجوندمار Gondemar يشرح فيها الظروف التى صاحبت نشأة الجماعة، ويعدد الخدمات التى تقدمها للحجاج الغربيين. وفى نهاية الرسالة يلتمس منه إضفاء رعايته على الجماعة وبذل مساعيه بالتوسط لدى البابا هونوريوس الثانى Honorius II (١١٢٤-١١٣٠م/ ٥١٩-٥٢٥هـ) لمباركتها وخلع الصفة الشرعية عليها[3].

ويلاحظ أنه حتى تلك الفترة ظلت مشكلة تناقص المحاربين الصليبيين تتفاقم بسبب هلاك الأعداد الكبيرة منهم[4] وأسر البعض الآخر أثناء الصراع الصليبى الإسلامى، وكان من بينهم الملك بلدوين الثانى نفسه وجوسلين حاكم

---

(1) القديس برنارد: وُلد عام ١٠٩١م، وكان من الشخصيات البارزة التى أخرجتها جماعة الإخوان السسترشيان، ومن أكبر المتحمسين للنظام البندكتى، ولقد أسس ديره المعروف فى كليرفو بشمال فرنسا وأصبح رئيسًا له، وكان يتمتع بنفوذ دينى كبير فى الغرب الأوربى. فقد حسم النزاع البابوى عام ١١٣٠م، وكان البابا ايوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣م/ ٥٤٠ - ٥٤٨هـ) من تلاميذه، واليه يرجع الفضل فى وضع المبادئ الخاصة بجماعة الفرسان الداوية، كما قام بدور بارز فى الدعوة للحملة الصليبية الثانية. ولمزيد من التفاصيل عن تلك الشخصية انظر:

كولتون ج.ج.: عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف، الطبعة الثانية، الإسكندرية ١٩٦٧، ص٢٢، حاشية (١)؛ مكسيموس مونروند: تاريخ الحرب المقدسة، ج٢، ص٢٧ - ٣٠؛ وأيضًا:

Michaud, J.F., Histoire des Croisades, Paris, 1922, II, p. 116.

(2) Addison, Templars, p. 33; Lizerand, Dossier, p. 10; Melville, La Vie des Templiers, p.19; Schottmuller, Untergag, p.13; Hovermaum, Geschichte, p.17.

(3) Letter to St. Bernard, Cf. Addison, Op. Cit, pp. 12 - 13.

(4) العينى: عقد الجمان (مخطوط)، ج١٦، رقم ١، لوحة ١٩.

الرها[١]. بالإضافة إلى مرض وعودة أعداد أخرى من المحاربين الصليبيين إلى أوطانهم بعد اشتراكهم فى المعارك ضد المسلمين أو بعد أداء فريضة الحج. لذا أرسل الملك بلدوين الثانى -بعد إطلاق سراحه- هيو دى باينز إلى الغرب الأوربى عام ١١٢٧م/ ٥٢١هـ لحث المسيحيين هناك على التوجه إلى المشرق الإسلامى والمشاركة فى محاربة المسلمين[٢]. وقد صحب دى باينز فى رحلته إلى الغرب مجموعة من فرسان الداوية هم جودفرى دى سانت أومر، وباين دى مونتديديه Payen de Montdidier وجورال Gorall وجوفرى بيسول Geoffery Bisol، وأرشمبولد دى سانت أماند Archambauld de St. Amand

ويبدو أن هيو دى باينز أراد أن يستغل هذه الرحلة وأن يحقق الهدف الذى كان يراوده من قبل، وهو الحصول على مباركة البابا هونوريوس لجماعتها وصبغها بالصبغة الشرعية، ثم القيام بعد ذلك بدعوة أهل الغرب اللاتينى للمشاركة فى محاربة المسلمين والانضمام إلى جماعته، وبذا يحقق أكثر من غرض فى آن واحد من وراء هذه الرحلة. وبالفعل اتجه هيو ورفاقه فى بداية الأمر إلى فرنسا حيث التقوا بالقديس برنارد وعرضوا عليه فكرتهم فوافق عليها. وصحبهم إلى روما حيث التقوا بالبابا هونوريوس الثانى الذى استقبلهم بترحاب عظيم[٣]، وعرض عليه القديس برنارد طلب هيو دى باينز ورفاقه، فوافق البابا على عقد مؤتمر كنسى فى مدينة تروى بمقاطعة شامبانيا بفرنسا ودعا إليه معظم رجال الدين المسيحى لمناقشة المبادى والقوانين الخاصة بتلك الجماعة لإجازتها وإضافة الصبغة الشرعية عليها[٤] وقام القديس برنارد بدعوة زملائه من رجال

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٩، وأيضًا:
Fulcher of Chartres, A History, III, pp. 239 - 240.
(2) William of Tyre, A History, II, p. 40.
(3) Addison, Templars, p. 13; Charpentier, L'Ordre des Templiers, p. 23.
(4)William of Tyre, A History, I, p. 525;Jacques de Vitry, Jerusalem, p.51.

الدين في الغرب، والأراضى المقدسة، لتأييد جماعة الفرسان الداوية فى هذا المؤتمر[1].

وفى ١٣ يناير ١١٢٨م/ ٨ المحرم ٥٢٢ عقد المؤتمر فى مدينة تروى بفرنسا وحضره المندوب البابوى، وستيفن Stephen بطريرك بيت المقدس الجديد (١١٢٨ - ١١٣٠م/ ٥٢٢ - ٥٢٤هـ) كما حضره القديس برنارد ورؤساء أساقفة تروى والبان ورمز والسين بفرنسا، ومعهم حشد كبير من الأساقفة ورجال الدين في الغرب اللاتينى[2]، وكذلك حضر المؤتمر هيو دى باينز ورفاقه من جماعة الداوية الذين قدموا للقديس برنارد اقتراحاتهم بشأن المبادئ الخاصة بجماعتهم، فقام برنارد بعرضها على المؤتمر بعد أن أضاف إليها بعض البنود[3]. وفى نهاية المؤتمر وافق البابا والحاضرون على المبادئ الخاصة بجماعة الفرسان الداوية[4] وكانت هذه خطوة أخرى هامة فى الطريق الطويل الذى سلكته تلك الجماعة، والذى سيكون له أكبر وأخطر الأثر فيما بعد أثناء احتدام الصراع الصليبى الإسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى (القرنين السادس والسابع للهجرة).

وقد تألفت مبادئ تلك الجماعة -التى أقرها مؤتمر تروى- من اثنين وتسعين بندًا تناولت مختلف أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والعسكرية

---

(1) Addison, Templars, pp. 13 - 14.
(2) William of Tyre, Ibid; Pernoud, Les Templiers, pp. 7 - 8; Charpentiers, L'Ordre des Templiers, p. 23.
(3) Addison, Op. Cit., p. 14; Edward, The Trail, p. 19; Charpentier, Op. Cit., p.p.23-24; Melville, La Vie des Templiers, pp.19-20;Wilck, Geschichte,p.13.
(4) William of Tyre, Op. Cit., I, p.525; Michel le Syrien, Chronique, III, p. 201; Jacques de Vitry, Op. Cit., p. 51; Roger of Wendover, Flowers, I, p. 469; Amadi, Chroniques, I, p. 29.

والدينية والقضائية، ومن أهم هذه البنود أن جماعة الفرسان الداوية أصبحوا منذ تلك الفترة لا يخضعون لأى سلطة علمانية أو دينية إلا لسلطة البابا فقط.

وفى نطاق جماعتهم أصبح السيد الأعظم مقدم الجماعة Grand Master هو صاحب السلطة العليا فى الجماعة، وعلى الجميع إطاعة أوامره. كما أنه لا يحق لأى عضو من أعضاء الجماعة مراجعته فى أى أمر من الأمور، أما فى حالة موت المقدم الأعظم فيتم اختيار مقدم آخر بشرط أن يكون عضوًا من أعضاء الجماعة، ويحصل على أكبر عدد من الأصوات.

وفى حالة حصول الجماعة على الهبات والإعانات يتسلمها المقدم الأعظم ثم يعهد بها إلى أمين المال، ولا يسمح لأى عضو من أعضاء الجماعة أن يكون فى حوزته اى نوع من أنواع الملكية؛ وإذا حدث وتوفى أحد أعضاء الجماعة ووجد فى حوزته أية نقود أو نفائس ذهبية أو فضية فإن جثمانه يدفن فى مقابر بعيدة عن مقابر الجماعة حتى ولو ثبت ذلك بعد دفنه.

كما ألزمت هذه البنود الجماعة بإمداد كل عضو من أعضائها بالمأكل والملبس مع توفير المكان الملائم الذى يقيم فيه، وإعداده بالأسلحة والخيول اللازمة له، وقد أعفت هذه البنود جميع أعضاء الجماعة من أى نوع من أنواع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور على الأراضى التى فى حوزتهم.

وفرضت هذه البنود على جميع أعضاء الجماعة تأدية الواجبات الدينية فى أوقاتها، واستثنى من أدائها من يقومون بأعمال الحراسة. كما ألزمت الأعضاء بمساعدة بعضهم البعض فى كافة الميادين، وأن يعيشوا معًا فى ظل نظام واحد حريصين على وحدة الروح، وأن يقدموا العون والمساعدة للفقراء المسيحيين. وحرّمت عليهم مراسلة أهلهم وذويهم إلا بموافقة مقدم الجماعة. كما حرمت عليهم الزواج من النساء، بل ألزمتهم بالابتعاد عنهن حتى بالنسبة للأعضاء المتزوجين، كما حرمت عليهم حضور المناسبات التى يتم فيها تعميد

الأطفال حتى لا يثير ذلك في نفوسهم الشعور والميل إلى الحياة الأسرية. والزمتهم بالابتعاد عن حياة الكسل واللهو، وجعلتهم يتفرغون تمامًا للواجبات العسكرية إلى جانب مهامهم الدينية.

والزمت هذه البنود أعضاء الجماعة بتنفيذ ما جاء بها دون استثناء، وإلا تعرض من يخالف أى بند منها للعقاب الذى أقرته تلك المبادئ. وقد قسمته إلى أنواع مختلفة حسب نوعية الخطأ الذى وقع. فالأخطاء الكبيرة كان عقابها أن يتناول مرتكب الخطأ طعامه بدون مائدة لمدة طويلة تصل في بعض الأحيان إلى عام كامل، ولمزيد من إذلال مرتكب الخطأ حرمت هذه البنود على مرتكب الخطأ منع الحيوانات من تناول طعامها معه. أما الأخطاء الأخرى فاختلفت عقوبتها بين السجن أو تكبيل الأيادى والأقدام لفترة من الوقت أو مدى الحياة. وقد خولت هذه البنود لمقدم الجماعة وحده توقيع العقاب الملائم على مرتكب الأخطاء وله وحده الحق في العفو عن المذنب[1].

ويلاحظ أن هذه البنود قد ركزت جميع السلطات في يد مقدم الجماعة، وعلى هذا ربطت مصير الجماعة بشخصية مقدمهم. وقد أضر هذا البند كثيرًا بالجماعة والصليبيين فيما بعد. كما أن البند الذى ينص على تبعية جماعة فرسان الداوية إلا للبابا فحسب، جعلتها غير ملزمة بأداء أى نوع من الالتزامات الإقطاعية للملك اللاتيني في بيت المقدس أو أى حاكم صليبى في الشرق الأدنى أو الغرب اللاتيني في الوقت الذى سادت فيه النظم الإقطاعية هذا العصر، وقد

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن المبادئ الخاصة بجماعة فرسان الداوية انظر :

Letter from Pope Alexander III to the Master of the Templars Bertrand of Blanquefort, dated 7 June 1152, Cf. Addison, Templars, pp. 62 - 68; Michel le Syrien, Chronique, III, pp. 201 - 203; Cruzon, H.D., La Règle du Temple, Paris, 1886.

وعن العقوبات التى نصت عليها هذه المبادئ انظر :

Jacques de Vitry, Jerusalem, pp. 52 - 53; Anonymus Pilgrims, p. 30.

أعطى هذا البند بالطبع للجماعة سندًا قويًا للتنصل من القيام بأى خدمات إلا وفقًا لما تقضيه مصالحهم الخاصة.

على أية حال، بعد أن وافق مؤتمر تروى على المبادئ سالفة الذكر، تقدم هيو دى باينز والبطريرك ستيفن بطلب إلى البابا هونوريوس الثانى لتخصيص الرداء الأبيض كرداء مميز لجماعة فرسان الداوية، ووافق البابا على هذا الطلب[1]. وبذا تحققت رغبة دى باينز ورفاقه. فقد بدأت الجماعة بتسعة فرسان مهمتهم حماية الحجاج الغربيين وهم فى طريقهم من الغرب إلى الأراضى المقدسة، وانتهت بجماعة معترف بها من بابوية روما، لها لباسها المميز وقوانينها الخاصة بها.

وبعد أن نجح دى باينز فى تحقيق الشق الأول من رحلته، سعى إلى تحقيق الغرض الآخر وهو دعوة الفرسان والمحاربين فى الغرب للتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامى لمحاربة المسلمين والانضمام إلى جماعته. وقد قام القديس برنارد بمساعدة هيو فى تحقيق هذا الغرض، حيث أخذ يدعو أهل الغرب للانضمام إلى تلك الجماعة بعد أن وضّح لهم فضائل فرسانها والفرق بينهم وبين الفرسان التقليديين[2] كما بذل دى باينز جهودًا كبيرة لتحقيق هذا الغرض[3] حيث انتقل من فرنسا إلى إنجلترا، وجمع الهبات، وحشد الفرسان وصحب فى انتقالاته زملاءه من فرسان الداوية. ثم ترك أحد هؤلاء الفرسان فى إنجلترا ليقوم بتدريب الفرسان الإنجليز الذين رغبوا فى الانضمام إلى جماعته، وأطلق على هذا الفارس

---

(1) William of Tyre, A History, I, p. 525; Roger of Wendover, Flowers, I, p.469; Amadi, Chroniques, I, p. 29.

(2) عن خطب القديس برنارد وأعماله فى هذا الدور انظر :

Addison, Templars, pp. 30 32; Smail, Crusade, p. 54; Mayer, H.E., The Crusades, London, 1972, p. 82.

(3) حسن حبشى : الحروب الصليبية الأولى، ص٩٨.

لقب نائب المقدم الأعظم Prior في إنجلترا. وكانت مهمته هي الإشراف على الهبات والأملاك التي تحصل عليها الجماعة من الجزيرة البريطانية، وتدشين الفرسان الجدد وإرسالهم مع الهبات والإيرادات تباعًا إلى مقر الجماعة الرئيسي في مدينة بيت المقدس. وبذا يكون هيو قد وضع أساس مركز جديد لجماعة فرسان الداوية في إنجلترا، وهذا تطور آخر للجماعة، لأنه بتأسيس هذا المركز ضمن هيو وصول الأموال والعتاد والفرسان تباعًا إلى الجماعة في مركزها الرئيسي في الأراضي المقدسة[1] وبذلك يتجنب المشكلة التي واجهت الصليبيين من قبل وهي تناقص عدد المحاربين.

واستمر هيو دي باينز في جولاته في الغرب الأوربي حتى عام ١١٢٩م/ ٥٢٣هـ[2] واستطاع أن يجمع الكثير من الهبات والعطايا، كما نجح في أن يضم عددًا كبيرًا من النبلاء والفرسان إلى جماعته[3]. كما أقام مراكز جديدة للجماعة في فرنسا وأسبانيا[4]، وفيها كان الفرسان الجدد يتدربون على جميع فنون القتال وعلى عمليات حراسة المدن والقلاع[5].

وأخيرًا في نهاية عام ١١٢٩م/ ٥٢٣هـ، عاد هيو دي باينز إلى بيت المقدس وبرفقته عدد كبير من الفرسان والنبلاء ممن رغبوا في الانضمام لجماعته[6] وبذلك نجح في تحقيق أكثر من هدف من رحلته إلى الغرب، وضم عددًا كبيرًا من الفرسان إلى جماعته، وفي تلك الفترة أصبحت الجماعة قادرة بما توفر لها من إمكانيات مادية وبشرية على القيام بعملية حماية الحجاج المسيحيين،

(1) Addison, Op. Cit., p. 27.
(2) William of Tyre, Op. Cit., II, p. 40.
(3) Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 53.
(4) Addison, Templars, p. 36.
(5) Roger of Wendover, Flowers, I, pp. 257 - 258.
(6) William of Tyre, Ibid.

ونتيجة لكل ما تقدم اجتمع أعضاء الجماعة وانتخبوا هيو دى باينز ليكون أول مقدم لجماعة فرسان الداوية[1].

وطبيعى بعد هذه الزيادة التى طرأت على عدد فرسان الجماعة، الذين كان عددهم حتى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ لا يتجاوز تسعة[2]، أن تصبح الهيئة فى حاجة ماسة إلى زيادة رقعة الأماكن التى خصصت لها فى مدينة بيت المقدس. ويبدو أن هيو دى باينز قد طلب من الملك بلدوين الثانى زيادة مساحة الأماكن المخصصة لجماعته فى المسجد الأقصى الذى أصبح يحمل اسم معبد سليمان وفى معبد الرب، حتى تتسع لإيواء هؤلاء الفرسان الجدد، فوافق الملك على هذا الطلب. وكان أن أقام فرسان الداوية كنيسة جديدة لهم فى الجزء الشرقى من المسجد الأقصى[3] بالإضافة إلى الكنيسة الأخرى التى بنوها عند قبة الصخرة[4] كما خصصوا بعض الأماكن فى هذا المسجد لتكون بمثابة مخازن للأسلحة وملؤوها بالنبال والدروع والسيوف، التى كان استعمالها قاصرًا على أعضاء الجماعة. وحرم على أى فرد مهما بلغ منصبه أن يتعدى على هذه الأسلحة[5].

كذلك استولت الجماعة على الأجزاء العلوية من الجانب الغربى من المسجد الأقصى، وجعلوها بمثابة حجرات يقيم فيها أعضاء الجماعة، وأقاموا قاعة كبيرة لتناول الطعام، ووضعوا فى تلك الأجزاء صهاريج كبيرة ملؤوها بالمياه[6]. أما الأجزاء السفلى من هذا الجانب فى المسجد فقد جعلوها بمثابة

---

(1) Addison, Op. Cit., p. 11.
(2) William of Tyre, Op. Cit., I, p. 525.

(3) الأصفهانى: الفتح القسى، ص١٤٧، وأيضًا :

John of Wuzburg, Description, p. 21; Theoderich, Description, pp. 22, 31.

(4) ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط)، ج٧، ورقة ٧٥ – ٧٦.

(5) Theoderich, Op. Cit., p.31.
(6) Theoderich, Ibid.

مخازن للملابس والأسلحة والأطعمة والأخشاب الخاصة بالجماعة[1] . كما استخدموا السراديب التى تقع تحت المسجد الأقصى كاسطبلات للخيول والدواب[2] ، وقاموا بنزع القناديل والفسيفساء[3] ، ووضعوا بدلاً منها الدروع والسهام[4] كما وضعوا على جدران المسجد بعض الصور والتماثيل[5] . وهكذا قام فرسان الداوية بتغيير معالم المسجد الأقصى، ذلك المكان المقدس الذى له روعته وإجلاله فى نفوس المسلمين، فهو أول القبلتين وثالث الحرمين وأحد المساجد الثلاثة العظيمة والمقدسة عند المسلمين[6] والتى تشد إليها رحالهم[7] وعلى هذا كشف أفراد جماعة فرسان الداوية، كغيرهم من الصليبيين عن حقدهم على العروبة والإسلام[8] . أما فى خارج المسجد الأقصى، فقد أقام فرسان الداوية بعض التحصينات حول المسجد[9] . كما خصصوا جزءًا من الأراضى المواجهة لقبة الصخرة، والتى تقع عند باب الرحمة، لإقامة مقابرهم عليها[10] .

ونتيجة للظروف التى كان يعانى منها الصليبيون، وعلى رأسها مشكلة تناقص المحاربين فى تلك الفترة اتسعت دائرة أعمال الجماعة، حيث تعهدوا فى

---

(1) الأصفهانى : المصدر السابق، ص١٣٧، وأيضًا :

John of Wuzburg, Op. Cit., p.21.

(2) العينى : عقد الجمان (مخطوط)، ج١٣، قسم ١، لوحة ٤٢، وأيضًا :

John of Wuzburg, Description, p.21.

(3) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط)، ج٧، ورقة ٧٥ – ٧٦.

(4) Addison, Templars, p. 33.

(5) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، وقة ٧٧.

(6) المساجد الثلاثة هى : المسجد الحرام فى مكة، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس.

(7) الأصفهانى : الفتح القسى، ص١٢٢ – ١٢٣.

(8) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين، الإسكندرية ١٩٦٧، ص٢٦٣.

(9) Theodorich, Description, p. 33.

(10) ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ورقة ٨٠.

عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ بحماية الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة[١] بعد أن تحول كل الصليبيين فى نظر الجماعة إلى حجاج مسيحيين[٢] . ويعتبر هذا التحول تطورًا كبيرًا فى النواحى العسكرية للجماعة، فبعد أن كانوا مكلفين بحماية الحجاج المسيحيين وهم فى طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة، أصبحوا مكلفين بحماية الكيان الصليبى فى الشرق الأدنى الإسلامى بصورة عامة وبدأت الجماعة ممارسة عملها الجديد فى عام ١١٣١م/ ٥٢٥هـ بأن تعهدت بحماية مدينة بيت المقدس من أى هجوم يشنه المسلمون عليها[٣] ، وكان ذلك بعد وفاة الملك بلدوين الثانى فى ٢١ أغسطس ١١٣١م/ ٢٤ رمضان ٥٢٦هـ[٤] وتتويج فولك الأنجوى **Fulk** ملكًا على المدينة المقدسة[٥] ، وبعد وفاة جوسلين أمير الرها[٦] ، فى وقت انغمس فيه الصليبيون فى المنازعات والخلافات الداخلية[٧] .

وهكذا شرع فرسان الداوية فى ممارسة عملهم الجديد. وقاموا بتجديد التحصينات والأسوار حول مدينة بيت المقدس، وأضافوا إليها العديد من الأبراج لحماية أسوارها[٨] ، ومنها البرج الذى كان يقع شرق المدينة[٩] .

---

(1) Fetellus, Description of the Holy Land, cf. P.P.T.S., vol. V, part I, p. 39.

(2) Barber, The Knights, p. 225; Joshwa Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1973, p. 256.

(3) Theoderich, Description, p. 31; Fetellus, Description, p. 39.

(٤) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٣٣، وأيضًا :
William of Tyre, A History, II, pp. 45 - 46.

(5) William of Tyre, Op. Cit., p. 47.

(6) William of Tyre, Op. Cit., p. 52.

(7) Michaud, Histoire, II, pp. 84 - 85.

(8) Theoderich, Description, p. 46.

(٩) مؤلف مجهول : شفاء القلوب فى أخبار بنى أيوب، (مخطوط)، لوحة ٣٤ب.

ونتيجة لتكاثر أعضاء الجماعة، واتساع مجال أعمالهم[١] وزيادة أملاكهم[٢] أن ظهرت طبقة جديدة بالإضافة إلى الطبقتين السابقتين اللتين تألفت منهما، وهم الفرسان ورجال الدين، وأصبحت الجماعة تتألف من ثلاث طبقات لكل منها مهامها الخاصة بها. فكانت الطبقة الأولى تتكون من كبار القادة والفرسان، وهم من طبقة النبلاء[٣] وكان القادة يقومون بتدبير شئون الجماعة، وأما الفرسان فلهم المهام الحربية. أما الطبقة الثانية فتشتمل على رجال الدين وهم الإشراف على النواحى الدينية للجماعة، وليس لهم الحق فى التدخل فى النواحى العلمانية[٤]. وأما الطبقة الثالثة فكانت تعرف باسم الاخوة المساعدين Fratres Servients[٥] وهم من الفئات الوضيعة من الرجال أحرار المولد[٦] الذين عهد إليهم القيام بوظائف مختلفة، فساعد البعض فى الأعمال الحربية، حيث تولوا مهمة تقديم الخدمات لطبقة الفرسان فى ساحة القتال، وتزويدهم بالأسلحة والخيول بقدر احتياجاتهم. وسمح لهذه الفئة من الاخوة المساعدين بأن يتسلحوا بالسيوف والأقواس والدروع للدفاع عن أنفسهم فى ميدان القتال[٧].

وهناك فئة أخرى فى هذه الطبقة الثالثة عهد إليها بصنع الأسلحة اللازمة للجماعة، وفريق آخر عهد إليه بالقيام بعمليات البناء بالنسبة لمنشآت

---

(1) Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 53.

(2) William of Tyre, A History, I, p. 526; Roger of Wendover, Flowers, I, p.468; Amadi, Chronique, I, p. 29.

(3) Lacroix, Les Chevaliers, pp. 220 - 221; Mayer, The Crusades, p.82.

(4) Treece, H., The Crusades, NewYork, 1964, p.137.

(5) William of Tyre, Op. Cit., I, p. 526.

(6) Lacroix, Ibid.

(7) Addison, Templars, p. 70.

الجماعة المدنيـة والعسـكرية بالإضافـة إلى حفـر الخنـادق، بينمـا قـام فريـق آخـر بإعداد الطعام وتقديمه لباقي أعضاء الجماعة، وتولت فئة أخرى زراعـة الأراضـي التابعة للجماعة[1].

مما سبق ذكره يتضح أن طبقة الاخـوة المسـاعدين هـي التـي ألقـي علـى عاتقها معظم الواجبات الخاصة بالجماعة حتى يتفـرغ كـل مـن المحـاربين ورجـال الدين من أفراد الطبقتين الأولى والثانية للأعمال التي كلفوا بها.

ونتيجة لزيادة أعضاء الجماعـة ظهـرت منـاصب جديـدة، منهـا منصـب المارشال Marechal الذى كلف بالإشراف على العمليات الحربية التي تقوم بها الجماعة. وكانت رتبته تلي رتبة المقدم الأعظم ويتـولى سـلطاته فـي حالـة وفاتـه لحين اختيار مقدم جديد. كما ظهر منصب أمين المال الذى كان عليه الإشـراف على النواحي المالية للجماعة، والقيام بجمع الإيرادات والضرائب والاحتفاظ بهـا في خزينة الجماعـة الخاصـة، وتوزيـع إنفاقهـا فـي الجوانـب المتعـددة التـي تحتـاج الجماعة لها. ولأهمية الدور الذى يقوم به، مُنح من السلطات ما يلي رتبة المقدم والمارشال، وكان هو الآخر بوسعه ممارسة سلطة المقدم الأعظم في حالة غيابه هـو والمارشال.

وبعد أن أصبح للجماعة زى مميز لها، ظهر منصب جديد وهـو المشـرف على الملابس Draper الذى كلف بإعداد الملابس المميزة لأعضائهـا والإشـراف على توزيعها. كما ظهر منصب آخر وهو حامل الراية Balcanifer الذى كـان عليه حمل راية الجماعة المميزة، والتي تكونت من لونـين أحدهمـا أبيـض والآخـر أسود. ويفسر المؤرخ جاك دى فترى سبب اختيار الجماعة لهذين اللونـين بقولـه: «أما اللون الأبيض فهو دلالة الصفاء والطهارة ووداعة جماعة فرسان الداوية فـي

---

(1) Ludolph von Suchems, Description of the Holy Land, Cf. P.P.T.S., vol. XII, part 3, London, 1895, p. 40.

علاقاتهم باخوانهم المسيحيين، وأما اللون الأسود فهو دلالة على قسوتهم وضراوتهم مع أعدائهم»[1]. كما ظهر منصب جديد في الجماعة وهو منصب حامي الكنيسة الصغيرة Guardian of the Chapel الذي كلف بحمل كنيسة صغيرة[2] وكان عليه أن يصحب أعضاء جماعة فرسان الداوية عند خروجهم من المقر الرئيس في بيت المقدس لأي غرض من الأغراض يتطلب بقاءهم في الخارج لفترة طويلة ولا يستطيعون أداء صلواتهم، لذلك حمل هذا المتولي تلك الكنيسة الصغيرة ليتسنى لأعضاء الجماعة أداء صلواتهم[3].

وكان من الطبيعي بعد أن ازدادت أملاك الجماعة وزادت الهبات والعطايا المقدمة إليها، أن أصبح لها ختم مميز. وكان هذا الختم على شكل دائرة توسطها نجمة سداسية تتوسطها دائرة رسم بداخلها حمل صغير يحمل بإحدى قدميه الأماميتين راية الداوية المميزة ذات اللونين الأبيض والأسود[4] وقد عهد بهذا الختم إلى أمين المال في الجماعة[5].

وأخذت الهبات والعطايا تنهال عليها. ففي عام ١١٣١م/ ٥٢٥هـ وضع ألفونسو الأول Alphonso I ملك نافار وأراجون في شمال إسبانيا وصيته التي نص فيها على أن تقسم مملكته بعد وفاته إلى ثلاثة أقسام يخصص قسم منها لجماعة فرسان الداوية باعتبارهم حماة المسيحية في المشرق[6]. وفي عام ١١٣٥م/ ٥٢٩هـ، أرسل ستيفن Stephen ملك إنجلترا الكثير من الهبات والأموال إلى الجماعة بمناسبة توليه العرش الإنجليزي[7].

---

(1) Jacques de Vitry, Jerusalem, p.52.

(٢) لعل المقصود خيمة على هيئة كنيسة صغيرة يمكن حملها، وتطوى وتفرد بسهولة.

(3) Addison, Templars, pp. 71 - 72.

(4) Addison, Op. Cit., p. 4.

(5) Addison, Op. Cit., p. 70.

(٦) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عنان، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ص١٦٧.

(7) Roger of Wendover, Flowers, I, pp. 483 - 484.

وهكذا أخذ ملوك الغرب يغدقون الهبات على تلك الجماعة، مما كان له أكبر الأثر على نموها واتساع نفوذها وامتداد دائرة نشاطها، وفى ٢٤ مايو ١١٣٦م / ٢٠ شعبان ٥٣٠هـ توفى هيو دى باينز[1] أول مقدم لجماعة فرسان الداوية والذى بذل جهدًا كبيرًا لتركيز دعائمها سواء فى الشرق الأدنى الإسلامى أو فى الغرب اللاتينى. وطبقًا لمبادئ الجماعة فقد تم فى عام ١١٣٦م/ ٥٣٠هـ اختيار مقدم جديد يدعى روبرت دى كراون Robert de Craon[2] ليخلف هيو فى منصبه.

مما سبق يتضح أن جماعة فرسان الداوية لم تظهر بشكلها وأعدادها المعروفة طفرة واحدة، ولكنها بدأت بتسعة فرسان فى منتصف عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ، وبداية عام ١١١٩م/ ٥١٢هـ. وظلت تتطور خطوة بعد أخرى بفضل الجهود التى يبذلها الفارس هيو دى باينز، والتأييد الكامل من قبل الملك بلدوين الثانى والبطريرك جورمون، كذلك بفضل الجهود التى بذلها القديس برنارد دى كليرفو، وأخيرًا مباركة البابا هونوريوس الثانى لها. والشىء الجديد الذى أوجدته تلك الجماعة والذى اعتبر بمثابة تطور لحركة الرهبنة والديرية فى الغرب الأوربى، هو أن تلك الجماعة قد مزجت منذ نشأتها بين صفتين من صفات العصور الوسطى الأوربية وهما الرهبنة والفروسية، أى الدين والحرب، باعتبارهما الركيزتان الأساسيتان اللتان ارتكزت عليهما تلك العصور. وجدير بالذكر أن هذا النظام قد عرفه المسلمون فى عصر الفتوحات بوجه عام. وكان يتمثل فى نظام الأربطة التى جمعت بين الصفتين الحربية والدينية، حيث ارتبطت

(1) Michel le Syrien, Chronique, III, p. 201.

(2) فارس فرنسى من أصل نبيل انضم إلى جماعة فرسان الداوية بعد وفاة زوجته وصحب هيو دى باينز أثناء عودته من الغرب اللاتينى انظر

William of Tyre, A History, II, p. 104; Addison, templars, p. 37

حركة الفتوحات الإسلامية بفكرة الجهاد[1] باعتبار أن الجهاد في سبيل الله يمثل الركن السادس من أركان الإسلام الخمس، والواجب على كل مسلم قادر على القيام به إن استطاع إليه سبيلا.

وحتى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ كانت جماعة فرسان الداوية لاتزال ذات صبغة علمانية، إلى أن انعقد مؤتمر تروى الكنسى، وأقر المبادئ الخاصة بها، والتى أكدت الارتباط الوثيق بين حياة الرهبنة وممارسة الأعمال الحربية[2]، وبذا أصبح أفراد تلك الجماعة يلبسون مسوح الرهبان، وفى الوقت نفسه يقاتلون على ظهور الخيل، وقد نشأ هذا النظام واكتمل فى ظل الصراع الصليبى الإسلامى فوق رقعة الشرق الأدنى.

ومن هنا ارتبطت تلك الجماعة ارتباطًا وثيقًا بطرفى الصراع بين المسلمين والصليبيين، وأصبحت بالتالى طرفًا ثالثًا فيه. والخلاصة أن تلك الجماعة بعد أن نالت تأييد البابا هونوريوس الثانى اكتسبت بذلك الصفة الشرعية، وأصبح لها لباسها المميز، وزاد عدد أعضائها، ولم تقتصر مهامها على إرشاد المسيحيين، بل أصبح أعضاؤها قادرين على حماية الحجاج، بل والقيام بحماية الكيان الصليبى الذى أخذ يتداعى شيئًا فشيئًا، وذلك بعدما انضم إليها نخبة ممتازة من الفرسان المدربين الذين كانوا على معرفة بطرق المسلمين المجاورين فى الحرب والقتال بحكم متاخمتهم لهم. وأصبحت الجماعة بمثابة جيش دائم يتميز عن سائر الجيوش الصليبية الإقطاعية الأخرى[3] بعدم نضوب معينه، بل وتميزت أيضًا عن الجماعات الرهبانية الأخرى ذات الصبغة الدينية البحتة.

---

(١) عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الإسكندرية ١٩٦٧، ص٢١٢، حاشية٣٧.

(2) Archives de L'Orient Latin, I, p. 565.

(3) Cahen, C., La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche, Paris, 1940, p. 510.

وعلى هذا سدت تلك الجماعة فراغًا كبيرًا فى حياة الصليبيين فى الأراضى المقدسة فى وقت كانوا يعانون فيه الأمرّين من قلة الإمدادات بسبب انشغال الغرب عنهم بمشاكله الداخلية فيما بينهم. وهنا يظهر دور هذه الجماعة التى جمعت بين الصفتين الدينية والعسكرية على مسرح الأحداث فى المصادمات والمعارك الدامية التى احتدمت بين المسلمين والصليبيين فى الفترة المتبقية من عصر الحروب الصليبية، وسوف تكشف الفصول التالية عن ذلك.



الفصل الثانى

العلاقات السياسية بين الداوية والمسلمين
فى الشرق الأدنى حتى نهاية الحكم الفاطمى فى مصر
(١١٣٦ - ١١٧٢ م / ٥٣٠ - ٥٦٧هـ)

١-دور الداوية فى الهجوم على مدينة بزاغة، وحصار قلعة شيزر عام ١١٣٨م/ ٥٣٢هـ.

٢-الداوية والمشاركة فى الحملة الصليبية الثانى (١١٤٧ - ١١٤٩م/ ٥٤٢ - ٥٤٤هـ).

٣-جهود الداوية في حصار الصليبيين لعسقلان عام ١١٥٣م/ ٥٤٨هـ، ونتائجه.

٤-الداوية والقبض على نصر بن عباس عام ١١٥٤م/ ٥٤٠هـ.

٥-موقف الداوية من الملك عمورى الأول (١١٦٢ - ١١٧٤م/ ٥٥٧ - ٥٦٩هـ) وانعكاسه على علاقاتهم بالمسلمين فى الشرق الأدنى.

٦-علاقة الداوية بثورس الأرمينى، وآثاره على علاقاتهم بالمسلمين.

استعرضنا فى مقدمة الكتاب تطور حركة الحج من الغرب اللاتينى إلى الأراضى المقدسة منذ فجر المسيحية حتى قيام الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى)، وأثر تلك الحركة في ظهور جماعة مسيحية رهبانية كانت الأولى من نوعها فى تاريخ الرهبنة والديرية فى الغرب، وهى جماعة يلبس رجالها مسوح الرهبان وفى الوقت نفسه يقاتلون على ظهور الخيل. وقد تطورت حركة الحج المسيحية عند قيام الحروب الصليبية التى كانت جماعة الفرسان الداوية من نتائجها. وأوضحنا فى الفصل الأول من الكتاب كيف ظهرت ونمت جماعة فرسان الداوية، خلال السنوات الأولى من بداية الحركة الصليبية، والمراحل التى مرت بها حتى أصبحت هيئة رسمية معترفًا بها من كلا السلطتين الدينية والمدنية في الغرب المسيحى والشرق اللاتينى آنذاك. وهكذا تطورت تلك الجماعة ونمت خطوة بعد أخرى بعد أن زاد عدد فرسانها، وتعددت طبقاتها، واتسعت أملاكها، وزادت مهام أفرادها ابتداءً من إرشاد الحجاج المسيحين إلى حمايتهم، ثم إلى العمل على حماية الكيان الصليبى فى الشرق الأدنى الإسلامى بقوة السلاح. وقد شغل هذا التطور الفترة من ٢٨ أبريل ١١١٨ إلى ٢٤ مايو ١١٣٦م (٥ محرم ٥١٢ - ٢٠ شعبان ٥٣٠هـ)، عندما توفى هيو دى باينز أول مقدم لها وتم اختيار روبرت دى كراون ليخلفه فى منصبه.

وفى عهد المقدم الجديد بدأت الجماعة مرحلة هامة وخطيرة من مراحل تطورها، ألا وهى المشاركة الفعلية فى الصراع الدائر فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى بين المسلمين والصليبيين، مما سيكون له أكبر الآثار

على مجريات الأحداث في تاريخ المنطقة. حقيقة إن هذا الدور لم يظهر طفرة واحدة، إذ سار هو الآخر خطوة بعد أخرى إلى أن وضحت معالمه وأصبح يشكل حجر الزاوية في الصراع الصليبي الإسلامي إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

فلقد رأى روبرت دى كراون أن إمكانيات الجماعة العسكرية في تلك المرحلة تؤهلها للاشتراك في الصراع القائم بين المسلمين والصليبيين، وكان وقتها صراعًا عنيفًا مريرًا. وعلى هذا أخذ يعد العدة من أجل تحقيق هذا الدور. وكان أول اشتراك عسكرى في هذا الصدد عام ١١٣٨م/ ٥٣٢هـ عندما ساهمت فرقة صغيرة من فرسان الداوية لا تتعدى عشرة فرسان مع القوات الصليبية المتحالفة مع جيش الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين John Comnenus (١١١٨ - ١١٤٣م/ ٥١٢ - ٥٣٨هـ) في الهجوم على مدينة بزاغة[1] في ١٨ أبريل ١١٣٨م/ ٢٥ جب ٥٣٢هـ، والتي كانت تخضع آنذاك للمسلمين، وقد نجحت القوات المتحالفة في الاستيلاء عليها. كما شاركت فرقة الداوية تلك والقوات في حصار قلعة شيزر[2] وكانت هي الأخرى تحت سيطرة المسلمين.

---

[1] بزاغة : بلدة تقع شرقي حلب وعلى بعد ستة فراسخ منها. انظر : ياقوت الحمرى: معجم البلدان، ج٢، ص١٦٢.

[2] شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام تقع بالقرب من معرة النعمان ويجرى بها نهر الأردن. انظر: ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٤، وعن أحداث استيلاء الصليبيين على بزاعة انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٦٥ - ٢٦٦؛ ابن منقذ: الاعتبار، ص١١٣؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص٣٦؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص٧٨، سبط بن الجوزى، مرآة الزمان، ج٨، ورقة ٩٩؛ ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط)، ج٦، ورقة ٣٦١؛ بدر الدين الدمشقي : الدر الثمين في سيرة نور الدين (مخطوط)، ورقة ٤٤؛ العيني: عقد الجمان، ج٢١، قسم ١، لوحة ٩٨ - ٩٩؛ انظر أيضًا :=

ولم تشر المصادر الغربية التي بين أيدينا إلى الدور الذى قام به فرسان الداوية على وجه التحديد فى تلك الأحداث. وربما يرجع ذلك إلى قلة عدد من اشترك منهم فى تلك الوقائع، وتواضع الدور الذى قاموا به آنذاك، بحيث أغفلته مصادر العصر الأجنبية من لاتينية وأرمينية وبيزنطية. أما المصادر العربية فلم تذكر شيئًا محددًا عن اشتراك فرسان الداوية بالذات فى تلك الأحداث، بل اكتفت بإطلاق لقب الفرنج على الصليبيين جميعًا بما فيهم الداوية من غير تحديد فئاتهم وجنسياتهم. ولقد درجت المصادر العربية -عادة- على إطلاق كلمة الفرنج على أهل الغرب اللاتينى دون تمييز، اللهم إلا فى حالات قليلة نادرة.

وعلى الرغم من قلة عدد فرسان الداوية الذين اشتركوا فى الأحداث المذكورة، وعلى الرغم من تواضع الدور الذى قاموا به آنذاك، فإن اشتراكهم يمثل فى واقع الأمر نقطة تحول كبيرة فى نشاط الجماعة لها مغزاها ودلالتها. فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى اشترك فيها فرسان من الداوية مع جيش نظامى من الصليبيين والبيزنطيين فى الهجوم على بعض المدن الإسلامية. وهذا يمثل تطورًا فى الخطط الحربية لجماعة فرسان الداوية. فبعد أن التزم الداوية بسياسة الدفاع فى الفترة السابقة المبكرة، أصبحوا يشاركون الآن مشاركة فعلية فى عمليات الهجوم ضد جيرانهم المسلمين. وإذا كان دورهم العسكرى قد بدأ متواضعًا فى الهجوم على

=William of Tyre, A History, II, pp. 93 - 94; Michel le Syrien, Chronique, III, p. 245; Cinnamus, J., Epistome Historiarum, Cf. C.S.H.B., Bonn, 1836, pp. 18 - 20; Nicetas Choniates, Historia, Cf. C.S.Hb., Bonn, 1835, pp. 37 - 40; Rohricht, R., Konigreichs Jerusalem (1100 - 1291), Innsbruch, 1898, p. 211.

بزاغة وقلعة شيزر فى بدايات القرن الثانى عشر الميلادى (أوائل القرن السادس الهجرى)، فقد تبلور بعد ذلك إلى هجوم أكبر وأوسع نطاقًا.

ويظهر هذا الدور الجديد واضحًا فى الوقعة التى قامت بين قوات الداوية وحامية عسقلان الفاطمية عام ١١٤١م/ ٥٣٥هـ، فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية فى مصر والشام تسير سريعًا نحو الضعف والانهيار بينما ظهرت قوى إسلامية فتية فى أعالى الشام والعراق بدأت فى تكتيل المسلمين فى الشرق الأدنى وتوحيد صفوفهم لدفع الخطر الصليبى، وكان من بين روادها الأول مودود وآقسنقر وعماد الدين زنكى.

وترجع أسباب قيام المعركة بين الداوية وحامية عسقلان إلى أن الملك الصليبى فولك Folke of Anjou قد استغل حالة الركود التى كانت عليها القوات الإسلامية وقتذاك[1] وقام بالإغارة على القرى الإسلامية التى تقع بالقرب من البحر الميت فى ديسمبر ١١٤٠م/ جمادى الأولى ٥٣٥هـ، وأراد روبرت دى كراون مقدم الداوية أن يستغل هذه المناسبة ويلحق بالملك الصليبى ليشاركه فى عمليات الإغارة. لذا جمع فرسان الداوية وبعض الصليبيين ممن كانوا فى بيت المقدس وسار للحاق بالملك الصليبى[2] وعندما علمت حامية عسقلان الفاطمية بتحرك هذه القوة الصليبية، أسرعت بالاتجاه إلى السهل الذى يقع بين عسقلان ومدينة الخليل[3] علها

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٣.

(2) William of Tyre, A History, II, p. 102.

(٣) الخليل : مدينة تقع بالقرب من بيت المقدس بها قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، وتقع بين جبال فلسطين التى تكسوها الأشجار الكثيفة. انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٣، ص٤١؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص٢٤٠ – ٢٤١.

تجد مجالاً رحبًا للكر والفر، وهو فن أجاده المسلمون آنذاك. هذا وقد علم روبرت دى كراون بأخبار التحرك الإسلامى، فصمم على الاشتباك مع حامية عسقلان. والتقى الفريقان فى ٢١ رمضان ٥٣٥هـ/ ٣١ أبريل ١١٤١م، حيث اتبعت القوات الفاطمية فى تلك المعركة التكتيك الذى اتسمت به العمليات العسكرية للمسلمين فى معاركهم ضد الصليبيين بصفة عامة[١] وذلك بأن تظاهرت بالارتداد والفرار من أمام القوة الصليبية بعد أن تركت لها بعض الغنائم حتى تقع فى الخدعة. ويصور المؤرخ وليم الصورى حالة روبرت دى كراون ومن معه فى تلك اللحظة بقوله: «إنه شعر بأن النصر قريب، فأخذ يلاحق المسلمين فى نفر قليل من قواته، فى حين انشغل الباقون فى جمع الأسلاب وكأنهم واثقون من تحقيق النصر على المسلمين، وعلى هذا تفرقت صفوف الصليبيين هنا وهناك»[٢] وكانت تلك هى الفرصة التى تنتظرها حامية عسقلان. فسرعان ما استدارت ونظمت صفوفها وشنت هجومًا مفاجئًا على الصليبيين الذين انتابهم الذعر من هول المفاجأة[٣]. ويستمر المؤرخ وليم الصورى فى تصويره تلك الحالة بقوله : «لقد ألقت أصوات الأبواق وكثرة الصراخ وصهيل الجياد وبريق الأسلحة وهتاف القادة، بالإضافة إلى الغيوم الناتجة من تصاعد الأتربة، ألقت الرعب فى قلوب الصليبيين، وجعلتهم فى حيرة من أمرهم وفريسة سهلة للمسلمين

---

(١) عن التكتيك العسكرى للمسلمين انظر :

Smail, R.C., Crusading Warfare (1097 - 1193), Cambridge, 1956, pp. 76 - 78.

وانظر أيضًا : عبد الرؤوف عوف : الفن الحربى فى صدر الإسلام، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٥٢ - ٢٥٣.

(2) William of Tyre, A History, II, p. 104.

(٣) العينى : عقد الجمان، ج٢١، قسم ١، لوحة ١٢٠.

وحاول بعضهم الفرار إلى المناطق الجبلية القريبة، ولكن سهام الفاطميين وسيوفهم كانت أسبق إليهم، فضلاً عن هلاك البعض الآخر بسبب شدة انحدار السفوح الجبلية. لكل ذلك سقط الكثير من فرسان الداوية قتلى، وكان من بينهم ايود دى مونتفوكون Eudes de Montfaucon –ماريشال الجماعة– والذى أحدث قتله صدمة كبيرة للجماعة فى بيت المقدس»[١]. ولم ينجُ من المعركة، والتى وصفها وليم الصورى بالمذبحة، سوى روبرت دى كراون ونفر قليل من الصليبيين[٢]، فى حين عادت حامية عسقلان محملة بالأسلاب والغنائم[٣].

ويمكن إرجاع هزيمة الداوية إلى عدة أسباب، منها تهور روبرت دى كراون وتصميمه على ملاحقة المسلمين والابتعاد عن قواته الرئيسية[٤]. وكذلك انشغالهم بجمع الأسلاب من غير أن يتخذوا أية وسائل دفاعية لصد أى هجوم مفاجئ. هذا بالإضافة إلى براعة حامية عسقلان فى تنفيذ عملية الارتداد والهجوم فى خفة وسرعة بصورة أربكت الصليبيين وأوقعت الخبل فى صفوفهم، وجعلتهم فى حالة واضحة من الذعر. وهكذا قدر لجماعة فرسان الداوية أن تتلقى هزيمة منكرة عندما شرعت فى القيام بمفردها بأول عملية هجوم كبير مسلح على المسلمين، وشاء طالعهم أن تكون تلك الهزيمة على يد القوات المصرية.

(1) William of Tyre, Op. Cit., II, pp. 104 - 105.

(2) William of Tyre, Op. Cit., II, p. 105.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٣؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص٥٢؛ العينى: عقد الجمان، ج٢١، قسم ١، لوحة ١٢٠.

(4) Boase,T.R., Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London, 1971, p.86.

وكان لتلك الهزيمة نتائج بعيدة المدى. إذ شاهد فرسان الداوية عن قرب أسلوب المسلمين فى القتال، وتعرفوا بعد تجربة مريرة على تكتيكاتهم العسكرية. وعلى هذا وضعوا خططهم العسكرية بحيث تتلاءم مع أسلوب المسلمين فى القتال. ولعل هذا يفسر بقاء قوات الداوية فى مؤخرة الجيوس الصليبية أثناء زحفها للقتال -فيما بعد- لمواجهة أى هجوم خاطف للمسلمين. ومن نتائج هذه الهزيمة أيضًا، أنْ أدرك فولك ملك بيت المقدس الصليبى عدم جدوى ملاقاة المسلمين فى العراء بدون تحصينات دفاعية قوية، وعلى هذا شرع فى بناء العديد من القلاع الصليبية، وكان من بينها قلعة صفد[١] التى عهد لجماعة فرسان الداوية بحمايتها فى عام ١١٤١م/ ٥٣٦هـ[٢] وذلك نظرًا للخبرة التى اكتسبوها فى أعمال الدفاع[٣] من جهة، ومعرفتهم بطرق المسلمين فى الحرب والقتال من جهة أخرى.

وقد شرع فرسان الداوية فى زيادة تحصينات قلعة صفد وتقويتها. فأقاموا برجًا كبيرًا فى الجانب الغربى منها[٤] وعملوا على تعلية أسوارها، واستغلوا فى سبيل ذلك الصخور الضخمة الموجودة فى تلك

---

(١) صفد : مدينة على جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، كانت تتحكم فى الطرق المؤدية من عكا إلى دمشق، وكلمة صفد لها معنيان : أحدهما الصفد وهو العطية لأن الصليبيين أعطوها للداوية، والثانى الصفت أى الصفاء. راجع : ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٥، ص٣٦٧، وأيضًا Bennard, L., An Arabic Account of the Province of Safed, Cf. Bulletin of School of Oriental and African Studies, vol. XV, Part 3, London, 1953; Mayer, The Crusades, p. 151; Winer W.M., Castles of the Crusades, London, 1966, pp. 24 - 28.

(2) Burchard, Description of Mount Sion, Cf. P.P.T.S., vol.12, London, 1896, p.27.

(3) Smail, The Crusade, pp. 113, 119.

(4) Theoderic, Description, p. 68.

المنطقة[1] ، وبنوا أيضًا مستودعًا كبيرًا لتخزين المياه، وهكذا أصبحت قلعة منيعة[2] محصنة[3] قامت بدور واضح في الصراع الصليبي الإسلامي.

ونهج ريموند أوف بواتييه Raymond of Poitou أمير أنطاكية اللاتيني (١١٣٦ - ١١٤٩م / ٥٣٠ - ٥٤٤هـ) نهج الملك الصليبي فولك بأن عهد لجماعة فرسان الداوية في عام ١١٤٢م / ٥٣٧هـ بحماية قلعة بغراس شمال أنطاكية[4] تحت تبعيته[5] وهكذا اتسع نطاق الدور الذي قام به جماعة فرسان الداوية بهدف جعل ميزان القوى في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي في صالح الصليبيين.

ولما كانت القلاع المذكورة تقع بعيدًا عن مقر الجماعة الرئيسي في بيت المقدس وكان من الصعب على فرسان الداوية سرعة الانتقال إليها، في وقت كانت فيه وسائل المواصلات صعبة بطيئة محفوفة بمخاطر الطريق، فقد انقسم هؤلاء الفرسان إلى العديد من الفرق العسكرية، وتولت كل فرقة

---

(1) Burchard, Op. Cit., p. 27.

(2) العيني : عقد الجمان، ج١٢، قسم ١، لوحة ٦٠.

(3) الأصفهاني : الفتح القسي، ص٢٦٩، ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٤، ص٩٥، القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠م/ ١٣٣٠ - ١٣٣٨هـ، ج٧، ص٢٢ - ٣٣

(4) بغراس : مدينة على جبل اللكام في شمال أنطاكية، وعلى بعد اثني عشر ميلاً منها، وبها قلعة مرتفعة ولها أعين وواد وبساتين، وتقع على الجبل المطل على عمق حارم من جهة الشرق، كما تقع إلى الجنوب من دربساك. انظر:ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٢٤٥، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٢٥٨-٢٥٩، العيني : عقد الجمان، ج١٢، قسم ١، لوحة ٥٧ - ٥٨.

(5) William of Tyre, A History, II, p. 184; Rohricht, Konigreiches, p. 297; Nikita Elisséeff, Nur Addin un Grand Prince Musulman de Syrie au Temps des Croisades, Damas, 1967, I, p. 179.

حماية قلعةمن تلك القلاع[١] تحت سلطة قائد بها كان بمثابة نائب للمقدم الأعظم فى تلك القلعة[٢]. واتسعت مع الزمن مهمة هذه الفرق فى تلك القلاع، فلم تقتصر على الحماية فحسب، بل تعدتها إلى مراقبة أية تحركات للجيوش الإسلامية وتبليغ مقدم الجماعة بذلك[٣].

ولكن عندما انقلب ميزان القوى فى المنطقة لصالح المسلمين بعد حركة الإفاقة الإسلامية فى بواكير القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى)، استطاع عماد الدين زنكى أن يسترد مدينة الرها - أول إمارة أسسها اللاتين فى الشرق الأدنى الإسلامى -فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة ٥٣٩هـ / الرابع من ديسمبر ١١٤٤م[٤] من الصليبيين الذين انتابهم الذعر والهلع، فراسلوا الغرب اللاتينى لسرعة إرسال النجدات إلى الشرق، وقد حذا روبرت دى كراون حذوهم، وأخذ يحث كبار قادة الداوية فى الغرب الأوربى، وعلى الأخص إيفرارد دى بار

---

(1) Letter of Eugenius III, dated 16 June 1154, cf. Archives de Malté, Vol. 8, Piéce I, ed. Le Roulx, Documents des Templiers, Paris, 1882, p. 11.

(2) Addison, Templars, p. 74.

(3) Treece, The Crusades, p. 139.

(4) William of Tyre, A History, II, pp. 140 - 143.

وأيضًا : ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩ - ٢٨٠، ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ٩٤ - ٩٦؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٦٥-٦٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص ٩٣ - ٩٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٦١هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢م، ج ٥، ص ٢٧٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط) ج ٧، ورقة ٣٦٦؛ الفيومى، نثر الجمان، ورقة ٩٤ (أ)؛ ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٢٣ (ب)؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ١، لوحة ١٤١ - ١٤٢؛ ابن الفرات : تاريخ الدولة والملوك (مخطوط)، ج٤، لوحة ٥٦؛ بامخرمة : قلادة النحر، ج٤، ورقة ١٤٣؛ الدمشقى : الدرر الثمين، ورقة ٤٨.

نائبه في فرنسا، على سرعة إرسال الفرسان إلى Everard de Barres الشرق[1]، وثارت ثائرة الغرب الأوربي نتيجة لذلك وأخذ يعد العدة لإرسال حملة جديدة إلى الشرق الأدنى، وقام البابا إيوجين الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣م / ٥٤٠ - ٥٤٨هـ) بدور كبير في الإعداد لها، حيث أخذ يحث الملوك والنبلاء ورجال الدين وعلى رأسهم القديس برنارد دى كليرفو للدعوة لها[2] وفي إطار الاستعدادات للحملة الجديدة قام إيفرارد دى بار بجمع مئة وثلاثين من فرسان الداوية في فرنسا، سار بهم حتى التقى بالبابا إيوجين الثاني في مدينة باريس عام ١١٤٧م/ ٥٤٢هـ، وأعلن له عن استعداد هؤلاء الفرسان للمشاركة في الحملة المقترحة، فسر البابا لذلك، وخلع على أولئك الفرسان شارة الصليب الأحمر والتي وضعها على ملابسهم البيضاء[3] كرمز للتضحية، وبذل الدماء في ساحة القتال[4]، ومنذ ذلك الحين أصبح الثوب الأبيض والصليب الأحمر هما العلامة المميزة لفارس الداوية، وكان نزع هذا الصليب من ذلك الرداء يمثل أقصى ما يمكن أن يوقع من عقوبة عليه في حالة ارتكابه الخطأ، حيث يعتبر منبوذاً من الجماعة ذلك لأن شارة الصليب الأحمر كانت وساماً لكل فارس من الداوية، وعلى هذا، قامت الجماعة بتغير الراية المميزة لها،

(1) Addison, Templars, p. 28.

(2) Letter of Eugenius III, cf. R.H.G.F., Vol. XV, pp. 429 - 430; odo of Deuil, De Profection ludovice VII Orientem, New York, 1948, pp. 7 - 9, II; Roger de Hoveden, Annals of Roge de Hoveden, London, 1853, I, p. 250 ; Roger of Wendover, England, I, pp. 498 - 502; William of Tyre, A History, II, pp. 163 - 165.

(3) William of Tyre, Op. cit., I, p. 525; Jacques de Vitry, Jerusalem, p. 51; Roger of Wendover, op. cit., I, p. 239.

(4) Addison, Templars, p. 38.

وأصبحت عبارة عن راية بيضاء عليها شارة الصليب الأحمر[١]، وحث البابا إيفرارد دى بار على المشاركة فى الدعوة للحملة الجديدة، وعلى هذا قام إيفرارد بجولة فى الغرب اللاتينى ونجح فى دعوة عدد كبير من الفرسان، وجمع الكثير من الهبات لجماعته نتيجة لتنازل الكثير من دوقات فرنسا وإنجلترا وأسبانيا وإيطاليا عن أجزاء من ممتلكاتهم لتلك الجماعة[٢].

وتجهز كل من الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث Conorad III (١١٣٨ - ١١٥٢م / ٥٣٢ - ٥٤٨هـ) والملك الفرنسى لويس السابع Louis VII (١١٣٧ - ١١٨٠م / ٥٣١ - ٥٧٦هـ) بجيشهما للمشاركة فى الحملة[٣] فرحل كونراد بجيشه فى ١٥ يونية ١١٤٧م / ١٤ محرم ٥٤٢هـ وسبق الملك لويس فى التوجه نحو الشرق[٤] ووصل إلى القسطنطينية فى ١٠ سبتمبر ١١٤٧م / ١٢ ربيع ثانى ٥٤٢هـ[٥] فى حين سار الملك الفرنسى بجيشه فى النصف الثانى من يونيه ١١٤٧م (النصف الثانى من المحرم ٥٤٢هـ) وقد صحبه فرسان الداوية وعلى رأسهم إيفرارد دى بار الذى عينه الملك لويس أمينًا للمال فى جيشه[٦] وقام إيفرارد بدور بارز فى الأحداث التى وقعت أثناء توجه الملك الفرنسى إلى الشرق الأدنى، فكان مبعوث الملك إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين

---

(1) Jacques de Vitry, Jerusalem, pp. 29 - 30.
Amadi, Chroniques, II, p. 29.

(2) Letter of Eugenius III, cf. R.O.L., Vol XI, Paris, 1908, 407.

(3) Odo of Deuil, Ludovice VII, p. 11; Roger de Hoveden, Annals, I, 500, Roger of Wendovea, England, I, p. 250.

(4) Odo of Deuil, op. cit., VII, p. 15.

(5) Nicetas, Historia, p. 88.

(6) Odo of Deuil, op. cit., VII, p. 54.

(١١٤٣- ١١٨٠م / ٥٣٧ - ٥٧٦هـ)، وأقسم نيابة عن الملك يمين الطاعة والولاء للإمبراطور البيزنطى، والمحافظة على الأملاك البيزنطية، كما طلب إيفرارد من الإمبراطور البيزنطى فتح الأسواق البيزنطية أمام سفارة الملك الفرنسى[١] . بينما تولى فرسان الداوية حماية مؤخرة الجيش الفرنسى أثناء زحفه، كذلك قاموا بدور هام فى المعركة التى نشبت بين السلاجقة والجيس الفرنسى عند مدينة أضاليا فى يناير ١١٤٨م / شعبان ٥٤٢هـ عندما أهمل الكونت مايورين Mourienn عم الملك الفرنسى -والذى كان يتولى قيادة مقدمة الجيش- ما عهد إليه من مهام وخلد إلى الراحة فاستغل السلاجقة ذلك، وشنوا هجومًا مفاجئًا على مقدمة الجيش التى أصابها الذعر وسقط منها الكثير ولم ينقذها سوى حلول الظلام[٢] وفى تلك الظروف قام فرسان الداوية بدور كبير فى إعادة تنظيم صفوف الجيش الفرنسى، فتركوا المؤخرة مع حماية الملك الفرنسى، وانتقلوا إلى الصفوف الأمامية، ونجحوا فى إعادة الطمأنينة إلى بقية القوات الفرنسية مما كان له أكبر الأثر فى ارتداد السلاجقة، ونتيجة هذا الدور الذى قاموا به أعجب الملك بشجاعتهم وحسن استعداداتهم[٣] ، حتى أنه خول لإيفرارد من السلطات ما جعل بقية القادة فى الجيش ينصاعون لأوامره[٤] . وبذا اتضح أهمية الدور الذى قام به فرسان الداوية منذ رحيل الملك الفرنسى من الغرب اللاتينى حتى وصوله إلى الشرق الأدنى فى ١٩ مارس ١١٤٨م / ٢٦ شوال ٥٤٢هـ[٥] .

---

(1) Odo of Deuil, Ludovice VII, pp. 53, 77 - 83.

(2) Odo of Deuil, op. cit., VII, pp. 115 - 123; William of Tyre, A History, II, pp. 175 - 178.

(3) Odo of Deuil, op. cit., VII, pp. 123 - 125.

(4) Smail, Crusading Warfare, . 97.

(5) William of Tyre, A History, II, pp. 179 - 180.

وبينما كان فرسان الداوية يؤدون هذا الدور فى الغرب الأوربى وأثناء زحف الجيش الفرنسى، قامت جماعتهم فى المشرق الإسلامى بحشد فرسانهم استعدادًا للمشاركة فى الحملة المرتقبة[1] .

أما عن الإمبراطور كونراد، فقد نجح فى الوصول إلى ميناء عكا فى منتصف أبريل ١١٤٨م / أواخر ذى القعدة ٥٤٢هـ بعد ما تعرض جيشه لهزيمة ساحقة على يد السلاجقة[2] . وقد شارك الداوية فى استقبال الإمبراطور، وسمحوا له بالإقامة فى مقرهم الرئيسى فى بيت المقدس[3] ولما اكتمل وصول معظم الصليبيين إلى الشرق الأدنى[4]، قرر القادة عقد مؤتمر فى مدينة عكا فى الرابع والعشرين من يونية ١١٤٨م / الثالث من صفر ٥٤٣هـ حضره الإمبراطور كونراد وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢م / ٥٣٩ - ٥٥٧هـ) والملك لويس السابع، وفوشييه بطريرك بيت المقدس، ورئيس أساقفة قيسارية ومقدمو الداوية والاستبارية[5] وأن حضور روبرت دى كراون مقدم الداوية هذا المؤتمر لأول مرة لمناقشة أمور الصليبيين مع هؤلاء القادة، لدليل على مدى ارتفاع شأنه بحيث أنه أصبح يُعامل على قدم المساواة مع كبار القادة الصليبيين

---

(1) Nikitam Nur Ad - Dim, II, p. 404.

(٢) عن أحداث تلك الهزيمة انظر :

Odo of Deuil, ludovice VII, p. 98; Cinnamus, Epitome, pp. 80 - 81; Nicitas, Historia, pp. 86 - 89.

(3) Otto of Fresing, The Deeds of Eredrick Barbarosa, New York, 1953, p. 102.

(٤) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٧؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ١، لوحة ١٧٧ - ١٧٨.

(5) William of Tyre, A History, II, . 185.

الذين قرروا فى المؤتمر المذكور التوجه لحصار مدينة دمشق[1] .

وفى إطار الاستعداد لهذا الحصار واجهت الملك الفرنسى مشكلة نفص الأموال للصرف على قواته، فاضطر إلى أن يقترض مبلغًا كبيرًا من جماعة فرسان الداوية لمواجهة هذا الاتفاق[2] وهذا دليل على الثراء التى كانت تتمتع به الجماعة وقتذاك من جهة، وعدم التزامهم بالمبادئ الرئيسية التى وضعت فى مؤتمر تروى السابق من جهة أخرى.

بدأ الصليبيون فى حصار دمشق فى ٢٨ أغسطس ١١٤٨م / ١٠ ربيع الثانى ٥٤٣هـ، ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها[3] وعلى الرغم من الدور الذى قام به الداوية، إلا أن المصادر الغربية والعربية على السواء أغفلت تمامًا ذكر اشتراكهم فى حصار دمشق مما يلقى ظلالاً من الشك حول عدم مشاركتهم فى هذا الحصار، ولكن ثمة دليل قد يؤكد اشتراكهم فى هذا الدور، وهو يتمثل فى تلك الرسالة التى بعث بها يوستاس Eustace أمين مال جماعة الداوية إلى إيفرارد الذى انتخب مقدمًا للجماعة بعد وفاة

---

(1) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨، وأيضًا :

William of Tyre, op. cit., II, p. 186.

(2) Letter of Louis VII to Suger, cf. F.H.G.F., Vol. XV, p. 497; Roger de Hoveden Annals, I, p. 250.

(3) ابن القلانس:المصدر السابق، ص ٢٩٨ - ٣٠٠، أسامة بن منقذ : الاعتبار، ص ٩٥؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٨٥ - ٨٦؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص ٥١ - ٥٥؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١١٢ - ١١٣؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج٨، ورقة ١٢٠ - ١٢١؛ ابن أيبك : كنز الدرر، ج٦، ورقة ٢٧٣؛ الفيومى : نثر الجمان، ورقة ٨؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ١، لوحة ١٧٨؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج٤، لوحة ٩٢؛ بامخرمة : قلادة النحر، ج ٤، ورقة ٢٢٠ - ٢٢؛ الدمشقى : الدرر الثمين، ورقة ٥٤، وأيضًا :

William of Tyre, A History, II, pp. 187 - 194; Michel le Syrien, Chronique, III, pp. 274 - 277; Roger de Hoveden Annals, I, 250 ; Roger of Wendover, Flowers, I, pp. 501 - 502.

روبرت دى كراون فى عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ، وقد سافر إلى فرنسا حيث أقام فى بلاد الملك لويس[1] ، وفى هذه الرسالة أشار يوستاس إشارة عابرة إلى اشتراك الداوية فى حصار دمشق، وذكر الخسائر التى منوا بها بعد فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق والتى قدرت بحوالى سبعة آلاف دينار[2] ولكنه لم يوضح فى تلك الرسالة تفاصيل دور الداوية فى عملية الحصار، ولعل له العذر فى ذلك نظرًا لأن طبيعة عمله جعلته لا يهتم إلا بالنواحى المالية للجماعة فحسب.

وعلى أية حال، لم تكن مشاركة الداوية للصليبيين في حصار دمشق هى العمل الوحيد الذى قاموا به فى تلك الفترة، فعندما اشتد الصراع بين ريموند أمير أنطاكية ونور الدين محمود صاحب حلب، ساندت فرقة الداوية فى بغراس ريموند فى موقفه، واشتركت معه فى الاشتباك مع جيش نور الدين محمود فى ٢٩ يونية ١١٤٩م / ٢٠ صفر ٥٤٤هـ، وقد انتهت تلك المعركة بانتصار نور الدين على الفرنج، ومقتل ريموند فى ساحة القتال[3] .

ولما علم الملك الصليبى بأخبار تلك الوقعة، طلب من جماعة الداوية فى بيت المقدس حشد فرسانهم والتوجه إلى أنطاكية خشية أن يستولى عليها نور الدين فى وقت خطت فيه حركة الإفاقة الإسلامية خطوات واسعة

---

(1) Letter of Louis VII to Suger, cf. R.H.G.F., Vol. XV, pp. 496, 407.

(2) Letter of Eustace to Everard des Barres, of Addison, Templars, pp. 43 - 44.

(3) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٤ - ٣٠٥؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٩٥، أبو شامة: الروضتين، ج١، ص ٥٧ - ٥٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١٢٠ - ١٢١، ابن أيبك، كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٧٥؛ الفيومى : نثر الجمان، ورقة ١٢؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٤، لوحة ٩٣؛ بامخرمة : قلادة النحر، ج٤، ورقة ٢٣٠، وانظر أيضًا : William of Tyre, A History, II, pp. 195-199; Roger de Hoveden, Annals, I, pp. 502 - 503.

فحشد الداوية مائة وعشرين فارسًا وألفًا من الأخوة المساعدين، وساروا مع بلدوين الثالث حتى بلغوا أنطاكية بمشقة بسبب مضايقات المسلمين لهم[1] وكان لوصول تلك القوات إلى أنطاكية أثر كبير فى تهدئة مخاوف من بها[2] بينما أدرك نور الدين صعوبة الاستيلاء على المدينة[3] فاتجه لحصار حارم[4] التى تقع بالقرب منها.

وكان لتلك الهزائم المتتالية التى منى بها الصليبيون آنذاك أن عمل بلدوين الثالث على تقوية القلاع الصليبية وشحنها بالمقاتلة لتصبح سندًا للصليبيين عند مواجهة المسلمين فى أى ميدان، ولذا عهد لجماعة فرسان الداوية فى ديسمبر ١١٤٩م / شعبان ٥٤٤هـ بتولى حماية مدينة غزة[5]، فقاموا بتحديد سوارها[6]، وبناء قلعة حصينة على تل عال فى وسطها وضعوا بها فرقة كبيرة من فرسانهم[7]، وأصبحت الاتصالات الخارجية لهؤلاء الفرسان تتم عن طريق البحر[8]. وبذلك أضيفت للجماعة مهمة

---

(1) Letter of Eustace, cf. Addison, Templars, pp. 43 - 44.

(2) William of Tyre, op. cit., II, pp. 200 - 201.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٣٩.

(4) حارم : بلدة صغيرة ذات قلعة وأشجار ونهر صغير، تقع بالغرب من أنطاكية وغربى حلب، انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٣، ص ١٩٩، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٢٥٩، وعن حصار نور الدين لها انظر : ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٥؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص ٥٨، ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١٢٢.

(5) William of Tyre, A History, II, pp. 202 - 203; Jacques de Vitry, Jerusalem, pp. 14 - 15.

(6) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٨.

(7) William of Tyre, op. cit., II, p. 203.

(8) King, Haspitalles, p. 50.

جديدة وهى الدفاع عن مدينة غزة[١] . ولعلنا نخلص مما سبق أن جماعة الداوية بدأت تنغمس بشكل واضح فى الصراعات العسكرية الدائرة فوق رقعة الشرق الأدنى بين المسلمين والصليبيين وأصبحت طرفًا ثالثًا فيها.

ومنذ رحيل المقدم إيفرارد دى بار إلى فرنسا عام ١١٤٨م / ٥٤٣هـ، ظل يوستاس أمين المال يتولى سلطات المقدم الأعظم للجماعة، وعلى الرغم من الرسائل العديدة التى أرسلها يوستاس إلى إيفرارد والتى أوضح له فيها حرج موقفه بسبب غيابه، وحاجة الجماعة إليه[٢] ، وعلى الرغم من الرسائل التى أرسلها سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس بفرنسا إلى القديس برنارد[٣] وإلى بطرس رئيس أساقفة دير كلونى[٤] ، يطلب فيها تقديم المساعدة لجماعة فرسان الداوية فى الشرق اللاتينى، وإقناع إيفرارد بضرورة العودة إلى مقر الجماعة الرئيسى، وعلى الرغم من كل هذا وذلك وبدلاً من أن ينصاع إيفرارد هذه التوسلات، فقد تنازل عن سلطاته كمقدم للجماعة فى ٢٦ أبريل ١١٥٠م / ٢٦ ذى الحجة ٥٤٤هـ[٥] واعتكف فى دير كليرفو[٦] حيث أمضى بقية حياته[٧] .

وفى الوقت نفسه تلقت جماعة فرسان الداوية فى الشرق العديد من

---

(1) Cahen, Syeria, p. 511.

(2) Letter of Eustace, cf. Addison, Templars, p. 44.

(3) Letter of Suger to St. Berrnard, cf. T.H.G.F., Vol. XV, p. 614.

(4) Letter of Suger to Petro, dated 1150, cf. R.H. G.F., Vol XV, p. 523.

(5) Letter of Suger to Everard de Barres, dated 1150, cf. R.H.G.F., Vol XV, p. 650.

(6) Letter of Petro to Suger dated 1150, cf. R.H.G.F., Vol. XV, p. 416.
Letter of Petro to Everard dated 1150, cf. R. Addison, Templars, p. 44.

(7) Addison, Templars, p. 44.

الهبات والعطايا من أهل الغرب اللاتينى، ومن ريمون برنجار أمير برشلونة وقد وافق البابا على منح الداوية تلك الهبات، وحث الجماعة على بذل المزيد من الجهد للمحافظة على الإمارات اللاتينية فى الشرق الأدنى[١] .

ونظرًا لتنازل إيفرارد عن سلطاته، فقد تم اختيار برنارد دى تريميلاى Berrnard de Tremelay[٢] ليخلفه فى منصبه عام ١١٥١م / ٥٤٦هـ[٣] ، هذا، بينما استمر بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اللاتينى فى منح الداوية بعض القلاع الصليبية، فعهد إليهم فى عام ١١٥٢م / ٥٤٧هـ بحماية مدينة انطرطوس[٤] بعد أن استولى عليها نور الدين وهدم أسوارها ثم رحل عنها[٥] . لذا قام الداوية بإعادة بناء السور، وأضافوا إليه العديد من الأبراج، كما أقاموا بعض التحصينات فى المدينة[٦] . وعلى هذا بدأ الصليبيون يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على الهيئات الدينية والعسكرية، وخاصة جماعة فرسان الداوية فى صراعهم ضد المسلمين[٧] ، وتجلى هذا الأمر عندما

---

(1) Archives de Cassolas, cf. R.O.L. Vol XI, p. 407.

(٢) برنارد دى تريميلاى : فارس فرنسى انضم إلى جماعة فرسان الداوية عام ١١٢٨م / ٥٢٢هـ، وصحب هيوذى بايينز عند عودته إلى بيت المقدس، انظر :

William of Tyre, A History, II, p. 515.

Addison, Templars, p. 44.

(3) Addison, Ibid.

(٤) انطرطوس : مدينة مشهورة كانت ثغرًا من ناحية بلاد الروم، وتقع علي ساحل بحر الشام، وهى مدينة فى غاية الخصب وعلى درجة كبيرة من المناعة، انظر : أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٢٤٩؛ بنيامين التطيلى، رحلة بنيامين، ص ٨٦، حاشية (٣)؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج١، ص ٢٥٩.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٨؛ الدمشقى : الدر الثمين، ورقة ٦٤.

(6) Smail, The Crusade, pp. 68, 132; Mellville, La vie Templiers, p. 28.

(7) Smail, The Crusade, p. 23; Edward, The Trail, p. 23.

قامت طائفة الإسماعيلية[1] فى عام ١١٥٢م / ٥٤٧هـ بقتل ابن ريموند الثالث أمير طرابلس (١١٥٢ - ١١٨٧م / ٥٤٧ - ٥٨٣هـ) فى كنيسة مدينة انطرطوس. لذا طلب ريموند من الداوية ضرورة التصدى لتلك الطائفة فقاموا بالإغارة على قلاعهم، ونجحوا فى فرض جزية عليهم قدرها ألفا دينار ذهبى[2].

وعندما قرر بلدوين الثالث حصار مدينة عسقلان، وكانت آنذاك تابعة للسيادة الفاطمية، طلب من فرسان الداوية المشاركة فى هذا العمل والاستعداد له[3]. فصنع الداوية بعض الآلات الحربية لهذا الغرض، ومن بينها برج عال يسير على عجلات خشبية[4]. وتقدم الجيش الصليبى بقيادة الملك بلدوين الثالث ومعه فرقة من فرسان الداوية تألف معظمها من فرسان الداوية فى غزة[5]، وكانت على قيادتهم المقدم برنارد تريميلاى، وكذلك

---

(1) الإسماعيلية : طائفة من الشيعة، ويعرفون أيضا بالحشيشية والفداوية، وكانت لهم قلاع عديدة فى الشام مثل حسن القضر والشعر وبكاس والقدموس والعليقة ومصياف، وكانوا يأتمرون بأمر رئيس لهم يسمى شيخ الجبل، انظر بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين، ص ٨٧ - ٨٨؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ٢٤٩؛ وجاء فى القلقشندى : أن الإسماعيلية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية وأنهم يعرفون فى ديوان الإنشاء بالقصاد وبين العامة بالفداوية. راجع : القلقشندى : صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦.

(2) William of Tyre, A History, II, p. 392; Oliver Padenborn, The Capture of Damietta, Philadelphia, 1948, p. 51.

ولمزيد من التفاصيل عن تلك الحادثة انظر :

عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية ١٩٥٨، ص ١٦٣، عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامي، بيروت، ١٩٧٠، ص ١١٣.

(3) William of Tyre, op. cit., II, p. 218.

(4) William of Tyre, A History, II, p. 226.

(5) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٨.

صحبهم عدد كبير من الأخوة المساعدين فى الجماعة، وقد نجح الصليبيون فى ضرب الحصار حول المدينة فى يناير ١١٥٣م / ذى القعدة ٥٤٧هـ. وقد عهد للداوية بتولى القطاع المواجه لسور المدينة، حيث وضعوا البرج الخشبى وبدأوا فى قذف السور. واستمر حصار الصليبيين للمدينة حتى مساء يوم الأربعاء السابع من أبريل ١١٥٣م / التاسع من المحرم ٥٤٨هـ عندما نجح أحد المسلمين من المدافعين عن عسقلان فى إشعال النيران فى برج الداوية فى تلك الليلة، ولكن حدث أن هبت فى تلك الآونة رياح معاكسة، قذفت بالنيران وجزء كبير من البرج المحترق تجاه سور المدينة، وبلغ من شدة هذه الرياح أن ظلت النيران مشتعلة معظم الليل ولم يجرؤ أحد من المدافعين عن عسقلان على التقدم لإخمادها، فأدى هذا إلى تصدع جزء من السور، وإحداث ثغرة ضيقة به، وعندما هدأت النيران فى فجر يوم الخميس ٨ أبريل / ١٠ المحرم، اندفع فرسان الداوية الذين كانوا على مقربة من تلك الثغرة، ونجح أربعون منهم ومعهم المقدم برنارد فى النفاذ من خلالها ودخول المدينة، فلما شعر المدافعون عن المدينة بذلك، تصدوا لفرسان الداوية وقتلوهم جميعًا، ونجحوا فى سد تلك الثغرة[1] بعد أن ارغموا بقية الجيش الصليبى خارج المدينة على التقهقر للخلف[2] وابتهاجًا بهذا النصر الذى حققه أولئك المدافعون على الصليبيون، قاموا بوضع رؤوس قتلى الداوية

(1) William of Tyre, op. cit., II, pp. 226 - 227.

(٢) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص ١٢٥؛ أبو شامة : الروضتين، ج١، ص ٨٩ – ٩٠؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٧، ورقة ١٣٠ – ١٣١؛ ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٧١ – ٣٨٠؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢٢، قسم ٢، لوحة ٢٣٦؛ الدمشقى : الدرر الثمين، ورقة ٦٦.

على أسوار المدينة[١]. وربما أرادوا من هذا الإجراء إضعاف الروح المعنوية عند الصليبيين خارج المدينة، والتلويح لهم بأن مصيرهم سيشابه مصير أولئك القتلى إذا ما حاولوا الإقدام على اقتحام المدينة مرة أخرى. وقد ترك ذلك أثره في نفوس الصليبيين، إذ شعروا بعدم جدوى محاصرة المدينة، خاصة وأنها كانت تتلقى الإمدادات عن طريق البحر بواسطة السفن الفاطمية[٢].

ويبرر المؤرخ وليم الصورى[٣] وبعض المؤرخين الحديثيين أسباب هزيمة الداوية فى هذه الحادثة، بأن فرسانهم عندما حدثت الثغرة فى السور اندفعوا إليها دون أن يستأذنوا الملك بلدوين الثالث، وأن بعض فرسان الداوية وقفوا بجانب تلك الفجوة ولم يسمحوا إلا لزملائهم من الجماعة بالنفاذ عبرها إلى داخل المدينة، وذلك حتى يكون للداوية السبق فى الحصول على الغنائم والأسلاب.

ويدافع المؤرخ اديسون عن الداوية فى تلك الحادثة بقوله : إننا فى الحقيقة، لو حللنا موقف الداوية فى تلك الحادثة لوجدنا أنهم بعيدون عن هذه التهمة فى تلك المرحلة من الصراع الصليبى الإسلامى؛ ذلك لأن طبيعة القتال وظروف الحصار قد دفعت بفرسان الداوية –وكانوا أقرب المحاربين إلى تلك الفجوة– إلى اغتنام الفرصة والنفاذ عبرها دون أن يلتمسوا موافقة الملك وكان الهدف من ذلك ألا يعطوا للمدافعين عن المدينة فرصة إغلاق

---

[١] أبو شامة . الروضتين، ج١، ص ٩٠؛ ابن الجوزى : المصدر السابق، ج٨، ورقة ١٣٠ – ١٣١، ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٧٩ – ٣٨٠؛ الدمشقى : المصدر السابق، ورقة ٦٦.

(2) **William of Tyre, A History, II, p. 227.**

(3) **Röricht, Königrichs, p. 276; Grousset, Histoire, II, p. 359; Smail, Crusading Warfare, p. 96; King, Hospitalles, p. 51; Treece, The Crusudes, p. 142.**

تلك الفجوة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد اتهم وليم الصورى فرسان الداوية بأنهم منعوا بقية الجيش الصليبى من النفاذ عبر الفجوة وكان هذا سببًا فى ضعف القلة من الداوية التى عبرت من خلالها، ولكن يجب أن تؤخذ تلك الرواية بشيء من التحفظ، ذلك لأنه من غير المعقول أن يتمكن بقية الفرسان من الداوية، وهم قلة بالنسبة لبقية الجيش، من منع بقية القوات الصليبية من دخول المدينة عبر تلك الفجوة، ومن غير المعقول أيضًا أن يظن أولئك الفرسان أن زملائهم الأربعين قادرون بمفردهم على دحر من بداخل المدينة من المدافعين المسلمين، وبذا يكون لهم السبق فى الحصول على الغنائم، هذا بالإضافة إلى أنه لو حدث بالفعل وقام فرسان الداوية بهذا الإجراء، لكان من الطبيعى أن يقدم الملك الصليبى على معاقبة من ظل من الداوية على قيد الحياة خارج الأسوار، أو على الأقل يطلب من البابا إنزال العقاب بتلك الجماعة باعتبارها تابعة له مباشرة، ولكن المؤرخ وليم الصورى الذى انفرد بذكر هذه التهمة وتلك الأحداث، ونقل عنه بقية المؤرخين الغربيين القدامى والحديثيين لم يذكروا إطلاقًا أن الملك بلدوين الثالث أو البابا قد أوقعا أى عقاب على جماعة فرسان الداوية بعد ذلك، بل على العكس من ذلك، نجد البابا انستاس الرابع Anastase IV (١١٥٣ - ١١٥٤م / ٥٤٨ - ٥٤٩هـ) يمتدح شجاعة الداوية بعد هذه الحادثة مباشرة، ويطلب من رجال الدين فى الغرب اللاتينى تقديم العون والمساعدة لهم[1]، ويمنحهم من التسهيلات ما يمكنهم من مواصلة دورهم العسكرى فى رقعة الشرق الأدنى[2]، وعلى هذا يمكن القول بأن فرسان الداوية نفذوا من

---

(1) Addison : Templars, p. 53 - 55.

(2) Letter of Pope Anastase IV dated 25 June 1154, cf. R.O.L., Vol, XI, pp. 409 - 410.

تلك الفتحة بمجرد حدوثها دون أن يتلقوا إذنًا من الملك نظرًا للظروف الحربية التى كانت تقتضى وقتها مثل هذا التصرف، وأن ضيق الفجوة، وسرعة سدها بواسطة المدافعين عن المدينة هو وحدة الذى منع بقية الجيش الصليبى من دخول المدينة وما ترتب على ذلك من آثار، ولكن هذا لا ينفى تهمة الجشع عليهم، لأنهم أثبتوا فى الأحداث التالية أنهم يستحقون تلك الصفة.

وعلى أية حال، فقد قام الداوية بدور غير مباشر فى استيلاء الصليبيين على عسقلان فى التاسع عشر من أغسطس ١١٥٣م / آخر جمادى الأولى ٥٤٨هـ فعندما استبد اليأس بالصليبيين نتيجة لطول فترة الحصار، عزموا على الرحيل ولكن أتاهم الخبر بأن المدافعين عن عسقلان قد اختلفوا فيما بينهم لأن كل طائفة منهم ادعت أن لها الفضل فى إنزال الهزيمة بالداوية، فوقع بينهم الخصام وقتل منهم رجل، فعظمت الفتنة، وتحاربوا وتركوا الأسوار بدون دفاع، فاستغل الصليبيون هذه الفرصة وهجموا على المدينة، فطلب أهلها الأمان وتم لهم ما أرادوا[1]. وعلى هذا يمكن القول بأن فرسان الداوية قد قاموا بدور غير مباشر فى الاستيلاء على المدينة، كما كان لهم أيضًا دور مباشر عن طريق مشاركة من ظل على قيد الحياة من الداوية الصليبيين فى فتح المدينة.

---

(1) William of Tyre, A History, II, pp. 230 - 233.

انظر أيضًا : ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٨؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١،ص ١٢٥؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج ٨، ورقة ١٣٠ – ١٣١، أبو شامة : الروضتين، ج١، ص ٨٩ – ٩٠؛ ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٧٩ – ٣٨٠؛ الفيومى : نثر الجمان، ورقة ٢٣ (ب)؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ٢، لوحة ٢٣٦؛ ابن الفرات : تاريخ الدول و الملوك؛ ٤، لوحة ٦٣؛ الدمشقى : الدرر الثمين، ورقة ٦٦.

ولم تكن تهمة الجشع التي ألصقها بهم وليم الصوري بالنسبة لأحداث عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ هي التهم الوحيدة، بل عاد واتهمهم بنفس التهمة مرة أخرى في عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ[١]، وشاركه في ذلك المؤرخ وليم دى نانجى[٢] وتفصيل ذلك أن فرسان الداوية في غزة خرجوا لمقاتلة الوزير الفاطمي عباس وابنه نصر، اللذين قاما بقتل الخليفة الفاطمي الظافر (١١٤٩ - ١١٥٤م/ ٥٤٤ - ٥٤٩هـ)[٣] وكانا قد فرا في اتجاه الشام محملين بالنفائس، وقد تمكن الداوية من قتل عباس وأسر ابنه نصر[٤]. فطلب طلائع ابن رزيك من الداوية تسليم نصر له مقابل ستين ألف قطعة ذهبية مصرية، فوافق الداوية وسلموا له نصر مقيدًا بالسلاسل حيث حُمل إلى مصر، ووضع في قفص حديدى وقام نساء القصر بضربه بالقباقيب أيامًا متوالية، ثم صلب على باب زويلة[٥].

---

(1) William of Tyre, A History, II, p. 253.

(2) Guillelmi de Nangiaco, Chronicon, cf. R.H.G.F., Vol XX, p. 73.

(٣) هو إسماعيل الظافر بالله بن عبد المجيد الحافظ لدين الله ولد عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه في عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، وكان ميالاً لنصر، وقتل في ٢٩ محرم ٥٤٩هـ / ١٥ أبريل ١١٥٤م، راجع : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٨؛ ابن أيبك : درر التيجان، ورقة ٤٩٦؛ العينى : عقد الجمان، ج٢١، قسم ٢، لوحة ٢٤١، وعن أسباب قيام عباس وابنه نصر بقتل الخليفة الظافر، راجع : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٩؛ ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ١٣٦ - ١٣٧؛ ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٢٥؛ الفيومى : نثر الجمان، ورقة ٢٦؛ ابن الفرات : تاريخ الدول، ج ٥، لوحة ٧٦؛ بامخرمة : قلادة النحر، ج٤، ورقة ٢٢٥؛ ابن أبى السرور : عيون الأخبار، ورقة ١٥٣؛ الدمشقى : الدر الثمين، ورقة ٦٨.

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق، ص ٣٣٠، ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٨٣ - ٣٨٤؛ ابن الشحنة : المصدر السابق، نفس الورقة؛ العينى : المصدر السابق، ج ٢١، قسم ٢، لوحة ٢٤٤، الفيومى : المصدر السابق، ورقة ٢٧، وأيضًا :

William of Tyre, Ibid; Guillelmi de Nangico, Ibid.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٠؛ ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٦، ورقة ٣٨٣ -٣٨٤.

لقد اتهم كل من وليم الصورى ووليم دى نـانجى الداوية بالجشـع، لأنهم أعادوا نصر إلى مصر، ويقول وليم الصورى : «إن الداوية فضلـوا أن يحصلوا على تلك الأموال بـدلاً مـن إطلاق سـراح نصـر الـذى أعلـن عـن استعداده لاعتناق المسيحية والخروج عن دين الإسلام»[1].

ومرة أخرى يدافع المـؤرخ اديسـون عـن الداويـة فـى تلـك الحادثـة بقوله: الواقع أن ما أورده كل من وليم الصورى ووليـم دى نـانجى لا يتفـق والصفات التى يجب أن يتحلى بها الفارس فى العصور الوسـطى، ولكـن إذا كان الداوية قد قـاموا بتلسـيم نصـر للمصريـين، فهـذا يرجـع إلى أنـه قـاتل للخليفة الفاطمى، وأنه يجب أن ينـال عقابـه حتـى ولـو كـان المقتـول عـدوًا للصليبيين، هذا من ناحية ومـن ناحيـة أخـرى فـإن جميـع المؤرخـين الغربيـين المعاصرين للحروب الصليبية، ومن بينهم وليم الصـورى ووليـم دى نـانجى، قد أجمعوا على أن فرسان الداويـة قـد قدمـوا للصليبيـين خدمـات عسـكرية عديدة ولذا فضل الداوية النقود لتقوية أنفسهم بها والاستمرار فـى دورهـم السابق، عن إطلاق سراح نصر الـذى لـو كـان قـد دخـل المسيحية –كمـا يذكر وليم الصورى– فإن ذلك لـن يعـود علـى الصليبيـين بـأى نفـع ولعلـه يتضح مما تقدم أن وليم الصورى كان متحاملاً إلى أبعد الحـدود علـى جماعـة فرسان الداوية[2]؛ كل هذا ولم يقتنع اديسون بجشع الداوية!

وكيفما كان الأمر، ففي عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ اختارت الجماعـة برتراند دى بلانكفورت Bertrand de Blanquefort[3] ليصبح مقدمًا لهـا،

(1) William of Tyre, A History, II, p. 253.

(2) Addison, Templars, pp. 59 - 60.

[3] برتراند دى بلانكفورد : فـارس فرنسـى انضـم للجماعـة فـى مرحلتهـا الأولى، وقـد وصفـه وليـم الصورى بأنه كان نقيًا ورعًا، راجع :=

وفي عهد المقدم الجديد نجح الأمير الأرميني ثورس الثانى[1] فى انتزاع قلعة بغراس من الداوية[2]، مما دفعهم هم وأرناط صاحب الكرك وأمير أنطاكية إلى محاربة ثورس وإلحاق الهزيمة به فى عام ١١٥٥م / ٥٥٠هـ[3]، وتمكن الداوية من استعادة قلعتهم[4]، كما عهد أرناط إليهم فى تلك الفترة بحماية قلعة دربساك[5] فقام الداوية بإضافة العديد من المنشآت العسكرية إليها، وجعلوها أحسن معاقلهم[6] والمقر الثانى لهم فى الشمال[7] بعد مقرهم الرئيس فى بيت المقدس.

واستمر فرسان الداوية يشاركون فى العمليات العسكرية ضد المسلمين، ففى أوائل فبراير ١١٥٧م / أواخر ذى الحجة ٥٥٢هـ، شاركوا الملك بلدوين الثالث فى الإغارة على مراعى الخيول والمواشى فى منطقة

= William of Tyre, A History, II, p. 216.

(1) الأمير ثورس : ابن ليو الأول الأرمينى (١١٠٠ - ١١٢٩م / ٤٩٤ - ٥٢٣هـ) وقع هو وأبوه أسرى فى يد الإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين عام ١١٣٧م / ٥٣٢هـ، ووضعا فى السجن بمدينة القسطنطينية، وفى عام ١١٤٣م / ٥٣٨هـ نجح ثورس فى الفرار من سجنه واتجه إلى مدينة الرها، وتمكن بعد ذلك من استعادة أملاك أبيه إلى أن تولى عرش أرمينية الصغرى عام ١١٤٥م / ٥٤٠هـ، وظل على ذلك إلى أن توفى فى عام ٥٦٣هـ.

راجع :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 275, 308.

(2) Michel le Syrien, Chronique, IIIn, pp. 312 - 313.

(3) William of Tyre, op. cit., II, p. 254.

(4) Michel le Syrion, op. cit., III, p. 314.

(5) دربساك : قلعة مرتفعة حصينة وعلى تل عال، لها أعين وبساتين ولها من شرقها مروج متسعة، وتقع فى شمالى بغراس وبينهما نحو عشرة أميال، راجع أبو الفدا : تقوم البلدان، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(6) العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ٣، لوحة ٥٧ - ٥٨.

(7) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، (مخطوط)، ج ٢٦) لوحة ١٢٥.

الأردن بالغرب من بانياس –والتى كانت تابعة وقتذاك للصليبيين، وأسروا جماعة من الرعاة التركمان[1]، على الرغم من أن أولئك الرعاة كانوا قد حصلوا على تصريح من الملك الصليبى برعى مواشيهم فى تلك المنطقة، وبالرغم من انعقاد الهدنة وقتها لمدة عام بين نور الدين والصليبيين اعتبارًا من سبتمبر ١١٥٦م/ شعبان ٥٥١هـ[2] وقد برهن فرسان الداوية بهذا العمل، شأنهم شأن غيرهم من الصليبيين على عدم احترامهم للعهود المبرمة، كما كلفهم خرق بنود هذه الهدنة الكثير، فقد التقى جيش نور الدين مع الصليبيين، ومن بينهم الداوية، فى يوم الجمعة ٢٦ أبريل ١١٥٧م / ربيع الأول ٥٥٢هـ بالقرب من طبرية، ونجح المسلمون فى إنزال هزيمة ساحقة بالصليبيين[3] وقتلوا منهم أعدادًا كثيرة[4]، من بينهم ثلاثمائة من الداوية[5] ما بين فرسان وأخوة مساعدين[6]، كما أسروا سبعًا وثمانين فارسًا من الداوية[7] ومن بينهم المقدم برتراند نفسه[8]

---

(1) ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج ٨، ورقة ١٣٩ – ١٤٠؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ١، لوحة ٢٦٨ – ٢٦٩؛ الدمشقى : الدر الثمين، ورقة ٧٩ – ٨٠، وأيضًا :

William of Tyre, A History, II, p. 261.

(2) ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٣٦ – ٣٣٧؛ العينى : المصدر السابق، ج ٢١، قسم ١، لوحة ٢٦٨ – ٢٦٩؛ الدمشقى : المصدر السابق، ورقة ٧٩ – ٨٠، وأيضًا :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 255 - 258.

(3) Letter of Pope Hadrian IV to Archbishops of Rheims, cf. R.H.C.F., Vol XV, p. 681.

(4) ابن القلانس : المصدر السابق، ص ٣٩٨ – ٣٩٩، ابن الجوزى : المصدر السابق، ج٨، ورقة ١٤٠، العينى : المصدر السابق، ج ٢١، قسم ١، لوحة ٢٧٠، الدمشقى : المصدر السابق، ورقة ٧١، وأيضًا :

William of Tyre, op. cit, II, p. 261

(5) Leter of Pope Hadrian IV, Ibid.

(6) Addison, Templars, p. 46.

(7) Röhricht, Königreich, p. 289; Grousset, Histoire, II, p. 352; King, Hospitalles, pp. 56 - 57.

(8) William of Tyre, A History, II, p. 261.

والماريشال ايو دى سان أماند Edues de Saint Amand[1].

وكالعادة المتبعة عندما تحل الهزائم بالداوية، يبادر البابا بإرسال الخطابات إلى كبار القادة ورجال الدين فى الغرب لسرعة إرسال المساعدات إلى الداوية في الشرق اللاتينى، وبالفعل تلقت الجماعة العديد من الهبات والعطايا والأملاك فى تلك الفترة[2] وهكذا كانت ثرواتها وممتلكاتها فى تزايد مستمر، الأمر الذى أدى بالتالى إلى ازدياد نفوذها وتأثيرها.

ولم يكن نشاط الداوية قاصرًا على النواحى العسكرية فحسب، بل شارك بعضهم فى الأنشطة الأخرى فى المنطقة، بخاصة المجال الدبلوماسى، ففى عام ١١٥٩م / ٥٥٤هـ عندما اتجه الملك بلدوين الثالث لمقابلة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، اصطحب معه جوفرى Geoffery قائد فرسان الداوية لمعرفته باللغة اليونانية[3] وقد قام جوفرى بدور المترجم بين الملك والإمبراطور، ويبدو أن جوفرى قد شرح للإمبراطور البيزنطى حرج موقف جماعته بسبب بقاء مقدمها فى الأسر، لذا، عندما عقدت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين فى عام ١١٥٩م / ٥٥٤هـ، طلب الإمبراطور البيزنطى من نور الدين إطلاق سراح مقدمى الصليبيين المقيمين فى الحبس عنده، ومن بينهم برتراند دى بلانكفورت مقدم جماعة الداوية[4]. وعلى الرغم من أن المصادر الغربية والعربية لم تذكر اسم بلانكفورت من ضمن الأسرى الذى أطلق نور الدين سراحهم، إلا أن هناك دلائل على أن نور

(1) William of Tyre, Ibid.

(2) Letter of Pope Hadrian dated 1157, cf. R.O.L., Vol XII, p. 411.

(3) Addison, op. cit., p. 46.

(4) Cinnamus, Epistome, pp. 195 - 196; Historia, p. 144.

الدين قد أطلق سراحه ممثلة فى الخطاب الذى أرسله بلانكفورت نفسه إلى الملك الفرنسي لويس السابع يشرح له أهم الأعمال التى قامت بها جماعته فى الآونة الأخيرة[1] . وأيضا الرسالة التى أرسلها البابا إسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩ - ١١٨١م / ٥٥٤ - ٥٧٧هـ) فى عام ١١٦٠م / ٥٥٥هـ إلى جماعة الداوية فى الشرق اللاتينى والتى استهلها بإلقاء التحية على المقدم بلانكفورت مما يؤكد بصورة قاطعة أن بلانكفورت كان طليقًا فى تلك الفترة[2] . هذا بالإضافة إلى الرسالة التى بعث بها ارناط أمير أنطاكية إلى المقدم بلانكفورت والتى أخبره فيها عن تنازله عن بعض الأراضى القريبة من قلعة بغراس للداوية[3] . فضلاً عن قيام بلانكفورت ببعض الأعمال فيما بعد مما يؤكد أن نور الدين قد أطلق سراحه فى تلك الفترة.

وقد واصلت الجماعة دورها العسكرى واشتركت مع الصليبيين فى مباغتة القوات الإسلامية بقيادة نور الدين بالقرب من حصن الأكراد[4] فى عام ١١٦٢م / ٥٥٨هـ، وقام أفرادها بدور بارز فى تلك الأحداث، فكانوا فى الصفوف الأمامية بقيادة ماريشالهم جليبرت دى لاسى Gebbert de Lacy الذى وصفه وليم الصورى بأنه كان ذا خبرة عسكرية فذة[5] . وفى تلك الواقعة استطاع الصليبيون أن يحققوا الانتصار على المسلمين،

(1) Letter of Balnquefort to King of Franc, c.f. Addison, Templars, pp. 52 - 53.

(2) Letter of Alexander III, dated 1160, cf. R.O.L., Vol XII, p. 411.

(3) Archives de Malte, Vol 2, péce 12, cf. Documents de Templiers, p. 11.

(٤) حصن الأكراد : حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، ويقع غربى حمص، وله ربض فسيح، راجع : أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٦٥٩، ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج ٧، ص٦٤.

(5) William of Tyre, A History, II, p. 306.

وكادت الصفوف الأمامية هم أن تظفر بأسر نور الدين نفسه لولا أنه استطاع الفرار[١]. ولقد امتدح البابا إسكندر الثالث فى رسالته التى بعث بها إلى برتراند دى بلانكفورت شجاعة الداوية فى تلك المعركة، وحثهم على بذل المزيد من أجل رفع شأن الصليب فى المنطقة، كما أكد البابا فى رسالته على كل الامتيازات التى سبق أن حصلت عليها جماعة فرسان الداوية[٢] هذا بالإضافة إلى قيام رجال الدين فى الغرب الأوربى، وعلى رأسهم كبار أساقفة إيطاليا، بتقديم العديد من الهبات للداوية[٣]، كل هذا يوضح مدى حقدهم على العروبة والإسلام.

ولم تقتصر مهمة الداوية على الانغماس فى الصراع الصليبى الإسلامى إلى جانب بنى جنسهم، وعلى توسيع رقعة ممتلكاتهم والعمل على زيادة ثرواتهم فى الأراضى المقدسة، وإنما امتدت لتشمل السعى لتسوية أية نزاعات بينهم وبين العناصر اللاتينية الأخرى لتحقيق أهداف الجماعة التى أنشئت من أجلها وتقوية الصف اللاتينى فى صراعه ضد المسلمين، ففى عام ١١٦٤م / ٥٥٩هـ قاموا بحل المنازعات التى كانت قائمة بين الملك الإنجليزى هنرى الثانى Henery (١١٥٤ - ١١٨٩م / ٥٤٩ - ٥٨٥هـ) وبين رجال الدين فى الغرب الأوربى ليواجه أولئك المتنازعون جهودهم لمساعدة الصليبيين فى الشرق اللاتينى[٤]، وبالإضافة إلى القلاع التى ضمت

---

(١) ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ١٩٤، أبو شامة : الروضتين، ج١، ص ١٢٧، ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١٣٥ - ١٣٦؛ العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ١، لوحة ٣٥٤؛ ابن الفرات : تاريخ الدول، ج ٤، لوحة ٦٤.

(2) Letter of Pope Alexander III, dated 1163, cf. R.O.L., Vol. xi, p. 412.

(3) Archives de Malte, Vol. 2, Péce, 27, cf. Documents des Templiers, p. 12.

(4) Roger de Hoveden, Annals, I, p. 260.

إلى دائرة نفوذهم، والتى عهد لفرسانهم بحمايتها بكافة السبل، فقد أقاموا العديد من المنشآت العسكرية فى بعض المدن الإسلامية التى كان الصليبيون قد استولوا عليها من قبل، فقد شيدوا مقرًا جديدًا لهم فى عكا[١] ، كما بنوا بها برجًا لحفظ مينائها[٢] وإرشاد السفن[٣] ، كذلك أضافوا سورًا جديدًا إلى مدينة صفد[٤] . ومنذ عام ١١٦٧م / ٥٦٢هـ) بدأ عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٣ - ١١٧٤م / ٥٥٨ - ٥٦٩هـ) فى التوسع فى تسليم العديد من القلاع إلى فرسان الداوية، فمنحهم قلعة الفولة بفلسطين والتى أضافوا إليها بعض المنشآت العسكرية وجعلوها أحسن قلاعهم وأحسنها وأملأها بالرجال[٥] ، كما منحهم أيضًا قلاع الداروم[٦] والرملة[٧] ويبنى[٨]

---

(1) **Burchard, Description, p. 9.**
Theoderich, Description, p. 59.

[٢] الأصفهانى : الفتح القسى، ص ٢٠٨.

(3) **Theoderich, Ibid.**

[٤] العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ٣، لوحة ٣٩.

[٥] الأصفهانى: الفتح القسى، ص٩٧، حاشية (١)، العينى: عقد الجمان، ج٢١، قسم ٣، لوحة ٣٩.

[٦] الداروم : قلعة تقع بعد غزة، وبينها وبين البحر مقدار فرسخ، راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣.

[٧] الرملة : مدينة بفلسطين بناها سليمان بن عبد الملك الأموى فى خلافة الوليد بن عبد الملك، وسميت كذلك لغلبة الرمل بها، وهى مشيدة على سهل من الأرض بينها وبين كل من القدس ونابلس مسيرة يوم واحد، وهى تعتبر من جملة الثغور لأن البحر قريب منها، وإن المسافة بينها وبين البحر تقدر بثلاثة فراسخ، وهى مدينة حصينة حسنة البناء خفيفة المياه، راجع : المقدسى : أحسن التقاسيم، ليدن ١٩٠٩، ص ١٩٤؛ أبو الفدا : تقويم البلدان، ص ٢٤١؛ ناصر خسرو : سفرنامة، ص ١٩، ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج ٧، ص ٢٨٧، القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٩.

[٨] يبنى : بلدة تقع بالقرب من الرملة، راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج ٨، ص ٢٩٦.

وبيت لحم[1]، واللد[2]، والنطرون[3] ليقوموا بحمايتها[4].

وإلى جانب الأعمال العديدة التى أنيطت إلى الداوية، فقد امتد نشاطهم ليشمل القيام بمهام دبلوماسية بين المسلمين، ومن ذلك السفارة التى أرسلها الملك عمورى ملك بيت المقدس عام ١١٦٨م / ٥٦٢هـ والتى كانت تتألف من أحد فرسان الداوية ومن هيو حاكم قيسارية لعقد اتفاق بين عمورى والخليفة الفاطمى العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧هـ / ١١٦٠ - ١١٧١م) ووزيره شاور ضد نور الدين محمود[5]. وقد أرسلت هذه السافرة إلى الخليفة الشيعى فى وقت بدأت فيه حركة الإفاقة الإسلامية تبرز إلى الوجود بشكل واضح عندما قام عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين محمود بتوحيد جبهة المسلمين فى الشرق الادنى الإسلامى لمواجهة الصليبين ودفع خطرهم، وكيفما يكن، فقد شاهد جوفرى مدى الثراء الذى كان يتمتع به الخليفة الفاطمى، ولابد أنه لمس حالة الضعف التى وصلت إليها الخلافة الفاطمية آنذاك، وبالرغم من كل هذا، إلا أن الداوية وقفوا ضد رغبة الملك الصليبى، ورفضوا المشاركة فى حملته ضد مصر فى نوفمبر ١١٦٨م / صفر ٥٦٤هـ[6] عندما سارع كل من نور الدين محمود

---

(1) بيت لحم : بلدة تقع بالقرب من بيت المقدس وعلى بعد فرسخين من بيت جبرين، راجع : ياقوت الحمرى، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٢٣.

(2) اللد : قرية تقع بالشام بالقرب من بيت المقدس وعلى بعد شوط فرس من الرملة، راجع : أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٢٢٧، ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج ٧، ص ٣٢٦.

(3) النطرون : هى الماطرون قلعة بالشام تقع بالقرب من دمشق، راجع : ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٧، ص ٣٦٦.

(4) النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٦، لوحة ١٢٣.

(5) العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ٢، لوحة ٢٩٦ - ٢٩٧، وأيضًا :

William of Tyre, A History, II, p. 319.

(6) William of Tyre, op. cit., II, pp. 350 - 351.

وعمورى فى سبيل ملك مصر ليقوى بها جانب ضد خصمه، وفى الوقت الذى بدأت فيه كفه الميزان فى الصراع الصليبى الإسلامى تعتدل تدريجيًا لصالح المسلمين[1] .

وقد اختلف المؤرخون الغربيون، القدامى والحديثون، حول أسباب رفض الداوية المشاركة فى تلك الحملة، فيرى المؤرخ وليم الصورى أن رفضهم يرجع إلى المنافسة بينهم وبين الاسبتارية التى كانت صاحبة فكرة الحملة، كما يرجع إلى أن الداوية رأوا فى قيام الحملة أمرًا يتعارض مع الاتفاقية التى عقدت بين الملك الصليبى والخليفة الفاطمى من قبل[2] ، وقد أخذ بعض المؤرخين الغربيين الحديثيين بهذا الرأى[3] ، بينما يرى البعض الآخر أن اعتراض الداوية على المشاركة فى تلك الحملة يرجع إلى أنهم رأوا أنه لو تم للصليبيين الاستيلاء على مصر، وهو أحسن الفروض، فإنهم لن يتمكنوا بأى حال من الأحوال المحافظة على تلك البلاد، كما أن محاولة غزو

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن حملات كل من عمورى ونور الدين على مصر انظر : ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ١٩٦ - ٢٣٦؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٣٦ - ٤٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج ١، ص ١٣٧ - ١٦١، أبو شامة : الروضتين، ج ١، ص ١٢٩ - ١٥٤، ابن الجوزى، مرآة الزمان، ج ٨، ورقة ١٤٠ - ١٦٩؛ ابن أيبك : درر التيجان، ج ٤، ورقة ٤٧٥ - ٤٨٦، ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٢٤ - ١٣٠، العينى : عقد الجمان، ج ٢١، قسم ٢، لحة ٣٥٩ - ٣٩٩، ابن الفرات: تاريخ الدول، ج ٤، لوحة ٧٥ - ٨٢، وأيضًا :
William of Tyre, A History, II, p. 295 - 365.
Michcael le Syrien Chronique, III, pp. 332 - 340.
Schlumbefger, G., Compagnes de Roi Amaury I de Jerusalem en Egypte, Paris, 1970, pp. 38 - 296.

(2) William of Tyre, op. cit., II, p. 351.

(3) Rohricht, Konigreiches, p. 336.
Schlumberger, op. cit., p. 253.
King, Hospitalles, p. 81.

الصليبيين لمصر سيؤدى إلى خضوعها فيما بعد لنور الدين مثلما حدث عندما هاجم الصليبيون دمشق فى الحملة الصليبية الثانية[1]. ولعل الرأى الأخير هو الأقرب إلى الصواب، إذ يبدو أن الداوية بحكم مجاورتهم للمسلمين فترة طويلة من الزمن ومعرفتهم عن قريب بأسلوبهم ووسائلهم فى الحرب والقتال، قد شعروا أن خروج الجيش الصليبى لمهاجمة مصر سيعطى الفرصة لنور الدين بمهاجمة الإمارات الصليبية فى الأراضى المقدسة، وعلى هذا سيصبح الصليبيون هم الخاسرون سواء انتصروا أو انهزموا فى تلك الحملة.

وفى أواخر عام ١١٦٨م / أوائل عام ٥٦٣هـ توفى مقدم الجماعة برتراند وتم اختيار فيليب أوف نابلسي Philp of Nablus[2] ليخلفه فى هذا المنصب[3] وفى عهد المقدم تمكن مليح الأرمينى Malih[4] من انتزاع قلعة بغراس من فرقة الداوية التى كانت تقوم بحمايتها[5]، بعد أن أمده نور الدين بفرقة من جيشه[6]، وذلك على الرغم من أن مليح هذا كان من أعضاء

(1) Mayer, The Crusaders, p. 123.
Nikita, Nur. AD-Din, III, p. 626.

(2) فيليب أوف نابلس : ولد بفلسطين، وكان سيد أعلى لقلعتى الكرك والشوبك، وشارك الصليبيين فى حصار عسقلان، وبعد وفاة زوجته انضم لجماعة فرسان المداوية، انظر :

William of Tyre, A History, II, pp. 142, 218, 260.

(3) Addison, Templars, p. 56.

(4) مليح الأرمينى : الابن الثانى لليو الأول الأرمينى، تولى عرش أرمينية الصغرى، عام ١١٧٠م / ٥٦٥هـ، وتوفى عام ١١٧٥م / ٥٧٠ - ٥٧١، راجع :

William of Tyre, op. cit., op. cit., II, pp. 386 - 388.
Michel le Syrien, Chroniques, III, pp. 331 - 337.

(5) William of Tyre, op. cit., II, p. 376.

(6) ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٢٥٥، وأيضًا :

William of Tyre, op. cit., II, p. 387.

جماعة الداوية وكان أخًا شقيقًا للأمير ثورس الأرميني، ولكن بعد وفاة أخيه، وتولى ابنه روبين الثانى العرش الأرمينى تحت الوصاية، طمع مليح فى عرض أرمينية، فاتجه إلى نور الدين، وأعلن إسلامه، وطلب منه أن يساعده فى تمكينه من الاستيلاء على العرش[1]. لذا قام الداوية بمشاركة بوهمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ - ١٢٠١ / ٥٥٨ - ٥٩٨هـ) والملك عمورى بمحاربة مليح[2]، مما جعل الأخير يقوم برد قلعة بغراس المداوية[3]، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن المصالح الخاصة بالنسبة لأعضاء جماعة الداوية كانت فوق أى اعتبار آخر، وفى سبيلها كان أى فرد من أفراد هذه الجماعة على استعداد للانضمام إلى الجانب الإسلامى ضد الفرنج بصورة عامة وضد أفراد جماعته بصورة خاصة.

وفى غمرة تلك الأحداث، تقلد صلاح الدين الوزارة فى مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه فى ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ / ٢٣ مارس ١١٦٩م[4] وبعد وفاة العاضد آخر خليفة فاطمى فى ٢ جمادى الأولى ٥٦٧هـ/ ١ يناير ١١٧٢م تقلد صلاح الدين الأمور رسميًا فى مصر، وتبدأ بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المسلمين والصليبيين شارك فيها الداوية بدور هام.

---

(١) أبو شامة : الروضتين، ج٢١، ص ٢١٤ - ٢١٥، وأيضًا :

William of Tyre, op. cit., II, pp. 386 - 387.

(2) William of Tyre, A History, II, pp. 387 - 388.

(3) Nikita, Nur AD-Din, II, p. 349.

(٤) ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٢٣٩؛ ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٤٠؛ ابن واصل : مفرج الكروب، ج١، ص ١٦٨؛ ابن أيبك : كنز الدرر، ج ٧، ورقة ٤ - ٥؛ ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٢٣.

ولعله يتضح مما سبق أن جماعة فرسان الداوية قامت بدور بارز في الصراع بين المسلمين والصليبيين في الفترة الواقعة بين عامي (١١٣٨-١١٧٢م / ٥٣٢ - ٥٦٧هـ)، وإن أفرادها خلال تلك الفترة انتقلوا في أسلوبهم العسكرى من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، فاشتركوا في العديد من المعارك الحربية بجانب الصليبيين أو بمفردهم ضد المسلمين، كما عهد إليهم بحماية بعض القلاع الصليبية والتى أضافوا إلى منشآتها العسكرية العديد من الأبنية والتعزيزات، وفي خلال تلك الفترة أيضًا نمت الجماعة واتسعت أملاكها، وزادت ثرواتها واتسعت دائرة مهامها، وأصبحت تشكل بالنسبة للصليبيين معينًا لا ينضب من الفرسان والمحاربين الذين يمكن الاستفادة بهم في مواجهة المسلمين في وقت أصبحت فيه القوى الصليبيين في الشرق في أمس الحاجة إلى العون والمساعدة، بينما أخذ مركز الثقل في المنطقة يميل إلى الجانب الإسلامى، ولم ينته الدور العسكرى لجماعة فرسان الداوية ضد هذه المرحلة، بل امتد إلى عقود عديدة تالية، وهذا ما سوف تكشف عنه أحداث الفصول التالية.

الفصل الثالث

العلاقات بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين حتى موقعة حطين

(١١٦٩ - ١١٨٧م / ٥٦٤ - ٥٨٧هـ)

١-هجوم صلاح الدين الأيوبى على قلاع الداوية فى عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ، ونتائجه.

٢-موقف الداوية من إسماعيلية الشام، وأثاره بالنسبة لعلاقاتهم بصلاح الدين.

٣-مشاركة الداوية فى عمليات الهجوم على بعض المدن الإسلامية، وآثارها.

٤-بناء الداوية قلعة بيت جبريل عام ١١٧٨م / ٥٧٤هـ، وموقف المسلمين منهم.

٥-النزاع بين جماعتي الفرسان الداوية والاسبتارية، وانعكاساته.

٦-هزيمة الداوية فى موقعة مرجع يون عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ، والنتائج المترتبة عليها بالنسبة لعلاقاتهم بمسلمى الشرق الأدنى.

٧-دور صلاح الدين في تحطيم قلعة الداوية فى بيت جبريل عام ١١٧٩م/ ٥٧٥هـ وأثاره.

٨-دور الداوية فى الدعوة لحملة صليبية جديدة فى عام ١١٨٤م / ٥٨٠هـ.

استعرضنا فيما سبق تطور جماعة فرسان الداوية خطوة بعد أخرى منذ أن وضعت النواة الأولى لها فى عام ١١١٨م / ٥١٢هـ، إلى أن تبلورت معالم شخصيتها، وأصبحت تقوم بدور بارز فى الصراع الصليبى الإسلامى، أما عن طريق المشاركة الإيجابية فى معظم العمليات العسكرية التى قامت بين المسلمين والصليبيين آنذاك، أو بحماية بعض المعاقل اللاتينية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى، وبزوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ، استمرت تلك الجماعة فى ممارسة هذا الدور، ولقد مرت علاقاتها بصلاح الدين -مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر والشام- بثلاث مراحل متباينة، تميزت كل منها عن الأخرى باختلاف الدور التى قامت به، ووفقًا للأحوال التى مرت بها منطقة الشرق الأدنى الإسلامى وقتذاك.

ومن أهم خصائص المرحلة الأولى التى تقع قبل حدوث موقعة حطين، وامتدت من عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ إلى عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ، أن جماعة فرسان الداوية استطاعت فى أثنائها صد الهجمات التى شنها صلاح الدين على قلاعها، كما بدأت الجماعة فى الانغماس فى الخلافات مع رجال الدين، وجماعة فرسان الإستبارية، ولكن بالرغم من ذلك فقد شاركت الصليبيين فى صراعهم ضد المسلمين فى وقت كان فيه صلاح الدين يعمل بهمة لمواصلة جهود سلفية عماد الدين زنكى ونور الدين محمود لتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الادنى حتى يتسنى لها مواجهة الخطر الصليبى ودفعه.

فبعد أن أصبح صلاح الدين وزيرًا للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين قام وهو فى هذا المنصب، وقبل أن ينهى حكم الفواطم فى مصر، بمهاجمة بعض القلاع اللاتينية القريبة من الحدود المصرية، بهدف الاستيلاء عليها، أو توجيه ضربة قاصمة إليها يؤمن بها جبهته فى تلك المرحلة على الأقل(١)، فخرج بعساكره يوم الخميس

(1) William of Tyre, A History, II, p. 371.

١٥ ربيع الأول ٥٦٦هـ/ ٢٦ نوفمبر ١١٧٠ ، وسار لمهاجمة قلاع الداوية فى الرملة وعسقلان(١) وبالرغم من هجومه المفاجيء على هاتين القلعتين، إلا انه لم يتمكن من الإستيلاء عليهما بسبب حصانتهما، وافتقاره الي آلات الحصار اللازمة(٢) فصار لمهاجمة قلعة الداوية فى الداروم(٣) ووصلها يوم الأربعاء ٢١ ربيع الأول ٥٦٦هـ، ٢ ديسمبر ١١٧٠م، ونجح فى الإستيلاء على ربطها وأشعل فيه النيران(٤). بينما اتجه النقابون المسلمون الي احد ابراجها، وتمكنوا من نقبه واشعال النيران فيه واسقاطه ولكن بالرغم من هذا وذاك فإن حامية الدروم ظلت تقاوم قوات صلاح الدين(٥) وارسلت في طلب النجدات من الملك الصليبى فى بيت المقدس ومن اخوانهم فى غزة. فخرج عمورى ملك بيت المقدس وانضم اليه بعض فرسان الداوية ممن كانوا فى قلعة غزة، وتوجهوا الى قلعة الداروم لنجدتها(٦) فترك صلاح قلعة الداروم ، وسار لملاقة تلك القوات الصليبية(٧) وحدثت مناوشات بين الفريقين ودن أن يلتحما فى معركة كبيرة(٨) وعندما شعر صلاح الدين بعدم جدوى تلك المناوشات، وادرك أن بعض الفرسان من حامية غزة قد خرجوا من قلعتهم لمشاركة الملك الصليبى فى نجدة اخوانهم من الداوية فى قلعة الداروم أراد صلاح الدين أن يقتنص تلك الفرصة، وتقدم بقواته نحو مدينة غزة فى يوم السبت مستهل ربيع الآخر ٥٦٦هـ/١٢ديسمبر ١١٧٠م ، وهاجمنا(٩)، ونجح فى الاستيلاء عليها دون قلعة الداوية بها(١٠) بسبب مناعتها(١١) وقوة تحصيناتها(١٢) .

---

(١) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٢٤٠، البندارى: سنا البرق الشامى، بيروت، جـ١، ص١٨٠، ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ورقة١٧٧، ابن ايبك: دور التيجان، جـ٢٥، ورقة٤٩١، الدمشقى: الدر الثمين، ورقة٩٥، العينى: عقد الجمان ، جـ٢١، قسم ٣، لوحة٤٧٣.

(2)William of Tyre, A History, II, p. 371, Amadi, Chroniqules,I, p. 43.

(3) William of Tyre, Op. Cit., II, PP. 371-372.

(٤) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ص١٩٣

(5) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 372

(٦) أبو شامة : الروضتين، نفس الجزء والصفحة .

(٧) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ص١٩٣-١٩٤

(8) William of Tyre, Op. Cit., II, PP. 372-373.

(٩) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٢٤٠، البندارى : سنا البرق الاشمى، جـ١، ص١٨٠، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ١٧٧، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ١، ص ١٩٨

(10) William of Tyre, A History, II, P. 374 .

(11) Grausset, Croisades, II, PP. 559-562;

عندما علم الملك عمورى ومن معه من الداوية بأنباء هذا الهجوم الاسلامى، وسارعوا بالتوجه إلى مدينة غزة، فالتقى بهم صلاح الدين بالقرب منها[1] ،وجرت بعض المناوشات بين الفريقين دون أن تثمر عن نتيجة حاسمة لاى منها[2] ، وعلى هذا عاد صلاح الدين ادراجه إلى مصر فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الاخر ٥٦٦هـ/ ٢ يناير ١١٧١م[3] ، بينما اتجه الملك عمورى إلى عقلان بعد أن ترك جزءا من قواته فى قلعة الداروم لحمايتها بجانب فرسان الداوية[4] .

وان دلت هذه المناوشات على شيء، فانما تدل على اعتدال كفة الميزان فى الصراع بين المسلمين والصليبيين فى تلك المرحلة التى بدأت فيها الاقامة الاسلامية تؤدى دورها على مسرح الاحداث فكان طبيعيا أن تحدث بينها مناوشات ومصادمات دون أن تكون بينهما معركة حاسمة .

وعلى أية حال، فقد قدر لجماعة فرسان الداوية أن يكونوا هدفا لاول هجوم يشنه صلاح الدين على المعاقل اللاتينية فى الشرق الادنى . وقد أثرت تلك المواجهة بين الفريقين عن العديد من النتائج . فقد رأى صلاح الدين عن قرب مدى حصانة تلك المعاقل، وأنه يجب عليه صنع آلات قوية لضربها، كما شعر بمدى قوة

---

(1) Smail, Crusading warfare, PP. 213-214 ;
Nikita, Nur AD-Din, II, P. 662 .

(٢) ابن الاثير : المصدرالسابق، نفس الجزء ولاصفحة، البندارى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن الجوزى،المصدر السابق،نفس الجزء والرقة، ابن واصل : المصدرالسابق، نفس الجزء والصفحة، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم٣، لوحة٤٧٣

(3) William of Tyre, Op, Cit., II, P. 375 ;
Amadi, Chrpniqules, I, P. 42.

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، البندارى: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة،ابن الجوزى : المصدر الاسبق، نفس الجزء والورقة، ابنواصل : الصمدر السابق، نفس الجزء والصفحة، العينى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

(5) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 376 .

الصليبيين وقتذاك، فسعى إلى استكمال وحدة الجبهة الاسلامية أولا لكى يتمكن من مواجهة الصليبيين، وكان يعتبر توحيد الجبهة الاسلامية، وتكثيلها هو الجهاد الاكبر، الذى يؤدى بالتبعية إلى الجهاد ضد الفرنج الدخلاء، أما عن جماعة فرسان الداوية فقد شعرت بأن المستقبل لا يبشر بالخير بالنسبة لها،ولذا كان على أفرادها - اذ أرادوا مواجهة هذا الخطر الجديد - أن يسعوا إلى تقوية التحصينات فى القلاع التى عهد اليهم بحمايتها، والعمل على زيادة القوة الضاربة لهم عن طريق جمع أكبر عدد من فرسانهم فى الغرب الأوربى لذا أرسلوا فى استقدام فرسانهم من مراكز الجماعة المتفرقة فى الغرب اللاتينى[1] هذا، ومن النتائج الاخرى لتلك المواجهة أيضا، أن عمل الصليبيون على التحالف مع البيزنطيين لمواجهة الخطر الاسلامى المتزايد بعد القضاء على الخلافة الفاطمية الضعيفة فى مصر واستكمال ربط مدن مصر والشام فى جبهة واحدة ضد الصليبين وفى اطار هذا العمل تنازل فيليب أوف نابلس عن سلطاته كمقدم لجماعة فرسان الداوية فى ١٠ مارس ١١٧١م/ ٣٠ جمادى الاخرة ٥٦٧هـ[2] بعد أن ظل فى هذا المنصب قرابة ثلاث سنوات[3]، واتجه الى القسطنطينية كرسول للملك عمرى للاتفاق على هذا التحالف[4] بينما قامت الجماعة باختبار أودودى ساند أماند[5] Odo de St Amand ليخلف فيليب فى منصبه[6]، وأخذت تحث الملوك ورجال الدين فى الغرب الاوربى على تقديم المساعدات لهم، للحفاظ على الكيان اللاتينى الذى بدأ يضعف أمام القوة الجديدة الناشئة فى المشرق الاسلامى . وعلى هذا تمهد الملك الانجليزى هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩م/ ٥٤٩-٥٨٥هـ) بالانفاق على

(1) Roger de Hoveden, Annals, II, P. 356 .
(2) William of Tyre, A History, II, P. 356 .
(3) Addison, Templars, P. 60 .
(4) William of Tyre, Ibid .

(٥) كان أدود يشغل منصب رئيس الخدم فى البلاط الملكى فى مدينة بيت المقدس، ولكنه ترك هذا المنصب، وانضم الى جماعة فرسان الداوية، ثم أخذ يترقى فى صفوفها الى أن أصبح لها، انظر
William of Tyre, Op. Cit., II, PP. 261, 393.
(6) William of Tyre, A History, PP. 392-393 .

مائتى فارس من الداوية فى انجلترا لمدة عام واحد[١]، كما أرسل البابا اسكندر الثالث العديد من الخطابات الى رجال الدين فى الغرب اللاتينى يحثهم على ارسال المساعدات لجماعة فرسان الداوية فى الاراضى المقدسة[٢] .

ونتيجة لانتصار المذهب السنى فى مصر على يد صلاح الدين الايوبى، فزعت طائفة الاسماعيلية الشيعية[٣]، وعملت على الاتصال بالصليبين، وتنسيق الجهود بينهما للوقوف فى وجه صلاح الدين باعتباره العدو المشترك لكليهما فارسل الاسماعيليون رسولاً من قبلهم يدعى عبد الله لمقابلة الملك عمورى الاول للاتفاق على هذا الغرض وقد أستقبل عمررى رسول الاسماعيلية، ووافق على تكوين تحالف مشترك صليبى إسماعيلى ضد صلاح الدين وعندئذ طالب رسول الاسماعيلية من الملك أعفاء جماعته من دفع الجزية التى كان يدفعونها لجماعة فرسان الداوية من قبل ، ووافق الملك على هذا المطلب أيضا، ووعد بأنه سيقوم بتعويض الداوية عن هذه الجزية بما يوازيها من أمواله الخاصة[٤] .

وهكذا، يتضح حرص الملك عمورى على الاتفاق مع أى حليف ضد صلاح الدين، ولو كلفه ذلك دفع ما يوزى الجرية للداوية، وهذا، بينما وقفت جماعة فرسان الداوية موقفا مخالفا لما كان يسمى إليه الملك الصليبى فبعد انتهاء الإتفاق بين الصليبين والاسماعيلية سارع عبد الله بالعودة إلى جماعته وقد أمر الملك عمورى أحد رجاله بموافقته . وعندما أجتاز الرسول الاسماعيلى عبد الله مدينة طرابلس، وودعة مرافقة الصليبى، واتجه الى حدود طائفته، انقض عليه احد فرسان الداوية ويدعى والتردى مسينيل Walter de Maisnilo وقتله[٥] .

---

(1) Roger De Hoveden, Annals, II, PP. 356-357 .
(2) Letter of Pope Alexandria III, cf. R.O.L., Vol., III, PP. 411-412
(٣) ابن واصل : مفرج الكوارب، جـ١، ص٢٤٩
(4) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 392 .
(5) William of Tyre, A History, II, P. 393 ;
Addison, Templars, P. 71 .

وقد غضب الملك الصليبى عندما علم بذلك، وعقد مجلسا فى مدينة بيت المقدس دعا اليه بارونات المملكة الصليبية .وشرح لهم عمورى فى هذا المجلس خطورة العمل الذى أقدم عليه الداوية والذى يعتبر فى حد ذاته اهانه لشخصيته ، وطلب الملك من البارونات ابداء الرأى فيما يجب عمله ازاء هذا الموقف فاتفق جميع الحاضرين على ان ما قام به فارس الداوية يعتبر أمراً خطيراً وضع الملك الصليبى فى موقف حرج وأن الداوية اساءوا بهذا العمل إلى الصليبيين بصفة عامة، وإلى من يتعاونون معهم ضد صلاح الدين بصفة خاصة ، وطالب الحاضرون بضرورة محاسبة جماعة فرسان الداوية على هذا التصرف، ومعاقبة مرتكب تلك الجريمة وأرسل الملك عمورى مندوبين من قبله إلى اودوساند اماند مقدم الراوية يأمره بضرورة المثول امامه وتسليم مرتكب الجريمة، ولكن اودو رفض تنفيذ تلك المطالب، وأوضح أن جماعة تخضع لسلطة البابا فى روما مباشرة، وأنه سوف يقوم بارسال الجانى إلى روما حتى يتولى البابا محاكمته[١] .

اثار هذا الموقف غضب الملك عمورى، وخرج بفرقة من قواته، واتجه إلى مدينة طرابلس حيث كان يقيم أودو ومعه بعض فرسان الداوية ومن بينهم والترمسينيل فدخل عليهم الملك فى خيمتهم، وسحب والتر من بين زملائه، وقام بوضعه فى السجن تمهيداً لمحاكمته[٢] .

وقبل تناول موقف الداية بالدراسة والتحليل، يجب التأكد أن كان الفارس والتر الذى قبض عليه الملك الصليبى، قد ارتكب تلك الجريمة من تلقاء نفسه أم بتحريض من مقدم الداوية وبناء على طلب منه فى الواقع ان المصادر الغربية لا تلقى الضوء على تفاصيل محاكمة والترمما يساعد على اجلاء الحقيقة الا أن المؤرخ وليم الصورى المح إلى أن هذا الفارس قد ارتكب جريمة على مرأى وبعلم من أفراد جماعته[٣]. ولكنه لم يقدم لنا الدليل الواضح على ذلك .

(1) William of Tyre, Op. Cit., II, PP. 393-394.
(2) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 394 .
(3) William of Tyre, a History, II, P. 392.

ويتتبع أحداث تلك الحادثة، نجد أن المؤرخ وليم الصورى كان على حق فيما ذكره فبالرجوع الى مبادىء تلك الجماعة،والتى تنص على عدم اقدام أى فرد من أعضائها على ايه عمل دون موافقته مقدمها[١]، بالاضافة إلى موقف المقدم اودو اللين من الفارس والتر لدرجة أنه تركه حراً طليقاً بين زملائه من الفرسان لوجدنا أنه لا يمكن لولتر أن يقدم على ذلك العمل من تلقاء نفسه. ويعزز ذلك أن المقدم اودو قد وقف موقف المتشدد امام الملك الصليبى، ورفض تسليم الجانى له . هذا، بالاضافة إلى أن مقدم الجماعة كان مقيما فى تلك الفترة فى مدينة طرابلس بينما كان المفروض أن يكون فى المقر الرئيسى للجماعة فى مدينة بيت المقدس، حيث أنه لم يكن هناك أى داع لهذا الانتقال .

وعلى هذا يمكن القول أن جماعة فرسان الداوية عندما علمت – وهى فى بيت المقدس– بإنباء قدوم رسول الاسماعيلية، وطلبه بالغاء الجزية التى كان يدفعها قومه لهم، اتجهوا إلى مدينة طرابلس قبل أن تنتهى المفاوضات بين الملك والرسول الاسماعيلى، وقبل ان يعلموا بتعهد الملك بتعويضهم عن هذه الجزية. ودبراوا تلك المؤامرة، وظل المقدم أودو ومن معه من فرسان الداوية فى مدينة طرابلس ليكونوا على مقربة من مسرح الاحداث .

ويتضح ما تقدم أن جماعة فرسان الداوية قد وضعت بهذا العمل المكاسب المادية فوق كل الاعتبارات. فبالرغم من أن هذا التحالف بين الاسماعليين والصليبين كان سيوجه ضد صلاح الدين الذى كان يهدد قلاع الداوية، الا أن الجماعة فضلت قتل رسول الاسماعيلية لترغم جماعته على الاستمرار فى دفع الجزية لها . وبذا يتبين مدى فتوح الروح الصليبية عند الداوية كما يتضح أن المبادىء التى وضعتها تلك الجماعة فى مؤتمر تروى عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ قد أضرت بالصليبين، مما جعل الملك الصليبى يتجاهل تلك المبادىء، ويضرب بها عرض الحائط، ويقبض على مرتكب الجريمة تمهيداً لمحاكمته، بدلا من أرساله

(١) عن مبادىء جماعة فرسان الداوية راجع الفصل الاول من هذه الرسالة .

إلى البابا في روما ليقوم بهذا الدور، وهذا دليل آخر على جشع تلك الطائفة .

وبينما كانت جماعة فرسان الداوية تقوم بهذا الدور، كان صلاح الدين يسعى جاهدا الاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية، وتنسيق جهود المسلمين لتوجيه الضربة القاصمة للمستعمر الصليبى، واسترداد الاراضى المسلوبة، وتطهير المسجد الاقصى من دنس تلك الطائفة .

هذا عن الجانب الاسلامى، أما عن الجانب الصليبي فقد وصل إلى ميناء عكا فى أوائل أغسطس ١١٧٧م/ أواخر المحرم ٥٧٣هـ الامير فيليب كونت فلاندرز[١]، ومعه عدد كبير من الحجاج المسيحيين[٢] فاستقبله بطريرك بيت المقدس،ومقدمى الداوية والاسبتارية، وطلبوا منه مشاركتهم في محاربة المسلمين، وبعد مناقشات طويلة بين الملك الصليبى بلدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م/٥٧٠-٥٨١هـ) والامير فيليب، وافق الاخير على مشاركة الداوية والاسبتارية وريموند الثالث أمير طرابلس[٣] (١١٥٢-١١٨٧م/٥٤٧-٥٨٣هـ) فى الاغارة على مدينة حماه الاسلامية[٤] وتحدد لهذه الاغارة أوائل أكتوبر ١١٧٧م/ أوائل ربيع الاخر ٥٨٣هـ، بعدما علم الفرنج أن شمس الدين بن أيوب نائب صلاح الدين فى سلطنه دمشق ليس عنده من العسكر ما يمكنه من التصدى لهم، كما ان شهاب الدين محمود - خال صلاح الدين - صاحب حلب كان مريضا فى تلك الفترة،[٥] على هذا،ظنوا أن

---

(1) William of Tyre, a History, II, P. 417 ;
Roger de Hoveden, Annals, I, P. 452.

(٢) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٢٩٤، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢، ص ٦٤

(3) William of Tyre, A History, II, P. 425;
Michel le Syrian, Chroique, III, P. 74 .

(٤) ابن واصل :مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة، أبو شامة : الروضتين، جـ١، ص ٢٧٥، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم ٣، لوحة ٦٠٥

(٥) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٢٩٤ ،

مدينة حمام سهلة المنال لقلة المدافعين عنها[1]، وأغاروا عليها، ولكن أهلها تصدوا لهم، واستبسلوا فى الدفاع عن مدينتهم، وأرغموا الصليبيين على الارتداد عنها[2] .

وقد استغل الصليبيون مقتل سعد الدين كمشتكين صاحب قلعة حارم الاسلامية بعد نزاعة مع الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين[3]، واشتركوا هم وفرسان الدواية وبوهمند الثالث أمير أنطاكية فى الزحف على قلعة حارم[4] . وضربوا الحصار حولها من كافة الجهات فى آواخر نوفمبر ١١٧٧م/ أوائل جمادى الأولى ٥٨٣هـ وعندما علم صلاح الدين بأنباء هذا الهجوم، اراد أن تحول أنتباه الصليبيين عن الاستمرار فى فن تلك الغازات . فخرج بقواته فى يوم الجمعة ٣ جمادى الاولى ٥٧٣هـ / ٢٧ أكتوبر ١١٧٧م ، وهاجم قلاع الداوية فى الداروم وغزة[5] ولكنه لم يتمكن من فتح تلك القلاع لمناعتها وقوة تحصيناتها[6]، فضلا عن شدة مقاومة فرسان الداوية الذين بداخلها[7]، كما قام صلاح الدين بمهاجمة مدينة عسقلان فى ٢٤جمادى الاولى ٥٧٣هـ/ ١٩ نوفمبر ١١٧٧م وكان بها بعض فرسان الداوية الذين تمكنوا من رد صلاح الدين عن قلعتهم مما دفع صلاح الدين إلى شن الغازات على المناطق القريبة من المدينة، وقام باحراقها وغنم ما بها ثم،سار فى يوم الاربعاء ٢٩ جمادى لاولى ٥٧٣هـ/

---

(1) William of Tyre, a History, II, P. 425 .

(٢) ابن الاثير : الكامل، نفس الجزء والصفحة ، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٦٤، أبو شامة : الروضتين، جـ١ ، ص٢٧٥،العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم٣، لوحة ٦٠٥ .

(٣) ابنالاثير : الكامل، نفس الجزء والصفحة،ابن واصل : مفرح الككروب، نفس الجزء والصفحة، ابو شامة : الروضتيين،نفس الجزء والصفحة، العينى : عقد الجمان، نفس الجزء واللوحة .

(4) William of Tyre, Ibid; Michel le syrien, Chronique, III, P. 75; Roger de Hoveden, Annals, I, P. 452 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٨، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة ١٢٠ ، العينى : عقد الجمان، نفس الجزء، لوحة ٦٠٤ .

(6) Smail, Crusading warfare, P. 148 .

(7) King, Hospitalers, PP. 106-107 .

٢٣ نوفمبر ١١٧٧ إلى قلعة الداوية فى الرملة، وشن الغارات عليها[١] .

وهكذا يتضح أن اشتراك الداوية مع الصليبيين فى الهجوم على كل من مدينة حماه وقلعة حارم، قد دفع بصلاح الدين إلى مهاجمة قلاعهم القريبة من حدود مصر لكى يحول انتباه الصليبيين عن تلك المواقع الاسلامية،وقد نجح صلاح الدين فى هذا الصدد ، فقد وجد الملك بلدوين الرابع فى غارات صلاح الدين على قلاع الداوية خطرا يهدد مملكته[٢] لذا طلب من فرسان الداوية حشد كل قواتهم لمشاركته فى التصدى لصلاح الدين، بينما سار ومعه عدد قليل من الصليبيين إلى مدينة عسقلان، أخذ ينتظر وصول الامدادات الصليبية اليه ، فالتحق به فى عسقلان بعض فرسان الداوية فى غزة، وفرقة أخرى من الداوية تقدر بثمانين فارس على رأسهم المقدم أودو[٣]، وأخذ كل من صلاح الدين والصليبيين يستعدان للمواجهة .

وفى يوم الجمعة مستهل جمادى الاخرة ٥٧٣هـ/ ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م قامت المعركة بين الفريقين بالقرب من الرملة، حيث نجح الصليبيون ومعهم فرسان الداوية فى تحقيق النصر على الجيش الاسلامى،وكاد صلاح الدين أن يقتل على أيديهم[٤] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٢٩٢، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٥٩، ابو شامة، الروضتين، جـ١ ، ص٢٧٣،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٠ ، ابن الشحنه : روض المناظر فى علم الاوائل والاواخر، (مخطوط)،ورقة ١٣٢، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم٣، لوحة ٦٠٤-٦٥، ابن بهادر فتوح النصر، ورقة ٤٢ وايضا :
William of Tyre, A istory, II, PP. 426-428 ;
(2) Michel le syrien, Chronique, III, P. 372 .
William of Tyre, Op. Cit., II, P. 429 .
(3) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 227
Roger De Hoveden, Annals, I, P. 452 .

(٤) ابن لاالثير : الكامل، نفس الصفحة، ابن شداد النوادر السلطانية، نفس الصفحة، ابن واصل : مفرج الكروب: نفس الجزء والصفحة، ابو شامة : الروضتين، نفس الجزء والصفحة .
Letter of oger of Moulins, of Rohricht, konigrechs, PP. 325,380;
William of Tyre, A History, II, pp>430-434; Michel Le syrien, chronique, III, PP. 372-373;Roger de Hoveden A nnals, I, PP. 452-453 .

وهكذا تمكنت جماعة فرسان الداوية حتى تلك الفترة من صد الهجمات التى شنها صلاح الدين على بعض قلاعها كما نجحت بمشاركة الصليبيين فى تحقيق النصر عليه فى الموقعة سالفة الذكر .

وقد اختلفت آراء المؤرخين حل أسباب هزيمة صلاح الدين فى هذه الموقعة فترى المصادر الغربية أن تلك الهزيمة كانت بسبب شجاعة الصليبيين ومن معهم من الداوية، فضلا عن وصول الامدادات إلى الملك الصليبى فى الوقت المناسب، وتفرق القوات الاسلامية للاغارة على المناطق القريبة قبل نشوب المعركة[1] . بينما يرى فريق من المؤرخين العرب أن انتشار المسلمين للاغارة على المناطق القريبة من ميدان المعركة،. وضيق النهر الذى واجه المسلمين أثناء تقدمهم لملاقاة الصليبيين وتجمع المسلمين حوله فى الوقت الذى هجم عليهم الصليبيين، كان من زهم الاسباب لهزيمتهم[2] ويرى فريق آخر أن تلك الهزيمة ترجع إلى الخلل الذى حدث فى الجيش الاسلامى أثناء تغير مواضع فرق الميمنة والميسرة والقلب، وبالاضافة إلى عدم جود مركز اسلامى حصين لحمايتهم بالقرب من ميدان المعركة[3] ، وفى الحقيقة ان هزيمة المسلمين فى هذه المعركة أنما ترجع إلى كل هذه الاسباب مجتمعه، وهذا ما أكده المورخ ابن واصل[4] .

على أية حال، فقد انتصر الصليبيون ومعهم الداوية فى تلك المعركة، ولكن لم يعن هذا أن علاقاتهم مع الصليبيين وخاصة رجال الدين منهم كانت على ما يرام، فقد حدث فى تلك الفترة نزاع شديد بين الداوية ورجال الدين سواء فى داخل

---

(1) Letter of roger of Monlins, of Rorhicht, Konigriechs, PP. 325, 380; William of Tyre, A History, PP. 431-432; Michel le Syrien, Chronique, III, P. 373; Roger De Hoveden, Annals, I, P. 453 .

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٣٩٣ ،ابو شامة : الروضتين، جـ١ ،ص٢٧٣، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم٣، لوحة ٦٠٤-٦٠٥ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٥٣، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٠

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٥٩-٦٢ .

الجماعة أو المدن التى تعهدت بحمايتها ، وترجع أسباب هذا الخلاف إلى قيام الداوية بالسماح لبعض الافراد ممن وقع عليهم البابا قرار الحرمان بالانضمام إلى جماعتهم، فضلا عن استخدام الداوية لبعض الكنائس الواقعة تحت قرار الحرمان[1] هذا،بالاضافة إلى امتناع الداية عن دفع ضريبة العصور لرجال الدين فى منطقة الشرق الإدنى نظير الهبات والاملاك التى كانت في حوزتهم[2]، وكان هذا موقف آخر الداوية بتعارض مع مبادئهم الأولى

ولقد بدأت بدور هذا الخلف في عام ١١٦٩م/ ٥٦٤هـ، عندما امتنعت الجماعة عن دفع ضريبة العشور لا سقف مدينة طرابلس، وان كانت هذه المسألة قد حسمت بتنازل أسقف طرسوس عن تلك الضريبة[3] لكن سرعان ما تجدد هذا النزاع مرة أخرى عام ١١٧٨م/٥٧٤هـ، نظرا لتعنت الداوية فى عدم دفع تلك الضريبة مما دفع برجال الدين في الغرب اللاتينى إلى عقد مؤتمر فى مدينة روما فى أول أكتوبر ١١٧٨م/١٣ ربيع الثانى ٥٧٤هـ، حضره بعض رجال الدين المسيحى فى الشرق الادنى الاسلامى ومن بينهم المؤرخ وليم الصورى[4] وقد وجه المجتمعون فى هذا المؤتمر اللوم التبويخ لجماعة فرسان الداوية الذين أساءوا استخدام الاعفاءات والامتيازات التى منحها لهم بابوات روما، وأنهم لم يستجيبوا لمطالب رجال الدين سواء كانوا فى داخل الهيئة أو خارجها[5] ونظرا لتفاقم الامورين الداوية ورجال الدين فقد تدخل البابا اسكندر الثالث لحل هذا النزاع، وأصدر عدة مراسيم أكد فيها أحقية الداوية وخدهم فى استحواذ الهبات والاملاك والعطايا التى توهب لهم،نظير الخدمات الجليلة التى يقدمونها لصالح المسيحين في الشرق االادنى وانه يجب على رجال الدين داخل الجماعة أن يمتثلوا لأوامر مقدمها، والا تعرضوا

(1) Roger de Hoveden, Annals, I, PP. 513-514.
(2) letter of pope Alexander III, of. Addison, Templars, PP. 63-66; de Hoveden, Annnals, I, P. 514.
(3) Archives de Malte, Vol. 2., piece 47, cf, Documents, PP. 15-16 .
(4) William of Tyre, A History, II, P. 436 .
(5) Addison, Op. Cit., P. 69 .

للعتاب كغيرهم من أعضاء الجماعة، ويجب عليهم ألا يتدخلوا فى الشئون العلمانية للجماعة، وان يتفرغوا فقط لممارسة المهام الدينية . كما أكد البابا فى مراسيمه هذه على أحقية الداوية فى الامتناع عن دفع ضريبة العشور طالما أن الظروف السائدة تقتضى ذلك، وطالب البابا من القسامة ورجال الدين عدم مطالبة الاموال من الجماعة الا فى حالة موافقة مقدم الجماعة على ذلك . أما بالنسبة لاستخدام الداوية للكائن،والسماح للأفراد الذى وقع عليها قرار الحرمان فقد وافق البابا على هذا الاجراء طالما أن الأوضاع فى منطقة الشرق الادنى تتطلب ذلك أخيرا ناشد البابا جماعة فرسان الداوية بحسن معاملة رجال الدين، وحل المنازعات التى تقوم بينهما بالطرق الودية[1] . كما تدخل أيضا الملك الفرنسى لويس السابع فى هذا النزاع، وأيد البابا فى ضرورة حل الخلافات بين الفريقين، وان يعمل كل منهما على مساعدة الجانب الاخر[2] .

وعلى هذا يتضح أن جماعة فرسان الداوية قد ابتعدت كل البعد عن مبادئها الاولى والتى كان الزهد والتقشف من أهم معالمها، وأصبحت تلك الجماعة تهتم بالمكاسب المادية وأخذت تعمل على زيارتها مما جعلها تصطدم برجال الدين اللاتين الذين سعواهم الاخريين إلى أن يكون لهم نصيبا من تلك المكاسب، لكن وقف البابا بجانب تلك الجماعة على الرغم من أنها استخدمت الكنائس التى وقع عليها قرار الحرمان من البابوات .وكان موقف البابا هذا انما يرجع إلى حرصه على ارضاء أفراد تلك الجماعة بشتى السبل، ومحاولة تهيئة الظروف الملائمة لها على الاستمرار فى دورها ، ولعل هذا يوضح لنا أهمية الدور التى كانت تقوم به جماعة فرسان الداوية لصالح الصليبيين من جهة ،ومدى تهافت أفرادها على المكاسب المادية من جهه أخرى بالأضافة إلى أن تنازع أفراد تلك الجماعة مع رجال الدين حول تلك الماديات لخير دليل على مدى فتور الحركة الصليبية عند الجانبى من ناحية،

(1) Letter of Roger pope Alexandre III, of. Addison, Templars, PP. 63-68 .
(2) Letter of Pope Alexander III, of. Addison, Ibid .

ومدى الفساد الذى طرأ على الكنيسة المسيحية ورجال الدين من ناحية أخرى .

ولم يكن النزاع بين جماعة فرسان الداوية ورجال الدين حول النواحى المادية، هو النزاع الوحيد . فقد انغمست تلك الجماعة فى نزاع آخر مع جماعة فرسان الاسبتارية فى تلك الفترة أيضا وترجع الاسباب غير المباشرة لهذا الخلفا لى أن الدواية رأوا أن الجماعة الاخرى منافسا لهم نتيجة لاتساع نفوذها وسيطرتها على العديد من القلاع الصليبية آنذاك، فضلا عن مزاحمتهم فى الاستحواذ على الهبات والاملاك[(١)] ويمثل موقف الجماعتين المتعارض من حملة الملك عمورى الاولى على مصر عام ١١٦٨م/ ٥٦٤هـ النواه الاولى لهذا الخلف[(٢)] أما عن الاسباب المباشرة فترجع إلى أن الامير بوهمند صاحب انطاكية قد منح الداوية فى عام ١١٧٨م/٥٧٤هـ العديد من الامتيازات والاملاك فى المناطق القريبة من امارته[(٣)] مما أدى إلى تشابك مصالح الجماعتين فى تلك المنطقة واختلفا حول تحديد املاك كل منها ، ونشب الخلف بينهما[(٤)] .

ولما كان النزاع بين تلك الجماعتين يمثل أمراً خطيراً على أوضاع الصليبيين فى الشرق الادنى[(٥)] ، لذا سارع البابا اسكندر الثالث والقادة الصليبيين إلى التدخل ، ويذل مساعيهم لحسم هذا الخلف بينهما[(٦)] ، وقد نجحت تلك المساعى، واجتمع مقدما الجماعتين أودودى ساند أما ندوروجردى مولان فى ١٢ فبراير ١١٧٩م/١٨ شعبان ٥٧٤ هـ بمدينة بيت المقدس لبحث الخلافات بينهما .وقد اتفقا على تقسيم المقاطعات اللاتينية التى تتعلق بهما فى منطقة الشرق الادنى تقسيما محدداً ووضعا أسلوبا لحل المشاكل التى تثار بينهما فى المستقبل تمثل فى

---

(1) King, Hospitallers, P. 108 .
(2) William of Tyre, A History, II, PP. 350-351 .
(3) A rchives de Haalt Vol. 3, Piéce 49, of, Documents de Templiers, PP. 17-18 .
(4) Letter of pope Alexander III, of King, Hospitallers, P. 123 .
(5) King, Hospitallers, P. 123.
(6) Archives de Malte, Vol. 3, Piéce 66, of. Documents de Templeirs, P. 19 .

اختيار ثلاثة أعضاد من كل جماعة يتباحثون تحت اشراف البابا فى تلك المشاكل واذا لم يصلوا إلى حسم لها، يتم اختيار عضويين آخرين من كل جممة للاشتراك فى التباحث ، وأن لم يتمكن كل هؤلاء من الوصول إلى نتيجة حاسمة فعليهم الاستعانة بنصائح أولى الامر من الاتين، ونصبح تلك النصائح ملزمة للطرفين بمجرد موافقة احداهما عليها، ولكن بعد كل هذا وذاك، أن لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة، تنقل المشكلة برمتها،وتعرض على مقدمى الجماعتين لوضع الحلول لها[1] ، وفى نهاية اللقاء بين المقدمى، تتم وضع بعض البنود بين الجماعتين لمنع نشوب أى خلف بينهما منها الالتزام بالاتفاقيات التى تعتد بينهما، وعدم الاخلال بأيه بند من بنودها،والسعى من أجل اقامة علاقة المحبة والوفاق بين الجماعتين، وتعاون كل منهما من أجل خدمة الصليبيين[2] وقد هنأ البابا مقدمى الجماعتين على هذا الاتفاق، وطلب مهما بذل أقصى مساعيهم لمحاربة المسلمين[3] .

وقد أكد النزاع بصورة أخرى على مدى شغف الداوية بزيادة ممتلكاتهم فى منطقة الشرق الادنى الاسلامى، كما يبين حقيقية مدى الثراء التى تمتعت به جماعتهم فى تلك الفترة .

على أيه حال، نتيجة لاتساع املاك الداوية وزيادة ثرواتهم من جهة، ونتيجة للهجمات المتكررة التى سنها صلاح الدين على قلاعهم من جهه أخرى، أن رأى الداوية ضرورة اقامة قلعة جديدة لهم تقع فى منتصف المسافة بين مدينة بيت المقدس وقلاع الداوية الجنوبية القريبة من الحدود المصرية وطلبوا من الملك بلدوين الرابع الموافقة على ذلك،وتقديم العون لهم[1] وقد وافق الملك الصلبى، وتحدد موقع

---

(1) Letter of Odo and Roger to pope Alexander III, of., king, Hospitallers, PP. 121-123 .
(2) Archives de Malter, Ibid; Benedeict of Petroburgensis, Vita Henrici II Anglicie Regis, of. K.H.G.F. Vol XVII, P. 428 .
(3) Letter of pope Alexander III, of. king, Op. Cit., P. 123.

القلعة الجديدة فى موضع متوسط بين صفدو وطبرية ودمشق عند بيت جبريل[٢]، لتقوم بمهة الدفاع عن القلاع الجنوبية للملكة اللاتينية[٣]، وفى الوقت نفسه تعتبر مركز امداد لكافة قلاع الداوية فى تلك المنطقة[٤] وقد حشد الداوية اعداد كبيرة من الاخوة المساعدين فى الجماعة من الصناع مابين بناء ومعمار وحداد ونجار وصانع السيوف[٥]، وبدأوا فى بناء القلعة فى أكتوبر ١١٧٨م/ ربيع الثانى ٥٧٤هـ[٦]، فوق تل عال[٧]، وجعلوها عاى درجة كبيرة من الحصانة والقوة[٨]، بحيث بلغ سورها عشرة أذرع، وارتفاعه أربعين ذراعا،[٩] وقد استخدمت فى بنائها الكتل الحجرية الضخمة التى بلغ طول الواحدة منها من كافة جوانبها سبة أذرع، وبلغ عدد الكتل الحجرية التى استخدمت فى بناء السور ألف قطعة، جعلها الداوية شديدة التماسك. كما حفروا داخل القلعة بئر عظيم االتساع والعمق[١]،

---

(1) William of Tyre, A History, II, PP. 436-437, Guillemi de Nangico, Chronicon, P, 738; Roger de Hoveden, Annals, I, P. 403.

(٢) وكانت تعرف أيضا بمحاضة يعقوب Jacobs Ford ، وبيت الحزان أو بيتجبرين ، وكانت تقع على مسافة يوم من دمشق ونصف يوم من صفد، انظر : ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ،ص٧٢، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم٣، لوحة٦١٦، بينما مين التطيلى : رحلة بنيامين، ص١٠٦ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ١ ص ٣١٩، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١ ، ص٦١٦ .

(3)Grausset, Histoire de Groisades, II, P. 664.

(4) William of Tyre, Op. Cit., II, P. 437 .

(٥) ابو شامة : الروضتيين، جـ١ ، ص١٣ .

(٦) ابن االثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٠١، ابن واصل : مفرح الكروب، نفس الجزء والصفحة، العينى : عقد الجمان، نفس واللوحة، ايضا

Williamn of Tyre, Ibid, Gullelemi de Nangico, Ibid.

(7) William of Tyre, Op. cit., II, P. 438 .

(٨) البندارى : سنا البرق الشامى، جـ١ ، ص٣١١، ابن العديم : بغية الطلب فى تاريخ حلب (مخطوط)، وقة ٢١٣-٢١٤، ابو شامة : الروضتين، جـ١ ص ١٣ .

(٩) العينى : عقد الجمان، جـ١ ، قسم٣، لوحة ٦١٢ ، مؤلف مجهول : شفاء القلوب، لوحة ٣٥ .

لاستخراج المياة الجوفية ووضعها فى صهاريج كبيرة صنوعها لهذا الفرض[٢] .

وجدير بالذكر أن الداوية قاموا ببناء تلك القلعة الحصينة، بينما كان صلاح الدين منشغلا فى تلك الفترة بضم حصن بعلبك الاسلامى اليه[٣] اما عن الداوية فبعد أن فرغوا من بناء تلك القلعة، تعهدوا للمالك الصليبى بالدفاع عنها[٤] وشحنوها بالرجال والسلاح وشتى أنواع المؤن[٥] وكان هدفهم من وراء ذلك اقامة سلسلة حصينة متصلة من القلاع والاستحكامات يحتمون بداخلها، ويواجهون ضربات صلاح الدين التى كانوا يتوقعونها .

وقد تخوف المسلمون من النتائج المترتبة على بناء هذا الحصن، وطلبوا من صلاح الدين سرعة التوجه اليه ليحول دون بنائه لكن صلاح الدين طلب منهم التريث حتى يفرغ الداوية من بنائه، وينفقوا عليه أموالهم، ويتعبوا رجالهم، عندئذ يتوجه اليه ليهدمه ويبدد آماهم[٦] وكانت تلك منالسمات الواضحة لشخصية صلاح الدين، وتعرفه فى تعامله مع الفرنج وبخاصة جماعات الفرسان المحاربيين منهم وعلى رأسهم الداوية، فهو أراد أن يوجه الضربة اليهم بعد الانتهاء من بناد الحصن حتى تكون الخسائر فادحة أما عن الداوية فقد جعلوا من هذا الحصن مرصادا لحرب المسلمين[٧] فقطعوا طريق القوافل الاسلامية التى مرت من هناك[٨] وأسروا مائة من المسلمين وضعوهم داخل القلعة وقد كبلت أرجلهم[٩] .

---

(١) أبو شامة : المصدرالساب ق، نفس الجزء الصفحة

(٢) العينى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

(٣) أبو شامة : الصمدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

(٤) البندارى : الصمدر السابق، جـ١، ص٣١٤، ابن واصل : مفرجالكروب، جـ١، ص٧١ .

(٥) العينى ك المصدر السابق، جـ١١، قسم٣، ولحة ٦١٥ - ٦١٦ .

(٦) العينى : المصدر السابق، جـ١، قسم٣، لوحة ٦١٦،المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص٦٧ .

(٧) البندارى : سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣١٤، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٧٢ .

(٨) العينى : عقد الجمان، جـ٢١، لوحة ٦١٤، ابو شامة : الروضتيين، جـ٢ ص٨ .

(9) Guillelmi de Nagico, Ghronicin, P. 738 .

لم يكن أمام صلاح الدين حيال هذا الموقف الا التوجه لمنازلة تلك القلعة فبعد أن فرغ أمر بعلبك، خرج اليها من دمشق فى أواخر رجب ٥٧٤هـ/ أوائل يناير ١١٧٩م[١] ، وشن عليها الغازات، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها بسبب قلة قواته[٢] وحصانه القلعة من ناحية أخرى[٣] ، فعاد ادراجة الى دمشق، بعد أن تمكن من أسر البعض من الداوية[٤] لكنه عاد وهاجم القلعة مرة أخرى فى ذى القعدة ٥٧٤هـ/ ابريل ١١٧٩م، وواجه نفس المصير السابق، فقفل عائدا الى دمشق[٥] . ثم هاجمها للمرة الثالثة فى أواخر ذى القعدة / أوائل مايو، لكنه لم يحقق أفضل ما خققه فى المحاولتين السابقتين[٦] فعاد وخيم بالقرب من بانياس، وأخذ يسير السرايا لكى تقوم بحصد الزرع من القرى الصليبية القريبة من القلعة، وكان يهدف من وراء ذلك منع القوات عن الداوية[٧] ، وتجويهم فيميلون الى التعليم وهذه أيضا كانت من بين خصائص حروب صلاح الدين ضد الفرنج .

ونتيجة للهجمات المتكررة من جانب صلاح الدين على تلك القلعة،رأى الملك الصليبى بلدوين الرابع ضرورة التصدى لصلاح الدين، ووضع حدا لتلك الهجمات[٨] فخرج بقواته فى ٩٨ يونيه ١١٧٩م/٢ المحرم ٥٧٥هـ[٩] واتجه إلى طبرية ومنها سار الى قلعة الداوية فى صفد، حيث أرسل فى طلب الامدادات من

(١) ابن واصل : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، أبو شامة : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

(٢) العينى : المصدر السابق، نفس الجزء واللوحة .

(3) William of Tyre, A Himstory, II, P. 437 .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، اابو شامة : المصدر السابق، نفس الجزءوالصفحة

(٥) اابن واصل: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص ٥٧٢ .

(٧) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٠١، ابن واصل : مفرج االكروب، نفس الجزء،ص٥٧٤ .

(8) William of Tyre, A History, II, PP. 481-442.

(٩) البندارى : سنا البرق الشامى : ،جـ١، ص٣٢٥، ابن االثير : الكامل، نفس الجزء والصفحة، إبو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٨، النويرى :نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٠، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم، لوحة ٦١٤ .

طرابلس وصيدا فوصل اليه الامير ريموند صاحب طرابلس ومعه بعض قواته، كما لحق به بعض فرسان الداوية وعلى رأسهم المقدم أودودى ساندا أماند[1] وسار الجميع من صفد الى قلعة الداوية فى بيت جبريل وفى تلك المنطقة التقوا بفرقة من الجيش الاسلامى،كان صلاح الدين قد أرسلها بقيادة قائده عز والدين فرخشاه للاغارة مع القرى الصليبية القريبة من هذا المكان[2] واشتبك الجيش الصليبى معها على الفور، وكان من الطبيعى أن يكون النصر فى صالحهم نظرا لعدم تكافؤ القوتين وبينما كانت قوات بلدوين الرابع تجهز على تلك الفرقة الاسلامية، سار أودو مقدم الداوية وفرسانه ومعهم الامير ريموند نحو نهر اليرموك فى المنطقة التى تقع بالقرب من مرج عيون بحثا عن فرق أخرى للمسلمين بينما علم صلاح الدين بينما تعانيه فرقته على يد الصليبيين، فهب لنجدتها[3] وحشد قواته وسارفى اتجاه مرج عيون، حيث التقى فى يوم الاثنين ٣ المحرم ٥٧٥هـ/ ١٠ يونية ١١٧٩م بقوات الداوية وريموند وبمجرد أن شاهد الداوية قوات صلاح الدين، شنوا لهجم عليها، وكادوا أن يلحقوا الهزيمة بها لولا ثبات صلاح الدين فى أرض المعركة، ونجاحة فى التصدى لهجوم الداوية، وتنظيم صفوف جيشه، وتحويل الهزيمة إلى نصر للمسامين فقد حملوا حملة واحدة على الصليبيين جعلت الامير ريموند وقواته يفرون من ميدان المعركة بينما أحاطوا بالداوية من كل جانب، وتمكنوا من قتل الكثير منهم، وأسروا الباقى وكان من بينهم المقدم أودودى ساندا ماندا[4]

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص٧٥، أبو شامة : الروضتين، جـ٢ ،ص١ ، المصدر السابق، جـ٢٦، لوحة ١٢١ .

(٢) مرج عيون : مرح واسع يقع بين اليرموك وقلعة شقيف أرنون فى جنوب لبنان ، انظر : الاصفهانى : الفتح القسى، ص ٢٨٥ .

(٣) البندارى : سنا البرق الشامى، جـ١ ، ص٣٢٦-٣٢٧، أبو شامة : الروضتين جـ٢ ، ص١٠ ، وأيضا
William of Tyre, A History, II, P. 442 .
William of Tyre, Op. Cit,m II, PP, 442-443

(٣) ولمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة أنضر :
البندارى : المصدر السابق، جـ١ ، ص٣٢٧-٣٢٩، ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ،ص٣٠١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٧٦، أبو شامة : الروضتين، ج٢، ص١٠-١١، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة ١٢٠-١٢١، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم٣، لوحة ٦١٤، مؤلف مجهول : شفاء القلوب،. لوحة ٣٥، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم١، ص ٦٨ .

كانت هزيمة الداوية فى مرج عيون هى أول هزيمة تتلقاها الجماعة على يد صلاح الدين كان هذا بشير بتحول المد فى العلاقة بينه وبين الداوية لصالحه. وقد اجمع المؤرخون الغربييون الحديثون على ان تهور الداوية فى الهجوم على قوات صلاح الدين فى تلك الموقعة دون وضع الخطة اللازمة لذلك مع قوات ريموند، كانت من أهم الاسباب لهزيمتهم[1] لكن فى الحقيقة هناك عوامل أدت الى تلك الهزيمة، منها ما يتعلق بالصليبيين ونعنى خلود الجيش الصليبى الرئيسى بقيادة الملك بلدوين الرابع الى الراحة، وانشغاله فى جمع الغنائم التى تركتها فرقة عز الدين فرخشاه[2]. بينما كانت الضرورة تقتضى أن يسارع بتقديم العون، ونجدة الداوية فى محنتهم. هذا بالاضافة الى ان فرار ريموند وقواته من ميدان المعركة، فقد اضعف بدون شك من جانب الداوية[3]. أما فيما يتعلق بالمسلمين. فقد كان لثبات صلاح الدين نجاحه فى امتصاص الضربة الأولى لفرسان الداوية، وتنظيم صفوف المسلمين بعد ان أصابها الخلل، كان لذلك اثره الكبير فى تحويل الهزيمة الى نصر عظيم للمسلمين.

على أية حال، فقد الداوية فى تلك المعركة خيرة فرسانهم، وأسر مقدمهم الذى رفض فى عجرفة أن تقوم جماعته بدفع لفدية للمسلمين من أجل اطلاق سراحه[4]، بحجة التمسك بمبادىء الجماعة إذ ذكر أنه لا يحق له أن يتصرف فى أموال جماعته، وأن كل ما يملكه لافتداء نفسه هو حزامه وسيفه[5]. وعلى هذا ظل سجيناً فى دشق إلى أن تفى فى عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ. وطالب الداوية

---

(1) Addison, Tempiars, p. 70; Grousset, Histoire des Croisades, II, p. 677, Kig, Hospitallers, pp. 109-110; Smail, crusadig warfare, p. 186.

(٢) البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣٢٩، وايضاً:
William of Tyre, A History, II, p. 442.

(3)William of Tyre, op. cit., II, pp. 442-443.

(4)William of Tyre, op. cit., II, p. 443.

(5)Addison, Op. cit., p. 78.

تسليم جثته إليهم مقابل إطلاق سراح أسير مقدمي المسلمين[1] عندهم[2].

وبعد ان نجح صلاح الدين في توجيه تلك الضربة القاصمة الى جماعة فرسان الداوية، سعى الى مهاجمة قلعتهم في بيت جبريل. فحشد قواته في بانياس[3]، وبعث إلى أخيه سيف الدين ابي بكر نائبه في مصر لكي يرسل له ألفاً وخمسمائة فارس ليستعين بهم في منازلة تلك القلعة[4]. كما طلب من الصليبيين تخريب هذا الحصن، ولكنهم لم يستجيبوا لمطلبه. فخرج صلاح الدين بقواته لمهاجمة قلعة بيت جبريل في منتصف ربيع الأول ٥٧٥هـ/ النصف الثاني من أغسطس ١١٧٩م[5] ووصلها يوم السبت ١٩ ربيع الأول ٥٧٥هـ/ ٢٤ أغسطس ١١٧٩م[6]. حيث عسكر في الجبهة الشرقية منها[7]، ولكنه جد ان حصارها يحتاج الى المزيد من المجانيق بسبب شدة مناعتها. فتوجه في صباح يوم الاحد ٢٠ ربيع الأول/ ٢٥ أغسطس إلى المنطقة القريبة من قلعة الداوية في صفد، أمر بقطع اشجارها وحمل أخشابها[8] لاستكمال صنع المجانيق[9]، وعاد الى معسكره أمام

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي: جـ١، ص٣٢٩.

(٢) يرجع انه سعد الدين شاهنشاه ابن الملك المظفر تقي الدين الذى كان أسيراً عند الداوية منذ عام ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م بعد أن غرر به احد الصليبيين ممن كانوا يترددون على دمشق، وأخذة معه سلمه للداوية. أنظر: البنداري: سنا البرق الشامي، جـ١، ص٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٥٧، ابو شامة: الروضتين، جـ١، ص٢٧٣

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٨٠

(٤) العيني: عقد الجمان، جـ١، قسم٣، لحة٦١٤

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠١، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٨٠، العيني: المصدر السابق، جـ٢١، قسم٣، لوحة٦١٥

(٦) لبنداري: المصدر السابق، جـ١، ص٣٣٣، أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص١١.

(7)William of Tyre, A History, II, p. 442.

(٨) البنداري المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٩) ابن الأثير: الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: المصدر السابق، نفس، الجزء والصفحة، أبو شامة: الروضتين، نفس الجزء والصفحة.

بيت جبريل. وفى عصر نفس اليوم جمع صلاح الدين امراءه للتشاور فيما يجب اتخاذه لمهاجمة تلك القلمة[1]. فأشار عز الدين جاولى[2] بانه يرى الزحف على الحصن قبل نصب المجانيق[3] وذلك بهدف اختبار قوة من به[4] ومعرفة أسلوب قتالهم[5]. فإن تمكن المسلمون منهم فلا داعى لنصب المجانيق[6]. وقد وافق صلاح االدين على تلك المشورة[7]، نودى فى المعسكر الإسلامى بالهجوم على الحصن، والجد فى قتاله[8].

وهكذا سار المسلمون حتى اقتربوا من باشورة[9] الحصن، وقاتلوا المدافعين عنها، فتراجع الداوية[10]، وفروا من أمام المسلمين. بينما تقدمت القوات الإسلامية وأخذت تطارد فرسان الداوية الذين فروا إلى داخل القلمة، وأغلقوا أبوابها، ووقفوا يقاتلون من فوق شرفاتها واتجه فريق آخر منهم الى رمى المسلمون من فوق

---

(١) البندارى : سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٢) عز الدين جاولى: كان مقدم الأمراء الاسدية، ومن أكابر القواد والأمراء عند صلاح الدين، أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٠.

(٣) البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣٣٤، ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨١.

(٤) ابن الاثير: الكامل: جـ١١، ص٣٠٢.

(٥) البندارى: سنا البرق الشامى، نفس الجزء والصفحة.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨١.

(٧) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠٢؛ البندارى: البرق الشامى، جـ١، ص٣٣٤.

(٨) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠٢، ابن واصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفة.

(٩) الباشورة: والجمع بواشير، وهو الحائط الظاهرى من الحصن الذى يختفى وراءه الجند عند القتال، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٨١، حاشية١.

(١٠) البندارى: سنا البرق الشامى، نفس الجزء والصفحة، وايضاً:
William of Tyre, A History, II, p. 444; Guillelmi de Nangico, chronicon, p. 736.

الاسوار[1] . وبذلك نجح المسلمون في امتلاك منطقة الباشورة في مساء يوم الاحد ٢٠ ربيع الأول ٥٧٥هـ/ ٢٥ أغسطس ١١٧٩م، قتلوا بعض فرسان الداية، واستولوا على جيادهم، وتمركزوا في تلك البقعة من الحصن، استعداداً للإستيلاء عليه[2] .

أما عن الصليبيين، فقد ظل الملك الصليبي بلدوين الرابع متمركزاً بقواته في طبرية[3] وأرسل الى باقي الامارات اللاتينية يطلب منها سرعة إرسال الامدادات اليه لنجدة الداوية[4] .

هذا، بينما أمر صلاح الدين قواته بالمبيت في منطقة الباشورة الى غد اليوم االتالي، خوفاً من وصول النجدات الصليبية الى الحصن[5] . وأخذ يعززها طوال الليل بالمؤن والإمدادات[6] خشية أن يقوم الداوية بفتح أبواب القلعة، ومهاجمة مقدمة الجيش الإسلامي. لكن هذا الخوف بدأ يتلاشى عندما علم صلاح الدين أن الداوية قد اشعلوا النيران خلف الأبواب، ليحولوا دون دخول المسلمين القلعة[7] . وعلى هذا، لم يكن أمام المسلمين تفادياً لتلك الاسوار وهدمها[8] . وفي صباح يوم الاثنين ٢١ ربيع الاول ٥٧٥هـ/ ٢٦ أغسطس ١١٧٩م جمع صلاح الدين قواده، ووزعهم على أسوار القلعة تمهيداً لنقبها[9] ، وظل التاقبون ينقبون السور حتى مساء يوم الأثنين، وفرسان الداوية يرمونهم من فوق الأسوار[10] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص٣٠٢، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٨١.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١١، ١٣.

(٣) آبن الأثير الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابن اصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة، وايضاً:
William of Tyre, A History, II, pp. 444.

(4)William of Tyre, Ibid.

(٥) البنداري: سنا البرق الشامي، جـ١، ص٣٣٤.

(٦) ابن الاثير: الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨١

(٧) البنداري: سنا البرق الشامي، نفس الجزء والصفحة، أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١١.

(٨) ابن الأثير: الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة.

(٩)البنداري: سنا البرق الشامي، نفس الجزء والصفحة، ابو شامة:الروضتين،نفس الجزء والصفحة.

(١٠) ابن الاثير: الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة.

ولما كان البرج محكم البناء، لذا صعب على النقابيين إخراج أى حجرة منه، فيما عدا الجانب الشمالي الذى كان يشرف عليه صلاح الدين. حيث تمكن النقابون من ثقب جزء صغير منه وحشوه بالحطب، ثم اشعلوا فيه النيران. لكن بالرغم من كل ذلك لم يسقط السور بسبب ضخامة عرضه. وعلى هذا رأى المسلمون ضرورة أطفاء تلك النيران، وتعميق الثقب.

وفى صباح يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول ٥٧٥هـ/ ٢٧ أغسطس ١١٧٩م أخرج صلاح الدين صرة بها ثلاثمائة دينار مصرى، وتركها على يد عز الدين فرخشاه، وأمره أن يعطي كل من جاء من المسلمين بقربة من الماء ديناراً. وعلى هذا تمكن المسلمون من أطفاء تلك النيران[1]، وعاد النقابون الى نقب السور، واستمر عملهم حتى مساء ذلك اليوم دون أن يحققوا نجاح ملموس بسبب تصدى الداوية لهم، ورميهم بالنبال[2].

لذا أمر صلاح الدين النقابين بسرعة الانتهاء من عملهم، خاصة بعد ان علم أن الصليبيين قد اجتمعوا بطبرية، وأنهم عازمين على نجدة الحصن[3].

وفى صباح يوم الخميس ٢٣ ربيع الاول ٥٧٥هـ/ ٢٨ أغسطس ١١٧٩م، تمكن النقابون من ثقب السور، وحشوه، واشعال النيران فيه[4]. وكان الداوية قد وضعوا وراء تلك الثغرة حطباً. فحدث ان هبت فى تلك اللحظة رياح شديدة، دفعت بالسنة النيران الى ذلك الحطب، مما أدى الى اشتعال منازل الداوية القريبة من هذا المكان، ودفع العديد من فرسانهم الى الفرار من تلك المنطقة[5]، وطلبوا الأمان

---

(١) ابن الأثير: الكامل. جـ١١، ص٣٠٢، البندارى: سنا البرق الشامى، جـ٢، ص٢٣٥.

(2)William of Tyre, A History, II, p. 444.

(٣) بن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٢، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١١.

(٤) ابن الاثير: الكامل: نفس الجزء والصفحة، البندارى: سنا البرق الشامى، نفس الجزء والصفحة، ابو شامة: الروضتين، نفس الجزء والصفحة.

(٥) العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم٣، لوحة٦١٦، وايضاً:

William of Tyre, Ibid.

من المسلمين[١]، فلم يجيبوهم. وفى صباح يوم الجمعة ٢٥ ربيع الأول ٥٧٥هـ/ ٣٠ أغسطس ١١٧٩م، وبعد ان خمدت النيران، دخل المسلمون الحصن من تلك الثغرة دون أن يجدوا أى مقاومة من الداوية[٢]، وغنموا مائة ألف قطعة من جميع أنواع الاسلحة المعروفة وقتذاك[٣]، وكميات كبيرة من المؤن[٤]. كما أسروا سبعمائة من الداوية منهم ثمانين فارس بغلمانهم، وخمسة عشر من القادة، مع كل واحد منهم خمسون رجلاً، هذا الى جانب الصناع منهم[٥]. ونجح المسلمون فى إطلاق سراح الاسرى المسلمين الذين جاء بهم الداوية للقيام ببناء تلك القلعة[٦].

أما عن أسرى الداوية فقد عرض عليهم صلاح الدين الإسلام، فمن أبى منهم أمر بقتله، كما قتل الرماة منهم، وأرسل الباقين الى سجون دمشق[٧]، كما أمر بجمع قتلى الداوية، ورميهم فى بئر القلعة وردمه[٨]. ولعله كان يبغى من وراء المحافظة على صحة المسلمين، خوفاً من تعفن الجثث خاصة فى حرارة شهر

---

(١) البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣٣٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٣، أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٣.

(2)William of Tyre, A History, II, p. 444; Roger de Hoveden, Annals, I,P. 453.

(٣) العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قس٣، لوحة٦١٥-٦١٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة.

(٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٣.

(٦) البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١، ص٣٣٦.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠١، البندارى: سنا البرق الشامى، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة، أبو شامة: الروضتين، نفس الجزء والصفحة؛ العينى، عقد الجمان، نفس الجزء واللوحة، وأيضاً : William of Tyre, Ibid

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب: مفرج الكروب، نفس الجزء والصفحة.

أغسطس اللافحة[1] . ولم يغادر صلاح الدين قلعة الداوية إلا بعد أن تأكد تماماً من هدم أسوارها، وتسويتها بالأرض[2] .

وهناك بعض النقاط يجب التوقف عندها، وسنتناولها بشيء من التفسير والتحليل، وهي تتمثل فى رفض صلاح الدين تأمين الداوية عندما طلبوا الأمان، بل وقيامه بقتل عدد منهم بعد أسرهم. وفى الواقع أن هذا العمل كان له اسبابه ومبرراته. فلم ينس صلاح الدين ما فعله أولئك الفرسان من قبل فى حق العروبة والإسلام، فقد انتهكوا حرمة المسجد الاقصى، ودنسوه بخيولهم، وأصبحوا يشاركون فى معظم العمليات العسكرية ضد المسلمين، وباتوا يهددون العزل، ويأسرونهم ويسخروهم فى الاعمال الشاقة، لكل تلك العوامل ادرك صلاح الدين انه لا أمان لتلك الجماعة.

وأما عن قيامه بقتل بعضهم وسجن البعض الآخر، فإن لهذا ايضاً اسبابه الداعية إليه . فبالنسبة للرماة الذين أمر صلاح الدين بقتلهم فكان هذا بدون شك إنما يرجع الى أنهم قتلوا بعض المسلمين وخاصة النقابين منهم أثناء حصار تلك القلعة. ولذا كان من الطبيعى أن يأمر صلاح الدين بقتلهم ليؤمن المسلمين شرهم. أما

---

(١) ويشير البندارى أنه بالرغم من ذلك لم يسلم بعض المسلمين من المرض نتيجة لتعفن بعض الجثث فى تلك الفترة، أنظر: البندارى: سنا البرق الشامى،جـ١ ، ص٣٣٧

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٣٠١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٨٢، ابو شامة: الروضتين، جـ١ ، ص١٢ ، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، لحة٦٤، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم٣، لوحة٦٥١، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١ ، ص٦٧، وايضاً:

Guillelmi de Nangico, chronicon, p. 738.

وقد سجل الشاعر أحمد بن عبد الله بن نفاذه الدمشقى المتوفى فى عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م هذا الانتصار بقوله: هلاك الفرنج اتى عاجلاً وبدا تكسير علبانها

ولم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت احزانها

راجع: البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١ ، ص٣٣، ابن العديم: بغية الطلب، جـ١ ، ورقة ١٦٢ .

الفريق الآخر الذى بقى فى الأسر فيبدو أنهم كانوا من القادة والاخوة المساعدين من الداوية. ففيما يتعلق بالقادة، لعل صلاح الدين قد ادرك انه لا يزال لفرسان الداوية قلاع أخرى يشنون منها الهجمات على المسلمين، ويقتلونهم أو يأسرون البعض منهم. لذا أراد أن يحتفظ بأولئك القادة من الداوية ليتمكن من افتداء أكبر عدد من المسلمين المأسورين لدى الفرنج. أما عن الأخوة المساعدين فيبدو أنهم كانوا من الصناع. ولعل صلاح الدين قد ابقى على حياتهم لكى يستفيد من خبرتهم فى تخصصاتهم، وهذا ما سبق أن فعله الداوية بالأسرى المسلمين.

أما عن أسباب نجاح صلاح الدين فى أقتحام القلعة، والحاق الهزيمة بالداوية. يذكر المؤرخ وليم الصورى أن ذلك تم نتيجة لانتقام الرب من الداوية، نظراً لاخطائهم السابقة[1]. والواقع ان ما أورده وليم الصورى لا يتفق مع التفسير المنطقى للأحداث، وأنما يجيء مطابقاً لروح العصر الذى نعيش فيه، وهو عصر الإيمان والتدين. ولعله كان يعنى بأخطاء الداوية السابقة موقفهم المتشدد تجاه رجال الدين المسيحى.

أما عن الأسباب التى أغفلها وليم الصورى والتى أدت الى هزيمة الداوية، فترجع إلى عدم قيام الصليبيين وعلى رأسهم الملك بلدوين الرابع بنجدة الداوية، بالرغم من أنهم كانوا بطبرية، وعلى علم تام بمدى ما يقاسيه الداوية على يد المسلمين الذين كانوا يتوقعون وصول تلك الإمدادات بين الحين والآخر. يضاف الى ذلك عدم خروج فرسان الداوية فى قلعة صفد أو فى القلاع الاخرى لنجدة إخوانهم فى بيت جبريل. ولعلهم خشوا ان يستولى المسلمون على قلاعهم فأثروا التحصين بداخلها لمواجهة أى طارئ .. هذا عن الجانب الصليبى. أما فيما يتعلق بالجانب الإسلامى فما من شك أن شجاعة صلاح الدين وشدة اصرار المسلمين على امتلاك تلك القلعة، واستبسالهم فى مقاتلة من بها على الرغم من حصانتها

(1) William of Tyre, A History, II, pp.443-444

وشدة مناعتها، كان لكل هذا أثره الكبير فى تحقيق النصر على الداوية.

وهكذا يتضح ان العلاقة بين جماعة صلاح الدين وجماعة فرسان الداوية قد اتسمت بالعداء الشديد منذ اللحظة الأولى، وأن صلاح الدين قد جعل من قلاع الداوية القريبة من الحدود المصرية هدفاً لغاراته ليأمن خطورتها فى تلك الفترة التى كان يعمل فيها جاهداً على أستكمال تكتل الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى. وقد اخفق صلاح الدين فى الإستيلاء على تلك القلاع آنذاك، إلا أنه نجح فى توجيه ضربات قاصمة للداوية فى موقعة مرج عيون، ثم تلى ذلك بضربة أخرى وجهها إليهم فى قلعتهم الجديدة فى بيت جبريل.

وكان من نتائج هزيمة الداوية الأخيرة، أن أعتصمت بقية فرقهم فى قلاعها، ولم يبرحوها خشية أن يستولى عليها المسلمون، ويكون مصيرهم شبيهاً بمصير أخوانهم فى قلعة بيت جبريل[1]. وقد شجع هذا الموقف الامير عز الدين فرخشاه فى مهاجمة قلعة الداوية فى صفد. فحشد القوات، وخرج من بانياس فى ١٤ ذى القعدة ٥٧٥هـ/ ٣٠ أبريل ١١٨٠م[2] ونزل على صفد فى يوم الأربعاء ١٨ ذى القعدة من نفس العام (٤ مارس)، وأغار على المزارع المحيطة بها واحرقها، كما تمكن من أسر بعض الداوية ممن كانوا يعملون فى تلك المزارع[3].

وكعادة البابا عندما تتعرض جماعة فرسان الداوية فى معاقلها فى الاراضى المقدسة للخطر والمحن، فإنه يسارع إلى ارسال المساعدات إليها. وعلى هذا، قام البابا اسكندر الثالث بإرسال العديد من الرسائل الى كبار رجال الدين فى الغرب

---

(1)William of Tyre, A History, II, p. 447.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص٦٩

(٣) البندارى: سنا البرق الشامى، جـ١، ص٤٣١-٤٣٢، أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٥.

يطلب منهم فيها تقديم يد العون الى الداوية فى الشرق[1]. كما بعث برسالة الى جماعة فرسان الداوية فى الشرق الادنى[2] يؤكد لهم فيها موافقته على كل الهبات والعطايا التى توهب للجماعة، ويمنحهم العديد من الامتيازات. كما اكد البابا فى رسالته على عدم ألتزام الجماعة بدفع أى نوع من الضرائب على الأملاك الخاضعة لهم سواء فى الغرب أو فى الاراضى المقدسة. وفى نهاية الرسالة حث البابا الجماعة على مواصلة دورهم فى المنطقة من أجل صالح القضية الصليبية.

ونظراً لما كانت تعانيه الجماعة فى تلك الفترة من نقص فى الفرسان، فقد سمح البابا اسكندر الثالث فى رسالته الى الداوية فى ٢٤ أكتوبر ١١٨٠م / ٣ رجب ٥٧٦هـ بعدم التشدد فى تطبيق مبادىء الجماعة عند قبول أعضاء جدد يرغبون فى الأنضمام إليهم[3] كما قام بأرسال العديد من الخطابات الى الملوك أمراء فى الغرب يطلب إليهم إرسال المساعدات للجماعة فى الشرق[4].

(1) Letters of Pope Alexander III, of. R.O.L. Vol. XII, pp. 280-281.

(٢) فى هذه الرسالة أشار البابا الى أن مقدم الداوية فى تلك الفترة فارس يدعى رودريكو ولكن يبدو أن هذا الفارس كان ماريشال الداوية آنذاك. وكان هو الذى يتولى سلطان مقدم جماعة نظراً لأن المقدم الرئيسى أوددودى سان أماند كان لا يزال أسيراً فى سجن دمشق. كما أن المصادر الغربية لم تشر الى روديكو هذا على انه انتخب ليكون مقدماً لجماعة فرسان الداوية فى تلك الفترة، بل ذكرت انه بعد وفاة أودو فى اسره تم إنتخاب ارنولد دى تورج ليصبح مقدماً للجماعة. عن تلك الحادثة أنظر :

William of Tyre, A History,of Deads, II, p. 456; Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la conquests de La Terre d'Outremer, of. R.H.C.H. Occ., II, pp. 7-8, Amadi, chroniques, I, p. 49.

(3) Letters of Pope Alexander III, of. R.O.L. Vol, I,p. 54

(4)Roger de Hoveden, Annals, II,P. 6.

وتنفيذاً لذلك منح الملك بلدوين الرابع جماعة الداوية بعض البساتين القريبة من مدينتي عسقلان وغزة والتي تقع بالقرب من قلاعهم، كما أن الامير جي دى لوزجتان[1] تمهد بمنح الداوية ثلاثمائة دينار ذهبى سنوياً كمعونة مالية[2].

وفي ضوء ما سبق يتضح أن جماعة فرسان الداوية أصبحت تعاني الكثير نتيجة للضربتين المتتاليتين اللتين المت بهما على يد صلاح الدين في مرج عيون وبيت جبريل، بصورة جعلت الغرب وعلى رأسه البابا، واللاتين في الشرق وعلى رأسهم الملك الصليبي يسارعون بتقديم كافة أنواع لمساعدات الى تلك الجماعة. كما أن ضخامة المساعدات، وكثرة الامتيازات التي حصلت عليها الجماعة لدليل واضح على أهمية الدور الذى كانت تقوم به آنذاك في الصراع الصليبي الإسلامي. وعلى هذا فبمجرد أن تعرضت للمحن، سارع أهل الغرب والصليبيون في الشرق الى تقديم المساعدات لها، حتى تتمكن من مواصلة هذا الدور الموكول إليها والذى باركته كافة السلطات الغربة، من دينية ودنيوية على السواء.

وكان من نتائج الهزيمتين السابقتين أيضاً أن جماعة فرسان الداوية لم تقم بأى عمل عسكرى ضد المسلمين حتى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ. وقد انغمست تلك الجماعة في هذه الفترة التي امتدت من عام ١١٨٠م الى عام ١١٨٧م (٥٧٥-٥٨٣هـ) في الخلافات التي قامت بين الصليبيين وبعضهم البعض في رقعة الشرق الادنى. وكذلك في إعادة تقوية قواتهم استعداداً لمواجهة صلاح الدين الذى أخذ يعمل جاهداً في تلك الفترة على أستكمال توحيد الجبهة الإسلامية حتى تشكل بنياناً قوياً واحداً ممتداً من أقصى الجنوب في مصر الى اقصى الشمال تمهيداً لمواجهة الصليبيين.

---

(١) جن دى لوزجتان: أمير فرنسي تزوج من أسبيلا أخت الملك بلدوين الرابع عام ١١٨٠م/ ٥٨٦هـ، واصبح فيما بعد ملكاً على بيت المقدس أنظر:

William of Tyre, A History,of Deads, II, pp.446,491,501.
(2)Letters of Pope Alexander III, of. R.O.L. Vol, I,p. 51

وفي تلك الفترة مات المقدم أودودى ساند أماند في سجنه في دمشق واستلمت جماعته جثته في عام ١١٨٠م / ٥٧٥هـ واختارت أرنولد دى تورج Arnold de Torroge [١] ليخلفه في منصبه.

وكانت أولى الخلافات التي انغمست فيها الجماعة مع الصليبيين وقتذاك النزاع الذى شب بينها وبين جماعة فرسان الاسبتارية نتيجة لقرب ملاك الجماعتين من بعضها، عندما حصل جماعة الداوية على الأملاك الجديدة. وقد استطاعت كل من الجماعتين حل هذا الخلاف في تلك المرحلة[٢] طبقاً للأسلوب الذى كانتا قد اتفقتا عليه من قبل[٣].

وقد ظلت جماعة فرسان الداوية تتلقى المساعدات من جانب اللاتين سواء المقيمين في أوروبا أو في الشرق الادنى. ففى يناير ١١٨٣م / شوال ٥٧٨هـ منح بوهمند الثالث جماعة الداوية املاكاً جديدة في مدينة انطرسوس[٤].

وعندما شب النزاع بين بلدوين الرابع ملك بيت المقدس والأمير جى دى لوزجنان[٥] في مارس ١١٨٣م / ذى الحجة ٥٧٨هـ بسبب مشكلة الوصاية على العرش، توسط مقدما الداوية والاسبتارية لدى الملك الصليبى من أجل جى دى لوزجنان، ولكن الملك رفض الوساطة وأمر بطرد اولئك المتقشفين من القصر الملكى[٦]. وفي الحقيقة أن تشفع الداوية للأمير جى دى عند الملك الصليبى في

---

(١) كان أرنولد دى تورج يشغل منصب قائد فرسان الداوية في فرنسا، ثم أنتقل الى مقر الجماعة في الشرق الى أن تم اختياره مقدماً للجماعة أنظر : Addison, Templars, p. 78

(2) Le Raulx, Inventaire de pieces de L'Hopital, of. R.O.L.I. 67.

(٣) عن هذا الأسلوب أنظر ما سبق، ص١٢٥-١٢٦.

(4)Archives de Malte, vol., I, Piece, 4, of., Documents, p.10.

(5)William of Tyre, A History,of Deads, II, pp.501-504,Eracles, L'Estoire, p..6; Amadi, chroniques, I, p. 48.

(6)William of Tyre, op. cit., II, p. 508.

تلك المرحلة لم يكن بدافع الرغبة فى تسوية الخلافات القائمة بين القادة الصليبيين وبعضهم البعض، والعمل على توحيد كلمتهم لمواجهة المسلمين، إنما كان نتيجة للتقارب الذى حدث آنذاك بين الداوية والأمير جى، والذى سيؤثر فيما بعد على مجريات الأمور وسيكون له أثره فى الهزائم التى حلت بالصليبيين. هذا عن الصراعات بين الصليبيين وبعضهم البعض ودور الداوية فيه.

أما عن المناوشات التى جرت بين المسلمين وبعض جماعة فرسان الداوية فى تلك المرحلة فتتمثل فى خروج حامية قلعة الداروم التابعة للداوية فى المحرم عام ٥٧٩هـ/ ابريل ١١٨٣م للإغارة على المناطق الإسلامية القريبة[١] فخرجت إليها فرقة من الجيش المصرى[٢] بقيادة والى الشرقية لمقاتلتها[٣]، واشتبكت معها وقتلت جميع أفرادها فيما عدا فارسين تمكنا من الفرار ليخبرا إخوانهم بتلك المذبحة[٤].

وعلى ضوء ما سبق آن يتضح أن الجبهة الصليبية أخذت تسير يوماً بعد يوم من سيء الى أسوء، بينما أخذت الجبهة الإسلامية تقوى وتتماسك نتيجة لجهود صلاح الدين.

إنقاذاً لتلك الحالة التى وصل إليها الصليبيون اجتمع الملك بلدوين الرابع والبارونات الفرنج ومعهم مقدمى الداوية والاسبتارية والبطريرك اللاتينى هرقل فى

(١) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٣٤١

(٢) كان الجيش الإسلامى ومعه صلاح الدين منشغلاً فى تلك الفترة بفتح مدينة حلب أنظر: ابن الاثير: الكامل، جـ١١، نفس الصفحة؛ أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٤٢

(٣) أغفلت المصادر الغربية أحداث هذه الوقعة وربما يرجع ذلك الى ضآلة القوات الصليبية والإسلامية التى اشتركت فيها. أما عن المصادر العربية فإنها لم تشر الى اشتراك الداوية بعينهم فيها ولكنها ذكرت أنهم الفرنج من حامية الداروم، ولما كانت قلعة الداروم آنذاك فى حوزة فرسان الداوية ويقومون بحمايتها لذا فمن المؤكد أن المعنيين هم الداوية.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، نفس الصفحة، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص١٤٠، أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٤٧-٤٨.

ديسمبر عام ١١٨٤م / رمضان ٥٨٠هـ للتشاور فيما يجب اتخاذه في هذا السبيل. وقد قرر المجتمعون ضرورة إرسال مقدمي الداوية والأسبتارية ومعهم البطريرك هرقل الى المغرب لاقناع الملك الانجليزى هنري الثاني، والامبراطور الالماني فردريك باربا روسا (١١٥٢-١١٩٠م / ٥٤٧-٥٨٦هـ) بضرورة إرسال النجدات الى الشرق[١].

وعلى الفور سافر أرنولد دى تورج ومعه مقدم الاسبتارية والبطريرك الى الغرب بعد أن زودهم الملك الصليبي بلدوين الرابع ببعض الرسائل، والراية الملكية ومفاتيح االقبر المقدس[٢] كدلالة منه على مدى ما تعانيه الممالك اللاتينية في الشرق من متاعب وحاجتها الملحة الى المساعدة[٣] وفي أثناء الطريق مات أرنولد دى تورج[٤] بينما واصلت السفارة مسيرتها لاتمام المهمة التى خرجت من اجلها[٥].

وقد أورد روجردى هوفون رواية في هذا الصدد مؤداها أنه بعد رجوع هذه السفارة الى بيت المقدس عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ خرج أحد فرسان الداوية من أصل انجليزى ويدعى روبرت دى سانت البان Robert de st. Abban عن جماعته واتجه الى صلاح الدين واعتنق الإسلام. فزوجه صلاح الدين من فتاة عربية جميلة، وزوده بفرقة من جيشه وجعله على قيادتها، حيث قام بالهجوم على مدينة

---

(1)Eracles, L'Estoire, p..3; Benedieti of petroburgensis, Vita, Henerici II Angliae Regis, Of.R.H.G.F., Vl. XVII, p. 462; Roger of Hoveden, Annals, II,P. 46.

(2)Benedieti of petroburgensis, Vita, Henerici II Angliae Regis, Of.R.H.G.F., Vl. XVII, p. 462; Roger of Hoveden, Annals, II,P. 48.

(3)King, Haspitallers, pp. 114-115.

(٤) مرض المقدم أرنولد عندما وصلت تلك السفارة الى إيطاليا وتوفي في يناير ١١٨٥م/ شوال ٥٨٠هـ في مدينة فيرونا Verana أنظر: Addison, Templars, pp.79-80

(5)Benedieti of petroburgensis, Ibid;Eracles, L'Estoire, pp.8-9;Roger of Hoveden; op. cit., II, pp. 47-48.

بيت المقدس، وقد تصدى له زملاؤه من فرسان الداوية، وأرغموه على الفرار بعد أن قتلوا الكثير من القوات التى كانت معه. ويستطرد المؤرخ قائلاً أن صلاح الدين عندما علم بذلك أثناء انشغاله بالهجوم على نابلس وسبسطية خرج بقواته وهاجم قلاع الداوية، ولكنهم تصدوا له، فأضطر أن يمنحهم ستين ألف دينار فى مقابل عقد الهدنة معهم[1].

لكن هذه الرواية مشكوك فى صحتها، ويجب أن تنظر إليها بشىء من الحذر والحيطة لعدة أسباب أولها أن المؤرخ روجردى هوفدن أنفرد وحده بذكرها. كما أن المصادر العربية لم تشر إطلاقاً إلى إنضمام أحد من فرسان الداوية أو من الفرنج إلى صلاح الدين فى تلك الفترة. هذا، فضلاً عن أن هجوم صلاح الدين على نابلس وسيطية كان فى جمادى الآخرة ٥٨١هـ/ سبتمبر ١١٨٤م وهو تاريخ يخالف ما أورده روجردى هوفون. ثم أن المصادر العربية والغربية على السواء لم تذكر أن القوات الإسلامية قد قامت بالهجوم على مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة أو أن صلاح الدين قد عقد هدنة مع الداوية. وفوق هذا وذاك فإن كفة صلاح الدين فى الصراع بين الصليبيين والمسلمين كانت هى الأرجح فى تلك الفترة ولم يكن فى حاجة الى عقد أى معاهدات مع جماعة الداوية التى كانت تعانى الكثير بعد الهزيمتين اللتين المتا بها فى مرج عيون وفى قلعة بيت جبريل. وعلى هذا فإن وضعهم العسكرى آنذاك لم يكن يسمح لهم بفرض شروطهم على صلاح الدين وإرغامه على دفع جزية لهم، بل كان هو فى الوضع الذى يسمح له بفرض طلباته نتيجة لأعتدال ميزان القوى فى هذا الصراع وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن هذه الرواية مرفوضة نصاً وموضوعاً، خاصة إذا علم أن هذا المؤرخ كان يكتب روايته التاريخية وهو بعيد عن مسرح الاحداث فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى وقد أعتمد على الروايات المبالغ فيها والتى كان ينقلها له الحجاج والمحاربون العائدون الى

(1) Roger of Hoveden, Annals, II,P. 54.

الغرب. لذا وقع كفيره ممن أرّخوا الاحداث وهم بعيدون عن مسرحها فى كثير من الاخطاء التاريخية.

ونخلص مما سبق أن العلاقات بين صلاح الدين وجماعة فرسان الداوية اتسمت بالعداء منذ اللحظة الأولى، وانها بدأت فى عام ١١٧٠م / ٥٦٦هـ بمهاجمة صلاح الدين لبعض قلاعهم القريبة من الحدود المصرية. وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يوفق فى تلك الفترة فى فتح تلك القلاع نظراً لأنشغاله بتوحيد الجبهة الإسلامية المفككة، إلا انه عندما شرع فى توحيد تلك الجبهة بدأ يجنى ثمار ذلك، واستطاع أن يوجه للداوية ضربتين متتاليتين أولهما فى موقعة مرج عيون والثانية فى قلعة بيت جبريل. ولقد تأثرت الجماعة بتلك الهزيمتين تأثراً كبيراً. ويكفى انها لم تشارك الصليبيين حتى عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ فى الهجوم على المسلمين اللهم فيما قامت به حامية الداروم الضئيلة بالغارة على المناطق القريبة منها ونجاح المسلمين فى دحرها. وأصبح دور الجماعة فى تلك الفترة مقتصراً على الإنغماس فى المشاكل الداخلية للصليبيين وفى دعوة الغرب للمشاركة فى حملة صليبية جديدة على منطقة الشرق الادنى.

ومما هو جدير بالذكر انه بعد وفاة المقدم أرنولد دى تورج، قامت الجماعة باختيار جيرارد ريدفورت Gerard Ridefart فى ابريل ١١٨٥م/ ٥٨١هـ ليخلفه فى منصبه. وفى عهد هذا المقدم الجديد ستتبع جماعة فرسان الداوية سياسة تبتعد كل البعدعن الدور الذى سبق أن قامت به. إذ انها سوف تنغمس فى الخلافات القائمة بين الصليبيين فى الأراضى المقدسة بصورة واضحة. وسيكون لهذا الدور آثاره على هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين من جهة، وفى هزيمة الداوية فى موقعة صفورية من جهة اخرى. وهذا ما سوف تكشف عنه الاحداث التالية.

الفصل الرابع

العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين فى الشرق الادنى منذ موقعة حطين وحتى بداية الحملة الصليبية الثالثة

(١١٨٧ - ١١٨٩م/ ٥٨٣ - ٥٨٥هـ)

١ - دور الداوية فى الخلافات بين الحكام الصليبيين ونتائجه

٢ - هزيمة الداوية فى موقعة صفورية عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، وأثارها .

٣ - دور الداوية فى موقعة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣، وانعكاساتة .

٤ - سقوط قلاع الداوية فى الشرق على يد صلاح الدين .

٥ - دور الداوية فى الدعوة للحملة الصليبية الثالثة .

اتسمت العلاقات بين صلاح الدين الايوبي وجماعة فرسان الدواية بالعداء الشديد . وكان هذا أمراً طبيعياً على اعتبار أن تلك الجماعة منذ أن وضعت النواة الاولى لها قد أنتهكت المقدسات ومن بينها المسجد الاقصى الذى كان له الاجلال الكبير عند المسلمين . ثم استمرت فى سياستها العدائية نحو المسلمين والتى اتخذت صوراً وأشكالاً شتى . فشاركت الصليبين فى معظم هجماتهم على المدن الاسلامية، كما قامت بحماية بعض المعاقل اللاتينية فى الشرق واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أصبح صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد، ثم آل اليه بعد ذلك زمام امور المسلمين وكما سبق أن بينا فقد مرت علاقة جماعة فرسان الداوية بصلاح الدين الايوبي بثلاث مراحل رئيسية وقد نجحت الجماعة فى بداية المرحلة الأولى فى صد هجمات صلاح الدين الموجهه إلى بعض قلاعها . كما شاركت الصليبين فى انزال الهزيمة به فى موقعة الرملة عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ ولكن سرعان ما نجح صلاح لادين فى انزال الهزيمة بتلك الجماعة فى موقعة مرج عيون عام ١١٧٩م / ٥٧٥ هـ ثم تلاها بتوجية ضربة أخرى اليهم فى قلعة بيت جبريل فى نفس العام .

أما عن المرحلة الثانية والتى بدأت منذ عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ حتى عام ١١٨٩م/٥٨٥هـ، فقد استطاع صلاح الدين فى آحدى مراحلها ان ينزل بالصليبين بصفة عامة، وبجماعة فرسان الدوية بصفة خاصة هزيمة منكرة فى موقعة حطين تلك الموقعة التى نتج عنها استرداد المسلمين لمعظم مدنهم ومن بينها مدينة بيت المقدس، اذ قام صلاح الدين بتطهير المسجد الاقصى مما أحدثته تلك الجماعة به، كما نجح فى فتح معظم قلاع الداوية فى الاراضى المقدسة .

ولكي نتفهم حقيقة الدور الذى قامت به جماعة فرسان الداوية فى موقعة حطين لابد ان نبين أولا علاقة تلك الجماعة بالحكام اللاتين فيالشرق، والتى كانت لها انعكاساتها الكبرى على هزيمة الصليبين فى تلك الموقعة،وبالتالى على

علاقاتهم بصلاح الدين ومسلمى الشرق الادنى .

فبالنسبة لعلاقة الداوية بريموند الثالث امير طرابلس يمكن القول إنها لم تكن تتسم بالعداء، وذلك قبل أن يصبح جيرارد ريدفورت مقدما لها، ومما يؤكد ذلك انه عندما أوصى بلدوين الرابع فى يناير ١١٨٥ / شوال ٥٨٠هـ، أن يخلفه على عرش مملكة بيت المقدس ابن اخته الصبى بلدوين الخامس تحت وصاية ريموند[١] اعلنت جماعة فرسان الداوية عن موافقتها على تلك الوصية، واقسمت على تنفيذها . كما اقسمت على انه فى حالة موت هذا الصبى قبل أن يبلغ سن العاشرة، فان ريموند يظل وصيا على العرش حتى يقوم البابا باختيار ملك جديد على بيت المقدس[٢] .

ولكن بعد وفاة بلدوين الرابع فى مارس ١١٨٥م / ذى الحجة ٥٨٠هـ، وبعد أن أصبح جيرارد ريدفورت مقدما لجماعة فرسان الداوية فى ابريل ١١٨٥م/ المحرم ٥٨٠هـ، ووفاة بلدوين الخامس قبل أن يبلغ العاشرة من عمره بمدينة عكا فى اغسطس ١١٨٦م/ جمادى الاخره ٥٨٢هـ - بعد كل هذا وذلك انقلبت سياسة الداوية تجاه ريموند، ووقفوا منه موقف العداء[٣] .

ويرجع الموقف الاخير لتلك الجماعة الى العداء الشخصى بين جيرارد ريدفورت والامير ريموند، فعندما كان جيرارد فارسا طموحا، وكان يعمل فى خدمة الامير ريموند حتى ١١٧٣م/ ٥٦٩هـ . وكان ريموند قد وعد جيرارد بأن يزوجه بأحد الاميرات الصليبيات فى مدينة طرابلس، ولكنه لم يقف بتنفيذ هذا الوعد،

---

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٦٧، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٨٤ .

(2) Eracles, L'Estoire, PP. 6-9;
Amadi, Chroniques, I, PP. 48 - 51 .

(٣) ابن الاثير :الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧، الاصفهانى : الفتح القسى ص ٦٨، وأيضا .
Eracles. L'Estaire, P. 26; Conder, C.R., The Latin Kingdom of jerusalem, London, 1897, P. 145 .

ولم يزوج جيرارد بتلك الاميرة أنما فضل عليه أحد الاثرياء الايطاليين الامر الذى اغضب جيرارد . فخرج عن خدمة ريموند وانضم الى جماعة فرسان الداوية، واخذ يترقى فى مناصبها الى ان تم اختياره مقدما لها[١] . وظل جيرارد يحمل الحقد لريموند الذى حال دون تنفيذ تطلعاته في أول فرصة سمحت له[٢] .

ولما كان جيرارد يشغل منصب مقدم الجماعة والتى كان على جميع أفرادها الامتثال لاوامره، فقد انعكس موقف جيرارد من ريموند على سياسة الجماعة تجاه هذا الامير الصليبى .

ولقد برز الموقف العدائى لجماعة فرسان الداوية بعد موت بلدوين الخامس فبدلا من أن تقوم جماعة الداوية بتنفيذ وصية الملك بلدوين الرابع والعهد الذى تعهدت به، نجد أنها بأمر من مقدمها جيرارد تقف ضد رغبات ريموند وتقوم بتأييد اسبيلاً ابنه بلدوين الرابع ومن تختاره زوجاً[٣] لها لتولى عرش بمملكة بينت المقدس[٤] كما قامت الجماعة بنقل جثمان الملك بلدوين الخامس الى بيت المقدس وقامت بدفنه في المقابر التابعة لها[٥] لتؤكد لريموند مدى نفوذها وسلطانها فى تلك المرحلة .، ولتعلن صراحة عن نقضها لوصية الملك بلدوين الرابع[٦] .

اما عن الامير ريموند فقد اتجه إلى مدينة نابلس وعقد مجلسا ضم معظم بارونات مملكة بيت المقدس . وقد ايد جميع الحاضرين ريموند فى احقيته فى الوصاية على العرش والسعى من أجل ذلك[٧] بينما خشي الداوية ان يقوم ريموند

(1) Eracles, Op. Cit., PP. 51-52,
Amadi, Chroniques. I, P. 61
(2) Addison, templars, P. 119,
King, Hospitallers, P. 117

(٣) كانت اسبيلا قد انفصلت عن زوجها السابق جى دى لوزجنان .

Roger de Hoveden Annals, II, p. 62,
(4) Eracles, L' Estoire, 25-26;
Bendicti of Petroburgensis, Vita,of.R.H.G.F., Vol XVII, P. 469;
(5) Amadi, Chroniques, I, P. 39 .
(6) Addison, Templaers, p. 118-119 .
(7) Eracles, Op. Cit., PP. 26-27 .

ومعه هؤلاء البارونات بالهجوم على بيت المقدس لتنفيذ الوصية بالقوة لذا اغلقوا ابواب المدينة، ووضعوا فرسانهم على الاسوار للتصدى لهذا الهجوم المرتقب كما اتجه جيرارد ريدفورت والبطريرك هرقل إلى كنيسة القبر المقدس، وقاما بتتويج أسبيلاً بعد أن أخرجا التاج الملكى ووضعوه على رأسها(١) وقد طلب جيرارد وهرقل من أسبيلا أن تختار الزوج المناسب ليتولى أمور المملكة(٢) فطلبت منهم أن يقسما أولا باحترام رغبتها وتتويج من يقع عليه اختيارها، ففعلوا (٣)عندئذ اخذت اسبيلا التاج ووضعته على رأس زوجها السابق جى دى لوزجنان وسط دهشة الحاضرين فما كان من البطريرك هرقل الا أن أتجه إلى جى، وقام بتتويجه مليكا على بيت المقدس وأقسم الحاضرون بعد ذلك يمين الطاعة لجى زوجته(٤) ولما كانت العلاقة بين الداوية والملك جى يسودها الوفاق والمودة من قبل(٥) فقد اقاموا للزوجين مأدبة فخمة(٦) ابتهاجا بتلك المناسبة(٧) .

وعلى هذا يتضح ان الاهواء الشخصية لعبت دوراً كبيراً فى تباين موقف الداوية تجاه ريموند، وأن العداء القديم بين جيرارد وريموند قد دفع جماعة فرسان الداوية بعد أن أصبح جيرارد مقدما لها أن تناصب الامير ريموند العداء . وبذا يتبين

---

(1) Eracles, L'Estoire, P. 26-27 ;
Bendicti of Petroburgensis, Vita, of.R.H.G.E., Vol. XVII, P. 468.
Amadi, Chroniques, I, P. 54.

(2) Eracles, Op. Cit., P. 28 .
Bendicti of Petroburgeensis, Vita, of. R.H.G.F., Vol XVII, P. 469 .

(3) Roger de Hoveden, Annals, II, P. 62 .

(٤) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٧، الاصفهانى : الفتح القسى، ص ٦٨، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٨٥، أبو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٧٤، وأيضا :

Eracles, Op. Cit., PP. 29-31;
Benedicti of petroburgensis, Op. Cit., P. 468.
Pager de Hoveden, Annals, II, P. 62;
Amadi, Chroniques, I, P. 54 .

(5) Addison, Templars, P. 120 .

(6) Rager de Hoveden, Annals, II, P. 62;
Amadi, Ghroniques, I, P. 54.

(7) Jashua Prauere, The Latin Kingdom, P. 178.

للمرة الثانية ان تلك المبادىء التي وضعتها تلك الجماعة قد اضرت بالصليبيين في الاراضي المقدسة .

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على موقف الداوية المعادى من ريموند أن بدأ الانقسام واضحاً في صفوف الصليبيين في الشرق[١] كما بدأ الامير ريموند يتقرب من صلاح الدين طالبا مناصرته[٢] ضد من ناصبوه العداء واقصوه عن الوصاية على العرش[٣] وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الخلافات بين الفرنج وبعضهم البعض ودخول الداوية طرفا فيه، افاد الجانب الاسلامي في الوقت الذى تم فيه تكتيل الجبهة الاسلامية ضد الفرنج، لهذا كان طبيعيا أن يدلى صلاح الدين بدلوه في هذه الصراعات الصليبية وأن يستجيب لنداء ريموند ضد خصومه من الصليبيين

على أيه حال، تنبه البابا اوربان الثالث Urban III (١١٨٥- ١١٨٧م / ٥٨١ - ٥٨٣ هـ) لخطورة الدور الذى تقوم به جماعة فرسان الداوية في تلك الفترة : وما قد يترتب عليه من تصدع الجبهة الصليبية مما يجعلها سهلة المنال بالنسبة للمسلمين، وحرصا مع على تماسك تلك الجبهة الصليبية قد أرسل خطابا إلى جماعة الداوية يطلبه منهم أن يكفوا عن اثارة المتاعب للصليبيين في الشرق[٤] ولكن الداوية لم يعطوا لذلك النداء البابوى أى اهتمام واستمروا في دورهم العدائي ضد ريموند فكان هذا دليلا آخرعلى مدى فتور الروح الصليبية عند تلك الجماعة وعلى استعدادها للانغماس في معمعة الصراعات الصليبية تحقيقاً لمصالحها الخاصة .

---

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٤٧، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٤٨، الاصفهاني : الفتح القسي، ص ٦٨، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٨٥، العينى : عقد الجمان ، جـ٢١ ، قسم١، لوحة ٢٦ .

(٢) ابن الاثير: الكامل، نفس الجزء والصفحة، ابو شامة، الروضتين، جـ٢ ص٧٤ .

(3) Roger de Hoveden, Ibid; Amadi, Ibid .

(4) Letter of Pope Urbon III, of, Documents, P. 19.

وبينما كان صلاح الدين يستعد لمواجهة الصليبيين بحشد القوات الاسلامية لاجل هذا الفرض[١] نجد أن جماعة فرسان الداوية بدلا من أن تحشد هى الاخرى قواتها استعداد لتلك المواجهة، ومواصلة دورها التى تأسست من أجله، أو تسعى على الأقل فى تلك الفترة إلى حل المنازعات القائمة بين الصليبيين - بدلا من هذا وذاك ظلت منحرفه عن دورها السابق، واستمرت فى سياسة المعاداه لريموند ضاربه بنصائح البابورية ومصالح الصليبيين عرض الحائط ، فقد طلب المقدم جيرارد من الملك جى فى تلك الفترة الحرجة ان يسعى للاستيلاء على أملاك الامير ريموند[٢] ، وذلك لانه من وجهة نظرة خائن لتقربه إلى المسلمين[٣] .

وقد استجاب الملك جى لهذا الطلب، وخرج ومعه فرسان الداوية فى أواخر ابريل ١١٨٧م / منتصف صفر ٥٨٣هـ لتحقيق هذا الفرض لولا تدخل باليان الثانى صاحب نابلس[٤] فقد أدرك خطورة محاربة الصليبيين بعضهم البعض فى تلك الفترة[٥] ، فأشار على الملك جى بضرورة المصالحة مع ريموند[٦] واقتنع الملك بنصيحة باليان، وتقرر ارسال سفارة من مقدمى الداوية والاسبتارية لعقد المصالحة مع ريموند[٧] وقد توجهت تلك السفارة الى نابلس فى ٢٩ ابريل ١١٨٧م / ١٧ صفر ٥٨٣هـ للقيام بمهمتها[٨] .

وفي أثناء تلك الاحداث كان الافضل بن صلاح الدين قد أعد ثلاثة فرق

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٤٩، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٤٩، الاصفهانى : الفتح القسى، ص ٦٨ - ٦٩، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٧٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢، ص ١٨٦، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٧٥، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة ٢٧- ٢٨ .

(2) Eracles, L'Estoire, P. 35.
(3) King, Hospitallers, P. 118.
(4) Eracles, Ibid,
(5) King, Op, Cit., P. 119 .
(6) Jacques de Vitry, Jeruselem, P. 99.
(7) Eracles, Op. Cit., PP. 35-36 .
(8) Eracles, Op. Cit., P. 39 .

اسلامية الاولى بقيادة مظفر الدين كزجك[1] والثانية من عسكر دمشق بقيادة قايماز النجمى[2] اما الفرقة الثالثة فكانت من عسكر حلب، وقد وضع الافضل دلدرم اليارقى[3] على قيادتها[4] وقد أمرهم بالاغارة على الاراضى الصليبية[5] القريبة من عكا[6] كما بعث الافضل إلى ريموند يطلب منه السماح لتلك القوات بالعبور من جانبه[7] بينما كانت السفارة الصليبية فى طريقها اليه لعقد المهادنة .

ولما علم ريموند بأخبار تلك السفارة أسرع بارسال خطاب اليها قبل تحركها الى قلعة الداوية فى الفوله – جنوب جبل الطور – يعلمها باخبار التحرك الاسلامى فى تلك المنطقة[8] ويطلب اليها تجنبه حرصا منه على عدم الصدام بين المسلمين وتلك السفارة[9] .

ولكن عندما علم مقدما الداوية والاسبتارية بما جاء فى رسالة ريموند اليهما،

---

(١) هو مظفر الدين زيد الدين على كوجك المعروف باسم مظفر الدين كوكبورى وكان نائب صلاح الدين فى امارة حران والدها، توفى فى عام ٦٣٩هـ/ ٧٣١هـ انظر :
ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٠، أبو المحاسن : نجوم الزاهدة جـ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٢) هو الامير صارم الدين قاريماز، وكان من أكبر امراء صلاح الدين ولمقربين اليه ، انظر .
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٢٧ .

(٣) ابن يارون صحب تل باشر، وقد توفى عام ٦١١ هـ/ ١٢١٤م وخلفه ابنه فتح الدين انظر الاصفهانى : الفتح القسمى، ص ٦٢، حاشية (١) .

(٤) ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٥٠، ابن الجوزى : مرأة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥١، الاصفهانى : المصدر السابق، ص٦١-٦٢، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ١٨٧، ابو شامة : الرزوضتين، جـ٢ ، ص٧٥، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم ٢١، لوحة ٣٢ .

(5) Eracles, L'Estoire, P. 381;
Jacques, de Vitry, Jerusalem, P. 99;
Ambroise, the Crusade, P. 124

(٦) ابن الاثير : الكامل، نفس الجزء والصفحة .

(٧) أبو شامة : الروضتين، نفس الجزء والصفحة، وأيضا .

Eracles, Ibid

(8) Eracles, Op. Cit., PP. 38-39 .

(9) King, Hospitallors, PP. 119-120;
Conder, The Latin Kingdom, P. 147 .

صمما على التصدى لتلك الفريق الاسلامية، فجمع جيرارد معظم فرسان الداوية الذين كانوا فى قلعة الفولة، وارسل الى جاك دى ميللى Jaque de Mailli ماريشال الداوية الذى كان متواجدا بقلعة الداوية فى فاقون يأمره باستدعاء أكبر جمع من أفراد الجماعة فحشد الداوية والاسبتارية قوة تناهز مائة وخمسين فارساً، وسبعمائة من الأخوة المساعدين منهم مائة وعشرين فارسا من الداوية، وخمسمائة من الأخوة المساعدين(١) وخرجوا جميعا لمواجهة المسلمين(٢) فى ١ مـايو ١١٨٧م / ١٩ صفر ٥٨٣هـ .

وعندما علم المسلمون بانباء هذا التحرك الصليبى اتبعوا تكتيكا حربيا اشتهر به الفن العسكرى الاسلامى انذاك فجعلوا قوات قايماز تختبىء فى جهة، وفرقة دلدرم فى جهة أخرى بينما ظلت فرقة مظفر الدين فى تقدمها حتى أصبحت على مقربة من قوات الداوية والاسبتارية(٣) . فلما رأى المقدم جيرارد قوات مظفر الدين ظن انها هى القوة الاسلامية التى أشار اليها ريموند فى رسالته السابقة . وشعر أن النصر على تلك القوات قريب منه إلى حد انه دعا أهالى مدينة الناصرة للخروج استعدادا لجمع الغنائم الاسلامية(٤) .

---

(1) Devizes, R & Vinsauf. G., Chronicles og the Grusude, London, 1848, P. 70;
Eracles, L'Estaire, P. 40;
Jacques de Vitry, Jerualem, P. 100 .

(٢) لم تحدد المصادر العربية اعداد الفرق الاسلامية التى ارسلها الافضل ابن صلاح الدين كما انها لم تذكر اعداد الداوية ولاسبتارية التى تلاقت مع تلك الفرق، وإنما اكتفت بوصفهم « وكانوا فى خلق عظيم » ، وحشد من الداوية والاسبتارية اما المصادر الغربية فقد ذكرت ان اعداد القوات الاسلامية التى قاتلت الداوية والاسبتارية كانت تقارب سبعة آلاف وهو رقم مبالغ فيه ولكن هناك حقيقة يمكن ان نخلص بها وهى أن اعداد الفرق الثلاث الاسلامية كانت تفوق اعداد الداوية والاسبتارية التى خرجت لملاقاة المسلمين وعن تلك المصادر العربية انظر :
ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٠، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥١، الاصفهانى: الفتح القسى، ص ٦٢، ابو شامة: الروضتين ، جـ٢،، ص٧٥، العينى : عقد الجمان،، جـ٢١، قسم١، لوحة ٣٢ .

(٣) العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم١ ، لوحة ٣٢ .

(4) Eracles, L'Estoire, P. 40.

وهكذا تقدم جيرارد للهجوم[١] على فرقة مظفر الدين التي وصلت إلى المنطقة القريبة من صفورية بينما تنبه روجردى مولين مقدم الاسبتارية وجاك ماريشال الداوية إلى خطورة ما سيقدم عليه المقدم جيرارد، وعرفا أن تلك القوات التي أمامهم لا تمثل كل الجيش الاسلامي،وذلك نظرا لخبرتهما السابقة بطرق المسلمين في الحرب والقتال . فحاول روجر وجال منع جيرارد من مهاجمة تلك الفرقة العسكرية ولكن جيرارد رماهم بالجبن والتخاذل ونبه جاك بانه يجب عليه الاذعان لأوامر المقدم[٢] ولذا قامت القوات الصليبية بالهجوم على فرقة مظفر الدين، وكادوا ان يظفروا بهما ولكن ثبات مظفر الدين من جهة، ووصول كل من القائدين لعدم وقيماز من جهة أخرى، جعل الداوية والاسبتارية محاطين بالمسلمين من كل جانب، فاجهز المسلمين عليهم[٣]، وتمكنوا من قتل ستن فارسا من الداوية[٤] وعدد كبير من الاخوة المساعدين[٥]، واسروا الباقين . هذا، بينما قتل جميع من اشترك من فرسان الاسبتارية في تلك المعركة بما فيهم المقدم روجردى مولين، ولم ينج من تلك الهزيمة سوى المقدم جيرادر وثلاثة فرسان من الداوية[٦] وتروى المصادر الغربية ان الماريشال جاك ابلى بلاء حسنا وواجه المسلمين بشجاعة إلى أن قتل في ساحة الوغى[٧] ولعله اراد بهذا العمل ان يمحو عن جبينه وصمه الجبن التي رماه بها المقدم جيرادر وعادت الفرق الاسلامية ومعها الاسرى من الداوية والاسبتارية،

---

(1) Devizes, Chroniques, P. 70
(2) Eracles, Op. Cit., P. 42.
(٣) الصفهاني : الفتح القسي : ص٦٢-٦٣، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥١، العيني : عقد الجمان، جـ ٢١، قسم١، لوحة ٣٢ .
(4) Letter of Terricius, of Roger de Hoveden, Annals, II, P. 68' Davizes, Chroniols, PP. 70-71; Ambroise, The Crusade, P. 124 .
(5) Jacques de Vitry, Jerusalem, P. 100;
Roger de Hoveden, Annals, II, P. 64-65 .
(6) Eracles, L'Estaire, PP. 42-43;Bendicti of Petroburgensis, Vita cf R.H.G.F.,Vol XVII, P. 476 .
(7) Eracles, Op. Cit., P. 43;
DEvizes, Op. cit., P. 71.
Jacques de Vitry, Ibid .

ومحملة بالاسلاب والغنائم[1] رافعة رؤوس قتلاها على أسنة الرماح[2]

وقد اجمع المؤرخون الغربيون القدامى والحديثون على ان تهور مقدم الداوية وكثرة اعداد المسلمين كانا من اهم الاسباب التى أدت الى هزيمة الداوية والاسبتارية فى موقعة صفورية ،والتى وصفها المؤرخون الحديثون باسم ساحة الدم لكثرة قتلى الصليبين فيها[3] .

وليس هناك من شك فى أن ما أورده أولئك المؤرخون عن أسباب الهزيمة قد أدى الى نكبة الداوية والاسبتار ية ولكن هناك أسباب أخرى لم يذكرها أولئك المؤرخون وهى نجاح المسلمين فى خداع المقدم جيرود ريدفورد الذى لم يكن يعلم الكثير عن فنونهم العسكرية لحداثة عهدة بمنطقة الشرق الادنى ، وبراعة المسلمين فى الاطباق على قوات الداوية والاسبتارية بدقة متناهية ادت إلى فنائهم، هذا بالاضافة إلى خفة حركة الفرسان المسلمين والتى ساعدتهم على الالتفاف حول قوات الداوية والاستبارية واحكام الخناق حولها .

ونلخص مما سبق ان موقعة صفورية كانت أول معركة يشترك فيها الداوية ضد المسلمين منذ هزيمتهم فى مرح عيون وقلعة بينت جبريل كذلك اثبتت تلك المعركة، مرة اخرى، أن مبدأ طاعة مقدم جماعة الداوية قد اضر بتلك الفئة وادى إلى نكبتها .

ومن النتائج المؤثرة عن تلك الموقعة أن الحقد الذى كان يكنه المقدم جيرارد

---

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٠، ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨، ورقة ٢٥١، الأصفهانى : الصمدريلاسابق، ص٦٢-٦٣ ، ابن واصل : مفرح الكروب، جـ٢،ص ١٨٥ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢

(1) Eracles, Op. Cit., P. 41.
(2) Eracles, L'Estoire, P. 42.;
Bendicti of Petraburgensis, Vita, of R.H.G.F. Vol XVII, P. 476;
Jacques de Vitry, Jerusalem, P, 100'
Roger de Hoveden, Annals, II, P. 64;
King, Haspitallers, P. 105 .
Smail, Crusading, Warfare, P. 105 .

ريدفورد لريموند قد بلغ ذروته، لان جيرارد اعتبر ريموند المسئول الأول عن الكارثة التى حلت بالداوية والاسبتارية[1] ، وسوف يؤدى هذا الى هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين فيما بعد كما كان من بين نتائجها ان ادرك الامير ريموند أن النزاع بين القادة الصليبيين ليس فى صالحهم وأنه سيؤدى إلى هزيمتهم على يد المسلمين[2] وعلى هذا وافق على عقد المصالحة مع الملك جى دى لوزجنان، واعلن خضوعه له[3] فضلا عن أن قتل واسر معظم فرسان الداوية ممن كانوا يقومون بحماية قلعة الفولة، كان له اكبر الاثر على ضعف حامية تلك القلعة، وجعلها تسقط بسهولة فى قبضة المسلمين فيما بعد[4]، هذا عن الجانب الصليبى والاضرار التى لحقت به بعامة وبالداوية بخاصة بسبب تلك الهزيمة إما عن الجانب الاسلامى فقد كان لنجاح المسلمين فى هذه الوقعة التى أطلق عليها المؤرخون العرب اسم « مقدمة الفتوح »[5] اثره الكبير فى تصميم صلاح الدين على أن يسير بحشوده لملاقاة الصليبين، والقيام بهجوم كبير عليهم[6] ، وأخذ يعد العدة لهذا الغرض وعلى أى حال، يجب الا ننسى انه كان قد أتم فى تلك الفترة تقريبا توحيد الجبهة الاسلامية فى الشرق الادنى من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب بحيث أصبح الفرنج بين شقى الرحى . وكانت مصادماته بهم وبالداوية على وجه الخصوص أثناء تكتيل الجبهة الاسلامية تستهدف الاستطلاع وجس النبض توطئة لهجومه الكبير .

(1) Erales, L'Estoire, P. 44.

(2) King, HAspitallers, P. 124.

(٣) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٠-٣٥١، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٦٥، أيضا : Erales, Ibid .

(٤) الاصفهانى : المصدر السابق، ص ٩٧

(٥) ابن الاثير المصدر السابق، جـ١١، ص٣٥٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص١٨٧، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص ٧٦ .

(٦) ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١١، ص٣٥١، الاصفهانى : المصدر السابق ص ٦٣-٦٤، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٧٥ .

وكيفما كان الامر، فقد اتجه المقدم جيرارد بعد هذه الموقعة إلى مدينة الناصره مصابا بجراح بالغة . فلحق به باليان الثانى صاحب نابلس وطلب منه ضرورة حشد فرسانه من الداوية استعداداً لمواجهة المسلمين فى معركة آخرى قريبة مرتقبة[١] .

وقد سار صلاح الدين بحشوده الاسلامية فى ليلة الجمعة ١٧ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٢٦ يونيه ١١٨٧م . وخيم على خسفين[٢] يوم السبت ثم اتجه إلى الاردن وعبر النهر فى اتجاه طبرية[٣] . وعندما علم الصليبيون بأنباء هذا التحرك الاسلامى أسرعوا فى تجميع قواتهم لمواجهة المسلمين . فحشدت جماعة فرسان الداوية كل ما امكنها جمعه من الفرسان، ولم تترك سوى عدداً قليلاً لحماية قلاعها. كما قدمت للملك جى كل الاموال التى تسلمتها فى تلك الفترة والتى كان قد أرسلها للجماعة الملك الانجليزى هنرى الثانى[٤] .

وعقد الملك الصليبى مجلسا فى مدينة عكا دعا اليه جميع القادة الصليبيين للتشاور فيما يجب اتخاذه حيال هذا الموقف ونصح الامير ريموند المجلس بأن تلتزم الجيوش الصليبية بالدفاع عن الممالك اللاتينية فى الشرق ولا تبادر بالهجوم على قوات صلاح الدين أى تتخذ اسلوب الدفاع لا الهجوم ولكن جيرارد ريدفورت اتهم ريموند فى هذا المؤتمر بالخيانة، وبأنه يسعى لهزيمة الصليبيين ولما كان الملك جى يثق فى قول جيرارد[٥]، نظراً للعلاقة الطيبة التى ربطت بينهما[٦] فقد أمر الجيش

---

(1) Eracles, L'Estoire, PP. 43-44 .

(٢) خسفين : قرية من أعمال حوارن بالاردن تقع بالقرب من دمشق . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٣، ص ٤٣٨ .

(٣) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥١، الاصفهانى : الفتح القسى، ص ٧٢، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٧٥، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص ١٨٨، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص ٧٦ .

(4) Eracles, Op. Cit., PP. 45-46 .
(5) Eracles, L'Estorie, PP. 47-48
(6) King, Hospitallers, P. 126 .

الصليبى بالخروج للتصدى لقوات صلاح الدين [١] .

والسؤال الآن بعد أن اعتدل ميزان القوى فى الصراع بين الصليبين والمسلمين، هل كان بوسع الصليبيين اتخاذ زمام المبادرة وسياسة الهجوم مثلما كان الحال فى بداية الحركة الصليبية عندما كان الشرق الادنى الاسلامى منقسما على نفسه سياسيا ومذهبيا مما أتاح للصليبين تحقيق انتصارات سريعة فى سنوات معدودات ؟ أم اتخاذ سياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام حسبما نصحهم ريموند فى المجلس المذكور ؟ هذا ما سوف تكشف عنه المعارك الضارية التى قامت بين الفريقين المتصارعين منذ ذلك الحين وحتى موت صلاح الدين الايوبى .

اتجه الجيش الصليبى ومعه فرسان الداوية نحو صفورية وعسكروا بها فى يوم الخميس ٢ يوليو ١١٨٧م / ٢٢ ربيع الاخر ٥٨٣هـ [٢]، انتظارا لما سوف يحدث من الجانب الاسلامى .

وعندما علم صلاح الدين بأنباء هذا التحرك الصليبى اراد أن يرغمهم على الدخول فى المعركة فى المكان الذى يحدده، ويكون ملائما لجيوشه فاتجه إلى مهاجمة طبرية، ونجح فى الاستيلاء عليها فيما عدا قلعتها التى كانت بها زوجة

---

(1) Eracles, Op. Cit., P. 49 .

(١) ابن االثير : الكامل، جـ١١، ص ٣٥١، ابن الخوزى : مرآة الزمان، جـ٨ ،ورقة ٢٥١-٢٥٢، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٧٣، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٧٥، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص١٨٩، أبو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٧٦، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ،قسم ١، لوحة٣٣، وأيضا :

Eracles, L'Estoire, P. Roger de Hoveden, Annals, II, P. 65; Matthew of westminster, The Flowers of History, London, II, P. 75; Amadi, chroniaues, I,P.58 .

الامير ريموند[١] وكان صلاح الدين يهدف من وراء هذا الهجوم أرغام الصليبيين على التحرك من صفورية والاتجاه نحو طبرية لنجدتهما .

وأما عن الصليبيين، فقد عقد الملك جي مجلساً آخر في صفورية للتشاور في امر الهجوم الاسلامي على مدينة طبرية، وفي هذا المجلس طالب ريموند بعدم التوجه إلى طبرية لنجدتها على الرغم من بقاء زوجته محاصره في قلعتها وكرر نصيحته السابقة للصليبيين[٢] مما يدل على بعد نظره وادراكه لحقائق الامور،وقد ايد ريموند في رأيه جميع الحاصرين فيما عدا رينو صاحب الكرك[٣] وجيرارد ريدفورد مقدم جماعة فرسان الداوية ،وعلى هذا انفض المجلس[٤] بعدما أخذ بنصيحة ريموند[٥] وفي مساء نفس ذلك اليوم دخل جيرادر ريدفورد على الملك جي في خيمته، وطلب منه عدم الاخذ برأى ريموند متهما اياه بالخيانه وطالب بانقاذ طبرية التي لا تبعد كثيرا عنهم . وقال الملك انه ان لم يقدم على هذا الامر فسوف يتعرض للوم الشديد من جانب المسيحيين هذا بالاضافة الى أن فرسان الداوية سوف يتخلون عنه، ولن يتعانوا معه فضلا عن أن صلاح الدين سوف يأتي إلى صفورية بحشوده ويقوم بالهجوم عليهم، وعندئذ سيكون اللوم أشد ، وبعد أن استمع الملك لرأى جيرارد،

---

(١) عن هجوم صلاح الدين على طبرية انظر :

Eracles, Op. Cit., P. 47 ;
Rager de Hoveden, Ibid ;
Amadi, Chroniques, I, P. 58;

ابن الاثير المصدر السابق، جـ١١ ، ص٣٥١، ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨، ورقة٢٥٢، البندارى : سنا البرق االشامى، ص٢٩٦، الاصفهانى : المصدر السابق، ص٧٦، ابن شداد : المصدرالسابق ص٧٥-٧٦، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٨٨ ، ابو شامة المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٧٦، ابن أيبك : درر التيجان، ورقة ٤٩٦ ، العينى المصدر السابق، جـ٢١ ، قسم ١ ، لوحة٣٣، ابن الشحنة، روض المناظر ورقة ١٣٥ .

(2) Eracles, L'Estoire, PP. 51-52.

(٣) اطلقت عليه الكمصادر العربية اسم ارناط صاحب الكرك

(4) Eracles, OP. Cit., P. 52 .
(5) Amadi, Chroniques, I, P. 58 .

أصدر أوامره للجيش بالتحرك نحو طبرية مخالفا بذلك القرار الذى سبق الاجماع عليها[١].

وفى الواقع أن اصدار الملك الصليبى اوامره بالتحرك نحو طبرية كان أمراً يتعارض مع ما سبق أن أتخذه المجلس من قرارات، ووافق عليها الملك نفسه . وعلى هذا تكون نصيحة جيرارد للملك جى هى الدافع الرئيسى لهذا التحول وبتحليل حديث جيرارد مع الملك يتضح أن الاول قد استخدم كل الطرق المقنعة وضرب بها على أكثر من وتر، لكى يقنع الملك بمخالفة الرأى الذى قدمه ريموند فقد استغل جيرارد فى بداية حديثة الخلاف القديم الذى كان قائما بين الملك وريموند من جهة[٢] ، وتقرب ريموند من صلاح الدين من قبل من جهة آخرى، وذكر أنه خائن ونادى بعدم الوثوق فى رأيه . كما أن استغل النظم التى كانت قد وصلت الى ذروتها وقتها فى الغرب والتى نقلها الفرنج معهم إلى الاراضى المقدسة، وهى تقضى بأن يلتزم السيد الاقطاعى- وهو هنا الملك- بمساعدة أى تابع له اذا ما تعرض للهجوم من قبل المسلمين، ويتمثل ذلك فى زوجة ريموند . كما ضرب جيرارد على وتراخر حساس وهو ان نظم الفروسية فى الغرب الاوربى فى العصور الوسطى كانت تقضى بان يسرع الفارس بنجده اى شخص يطلب النجده فما الحال اذا كانت هذه النجدة لسيدة وبعد أن انتهى جيرارد من سرد هذه الحجج انتقل إلى عامل التهديد والتخويف، فافهم الملك بانه اذا لم يبادر بنجدة طبرية، فان جماعة فرسان الداوية لن تشترك معه فى اى عمل عسكرى بعد ذلك وكان جى يعلم تمام العلم الوزن العسكرى لتلك الجماعة آنذاك واهمية الدور التى تقوم به فى الصراع الصليبى الاسلامى . وكان جيرارد قد حذر الملك من اتباع رأى ريموند بالبقاء فى صفورية لان هذا يعنى قدوم صلاح الدين والهجوم عليهم .

وعلى هذا يتضح أن العداء القديم بين ريموند وجيرارد جعل الاخير يقف

(1) Eracles, Op. Cit., PP. 52-53 .
(2) Smail, Crusading Warfare, P. 195 .

ضد رغبة ريموند فى كل لقاء جمع بينهما، دون مراعاة للصالح الصليبيين العام وأوضح أن ضعف شخصية الملك جى من جهة، وحرصة على البقاء على علاقة المودة مع جماعة فرسان الداوية من جهة أخرى، جملة يقف ضد رغبة الاغلبية من قواده ويتبع مشورة المقدم جيرادر ويتحرك صوب طبرية وسوف يؤدى هذا التحرك إلى فناء الجيش الصليبى فى أول لقاء حاسم وفاصل بين الصليبين والمسلمين بعد الحملة الصليبية الاولى .

وكان هذا التحرك الصليبى هو الفرصة التى كان ينتظرها صلاح الدين ويعمل على تحقيقها فقد ترك على قلعة طبرية[١] بعض قواته واتجة نحو بحيرة طبرية انتظارا لما سوف تسفر عنه أحداث الايام القليلة التالية .

سار الصليبيون فى يوم الجمعة ٣ يوليو ١١٨٧م/٢٣ ربيع الاخر ٥٨٣هـ نحو طبرية، وتولت جماعة فرسان الداوية حماية مؤخرة الجيش الصليبى[٢] أثناء سيرها حيث بدأت جماعات المناوشين من المسلمين فى مهاجمة تلك الموخرة ورميها بالنشاب[٣] الملك وعندئذ أرسل فرسان الداوية إلى ملك جى يعلموه بمدى ما يعانوه على يد أولئك المناويشين وأنهم غير قادرين على السير أبعد من ذلك لذا أصدر الملك الصليبى أوامره للجيش بالتوقف[٤] على الرغم من أن الصليبيين كانوا فى حاجة إلى الاسراع فى سيرهم نحو البحيرة لارواء ظمأهم وعلى هذا فان أصدار الملك الصليبى أوامره بالتوقف انما كان نتيجة حرصه على ألا تهلك جماعة فرسان الداوية فى المؤخرة[٥] . وقد بات الجيش الصليبى ليلة تلك وهو فى أمس الحاجة

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٢، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٧٧، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٧٧ .

(2) Eracles, L'Estoire, P. 65 .

(٣) الاصفهانى : المصدر السابق، ص ٧٤ ، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٧٧ . ٨٢ .

(4) Eracles, Op, Cit., PP. 65-66.

(5) King, Haspitallers, P. 127 .

إلى المياه. بينما كانت قوات صلاح الدين بجانب البحيرة تستعد لتلك المواجهة الحاسمة[1] وفي صباح يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤يوليو ١١٨٧م نشبت المعركة بين الطرفين عند سفح جبل طبرية الغربي[2] حيث اجتمعت الاهوال على الصليبيين من تعب وعطش فضلا عن شدة حرارة الشمس وقد أدى هذا إلى هزيمتهم هزيمة منكرة في تلك الموقعة[3] .

أما عن دور الداوية في تلك المعركة، فتروى المصادر الغربية أنه عندما بدأ القتال مع المسلمين انتقلت جماعة فرسان الداوية من المؤخرة[4] إلى القلب[5] وأخذ

---

(1) Smail, Crusading warfare, P. 195;
Addison, Templers, P. 125.

(2) Eracles, L'Estoire. P. 66

انظر أيضا : ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ،ص٣٥٢، الاصفهاني الفتح القسي، ص٧٨، ابو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٧٧، العيني عقد الجمان، جـ٢١ ، لوحة ٣٣.

(٣) ابن وصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٧٦، ابو شامة : المصدر السابق جـ٢، ص ٧٦ .

(4) Letter of pope Gregori VIII, cf Bondicte of Petroburgensis, Vita, P. 474;
Letter of Terricius, of Riger de Hoveden, Annals, II, PP. 68-69; II, 84; Eracles, Op. Cit., PP. 65-68 ;
Devizes, Chronicles, PP. 74-75 ;
Jacques de Vitry, Jerusalem, P. 100-102 ;
Roger de Hovoden, Op, cit, II, PP. 64-65 ;
Matt, west, The flowers, II, P. 75 ;
Amadi, Chroniques, I, PP. 59-60 ;

راجع ايضا : ابن الثير : الكامل ، جـ١١ ، نفس الصفحة ، البنداوى سنا البرق الشامي،جـ١ ، ص٥٠١-٥٠٨، ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ٨، ورقة ٢٥١-٢٥٢، الاصفهاني : الفح القسي، ص ٧٨-٨٠، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٧٥-٧٧، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص١٨٩-١٩٦ ، ابو شامة : الروضتين جـ٢ ، ص٧٧-٨٥، ابن ايبك : دور التجان، جـ٢٢ ، وقة ٥٠٠-٥٠١ وابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٣٥ ، العيني : عقد الجمان ، جـ٢١، قسم١ ، لوحة ٣٣-٣٤، الحنبلي : الادنى الجليل، ورقة ١٧٧- ١٨٠ ، ابن بهادر : فترح النصر، ورقة ٥٤-٥٥، ابن ابى السرور عيون الاخبار، ورقة ١٦١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٣٢-٣٣، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم١ ، ص٩٢-٩٣

(5) Devizes, Chronicles; P. 75 ;
Matt. West., The flowers, II, P. 75.

(6) Letter of pope Gregoru VII, of, Benditi of petroburgensis, Vita, P. 474

رجالها يقاتلون المسلمين،ولكنهم تراجعوا وصعدوا فوق التل وقاموا بحماية الراية الملكية إلى أن سقطت[1] بعد أن سقط كثير منهم بين اسير وقتيل[2] بينما نجح نفر قليل جدا من الفرار من أرض المعركة مع ريموند أمير طرابلس[3] واكتفت المصادر العربية بالاشارة إلى انه قتل منهم الكثير ووقع الباقى فى الاسر[4] .

وبعد انتهاء المعركة امر صلاح الدين بأحضار الاسرى من الداوية والاسبتارية وقتلهم ، وقد اختلفت المصادر العربية حول قتل اولئك الاسرى فهناك فريق من المؤرخين يرى أن السلطان قتل جميع الاسرى من فرسان الداوية بما فيهم مقدمهم ولم يبق على احد[5] بينما يرى فريق أخر أن صلاح الدين قد عرض على الاسرى من الداوية الاسلام . فمن اسلم منهم سلم من القتل ، ومن ابى قتله السلطان وهكذا قتل منهم الكثير، ولم يسلم سوى القليل[6] وثمة فريق ثالث يرى ان صلاح الدين قتل جميع الاسرى من الداوية فيما عدا مقدمهم[1] .

---

(1) Eracles, L'Estoire, PP. 65-66 .
(2) Letter of Henory II, of, Roger de Honeden, Annals II, P. 84; Jecques de Vitry, Jerusalem, P. 101-102 ; Roger de Hoveden, Op, cit., PP. 64-65 .
(3) Letter of Terricies, cf . Roger de Hovedem, Annals, II, PP. 68-69

(٤) ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٥٢، البندارى، سنا البرق الاشمى، جـ١ ، ص٥٠٦-٥٠٨، ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨، ورقة ٢٥١-٢٥٢، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٨٦-٨٧ ،ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٧٦-٧٧ ،ابن واصل، مفرج الكروب جـ٢ ،ص ١٩٦-١٩٧ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص٧٨-٧٩، ابن أيبك : دور التيجان، جـ٢٥ ،ورقة ٥٠١ ،ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٣٥ و العينى : عقد الجمان،جـ٢١ ، قسم ١ ، لوحة ٣٣-٣٤ ، الحنبلى : الانس الجليل، ورقة ١٧٩-١٨٠ ،ابن بهادر : فتوح النصر،ورقة٥٥، ابن ابى سرور : عيون الاخبار،ورقة ١٦١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص٣٣، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم ١ ، ص٩٣ .

(٥) ابن شداد : الكصدر السابق، ص٧٧ ، أبوالمحاسن ،المصدر السابق، جـ٦ ، ص٣٣، المقريزى : المصدر لسابق، جـ١ قسم١ ، ص٩٣ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨، ورقة ٢٥١، ابن ايبك : المصدر السابق جـ٢٥، الحنبلى : الصمدر السابق، ورقة ١٦٣ .

وبتحليل موقف صلاح الدين من جماعة فرسان الداوية يتضح أن رأى الفريق الثالث من أولئك المؤرخين العرب هو الاقرب إلى الصواب والواقع اذ رأى صلاح الدين قتل جميع الاسرى من الداوية لشدة عدائهم للاسلام[٢] فأراد صلاح الدين أن يتخلص منهم ويأمن المسلمين شرهم[٣] ويقال أنه وعد بمنح كل مسلم يأتى له بأسير من الدوية خمسين دينارا[٤] . فلما جاءه المسلمون بالاسرى، طلب صلاح الدين من جماعة من أهل العلم والتصوف كانوا عنده أن يقوم كل واحد منهم بقتل اسير من الداوية امامه[٥] فمنهم من قام بذلك، ومنهم من اعتذر[٦] أما عن مقدم الداوية فقد ارسله صلاح الدين سجينا مع الملك جى إلى دمشق وقد ورد اسمه بعد ذلك فى الاحداث التى تلت موقعة حطين وهذا ما يتعارض مع ما أورده الفريق الاول من المؤرخين العرب، لعل صلاح الدين قد أبقى على حياة المقدم جيرارد لانه كان يعلم أنه لايزال للداوية قلاع بها حاميات قوية. فأراد أن يستغل سلطة هذا المقدم فى الضغط على تلك الحاميات حتى يتمكن من فتح قلاعهم التى كانت تشكل حجر عثرة فى سبيل اتمام عملية جهاده ضد الفرنج .

وقد اتفقت المصادر الغربية مع رأى الفريق الثالث من المؤرخين العرب فذكرت أن صلاح الدين قد عرض الاسلام على اسرى من الداوية، ولكنهم ابوا جميعا

(١) ابن الاثير :الكامل،جـ١١ ، ص٣٥٥، البنداوى : سنا البرق الشامى جـ١ ، ص٣٠٨، ابن واصل: واصل : مفرج الكروب، جـ٨ ص١٩٦-١٩٧ ، أبو شامة : الروضتيين ، جـ٢ ، ص٧٩-٨٠

(٢) بن الاثير : المصدر السابق، جـ١٢، ص١٤ .

(٣) الاصفهانى: الفتح القسى : ص٨٦، ابو شامة : المصدر السابق، جـ٢، ص٧٩ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٦،

(٥) البندارى : المصدر السابق، جـ١ ، ص٣٠٨، الاصفهانى : المصدر السابق، نفس الصفحة ، ابو شامة : الروضتين، نفس الجزء والصفحة .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، نفس الصفحة .

الدخول فى الاسلام بتحريض من أحد زملائهم ويدعى نيكولا[١] فأمر صلاح الدين بقتل جميع الاسرى من الداوية فيما عدا مقدمهم[٢] وقد اشرك صلاح الدين بعض قواده فى قتل هؤلاء الاسرى، بينما قام هو قتل بنفسه أحد الفرسان ريموندى كاستلون من الداوية ويدعى دى كاستلون[٣] Raymond de Castis-tion

ولم تحدد المصادر العربيةعدد من أمر صلاح الدين بقتلهم من اسرى الداوية، وانما اكتفت بالقول بأن قتل منهم الكثير بينما أشارت المصادر الغربية أن عدد الاسرى الذين قتلوا من الداوية بلغ مائتين وثلاثين فارسا[٤].

فيما عدا الاخوة المساعدين منهم[٥] وعلى هذا يتضح أن جماعة الداوية قد أشتركت فى موقعة حطين بأكبر حشد من فرسانها فى الشرق بصورة لم تمهدها فى المعارك السابقة بين المسلمين وتلك الجماعة.

ونلخص مما سبق أن العلاقات الشخصية بين جيرارد ريدفورت سواء كانت علاقة العداء مع ريموند امير طرابلس، ام علاقة المودة مع الملك جى، قد اضرت بالصليبيين بصفة عامة، وجماعة فرسان الداوية بصفة خاصة بل انهاكانت من

(1) Devizes, Chronicles, P. 75.
(2) Eracles, L'Estire, P. 68 ;
Letter of pope Gregoru VIII, of. Roger de Hoveden, Annals, II, P. 70,
Bendicti of Petroburgensis, Vita, cf. R.H.G.F., Vol. XVII, P. 476 ;
Jacques de Vitry, Jerusalem, P, 102,
(3) Rager de Hoveden, Op, cit, II, P. 69.
(4) Eracles, Ibid;
Letter of Trerricius, of Roger de Hoveden, , Op, cit, II., P. 69 .
Benedict west, The flwowers, II, P. 75 .

(٦) أشار المورخ روجود هو فدان أن أعدادهم كانت الف ومائتين وهو لا شك عدد مبالغ فيه .

أنظر :

Roger de Hoveden, Annals, II, P. 84

ضمن الاسباب التى أدت إلى هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين .

وكان للهزيمة القاسية التى منيت بها الداوية فى حطين نتائج بالغة الاثر فقد قتل معظم فرسانهم ممن كانوا يتولون حماية قلاع الجماعة وعلى هذا بدأت تلك القلاع تتساقط الواحدة تلو الأخرى وكانت قلعة الداوية فى عكا من أولى تلك القلاع التى سقطت فى قبضة المسلمين فقد توجه اليها صلاح الدين فى يوم الاربعاء ٢٨ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٨ يوليو ١١٨٧م ونزل عليها يوم الخميس أول جمادى الأولى ٥٨٣هـ/٩ يوليو ١١٨٧م. فخرج كثير من أهل عكا من الصليبيين يتضرعون ويطلبون الامان فأمنهم السلطان بما فيهم فرسان الداوية، وقد خيرهم بين الاقامة أوالرحيل . فاختاروا الرحيل ودخل صلاح الدين عكا وقلعتها فى يوم الجمعة ٢ جمادى الاولى ٥٨٣هـ/ ١٠ يوليو ١١٨٧م(١) ومنح الفقية عيسى الهكارى(٢) كل املاك الداوية فى المدينة(٣)، بينما أقام الافضل بن صلاح الدين فى قلعة الداوية بالمدينة(٤) .

وفى أثناء اقامة صلاح الدين بعكا بعث بالسرايا من المسلمين لفتح القلاع

---

(1) Eracles, L'Estoire, P. 70-71;

راجع ايضا : ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٥٥-٣٥٦ بالاصفهانى الفتح القسى، ص٨٨-٩٠، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٧٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢٠١ ، ابو شامة: الروضتين،جـ٢ ص ٨٥-٨٦ العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم ١ ، لوحة ٣٧ ، ابن ابي السرور : عيون الاخبار،ورقة ١٦١ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص ١٩٣ .

(٢) عيسى الهكارى : هو ابن محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد ابو القاسم ضياء الدين، حضر فتح مصر مع اسد الدين شيركوه، وحضر مع صلاح الدين فتح بيت المقدس وكان كل من المقربين اليه، توفى فى عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م ، انظر الاصفهانى : المصدر السابق ص ٩٠، حاشية (١) .

(٣) الاصفهانى: المصدر السابق، ص٩٠ ، ابو شامة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٨٦ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٢٤٧ .

الصليبية القريبة . فتمكنت احداهما من فتح قلعة الداوية فى الفولة بسهولة فى جمادى الاولى ٥٨٣/ يوليو ١١٨٧م، وذلك بسبب مقتل الكثير من حمايتها من الداوية فى موقعتى صفورية وحطين بحيث لم يبق منهم سوى القليل مع الاخوة المساعدين وعلى هذا سلموا القلعة للمسلمين[١] الذين وجدوا بها اجود النفائس والكثير من الاسلحة والخيول الخاصة بالداوية[٢] وبذلك فقد الداوية أهم مخزن للاسلحة لهم فى الفولة[٣] .

وبينما كان صلاح الدين يستكمل فتح بقية القلاع الصليبية فى الشرق وفي مقدمتها قلاع الداوية، جاء إلى ميناء عكا فى ١٤ يوليو ١١٨٧م / ٦ جمادى الاولى ٥٨٣هـ المركيس كونرا دى مونتفرات Conrad de Montferrat فعلم باستيلاء المسلمين على المدينة، لذا سار الى مدينة صور بعد أن تركها ريموند، وعمل على تعزيز تحصيناتها[٤] . وقد انضم اليه جماعة الداوية الذين خرجوا من قلعة الفولة[٥] .

وسار صلاح الدين إلى عسقلان وكان بها قلعة للداوية[٦] فنزل عليها يوم الاحد ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣هـ/ ٢١اغسطس ١١٨٧م . وكان قد فتح

---

(1) Eracles, Op, Cit., P. 71 .

(٢) ابن الآثير : المصدر السابق، جـ١١، ص٣٥٩، الاصفهانى : المصدر السابق، ص١٧، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٥٨٢، ابو شامة : المصدر السابق جـ٢، ص٨٧، العينى : المصدر السابق، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة ٥٥ .

(3) King, Hospitaller, P, 133 .

(4) Eracles, L'Estoire, P, 78 ;

انظر ايضا : ابن الاثير : الكامل، جـ١١، ص٣٥٨-٣٥٩، الاصفهانى الفتح القسى، ص١٠٩-١١٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٠٧-٢٠٨، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٨٩، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، لوحة ٤١، الحنبلى : الانس الجليل، ورقة ١٧٠، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٧ .

(5) Letter of Terricius, of, Roger of Hoveden, Annals II, P, 91,

(6) Roger de Hoveden, Annals, II, P. 67 .

وهو في طريقه اليها قلاع الداوية في الرملة وبيت لحم[1] كما بعث بأحد سراياه بقيادة قائده مسعود الصلتي لمحاصرة قلعة الداوية في صفد[2] حيث كان بعض فرسان الداوية قد اتجهوا اليها بعد موقعة حطين واخذوا يشنون الغارات منها على قوافل المسلمين المارة بتلك الجهات والتي كانت عزلا من السلاح[3] وعلى الرغم من أن مسعود الصلتي لم يتمكن من فتح صفد، الا أن المسلمين قد أمنوا أنفسهم بمحاصرة تلك القلعة[4] .

وإما عن عسقلان، فقد احضر صلاح الدين الملك جي ومقدم الداوية امام عسقلان وعرض عليهما تسليم القلاع اللاتينية في الشرق مقابل اطلاق سراحهما فأرسل الملك جي وجيرارد ريدفورت إلى الصليبيين بعسقلان يأمرونهم بتسليم البلد فلم يأتمروا بأمرهما، وتمسكوا بالدفاع عن المدينة عندئذ صمم صلاح الدين على الهجوم على المدينة، ونصب عليها المجانيق، وأمر النقابين بالتقدم لثقب اسوارها فاضطرت حامية عسقلان بما فيها من الفرسان الداوية في نهاية الامر إلى تسليم المدينة في يوم السبت ٢٩ جمادى الاخرة ٥٨٣هـ/ ٣ سبتمبر ١١٨٧م[5] وقد

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١١، ص٣٦٠، الاصفهاني : المصدر السابق ص١١٤، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٢٠٩، ابو شامة : المصدر السابق جـ٢، ص٩١، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧، ورقة ٥٣، النويري: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٣، العيني : عقد الجمان، جـ١، قسم ١، لوحة ٤٠، الحنبلي : المصدر السابق، ورقة ١٦٩، ابن بهادر المصدر السابق نفس اللوحة.

(٢) الاصفهاني : الفتح القسي، ص١٧١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ص٢٤٦، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ،ص١٢٠، العيني : عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة٥٤ .

(٣) الاصفهاني: المصدر السابق، ص ١٧٧ .

(٤) عن فتح صلاح الدين لعسقلان انظر :

Eracles, L'Estoire, PP. 78-79 ;
Roger de Hoveden, Annals, II, P, 67 ;
Amadi, Chreniques, I, P. 61 ;
Jaeques de Vitry, Jerusalem, P. 106 ;

انظر ايضا : ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١١، ص٣٦٠، الاصفهاني: المصدر السابق، ص١١٢-١١٣، ابن شداد : النوادر السلطانية ص٨٠-٨١، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥٢، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص٩١،ابن أيبك : كنزر الدور، جـ٧، ورقة ٥٣-٥٤،

منح صلاح الدين قلعة الداوية فى عمقلان للامير أيارزبن عبد الله[١] ، ثم تسلم صلاح الدين بعد ذلك قلاع الداوية فى الداروم[٢] وغزة والنطرون[٣] ويبنى[٤] وبيت جبريل[٥] وذلك بفضل أمر ومناشدة مقدم الداوية لفرسانه فى تلك القلاع بتسليمها لصلاح الدين دون حرب او قتال ولذا قام صلاح الدين باطلاق سراح جيرارد ريدفورت نتيجة لهذا العمل[٦] فتوجه جيرارد إلى المدينة صور وكانت ولا تزال فى حوزة الفرنج[٧] .

ادرر التيجان، جـ٢٥ ، ورقة ٥٠١-٥٠٢ ، النويرى نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة ١٢٣ ، الحنبلى : الانس الجليل، ورقة ١٦٨-١٦٩ ، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة٤٠ ،

(١) المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم١، ص ١٠٦ .

(2) Roger de Hovedon, Annals, II, P. 67,
(3) Eracles, L'Estoire, P. 79 ;

انظر كذلك : الاصفهانى : الفتح القسى، ص١١٤ ، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ،ص٢١٠ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص٩١ ، ابن ايبك، كنز الدرر، جـ٧ ، ورقة ٥٣ ، النويرى : نهاية الارب ،جـ٢٦ ، لوحة ١٢٣ ، العينى : المصدر السابق، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة ٤٠ ، الحنبلى : المصدر لسابق : ورقة ١٦٩ ، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٧ ، المقريزى : السلوك جـ١ ، قسم١ ، ص ٩٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٣٦٠-٣٦١ .

(٥) كان الداوية قد قاموا باعادة بناء قلعة بيت جبريل بعد أن هدمها صلاح الدين من قبل انظر : ابن العديم : بغية الطلب، ورقة ٢١٣-٢١٤ ، وعن فتح صلاح الدين تلك القلعة انظر :
ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٦١ ، الاصفهانى : المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن شداد : المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن واصل المصدر السابق،جـ٢ ، نفس الصفحة، ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨ ، ورقة٢٥٣ ، ابن ابيك، كنز الدرر، جـ٧ ، ورقة ٥٣-٥٤ ، النويرى المصدر السابق، جـ١٦١ ، نفس اللوحة، العينى المصدر السابق، جـ٢١ ، قسم١ ، نفس الوحة ، الحنبلى : المصدر السابق : نفس الورقة، ابن بهادر : المصدر الساق نفس الورقة، السلوك، جـ١ ، قسم نفس الصفحة .

(6) Eracles, L'Estairo, P, 79 ;
Devizes, Chronicles, P. 84 ;

راجع ايضا : ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧ ،ورقة ٥٤ .

(2) Addison, Templars, P. 138 .

وفي الواقع أن اطلاق صلاح الدين سراح المقدم جيرارد في تلك الفترة وهو في قمة انتصاره لاكبر دليل على روح التسامح التى كان يتحلى بها فعلى الرغم من أنه كان قد وعد جيرارد بأن يطلق سراحة متى سلم له قلاع الداوية وعلى الرغم من أنه كان لا يزال للداوية قلاع لم تسقط في قبضة صلاح الدين بعد الأنه وفي بعهده، وأطلق سراح جيرارد لما قدمه له من خدمات في فتح القلاع سالفه الذكر وعلى العكس من ذلك نرى أن المقدم جيرارد بمجرد أن أطلق سراحه، اتجه إلى مدينه صور بوتقة الصليبيين آنذاك ليعاود الكرة من جديد في محاربة المسلمين.-بل حاول دون جدوى منع سقوط بقية قلاع الداوية في قبضة صلاح الدين .

على اية حال، بعد أن تسلم صلاح الدين تلك القلاع بدأ في الاستعداد للزحف نحو مدينة بيت المقدس ليكلل انتصاراته في حطين بفتحها هذا بينما كانت المدينة تعاني في تلك الفترة من نقص المدافعين عنها . فلم يكن بها سوى حامية ضعيفة تتألف من الداوية والاسبتارية وقوات باليان الثانى صاحب نابلس[1] الذين شرعوا في اعداد وسائل الدفاع عن المدينة[2] .

وقد سار صلاح الدين لمهاجمتها ، ونزل على الجانب الغربي منها في ٥ رجب ٥٨٣هـ/ ١٠ سبتمبر ١١٨٧م . ولكنه وجده مشحونا بالمقاتلة[3] فاخذ يطوف حول الاسوار لاختيار الجهة التى يقاتل فيها[4] إلى أن انتقل الى الجانب

(١) الاصفهاني : الفتح القسي، ص١١٧ ، ابو شامة : الروضتين،جـ٢ ، ص٩٣ ، العيني : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة٤١ ، الحنبلى الانس الجليل،ورقة ١٦٩-١٧٠ .

(2) Letter of Terricius, of Roger of Hoveden, Annals, II, P, 91;
Eraoles, L'Estoire, P. 91 ;
Amadi, Chroiques, I, P. 70 .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢١٢ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص ٩٢ .

(٤) ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣١١ .

الشمالي يوم الجمعة ٢٠ رجب ٥٨٣هـ/ ٢٥ سبتمبر ١١٨٧م[١] حيث كان يوجد برج الداوية[٢] فنصب عليه المنحنيقات واخذ يرميه بشدة[٣] ونسبوا المنحنيقات هم ايضا واخذوا يرمون القوات الاسلامية من ناحيتهم[٤] كماكانت القوات الصليبية المحصورة في بيت المقدس ومعها فرسان الداوية[٥] تخرج كل يوم وتشتبك مع القوات الاسلامية في قتال محدود[٦] ثم تعود إلى داخل المدينة[٧] فلما رأى المسلمون ذلك اشتدوا في مهاجمة المدينة، وتمكنوا من ثقب السور في ٢٤ رجب ١١٨٣م/ ٢٩ سبتمبر ١١٨٣م وحشوه بالحطب[٨] عندئذ طلب الصليبيون الامان، ولكن صلاح الدين رفض ان يؤمنهم فهدد الصليبيون بقتل الاسرى المسلمين عندهم وتخريب المسجد الاقصى وقبة الصخرة[٩] فاستقر الطرفان على الصلح ووافق المسلمون على منح الفرنج الامان وارتبط اليان والبطريرك وقادة الداوية

---

(١) ابن شداد : االنوادر السلطانية، ص٨١، ابن واصل : المصدر السابق،جـ٢ ، نفس الصفحة، ابو شامة الروضتين، جـ٢ ، ص٩٢،العينى المصدر السابق، جـ٢١ ، قسم١ ، نفس اللوحة .

(٢) مؤلف مجهول : شفاء القلوب، لوحة ٣٤ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ٢، ص٢١٢ .

(٤) الاصفهاني : المصدر السابق، ص ١٢٦ ، وأيضا :

Eracles, Op. Cit., P. 93 .

(5) Amudi, Chroviques, P. 70 .(

(٦) ابن الاثير : الكامل،جـ١١ ، ص٣٦٢ .

(7) Eracles, L'Estoire, P. 93 .

(٨) ابن الاثير: الكامل، جـ١١ ، نفس الصفحة، الاصفهاني : الفتح القسى ص ١٢٦ ،ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢١٣ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص٩٣ .

(9) Eracles, Op, Cit., P. 951 ;
Amadi, Chroniques, P. 701

انظر ايضا : ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١١، ص ٣٩٢، الاصفهانى : المصدر السابق، ص١٢٦-١٢٧، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١٢ ، ابو شامة : المصدر السابق، جـ٢، ص٩٥ .

ولاسبتارية بهذا الصلح، ودخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس فى يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧م[١] وأمر بتنظيف المسجد الاقصى وازالة المنشآت التى اقامها الداوية بداخلة، ورفع الصور والتماثيل التى علقوها على جدرانه، كما قام بغسل قبة الصخرة بماء الورد[٢] اما عن مقر الداوية فى بيت المقدس[٣] فقد امر صلاح الدين باحراقه[٤] بينما خرج الصليبيون من بيت المقدس على

(١) المزيد من التفاصيل انظر :

Letter of Terricius, of Roger de Hoveden, Annals, II, P. 90-91 ;
Radulfi de Diceto, Imaginibui Historiarum, of R,H.G.F., Vol. XVII. PP. 630-631.
Eracles, Op. Cit., PP. 95-99 ;
Amadi, Chroniques, PP. 70-71 ;

راجع ايضا ابن الاثير، جـ١١، ص ٣٦١-٣٦٤، سبط بن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥١-٢٥٤، الاصفهانى : الفتح القسى : ص ١١٦-١٣٠، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ٨١-٨٢، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٨، ص٢١١-٢١٧، ابو شامة : الروضتين : جـ٢، ص٩٢-١٠١، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧ ،ورقة ٧٨-٨٠، درر التيجان، جظـ٢٥، ورقة ٥٠٠-٥٠٢، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٤-١٢٧، الحنبلى : الانس الجليل، ورقة ١٦٥-١٦٩، ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٣٦ ،العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم ١ ، لوحة٤١-٤٤، ابن الفرات : تاريخ الدول جـ٨، لوحة ٣٠، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٥٧-٥٨ ، بامخرمة : قلادة النحر، جـ٤، ورقة ٣٤٦، ابن ابى السرور : عيون الأخبار، ورقة ١٦١، مؤلف مجهول : شفاء القلوب، لوحة ٣٤، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم١، ص٩٦-٩٧ .

(2) letter of Terricius, of Roger of H
oveden ;
Annals, II, P. 90 ;
Eracles, L'Estoire, P. 104 .

راجع أيضا : ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١١ ،ص٣٦٢-٣٦٣، الاصفهانى المصدر السابق، ص١٣٧ ،ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢١٧, ٣٤٢، ابو شامة : المصدر السابق ، جـ٢١ ، لوحة٤٣ ، الحنبلى المصدر السابق، ورقة ١٦٩ ، ابن بهادر : المصدر السابق ، ورقة ٥٧-٥٨، مؤلف مجهول : المصدر السابق،و ولحة ٣٤و المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم١ص ٩٧

(٣) بعد دخول صلاح الدين بيت المقدس انتقل المقر الرئيسى لجماعة فرسان الداوية الى مدينة انطاكية انظر :

Addison, Templars, P. 136 .
(4) Eracles, L'Estoire, PP. 99-100 .

ثلاث دفعات، حيث تولى فرسان الداوية حماية الدفعة الاولى منهم واتجهوا إلى مدينة صور. ولكن كونراد لم يسمح لهم بالدخول فيما عدا المحاربين[١] ومن بينهم فرسان الداوية[٢] .

وقد قام فرسان الداوية فى صور بمراسلة زملائهم فى الغرب يحثونهم على سرعة التوجة إلى الشرق الاسلامى،ودعوة الفرسان الاخرين للانضمام اليهم كما طلبوا منهم أن يبينوا لرجال الدين فى الغرب مدى ما يعانيه الصليبيون بصفة عامة والداويةبصفة خاصة فى تلك الفترة حاثين اياهم على سرعة ارسال الامدادات اليهم وعلى هذا بدأ أهل الغرب فى ارسال المساعدات لجماعةفرسان الداوية فى صور[٣] .

وعلى هذا يتضح أنه بالرغم من الهزائم المتتالية التى منت بها جماعة فرسان الداوية فى الار اضى المقدسة في الفترة السابقة، وبالرغم من سقوط معظم قلاعهم ومن بينها المقر الرئيسى فى بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين، الا ان أفراد تلك الجماعة لم يحملوا عصاهم ويرحلوا عن الشرق مثلما فعل الكثير من الصليبين انذاك بل ان مقدمهم جيرارد اتجه بعد أن أطلق سراحة إلى مدينة صور كما اسلفنا واخذ بقية فرسانه يتوافدون عليه هناك لمواصلة دورهم فى الصراع الصليبى الاسلامى ولعل هذا يوضح السبب الذى دفع بعض المؤرخين العرب بوصفهم بأنهم كانوا أشد عداوه للمسلمين من غيرهم من الفرنج .

وقد اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى مدينة صور . وضرب الحصار حولها فى

---

(1) Letter Terricius, of, Roger de Hoveden, Annls,P. 91 .
(2) Eracles, Op. Cit., P. 101 .
(3) Roger de Hoveden, Op, cit, II, P. 97 .

١٢ رمضان ٥٨٣هـ/ ٢٠ نوفمبر ١١٨٧م[١] . كما استدعى عشر شواني[٢] من عكا واخرى من بيروت وجبيل لحصار صور من جهة البحر[٣] وجهز كوانراد بعض السفن التابعة للداوية والاسبتارية والبيازنه للتصدى لقوات صلاح الدين الزاحفة نحوهم[٤] .

وفى ليلة ٢٧ شوال ٥٨٣هـ/ ٢٩ ديسمبر ١١٨٧م اطبقت السفن الصليبية على الشواني الاسلامية على حين غفله، وتمكنت من أسر خمس منها[٥] بينما لاذت الشواني الاخرى بالفرار[٦] .

---

(1) Letter of Terricius, of, Roger de Hoveden, Annals II, P. 90; Eracles, P. 106 ;

راجع ايضا : ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٦٦، سبط بن الجوزى مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥٦ ، الاصفهانى، الفتح القسى، ص١٥٣ ، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٨٣، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٨، ص٢٤٢ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٨، ص ١١٩ ، ابن ايبك : درر التيجان، جـ٢٥، ورقة ٥٠١، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة ١٢٤ ، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ قسم١ ، لوحة ٤٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٨ .

(٢) سفن حربية كبيرة يتكون منها الاسطول الاسلامى، وكانت تسير بمائة وأربعين مجدافا، ويشحن فيها المقاتلة، كما كانت تقام فيها الابراج انظر: ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٣ ، حاشية (١) .

(٣) ابن الاثير المصدر السابق، جـ١١ ، ص٣٦٧، الاصفهانى : المصدر السابق ص١٦٠ ، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٤٣، ابو شامة المصدر السابق جـ٢، ص١١٩ .

(٤) الاصفهانى المصدور السابق، ص ١٦١ ، وايضا :

Letter of Terricius, Ibid .

(٥) يذكر تريكوس فارس الداوية فى رسالته ان السفن الصليبية بما فيها من سفن الداوية تمكنت من اسر احد عشر سفينه من السفن الاسلامية انظر :

Letter of Terricius, of Roger of Hoveden, Annals, II, P. 90 .

(٦) ابن الاثير : الكامل، جـ١١ ، ص٣٩٧، الاصفهانى : الفتح القسى، ص١٦١-١٦٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨٤، سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ورقة٢٥٧-٢٥٨ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص١١٩ ، الحنبلى : الانس الجليل ، ورقة ١٧٤ ، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة٤٦-٤٧ .

وعلى هذا يتضح أن الصراع بين المسلمين ،وجماعة فرسان الداوية لم يقتصر مجاله على العمليات العسكرية البرية فحسب، بل شمل ايضا الاشتباك فى البحر وكانت تلك المعركة أول صدام بحرى بين الداوية والمسلمين كما تعتبر أول عملية هجومية تقوم بها جماعة فرسان الداوية ضد المسلمين منذ موقعة حطين وأن أقتصر مجالها على البحر، وهذا يؤكد ان دور هذه الجماعة لم ينته بهزيمتهم فى صفورية وحطين، بل ظلت تلك الجماعة تمارس سياستها المعهودة فى الصراع الصليبى الاسلامى، على الرغم من فقدانها الكثير من قلاعها، كما أن دورها لم يقتصر على المعركة البحرية السابقة، بل ان فرسانها قد شاركوا اخوانهم الصليبيين فى الدفاع عن مدينة صور، وكانوا يخرجون معهم للاشتباك مع قوات صلاح الدين المرابطة امام أسوار المدينة[1] ومما لاشك فيه ان هذا الدور كان له أكبر الاثر فى رحيل صلاح الدين من امام صور بعد أن رأى عدم جدوى محاضرتها، خاصة وأن فصل الشتاء قد أقبل ، وكان المسلمون فى حاجة الى الراحة فرحل عن المدينة فى ٢٩ شوال ٥٨٣هـ/ ١ يناير ١١٨٨م[2] تاركا عملية تصفية حسابه معها الى أول فرصة أخرى مواتية .

وبذا يتجلى ان سماح صلاح الدين للصليبين بصفة عامة وللداوية بصفة خاصة بالتوجة الى مدينة صور، كان امرا فى غير صالح المسلمين . وربما كان صلاح الدين يبغى من وراء ذلك اظهار روح التسامح مع هولاء الصليبين وعدم التشدد معهم مما قد يثير الغرب الاوربى ويدفعة الى ارسال الحملات إلى الشرق

---

(1) Eracle S, LE'stoire, P. 110 Letter of Trricius, of Roger de Hoveden, Op. Cit, II, P. 91 ;

انظر ايضا : ابن الاثير: المصدر السابق، جـ١١ ، ص٣٩٧، الاصفهانى : المصدر السابق،ص١٦١-١٦٢، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٤٥ .

(2) Letter of Terricius, of Roger de Hoveden, Annals II, P. 91 ; Eracles L'Estoire, PP. 110-111 ;

راجع كذلك : ابن الاثير: الكامل، جـ١١ ،ص ٣٦٨، الاصفهانى: الفتح القسى، ص ٧٥، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٨٤، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ورقة ٢٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٨، ص٢٤٥-٢٤٦، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ،ص ١٢٠

خاصة بعد أن أخذ منهم مدينة بيت المقدس[1] ولكن الصليبين اتخذوا من صور قاعدة للتمركز استعدادا للانطلاق منها لاستعادة معاقلهم التى فتحها صلاح الدين

وقد واصل صلاح الدين فتح قلاع جماعة فرسان الداوية ففى بداية ربيع الاول ٥٨٤هـ/ مايو ١١٨٨م حاول الاستيلاء على قلعة الداوية فى صفد ولكن دون جدوى، فترك عليها أحد قواده ويدعى طغرل الجاندار ومعه خمسمائة مقاتل من المسلمين لمرابطتها بالليل والنهار إلى أن يتم فتحها[2] وعندما علم جيرارد ريدفورت مقدم الداوية بأنباء الهجوم الاسلامى على مدينة صفد، خرج ببعض فرسانه من صور[3] واتجه إلى قلعة الداوية فى انطرسوس[4] .

وفى بداية جمادى الاولى ٥٨٤هـ/ أواخر يونية ١١٨٨م سار صلاح الدين لمنازلة مدينة انطرسوس[5] ووصل امامها فى يوم الاحد ٦ جمادى الأولى ٥٨٤هـ/٢٥يونية ١١٨٨م حيث ضرب الحصار حولها ثم شرع فى مهاجمة المدينة نفسها كذلك نجح المسلمون فى الاستيلاء على مدينة صفد دون قلعتها بسبب حصانتها ووجود خندق مملؤ بالماء من حولها، فضلا عن استبسال فرسان الداوية بها فى الدفاع عنها وعندما وجد صلاح الدين ان مقاتلته لها سيؤخره عن امره، رأى أن يهتم بما هو ايسر فترك القلعة فى ١٤ جمادى الاولى ٥٨٤هـ/ ٣

---

(1) Grausset, Histoire de Croisad, II, P. 830 .

(٢) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص٢، الاصفهانى : الفتح القسى، ص ٢٠٤، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢، ص ٢٥٢ .

(3) Amadi, Chroniques, I, P. 76 .

(٤) ابن الثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص٣، الاصفهانى : المصدر السابق، ص٢٢٩، أبو شامة : الروضتين ، جـ٢، ص ١٢٦ .

(٥) الاصفهانى : المصدر السابق، ص١٣٠، ابن شداد : النوادر السلطانية ص٨٧، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢،ص ٢٥٦، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، نفس الصفحة، ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٣٦، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، قسم١ ، لوحة ٥٥، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٦، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم١ ص١٠٠ .

يوليو ١١٨٨م بعد أن أمر بهدم سور المدينة وحرق زرعها[١] حتى لا يستفاد منه فرسان الداوية فى تلك القلعة[٢] .

ثم توجه صلاح الدين الى قلعة الداوية فى «درباك» ونزل عليها فى يوم الجمعة ٨ رجب ٥٨٤هـ/ ٢ سبتمبر ١١٨٨م وامر بنصب المجانيقات وضرب اسوارها[٣] وتمكن المسلمون من نقب جزء صغير من سور القلعة . ولكن الداوية بها لم يبالوا[٤] واستمروا فى مقاومة القوات الاسلامية[٥] فأمر صلاح الدين المسلمين بالجد فى مقاتلة القلعة[٦] ونقب اسوارها ، ونجح النقابون فى نقب احد ابراجها واشعلوا فيه النيران وعلى الرغم من سقوط البرج[٧] واتساع الثغرة فى السور[٨] الا أن فرسان الداوية تصدوا للمسلمين الذين حاولوا النفاذ عبر هذه الثغرة[٩] كما ارسلوا إلى بوهمند اميرانطاكية يستنجدون به فلما علمواعجزه عن نصرتهم[١٠] طلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين وشرط عليهم أن ينزلوا بانفسهم وثياب ابدانهم لا

---

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ١٢ ، ص٣، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٢٢٩-٢٣٠، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٨٧-٨٨، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢٥٦-٢٥٧، ابو شامة : الروضتين، جـ٧ ، ص١٢٦-١٢٧، ابن الشحنة : روض المناظر ورقة١٣٦ ، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة٥٥-٥٦، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٦، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم١ ، ص١٠٠

(2) Eracles, L'Estoire, PP. 120-121 .\
Amadi, Chroniques, I, P. 76 .
(3) Eracles, Op, Cit., PP. 121-122.

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١٢ ، ص١٠ ، ابن ، واصل، المصدر السابق، جـ٢ ،ص٢٦٧ ، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة ١٢٥

(5) Erscles, Op. Cit., P. 122 .

(٦) الاصفهانى : المصدر السابق، ص ٢٥٨

(٧) العينى : المصدر السابق، جـ٢١ ، قسم١ ، لوحة ٥٧-٥٨ .

(٨) ابن شداد : المصدر السابق، ص٩٣ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ، ص٢٦٨ ، ابو شامة : المصدر السابق، جـ٢ ، ص ١٣٢

(٩) العينى : عقد الجمان، جـ٢ ، قسم١ ، لوحة ٥٨

(١٠) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢ ، ص١٠

غيره[1] فامتثل فرسان الداوية لهذا وساروا إلى انطاكية[2] بينما دخل صلاح الدين القلعة وتسلم ما فيها في يوم الجمعة ٢٢ رجب ٥٨٤هـ/ ١٦ سبتمبر ١١٨٨م [3].

وعندما علم جيرارد ريدفورت بمهاجمة صلاح الدين لدربساك اتجه ببعض فرسانه[4] إلى قلعة الداوية في بغراس[5]، لانه ايقن صلاح الدين سوف يتوجه اليها[6] وبالفعل توجه صلاح الدين إلى القلعة في يوم السبت ٢٣ رجب ٥٨٤هـ/ ١٧ سبتمبر ١١٨٨م ونظراً لحصانتها، فقد اختلفت اراء القادة المسلمين في امر فتحها فمنهم من رأى ضرورة ذلك، ومنهم من نهى عنه، ولكن صلاح الدين صمم على فتحها فخيم بالقرب منها، وجعل اكثر عساكره في مقابل انطاكية وامرهم بان يقوموا بالاغارة على اعمالها حتى يشغلوا اهلها عن مناصرة الداوية في بغراس[7] وصعد صلاح الدين التل ومعه فرقة من قواته وخيم بالقرب من القلعة ونصب عليها المجانيق[8] من جميع جهاته[9] فلم تؤثر فيها شيئا

---

(١) الاصفهاني : الفتح القسي، ص٢٥٦، ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٣، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٦٨، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٦١

(٢) ابن الاثير : الكامل، نفس الجزء والصفحة، النويري : نهاية الارب، جـ١٢ لوحة ١٢٥، الحنبلي، الانس الجليل، ورقة ١٧٧

(3) Eracles, L'Estoire, P 122
Roger de GHoveden, Annals, II, P 67
(4) Eracles, Op, Cit., P 121

(٥) الاصفهاني : المصدر السابق، ص٢٥٨

(6) Addison, Templars, P 125

(٧) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص١١، الاصفهاني : الفتح القسي، ص٢٥٧، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٩٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٦٨، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص١٣٣، الحنبلي : الانس الجليل، ورقة ١٧٧، العيني : عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة٥٨

(٨) ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١٢، ص ١١

(٩) العيني : المصدر السابق، جـ٢١، قسم١، لوحه ٥٨

لعلوها وارتفاعها[1] وغلبت الظنون عند المسلمين بتعذر فتحها، لان المياة قد ندرت عندهم ولكن صلاح الدين امر بنصب الحياض وحمل المياه اليها، فخفف بذلك الامر على المسلمين وبينما كان المسلمون على تلك الحالة، فتح الداوية باب القلعة، وحضر مقدمهم بطلب الامان فأمنه السلطان،وعاد جيرارد ومعه الاعلام الاسلامية التى رفعها على اسوار القلعة وخرج منها فرسان الداوية ودخلها صلاح الدين فى ٢ شعبان ٥٨٤هـ/ ٢٦ سبتمبر ١١٨٨م، وتسلم ما بها من أسلحة وغلال[2] متمما بذلك سلسلة انتصاراته على الداوية بسقوط معاقلهم وقلاعهم فى قبضته الواحدة تلو الاخرى.

وقد اختلفت اراء المؤرخين العرب اختلافا بينا حول مصير قلعة بغراس بعد أن دخلها صلاح الدين فيرى فريق منهم أن صلاح الدين سلم القلعة إلى الأمير علم الدين سليمان[3]، وامره أن يعتنى بحفظها، فتسلمها بذخائرها[4] بينما يرى فريق آخر أن صلاح الدين أمر بتخريب قلعة بغراس فخربت، لانه رأى فى حفظها ضررا

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٨ .

(2) Eracles, L'Estoire, PP. 122-123 ;
Roger de Hoveden, Annals, II, PP. 67-68 ;

انظر ايضا : ابن الاثير : المصدر السابق، جـ١٢، ص١١، الاصفهانى : المصدر السابق، ص٢٥٨،، ابن شداد : المصدر السابق، ص ٩٣، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٩، ابو شامة، الروضتين، جـ٢ ص١٣٣، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٥، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، لوحة ٥٩، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة ٦١ المقريزى :السلوك، جـ١، قسم١، ص ١٠٠ .

(٣) االأمير علم الدين : كان من اكابر امراء حلب، وقد شهد مع صلاح الدين حروبه كلها، وهو الذى أشار عليه بتخريب عسقلان، وقد توفى عام ٥٨٧هـ/١١٩١م انظر : الاصفهانى : الفتح القسى عسقلان، ص٢٥٨، حاشية (٢)

(٤) ابن الأثير : الكامل، جـ١٢، ص١١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٦٩، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص١٣٢ ،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ١٢٥ .

على المسلمين[١] وقد اتفق رأى المصادر الغربية[٢] مع رأى الفريق الثانى من أولئك المؤرخين العرب وهو الرأى الأقرب الى الصحة، لان الاحداث اللاحقة أثبت صحة تخريب صلاح الدين لتلك القلعة[٣] .

وتعتبر قلعة صفد آخر قلاع الداوية التى سقطت فى يد صلاح الدين فعلى الرغم من اقبال شهر رمضان، وطلب بعض الأمراء المسلمين من صلاح الدين أن يمنح الراحة لعساكره، وعلى الرغم من كثرة الأمطار وما ينتج عنها من وحلة الاراضى آنذاك، الا أن صلاح الدين صمم على الاسيتلاء على قلعة الداوية فى صفد[٤] فسار اليها فى اوائل رمضان ٥٨٤هـ/ أواخر أكتوبر ١١٨٨م[٥] ونزل عليها فى منتصف رمضان ٥٨٤هـ/ منتصف نوفمبر ١١٨٨م[٦] ونصب عليها المجانيق[٧] ودوامها بالرمى فى الليل والنهار فلما رأى الداوية أن اقواتهم وذخائرهم قد قاربت على النفاذ نظرا لمحاصرة المسلمين للقلعة منذ زمن طويل[٨]، اتفق رأيهم

---

(1) Eracles, L'Estoire, PP. 122-123 ;
Roger de Hoveden, Annals, II, PP. 67-68 .

(٢) استولى ليوالارمينى (١١٨٦-١٢١٩م/٥٨٢-٦١٦هـ) على قلعة بغراس عام ٥٨٧/١١٩١هـ، واعاد بناءها مرة أخرى بسبب تخريبها على يد صلاح الدين، وقام بينه ،وبين جماعة فرسان الداوية صراع حول ملك القلعة امتد حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى/ أوائل القرن التاسع الهجرى

انظر. Eracles, Op. Cit., PP. 215-216

(٣) ابن الاثير : الكامل، جـ٢، ص١٣، ابن شداد : النوادر السطانية ص٩٥، ابو شامة : الروضتين، جـ٢، ص١٣٥، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، ص ١٢٦

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٧٢ .

(٥) ابن شداد : المصدر السابق، نفس الصفحة .

(٦) الاصفهانى : الفتح القسى، ص٢٦٨، وايضا :

Eracles, L'Estoire, P. 124 .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق،جـ٢، ص٢٧٣ .

(٨) يبدو انهم من الأخوة المساعدين من الجماعة لحاجة القلعة للفرسان فى الدفاع عنها

على القيام بخدعة المسلمين وانقاذ مائتين من رجالهم لأحضار الذخيرة والاقوات فساروا فى الليل متخفين، وأقاموا فى النهار مكمنين، فاتفق أن أحد المسلمين خرج للصيد فلقى واحداً من أفراد تلك المجموعة فاستغربة، وقام بضربة ليعلمه بحقيقة أمره،وسبب مجيئة إلى هناك فأقر الصليبى بالحال، ودل المسلم على مكان رفاقه فعاد المسلم واخبر قائده صارم الدين الذى تمكن من القبض عليهم جميعا وارسلهم إلى صلاح الدين فأمر بقتلهم ولكنهم طلبوا العفو منه، فعفى السلطان عنهم وامر بسجنهم[1] وبذلك فشلت خدعة الداوية .

واستمر المسلمون فى رمى القلعة، بينما شعر الداوية بعزم صلاح الدين على فتحها . لذا ارسلوا فى طلب الامان، فامنهم[2] وخرج فرسان الداوية من القلعة واتجهوا إلى مدينة صور[3] بعد أن ظلوا يقاومون المسلمين لمدة عام ونصف[4] ودخلها صلاح الدين فى ١٤ شوال ٥٨٤هـ/ ٦ ديسمبر ١١٨٨م [5].

---

(١) ٠ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٧٣ ،

أبو شامة ، الروضتين، جـ٢، ص١٣٥

(٢) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص١٣و ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٩٥، الحنبلى : الانس الجليل، ورقة ١٧٧ ، النويرى نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٦ .

(3) Eracles, L'Estoire, PP. 123-124 ;

راجع ايضا : ابن الاثير : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة والاصفهانى : المصدر السابق، ص ٢٦٩ ، الحنبلى :المصدر السابق، ورقة ١٧٧ .

(4) King, Hospitallers, P. 133 .

(5) Roger de Hoveden, II, P. 67 ;

انظر كذلك : ابن الاثير :المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة الاصفهانى : الفتح القسى : نفس الصفحة ، ابن شداد : المصدر السابق، ص٩٥، ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣٤٩، ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٣٦. العينى : عقد الجمان،جـ٢١ ، قسم١ لوحة ٦٠، المقريزى: السلوك، جـ١ ، قسم١ ، ص١٠١ .

وهكذا يتضح أن هزيمةالداوية فى موقعة حطين كان لها أكبر الاثر فى ضياع قلاع الداوية الواحدة تلو الاخرى .ولكن بالرغم من تلك الهزائم المتتالية التى منيت بها الجماعة على يد صلاح الدين، الا انها ظلت على حرصها فى الاستمرار فى دورها العدائى ضد المسلمين. فما ان تسقط قلعة من قلاعهم ويتوجه من بها إلى مدينة صور لمواصلة هذا الدور من جديد

ومما هو جدير بالذكر انه بعد أن أستولى صلاح الدين على مدينة بيت المقدس وسقوط القلاع الصليبية تباعا وفى مقدمتها قلاع الداوية، ثارت ثائرة الغرب واخذ يعد العدة لارسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق . وقد شارك الداوية فى الدعوة لهذه الحملة ايضا فأرسل تريكيوس فارس الداوية الذى فر من موقعة حطين خطابا إلى الملك الانجليزى هنرى الثاني يشرح له الاحداث التى جرت فى منطقة الشرق الادنى وقتذاك، ويطلب منه فى نهاية الرسالة أن يسارع بارسال النجدات لانقاذ الممالك اللاتينية المتداعية هناك(١) .

وعلى هذا بدأ ملوك واباطرة الغرب يستعدون للتوجه إلى الشرق لاسترجاع مدينة بيت المقدس وتعزيز الوجود اللاتينى فى الاراضى المقدسة فأخذ الملك هنرى الثاني(٢)، والملك الفرنسى فيليب اوغسطس(٣) (١١٨٠-١٢٢٣م/ ٥٧٦-٦٢٠هـ) يستعدان للانتقال إلى الشرق(٤) بينما قام الامبراطور الالمانى فردريك باربا روسا (١١٥٢-١١٩٠م/٥٤٧-٥٨٧هـ)بحشد قواته،وتوجه نحو

---

(1)Leeter of Terricius, of Roger de Hoveden, Annals, II, PP, PP. 90-91
(2) Roger de Hoveden, Op,. Cit, II, P. 89 .
(3) Ambroise, The Crusade, P. 16; Devizes, Chronicles, PP. 151-152 .
(4) DEvizes, Op. Cit., P. 153

الشرق فى مايو ١١٨٩م/ ربيع الاول ٥٨٥هـ[1] وفى تلك الفترة توفى الملك الانجليزى هنرى الثانى وخلفة الملك ريتشارد الاول المعروف باسم ريتشارد قلب الاسد[2] (١١٨٩- ١١٩٩ /٥٨٥-٥٩٦هـ) والذى سار على نهج سلفه، وأخذ يجهز القوات استعداداً للتوجه إلى الشرق وقد قامت جماعة فرسان الداوية فى انجلترا بحشد فرسانها، وجمع الاموال اللازمة تمهيد للزحف مع الملك ريتشارد[3] بينما اخذت جموع الصليبيين تتواقد إلى الاراضى المقدسة للمشاركة فى مواجهة المسلمين وانقاذ الممالك اللاتينية المتداعية[4] .

ولعلنا نخلص مما تقدم ان الفرسان الداوية لم يتركوا وسيلة الا واتخذوها لمواجهة حركة الافاقة الاسلامية التى اكتملت فى عهد صلاح الدين، وذلك بتعزيز حصونهم وقلاعهم وبناء المزيد منها، ومحاولة اعاقة صلاح الدين عن جهاده الاكبر، ولكن كل هذا لم، يؤت بثمارة . ذلك ان كفة الميزان فى الصراع بين المسلمين والصليبين قد اعتدلت وبشكل واضح لصالح المسلمين وبدأ المد الاسلامى يفرض نفسه على حساب الانحسار الصليبى فكان ما كان من هزيمة

---

(1) Devizes, Chronicles, PP. 94-95 ;
Roger de Hoveden, II, 100-101 ;

انظر ايضا : ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص٣٠، الاصفهانى : الفتح القسى، ص٣٣١، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص١٩٥ ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص٣١٧،ابو شامة : الروضتين جـ٢، ص١٥٠،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٣٠، العينى عقد الجمان، جـ٢١، قسم١ ، ل،حة ٨٣-٨٤والحنبلى : الانس الجليل ،ورقة ١٨٠، ابن الفرات : تاريخ الدول، جـ٨ لوحة١ .

(2) Devizes, Op, Cit., PP. 154-156 ;
Roger de Hoveeden . Op. Cit, II, PP. 111-112 .
(3) Ambroise, The Crurade, P. 42
Rager de Hoveden, Op, Cit., II. P. 146 .
(4) Devizes, Op, Cit., PP. 106, 109, 124 ;
Bendicti of Petroburgensis, Vital, of, R.H.G.F., Vol. XVII, P. 496,
Roger de Hoveden, Op,m Cit., II, P. 109; Matt. West, The flwers, P. 77 .

الصليبيين ومعهم الداوية المريرة في موقعة حطين ثم سقوط معظم قلاع الداوية في قبضة صلاح الدين، مما جعلهم يرمون بكل ثقلهم لحث الغرب الاوربي على القيام بحملة صليبية جديدة تعيد للفرنج كرامتهم وتعوض هزيمتهم في حطين .

وليس هذا هو كل شيء فقد اضرت علاقة العداء بين ريموند صاحب طرابلس وجيرارد ريدفورت مقدم الداوية بالصليبيين من جهة، وجماعة فرسان الداوية من جهة أخرى بل انها كانت من ضمن أسباب هزيمة الصليبين في موقعة حطين نفسها التي تمخض عنها ضياع الغالبية العظمى من قلاع الداوية في الاراضي المقدسة ولكن بالرغم من كل ذلك ، استمرت جماعة فرسان الداوية تمارس دورها كطرف ثالث في الصراع الصليبي الاسلامي، واخذت تحشد فرسانها في صور استعدادا للقيام بهذا الدور، والذى تمثل في مشاركة الصليبيين في حصار مدينة عكا الاسلامية عام ١١٨٩م/ ٥٨٥هـ مماسيترك بصماته على مجرى الاحداث في المنطقة آنذاك

الفصل الخامس

العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في الشرق الأدنى منذ قيام الحملة الصليبية الثالثة وحتى وفاة صلاح الدين الأيوبى (١١٨٩-١١٩٣م / ٥٨٥ - ٥٨٩ هـ)

١- دور الداوية فى حصار مدينة عكا فى اغسطس ١١٨٩م / رجب ٥٨٥ هـ، ونتائجه.

٢- جهود الداوية اثناء زحف الصليبيين الى مدينة حيفا فى اغسطس ١١٩١م/ شعبان ٥٨٧هـ، ودلالاته.

٣- دورهم في موقعة ارسوف فى ٧ سبتمبر ١١٩١م / ١٤ شعبان ٥٨٧ هـ، وآثاره.

٤- بناء الداوية قلعة جديدة في يافا في اكتوبر ١١٩١م/ شوال ٥٨٧هـ.

٥- وجهة نظر الداوية فيما يتعلق بزحف الصليبيين إلى بيت المقدس، اسبابها، ومبرارتها.

٦- استعادة الداوية قلعتهم السابقة في الداروم فى مايو ١١٩٢ م / جمادى الثانى ٥٨٨ هـ.

٧- شراء الداوية جزيرة قبرص فى عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ ، وانعكاساته على علاقاتهم بمسلمي الشرق الادنى.

٨- جهود الداوية فى انقاذ مدينة يافا من السقوط فى يد المسلمين فى يوليو ١١٩٢ م / رجب ٥٨٨ هـ.

٩- صلح الرمله بين المسلمين والصليبيين فى سبتمبر ١١٩٢ م / شعبان ٥٨٨هـ، ومدى ما حققته جماعة الداوية من ورائه.

استعرضنا فيما سبق هزيمة الداوية فى موقعتى صفورية وحطين ، وما ترتب على ذلك من آثار تتلخص فى نجاح صلاح الدين فى فتح معظم قلاعهم فى الشرق، كذلك تبين أن جماعة فرسان الداوية اخذوا يتجمعون فى مدينة صور الخاضعة لحكم اللاتين آنذاك استعداداً لوصول النجدات من الغرب والانطلاق مع اخوانهم الصليبيين فى حملة جديدة جامعة لاسترداد المعاقل اللاتينية بصفة عامة، ومدينة بيت المقدس علي وجه الخصوص. وقد تمثل هذا الدور فى مشاركة تلك الجماعة الصليبيين فى حصار مدينة عكا والاستيلاء عليها، وفى استعادة بعض القلاع الصليبية التى كان صلاح الدين قد فتحها من قبل.

وقد بدأ هذا الدور بعد ان اطلق صلاح الدين سراح الملك جى دى لوزجنان ملك بيت المقدس الاسمى[1] بعدما اشترط عليه ان لا يشهر فى وجهه سيفاً ابداً[2] ولكن الملك الصليبى لم يلتزم بتعهداته واتجه الى مدينة صور فى ابريل ١١٨٩م/ صفر – ربيع الأول ٥٨٥هـ، ولم يسمح له صاحبها كونراد بدخولها[3] ، هذا، بينما خرج مقدم الداوية وفرسانه من مدينة صور ، وانضموا الى الملك جى .

---

(١) الاصفهانى. الفتح القسى،ص٨٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢٨٣ ، وايضاً :
Devizes, Chronicles, p. 101; Eracles, L'Estoire, p. 121; Bendicti of petroburgensis, Vita, of . R.H.G.F., Vol, XVII, p. 496; Roger de Hoveden, Annals, II, p. 126.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٩٨ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص١٤٠ ، وايضاً:
Eracles, Op. cit., p. 123.

(٣) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢ ، ص١٨ ، الاصفهانى، المصدر السابق، ص٢٨٩ ،ابن شداد: المصدر السابق، ص٩٨ ، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٨٣ ، ابو شامة: الروضتين، جـ٢ ، ص١٤٠ وايضاً:
Devizes, Op.cit., p. 103; Eracles, op. cit., p. 124.

واستقر الرأى على مهاجمة مدينة عكا وكانت آنذاك خاضعة لحكم المسلمين[1] وفى تلك الفتره وصلت الى منطقة الشرق الأدنى حشود صليبية كبيرة استغلها الملك جي للاشتراك معه فى الزحف نحو مدينة عكا الإسلامية[2].

سارت الحشود الصليبية الى المدينة، ونزلت على الجانب الشمالى منها، وضربت الحصار حولها فى رجب ٥٨٥هـ / اغسطس ١١٨٩م[3].

ولما علم صلاح الدين باخبار هذا الحصار. اتجه بقواته وخيم قباله الجيش الصليبي. وجرت بعض المناوشات بين الجيشين[4] اشترك الداوية فى معظمها حيث كانوا يقومون بحراسة المعسكر الصليبى[5].

ونتيجة لوفود جماعات متتابعة من الصليبيين الى الشرق وقتذاك وانضمامهم

---

(1) Devizes, Chronicles, p. 104; Eracles, L'Estoire, p. 124; Bendicti of petroburgensis, Vita, of. R,H.G.F., Val, XvII, p. 496;Radulfi de Diceto, Imaginibuis, of, R.H.G.F.,Vol XvII,p.635;Rogeer dde Hoveden, Annas, II, p. 126; Matt. West, The Flowers, II, P. 76.

(٢) الاصفهانى: الفتح القسى، ص٢٨٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ص٢٨٨، وايضاً:
Devizes, op. cit., pp. 104-105; ChroniclesRoger de Hoveden, op. cit, pp. 126-127,Matt. West, The op cit., II,p. 77.

(3) Devizes, op. cit., p. 106; Eracles, op.cit., p 127; Radulfi de Diceto, Ibid.

انظر ايضاً : ابن الاثير: الكامل ، جـ١٢، ص٢٢، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٠٤ – ١٠٥، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ورقة ٩٦، دور التيجان، جـ١٦، ورقة ٥٠٤، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٢٨، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٣٧، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم ١، لوحة ٧٠، ابن بهادر : فتوح النصر، لوحة ٦٣، بامخرمة: قلادة النحر، ورقة ٣٤٥، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ١، ص١٠٢.

(4)Bendicti of Petroburgensis, Vita, of. R.H.G.F.,Val XVII,p.496; Eracles,L'Estoire, p. 128.

راجع أيضاً ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٢٢–٢٣؛ الاصفهانى، الفتح القسى، ص٣٠٤–٣٠٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٢٩١، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٤٣.

(5)Devizes of Chronicles, p. 106; Roger de Hoveden,Annals,p. 126.

الى الجيش الصليبى[1]، فقد نجح الصليبيون فى إحكام الحصار حول عكا من جميع الجهات، بحيث تعذر على المسلمين دخول المدينة أو الخروج منها[2] فرأى صلاح الدين ضرورة أختراق صفوف الصليبيين، وفتح الطريق الى عكا. فأخذ يشن الهجمات المتكررة على الصليبيين والتى استمرت من مستهل شعبان ٥٨٥هـ / ١٥ سبتمبر ١١٨٩م حتى الثامن منه (٢١ سبتمبر ١١٨٩م)[3] اما الداوية فقد تصدوا هم والفرق الصليبية الاخرى للقوات الإسلامية[4].

وعندما شعر الصليبيون بوطأة الهجمات الإسلامية على معسكرهم استعدت فرقهم، ومن بينها جماعة فرسان الداوية، للقيام بهجوم كبير على المعسكر الاسلامى. وفى يوم الثلاثاء ٢٠ شعبان ٥٨٥هـ / ٣ أكتوبر ١١٨٩م بدأ الصليبيون هجومهم ، ونجحوا فى دفع المسلمين على الارتداد الى مسافة بعيدة عن معسكرهم[5] ولكن ظلام الليل حال بين الفريقين وبين مواصلة القتال[6].

---

(1)Devizes, Op.cit., p. 124 ;Bendicti of Petroburgensis, Ibid.Roger de Hoveden, Op. cit, II,P. 109; matt. west. The Flowers, II,p. 77.

(٢) ابن شدادر: النوادر السلطانية، ص١٠٥ ، ابو شامة: الروضتين: جـ٢ ، ص١٤٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢ ، ص٢٢٥-٢٣ ، الاصفهانى: الفتح القسى ، ص٢٠٦-٢٠٨ ، ابو شامة : الروضتين، جـ٢ ، ص١٤٣ ، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧ ، ورقة ٨٩ ، بامخرمة: قلادة النحر، ورقة ٣٤٩.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٢٩٢-٢٩٣ ، رايضاً:

Radulfi de Diceto,Imagenibuis, of, R.H.G.F.,Val XvIII,p.635.

(٥) ابن الاثير: المصدر السابق، ص٢٤ ، الاصفهانى: المصدرالسابق، ص٣٠٤ ، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٠٩ ، وأيضاً:

Eracles, L'Estoire, p. 128; Radulfi de Diceto, Ibid.

(٦) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢ ، ص٢٩٤-٢٩٥ ، ابو شامة: المصدر السابق، جـ٢ ، ص١٤٣ ، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة١٢٩ ،وأيضاً:

Devizes Chronicles, p.107;Roger de Hoveden,annals, p. 126.

وفى صباح يوم الأربعاء ٢١ شعبان / ٤أكتوبر تجدد القتال بين الفريقين ونجح الجيش الإسلامى فى التصدى للصليبيين، وأرغمهم على التراجع بعد أن قتل العديد من فرسانهم[١] ومن بينهم المقدم جيرارد ريدفورت[٢] وماريشال الداوية[٣] وثمانية عشر من فرسانهم[٤] الذين حاولوا منع المسلمين من التوغل داخل المعسكر الصليبى وكان بقية الجيش الصليبى قد ابتعدوا عنهم، فوقعوا فريسة سهلة فى قبضة المسلمين[٥]. وقد نجح صلاح الدين فى أن يدخل الى مدينة عكا من اراد من الرجال والذخائر والاموال والسلاح حتى يتسنى لها الصمود فى وجه الفرنج[٦].

أما عن جماعة فرسان الداوية فبعد ان قتل مقدمهم فى المعركة، اختاروا احد الفرسان ويدعى والتر Walter ليخلف جيرارد فى منصبه[٧] فى وقت ازدادت فيه العلاقات سوء بينهم وبين صلاح الدين الذى لم ينس قط موقفهم فى أثناء توحيد الجبهة الإسلامية وكانت تلك هى فرصته للانتقام منهم.

يتضح مما سبق أن تجمع فرسان الداوية فى مدينة صور كان من أجل الأستعداد

---

(١) ابن الأثير : الكامل، جـ١٢، ص٢٤-٢٥، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٣١١-٣١٢، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١١٢-١١٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٩٧، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٤٥.

(2)Eracles, L'Estoire, p. 128; Devizes Chronicles, p.108; Ambroise, The crusade, p. 143; Matt. Weast, The Flowers, II,p. 79.

(3)Bendicti of Petraburgensis, Vita, of.of, R.H.G.F.,Vol XvIII,p.496; Roger de Hoveden,Annals, II, p127.

(4)Eracles, op.cit., pp. 128-129; Radulfi de Diceto,Imaginibuis, of, R.H.G.F.,Val XVIII,p.635.

(٥) ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٤٦، وايضاً:
Devizes Chronicles, p.108; Jacques de vitry, Jerusalem, pp. 108-109.

(٦) ابن الاثير: المصدر السابق، جـ١١، ص٢٦، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٣٢٤، ابن شداد: المصدر السابق، ص١١٣؛ ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص٢٩٣، ابو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٧.

(7) Addison, Templars, p. 133.

لمواصلة دورهم فى الصراع الصليبى الإسلامى والذى تأكد فى مشاركة الصليبيين مشاركة فعالة فى حصار مدينة عكا ومهاجمة القوات الإسلامية ويعتبر هذا الدور بداية تحول كبير فى سياسة تلك الجماعة فبعد أن التزموا بعد موقعة حطين بسياسة الدفاع عن انفسهم وعن قلاعهم التى اخذت تتساقط الواحدة تلو الاخرى فى قبضة صلاح الدين، واصبحوا الآن يشاركون فى الهجوم على المدن الإسلامية وفى محاربة المسلمين علناً وبضراوة.

أما عن صلاح الدين فبعد هذه الوقعة أشار عليه بعض امرائه بضرورة تراجع الجيش الإسلامى بسبب كثرة القتلى وتعفن الجثث، مما قد يترتب عليه انتشار الأوبئة والامراض فى المعسكر وما يصاحب ذلك من انهيار الروح المعنوية. فانتقل صلاح الدين الى الخروبة[١] فى ٤ رمضان ٥٨٥هـ / ١٤ أكتوبر ١١٨٩م[٢] استعداداً لجولة اخرى قريبة.

وقد استغل الصليبيون هذا التراجع وأحكموا الحصار حول مدينة عكا وحفروا خندقاً عميقاً حول معسكرهم. وقام الاخوة المساعون من جماعة فرسان الداوية بحفر جزء من الخندق فى المكان الذى كان يواجه خيام الداوية[٣] كما شرع الصليبيون فى صنع الابراج الضخمة لضرب اسوار المدينة. وقامت جماعة الداوية بصنع احد هذه الابراج[٤] ووضعوا على قمته مقلاعاً لرمى الاحجار[٥] وزحفوا به

(١) الخروبة: تل يقع بالقرب من عكا، انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٣، ص٤٢٥.

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٢٥-٢٦، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٣٢٥-٣٢٦، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١١٢-١١٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٠٣-٣٠٤، ابو شامة، الروضتين، جـ٢، ص١٤٧.

(3)Eracles, L'Estoire, p. 142; Roger de Hoveden,Annals, II, p.175.

(٤) وصف كل من ابن الاثير وابن واصل هذا البرج بقولهما انه كان عالياً جداً وطوله ستين ذراعاً ويتألف من خمس طبقات كل طبقة مملؤة بالمقاتلة وقد صنع من خشب نادر، وغطى بالجلد والخل والادوية التى تمنع النار من احراقه، وقد استغرق بناؤه سبعة اشهر، انظر: ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٢٨، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣١٥

(5)Bendicti of Petraburgensis,Vita,of.of,R.H.G.F.,Vol XVIII , p . 4 9 7 .

مع برجين آخرين للصليبيين نحو سورالمدينة فى ٢٠ ربيع الاول ٥٨٦هـ/ ٢٨ ابريل ١١٩٠م. وبدأوا فى رمى السور وتمكنوا من إحداث ثغرة به، فانتاب المسلمون الفزع[١] ولكنهم تمكنوا من اشعال تلك الابراج الصليبية الثلاثة فى يوم السبت ٢٨ ربيع الأول/ ٥ مايو وقد اختلفت المصادر العربية والغربية حول الطريقة التى استخدمت لحرق تلك الابراج.

فتذكر المصادر العربية ان المسلمين نجحوا فى حرق تلك الابراج بعد ان صنع احد اهالى دمشق سائلاً خاصاً ووضع فى قوارير والقى بها عن طريق المجانيق على تلك الابراج، ثم القى بالنيران عليها فأشتعلت وتهاوت[٢].

اما المصادر الغربية فتروى ان المسلمين الذين كانوا بداخل عكا خرجوا منها واشتبكوا مع الفرق الصليبية القريبة من الابواب ومن بينها فرق الفرسان الداوية، وانهم القوا النيران على تلك الابراج فأشتعلت، بينما عاد المسلمون الى داخل المدينة[٣].

وهكذا وبينما ترى المصادر العربية أن حرق الأبراج كان عن طريق الرمى بالمجانيق، ترى المصادر الغربية انه تم عن طريق الاشعال باليد من قبل المسلمين

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٩، الاصفهانى: الفتح القسى، واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٣١٥، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧ ورقة٩، درر التيجان، جـ٢٦، ورقة ٥٠٣، العينى: عقد الجمان جـ٢١، قسم ١، لوحة ٨٢، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص١٠٣.

(٢) ابن الأثير ، الكامل، جـ١١، ص٢٩، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٣٠٧-٣٧١، سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ، جـ٢، ورقة ٢٥٧، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٣١٥، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ورقة ٩٤، ودررالتيجان، جـ٢٦، ص٥٠٣، العينى عقد الجمان ، جـ٢١، قسم ١، لوحة ٨٢، المقريزى: السلوك ، جـ١، قسم١، ص١٠٣.

(3) Eracles, L'Estoire, p.142; Bendicti of Petraburgensis , Vita , of . , R.H.G.F., Vol XvIII , p.497; Roger de Hoveden, Annals, II, p . 75 .

داخل عكا. وبتحليل كل من الروايتين نجد انه من الصعب ترجيح احداهما على الأخرى. فمسأله رمى سائل عن طريق المجانيق كانت أمراً شائعاً فى الحروب التى جرت خلال هذا العصر. واما فيما يتعلق بخروج اهالى عكا ورميهم تلك الابراج باليد، فلعل مرجعه ان الموقف فى تلك الفترة كان يتطلب الدقة التامة فى رمى تلك الابراج بالضبط، خاصة وان الابراج قد احدثت ثغرة فى الاسوار عن طريق رميها بالاحجار، وتقدم الصليبيون بابراجهم حتى كادوا أن يقتربوا من تلك الثغرة. هذا، بالأضافة الى أن خروج اهالى عكا كان أمراً معتاداً ومألوفاً ثم ان المصادر العربية ذكرت انه بعد أحتراق الأبراج خرج أهالى عكا وجمعوا الأسلحة وحملوا الحديد الذى صنعت منه تلك الأبراج[1] وعلى هذا يمكن الجمع بين هذين الرأيين بالقول بأن المسلمين عندما رأوا ماسببته تلك الابراج، عملوا على التصدى لها قبل ان تقترب من الاسوار. فأحضروا هذا السائل ووضعوا جزءاً منه فى القوارير والقوها على الابراج بالمجانيق، وخرج بعض المسلمين بالجزء الباقى من السائل ورموا به الابراج ، وذلك ضماناً لأشتعالها من اسفلها إلى أعلاها وفى نفس الوقت ضماناً لنجاح إحدى الطريقتين إذا ما فشلت الأخرى.

على أية حال ، فقد اشتعل البرج الذى صنعه الداوية هو والابراج الاخري[2] ومات بعض من فيه من الداوية حرقاً، بينما فر الباقون منه خوفاً من تلك النيران[3]

---

(١) الاصفهانى: الفتح القسى، ص٣٧٢، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣١٦، ابو شامة، جـ٢، ص١٥٤.

(2)Eracles, L'Estoire, p.142; Bendicti of Petraburgensis , Vita , of . , R.H.G.F.,Vol XvIII , p.497; Roger de Hoveden,Annals, II, p . 175 .

(٣) ابن الاثير: الكامل، جـ١١، ص٢٩، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٣٧٠، ابن الجوزى: مرآة الزمان جـ٨، ورقة٢٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣١٦، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ورقة ٩٤، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، ورقة٨٢.

كذلك شاركت جماعة الداوية الصليبيين[1] فى الهجوم الذى شنوه على ميمنة الجيش الإسلامى فى يوم الاربعاء ٢٥ يوليو ١١٩٠م / ٢٠ جمادى الآخرة ٥٨٦هـ، كان لهم الغلبة فى هذا الهجوم[2] فى بادىء الامر حيث تمكن فرسانها من قتل اربعين فارساً من المسلمين[3] ولكن ثبات الملك العادل اخى صلاح الدين ومن حوله بقية الجيش الإسلامى جعل سير المعركة يتحول لصالح المسلمين[4].

وفى نفس الوقت ساهمت جماعة فرسان الداوية مع الصليبيين[5] فى صنع بعض المجنيقات، وجعلوها قبالة سور مدينة عكا ، اخذوا يتناوبون عليها فى الرمى مما

---

(١) الاصفهانى: المصدر السابق، ص٤٠٣، وايضاً:

Eracles, L'Estoire, pp.150-151; Bendicti of Petraburgensis , Vita , of . , R.H.G.F.,Vol XvII , p.497; Roger de Hoveden,Annals, II, p . 175 .

(٢) ابن الاثير ، المصدر السابق، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٢٩ ، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢ ، ص٣٢٥، ابو شامة: الروضتين، جـ٢ ، ص١٥٨ ، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة ١٣١ ، الحنبلى: الانس الجليل ، ورقة١٨٢ ؛ ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٣؛ المقريزى: السلوك، جـ١ ، قسم١، ص١٠٤.

(3)Bendicti of Petraburgensis, Ibid; Roger de Hoveden, Ibid.

(4)Eracles, L'Estoire, p. 151.

ولمزيد من التفاصيل انظر: ابن الاثير: الكامل، جـ١٢ ، ص٣٢-٣٣، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٤٠٤-٤٠٥ ، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٢٩-١٣٠ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٢٥-٣٢٦، ابو شامة: الروضتين، جـ٢ ، ص١٥٨-١٥٩ ، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١٣١ ، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٢ ، ابن الفرات، تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٣، المقريزى: السلوك، جـ١ ، قسم١ ، ص١٠٤

(5)Devizes Chronicles, p.205.

الحق بالسور بعض الاضرار. ولكن المسلمين المحاصرين داخل عكا تمكنوا من إحراق تلك المجنيقات[١] وهكذا فوتوا على المهاجمين الفرنج وفى مقدمتهم الداوية اكثر من محاولة لاقتحام المدينة.

وبينما كانت جماعة الداوية فى الشرق تمارس هذا الدور فى حصار المدينة، كان فرسانها فى الغرب يجمعون الأموال ويرسلونها الى إخوانهم فى الأراضى المقدسة[٢] كما حشد روبرت دى سابل نائب المقدم الأعظم فى إنجلترا العديد من فرسان الداوية ، والذين انضموا الى جيش الملك الانجليزى ريتشارد قلب الاسد لمشاركته فى التوجه الى الشرق[٣].

وهكذا لم يتوان الداوية فى مركزهم الرئيسى فى الأراضى المقدسة وفى فروعهم فى الغرب فى حشد الرجال وجمع المال للوقوف فى وجه صلاح الدين فى وقت كان مركز الثقل فى المنطقة فى صالحه اثناء صراعه مع الصليبيين.

وفى ٢٠ ابريل ١١٩١م / ١٢ ربيع الاول ٥٨٧هـ وصل الملك الفرنسى فيليب اغسطس الى عكا، وشارك الصليبيون فى حصارهم للمدينة[٤] وقد أسهم

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٦، ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٢٥، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٢، ابن الفرات، تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٧.

(2) Archives de Malte, Vol ., 10, piecce 14, of. Documents des Templiers, p. 21.

(3)Ambroise, The Crusade, p. 42; Roger de Hoveden,Annals, II, p .146.

(٤) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص٣٣، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٤٧٤، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٨٢-١٨٣، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١٣٣، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة١٥، وايضاً:

Ambroise, The crusade, p.191; Eracles, L'Estoire, p. 156.

الداوية مع الملك الفرنسى بعد أن صنعوا مقلاعاً ضخماً لرمى أسوار المدينة[1] ، الى جانب المقاليع الاخرى التى صنعها الفرنسين وجماعة فرسان الاسبتارية، وقاموا بقذف المدينة[2] ولكن المسلمين الموجودين داخل عكا تمكنوا من إحراق تلك المقاليع بعد أن داوموا الرمى عليها بالنيران[3].

وهكذا تتضح خطورة الدور التى قامت به جماعة فرسان الداوية فى حصار مدينة عكا والآمال التى كانوا يعلقونها على غزو هذا الميناء الهام على الساحل الشامى فقد قامت تلك الجماعة بالاشتباك مع المسلمين أكثر من مرة، وتولت حراسة المعسكر الصليبى ضد هجمات المسلمين، وحفرت جزءاً من الخندق حول خيام الفرنج لمنع قوات صلاح الدين من دخول عكا. كما صنعت العديد من آلات الحصار وضرب الاسوار من مقاليع ومجنيقات وأبراج. وما إن تحترق احدى هذه الالات إلا وتسارع الجماعة بصنع غيرها . ومما لا شك فيه ان هذا الدور التى قامت به تلك الجماعة الى جانب الصليبيين كان له اكبر الاثر فى إحداث الأضرار بسور عكا. وكانت له انعكاسات كبيرة على الروح المعنوية للمدافعين فى داخل المدينة، وعلى علاقتهم بالمسلمين التى ازدادت سوءاً وتفاقماً.

وفى ٨ يونية ١١٩١م / ١٣ جمادى الاولى ٥٨٧ هـ انضم الملك ريتشارد الأول ومن معه من الداوية الى جانب باقى الصليبيين امام عكا[4] فقويت بذلك شوكتهم[5] واصبحوا يشكلون خطراً على المدينة المحاصرة.

(1)Ambroise, Op. cit., p. 202.
(2)Roger de Hoveden,Annals, II, p 210.
(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦١ ، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٤٣٢-٤٣٤ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ ، ص٣٥١-٣٥٢، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٨٥.
(4)Devizes Chronicles,pp. 20-201; Eracles, L'Estoire, p.10.
(٥) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢ ، ص٣٣؛ الاصفهانى: الفتح القسى: ص٤٨٤ ، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦١؛ ابن واصل: مفرج الكوب، جـ٢ ، ص٣٥٠ ، ابو شامة: الروضتين، جـ٢ ، ص١٨٣؛ النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦ ، لوحة١٣٣ ، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٢ ، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٤ .

أما عن جماعة فرسان الداوية ، فقد توفى فى تلك الفترة مقدمهم والتر، فقامت الجماعة باختيار روبرت دى سابل خليفة له[١] نظراً للجهود التى بذلها لصالح الجماعة فى انجلترا ومشاركته فى الدعوة للحملة الجديدة والاعداد لها[٢]. هذا ، وقداصاب المدافعين عن عكا الضعف نتيجة لطول فترة الحصار، وندرة الأقوات عندهم[٣] ونتيجة لذلك خرج سيف الدين، ابن المشطوب نائب صلاح الدين فى عكا، وأجتمع بالملك فيليب فى خيمة الداوية[٤] وطلب منه الأمان مقابل تسليم المدينة، فلم يوافقه فيليب على ذلك[٥] وفى النهاية تمكن الصليبيون من دخول مدينة عكا بعد ان قاموا بشن هجوم كبير عليها[٦]. فى ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/ ١٢يوليو ١١٩١م[٧] وهكذا سقطت المدينة فى قبضة الفرنج بعد حصار دام قرابة عامين.

---

(1)Ambroise, The crusade, p. 42

(2)Addison, Templars, pp. 141-142.

(٣) الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٠٣، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٦٨.

(4)Roger de Hoveden,Annals, II, p 214

(٥) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٣؛ الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٠٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٧.

(6)Devizes Chronicles,pp.215 - 216; Ambroise, op. cit., pp. 244-226; Eracles, L'Estoire,pp. 175-176; Bendicti of Petroburgensis, Vita , of . , R.H.G.F.,Vol XvIII , p.506; Roger de Hoveden, op. cit.,II, p. 206; Amadi,Chronicles

(٧) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٣-٤٤، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥١٣، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٥٥-٣٥٦، ابو شامة: الروضتين جـ٢، ص١٨٨، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ورقة٩٩-١٠٠، ودررالتيجان، جـ١٦، ورقة٥٠٣؛ النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١١٦؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٣٧؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١١٦، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة١٥، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٦٧، المقريزى: الملوك، جـ١، قسم١، ص١٠٥.

وبعد دخول الصليبيين عكا طلب صلاح الدين من جماعة فرسان الداوية أن يضمنوا له عودة الأسرى للمسلمين مقابل إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين عندهم. ولكن الداوية رفضوا ان يؤدوا هذا الضمان[١] لصلاح الدين، وقالوا انهم لا يحلفون ولا يضمنون لانهم يخافون غدر من عندهم[٢] ويكاد أن يكون هذا الموقف من جانب جماعة فرسان الداوية هو الحسنة الوحيدة في تاريخ العلاقات بينهم وبين المسلمين الحافل بالعداوة والحروب، إذ لم تحترم تلك الجماعة أية عهود أو مواثيق أخذتها على نفسها، إنما وضعت صالحها العام فوق اى اعتبار. ولعل الدافع الوحيد الذى حذا بتلك الجماعة الى احترام الكلمة فى تلك المناسبة هو ما لمسته من روح التسامح التى كان يتحلى بها صلاح الدين حيال الصليبيين بصفة عامة، ومع جماعة فرسان الداوية بصفة خاصة.

لقد استعادت جماعة فرسان الداوية بدخول الصليبيين عكا قلعتها السابقة بالمدينة[٣] وسمحت للملك الفرنسى أن يقيم فى دارها بالمدينة[٤] بينما طلب منها الملك ريتشارد قلب الاسد أن يتولى بعض فرسانهم حراسة الميناء[٥].

وقد واصلت جماعة فرسان الداوية دورها الهجومى على المسلمين بالاشتراك مع ريتشارد قلب الاسد فى الزحف على المدن الإسلامية فى الشرق الادنى، بينما رحل الملك فيليب اوغسطس عائداً الى بلاده[٦] وفى يوم الخميس ٢٨ رجب

---

(1)Ambroise, The crusade, p.227

(٢) ابن الاثير: المصدر السابق، ص٤١، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٢٧؛ ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٨٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٠.

(4) Devizes Chronicles,p. 216; Ambroise, The crusade, p. 218; Roger de Hoveden,Annals, II, p 214

(5)Roger de Hoveden, op. cit., p. 218.

(6)Eracles, L'Estoire,p. 181.

٥٨٧ هـ/ ٢٢ اغسطس ١١٩١م استعد الجيش الصليبي للزحف على حيفا[١]. وعندما علم صلاح الدين بذلك امر عساكره بتتبع الصليبيين[٢].

سار الصليبيون الى حيفا في يوم الاحد مستهل شعبان (٢٥ اغسطس)[٣] وتولت جماعة فرسان الداوية قيادة مقدمة الجيش الصليبي[٤] بسبب خبرتهم السابقة بطرق المنطقة ومسالكها. وقام المسلمون بمناوشة مؤخرة الجيش الصليبي اثناء زحفه[٥] إلى ان بلغوا مدينة حيفا في يوم الثلاثاء ٢٧ أغسطس ١١٩١م/ ٣ شعبان ٥٨٧هـ[٦] ونتيجة لما احدثته تلك المناوشات من قتل وهلاك العديد من الخيول الصليبية[٧]، فقد عهد لجماعة الداوية بحماية مؤخرة الجيش[٨] عندما خرج من حيفا في طريقة الى مدينة قيسارية[٩] بعد ان تركت بعض فرسانها كادلاء لمقدمة الجيش الصليبي.

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٥، وايضاً:

Devizes,op. cit., p. 227.

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٥؛ الاصفهاني: الفتح القسي، ص٥٣١، ابن شداد: المصدر السابق، ص١٧٥، ابن واصل، المصدر السابق، جـ٢، ص٣٦٥، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٠.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٥، وايضاً:

Devizes Chronicles,p. 228.

(4)Devizes,op. cit., pp. 228-229.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص٤٥؛ الاصفهاني: الفتح القسي، ص٥٣٢، ابن شداد: المصدر السابق، ص١٧٥.

(6)Devizes,op. cit., p. 229 Ambroise,the Crusade,p. 243.

(7) Ambroise , op. cit; p. 247.

(8)Devizes,op. cit., p. 230;Ambroise , op. cit; p. 241.

(٩) ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٣٧، العيني: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٩، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، ص١٩، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٦٧، الحبلي: الانس الجليل، ورقة١٨٥.

وفي هذا الموضع واجه الداوية اثناء سيرهم الكثير من المضايقات من قبل المسلمين[1] فضلاً عن الهجمات المتكررة التي شنها المسلمون على مؤخرة الجيش الصليبي[2] والتي تمكنت جماعة الداويه من ردها بعد ان فقدت الكثير من خيولها[3] نتيجة رميها بالنشاب[4].

وبينما كان الجيش الصليبي في طريقه من قيسارية الى أرسوف ، كان المسلمون قد سبقوهم اليها. وقرر صلاح الدين ضرورة التصدى للجيش الصليبي[5] وقد استعد الجيشان لهذا اللقاء. فانتقل فرسان الداوية من المؤخرة الى مقدمة الجيش الصليبي حتى يكونوا في الصفوف الأولى المواجهة للمسلمين[6] بحكم خبرتهم الطويلة في طرق المسلمين في الحرب والقتال.

وعلى هذا يتضح التكتيك العسكرى لجماعة فرسان الداوية في تلك الفترة فعند الزحف كانوا يقومون بحماية المؤخرة لمواجهة مناوشات المسلمين المتكررة. أما عند الهجوم فينتقلون الى المقدمة ليصبحوا أول المهاجمين. وبهذا تتأكد الاهمية العسكرية لهؤلاء الفرسان وقتذاك.

قامت المعركة بين الفريقين بالقرب من أرسوف في يوم السبت ٧ سبتمبر

---

(1) Devizes Chronicles,p.231.

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٥، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٠، العيني: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٠.

(3)Devizes, Ibid.

(٤) الاصفهاني: الفتح القسي، ص٣٥٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٥، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٠، العيني: المصدر السابق، جـ٢١، قسم١. لوحة١٢١.

(٥) ابن لاثير: الكامل، جـ١٢، نفس الصفحة، ابن شداد: النوادرالسلطانية، ص١٨٣، الاصفهاني: المصدر السابق ، ص٥٤٤، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٦٧، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩١.

(6)Devizes,op. cit., p. 230;Ambroise, The Crusade, p. 250; Roger de Hoveden,Annals, II, p.220.

١١٩١م/ ١٤ شعبان ٥٨٧هـ. وفى احدى مراحلها شن فرسان الداوية هجوماً على المسلمين[١] وتمكنوا من قتل عدد منهم[٢] . اما بالنسبة لبقية الصليبيين فقد استطاعوا تحويل النصر لصالحهم فى تلك الوقعة[٣] ولكن بعد أن قتل كثير من الفرسان الصليبيين ومن بينهم فارس يدعى جيمس دى افيسترJamesd Avennes[٤] وكان مقرباً من الملك وجماعتى فرسان الداوية والإسبتارية[٥] وبعد انتهاء المعركة طلب بعض فرسان الداوية والاسبتارية من الملك ريتشارد السماح لهم بالذهاب الى أرض المعركة مرة أخرى للبحث عن جثة جيمس هذا ووافق الملك على ذلك الطلب على الرغم من تواجد المسلمين فى المنطقة. . إلا أن فرسان الداوية والإسبتارية نجحوا فى العثور على جثته، وعادوا بها الى المعسكر الصليبى دون أن يتعرض لهم المسلمون بأذى[٦] . ولعل هذا يرجع الى الهزيمة السابقة التى لحقت بالمسلمين فى موقعة أرسوف والتى جعلتهم لا يشتبكون مع الصليبيين فى تلك المرحلة على الأقل وإن دلت هذه الواقعة على شئ فإنما تدل على بعض خصائص الفروسية فى عصر الحروب الصليبية وفى مقدمتها الشهامة والنبل والإنسانية التى كانت من أبرز صفات الفارس سواء فى الشرق أم فى الغرب، على الرغم من تلك الحروب الدامية التى كان الشرق الأدنى مسرحاً لها.

---

(١) الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٤٣، وايضاً:

Devizes Chronicles,p.233; Ambroise, The Crusade, p. 267; Roger de Hoveden,Annals, II, p.220.

(٢) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٩، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٧-٣٦٨، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩١.

(٣) النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١٣٤-١٣٥، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٣٧،العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٣-١٢٥، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٥.

(4) Devizes,op. cit., p.242; Roger de Hoveden,Ibid.

(٥) الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٤٨، وايضاً:

Addison, Templars, p. 148.

(6) Devizes Chronicles,pp. 243-244.

لعله يتضح مما سبق أن موقعة أرسوف كانت أول معركة برية تشارك فيها جماعة فرسان الداوية باقى الصليبيين فى تحقيق النصر على قوات صلاح الدين منذ موقعة حطين وكان هذا النصر ثمرة الدور الجديد التى قامت به تلك الجماعة وقتذاك وقد أدى ذلك الى أزدياد حدة العداء والبغضاء بينها وبين صلاح الدين.

أما عن صلاح الدين، فعندما رأى ان قوة الصليبيين قد زادت فى تلك الفترة، اتجه الى مدينة عسقلان وكانت خاضعة لمصر وقام بتخريبها خشية أن يستولى عليها الصليبيون ويتخذونها حصناً لهم[١] . كما قام بتخريب حصنى اللد والرملة لنفس الهدف[٢]. ثم اتجه الى مدينة بيت المقدس لتقوية استحكاماتها[٣] خشية ان يتجه اليها الصليبيون.

بينما اتجه الصليبيون الى أرسوف بعد عودة فرسان الداوية لحماية المؤخرة[٤] حسب تكتيكاتهم الجديدة التى كانوا يتبعونها عند اقتتالهم مع المسلمين. ولكنهم لم يتعرضوا لمناوشات المسلمين فى تلك الفترة[٥]. وعندما اتجه الصليبيون من أرسوف

(١) أبين الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٩، الاصفهاني: الفتح القسى، ص٥٥٠-٥٥١، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٨٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٦٦٩-٣٧٠، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٢، ابن ايبك: درر التيجان، جـ٢٦، ورقة٥٠٣، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٤-١٢٥، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٢٠، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٥، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٦٨، المقريزى: السلوك جـ١، قسم١، ص١٠٦.

(٢) ابن الاثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٧، الاصفهانى: المصدر السابق، ، ص٥٤٩، ابن شداد: المصدر السابق، ص١٨٧، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧٠؛ ابو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص١٩٤، ابو الفرات: المصدر السابق، جـ٨، لوحة٢٢، ابن بهادر: المصدر السابق، نفس الورقة، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، قسم١، نفس الصفحة.

(٣) ابن الاثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٦٢، ابن شداد: المصدر السابق، ص١٩٢، العينى: المصدر السابق، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٧، ابن الفرات: المصدر السابق، جـ٨، لوحة٢٣، ابن بهادر: المصدر السابق، ورقة٦٨، الحنبلى: المصدر السابق، ورقة١٨٧، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، قسم١، ص١٠٧.

(4)Devizes Chronicles,p. 286.

(5) Ambroise, The Crusade, pp.273-274.

الى يافا، أخذ المسلمون فى مناوشة الداوية[1] الذين كانوا فى مؤخرة الجيش الصليبى[2] وبعد ان توجه الصليبيون الى يافا، أمر الملك ريتشارد بتقوية استحكاماتها[3] استعداداً لمواجهة اى ظروف طارئة.

وأستمراراً للسياسة الاسلامية التي كانت ترمى الى هدم بعض القلاع الاسلامية خشية ان يستولى عليها الصليبيون ويتحصنون بداخلها، فقد قام صلاح الدين فى رمضان/ ٥٨٧هـ/ ١ أكتوبر ١١٩١م بهدم قلعة الداوية السابقة فى النطرون[4]. بينما شرع الاخوة المساعدون[5] من جماعة فرسان الداوية[6] فى بناء قلعة جديدة لهم فى مدينة يافا فى ٣١ اكتوبر ١١٩١م/ ٩ شوال ٥٨٧هـ وقد حاول المسلمون اكثر من مرة منعهم من مواصلة البناء ولكن الداوية تصدوا لهم وحالوا بينهم وبين تحقيق غرضهم[7].

وجدير بالذكر انه فى أثناء إقامة الصليبيين بمدينة يافا جرت بينهم وبين المسلمين مفاوضات لعقد الصلح بين الطرفين. وكان من بين بنود هذه المفاوضات ان يرضى المسلمون جماعة فرسان الداوية بمنحهم بعض القرى[8] التابعة لهم

---

(١) ابن الاثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٤٥، ابن بهادر: المصدر السابق، نفس الورقة.

(2)Devizes,op. cit., pp.248-249; Ambroise Ibid.

(3)Devizes,op. cit., p. 249; Ambroise, op. cit., p.284

وأيضاً : ابن الاثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧١.

(5)Addison, Templars, p. 146.

(6) Ambroise, The Crusade, p. 285.

(7)Devizes Chronicles,p. 250; Ambroise, op. cit., p.287.

(٨) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٧، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٥٥، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٩٣-٩٤، ٩٦، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧٢، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٣.

بمنطقة الشرق الادنى الاسلامى، ولكن المفاوضات لم يكتب لها النجاح[١] ولم يكن لمثل تلك المفاوضات ان تنجح بسبب بسيط وهو ان ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والفرنج كان قد اعتدل وبشكل واضح لصالح المسلمين. فلم يكن يعقل والامر هكذا ان يتنازلوا ولو عن شبر واحد من أراضيهم للفرسان الداوية الذين كانوا يعتبرونهم من الد أعدائهم.

واستمر القتال بين الطرفين شديداً متصلاً. ففى يوم الاربعاء ١٦ شوال ٥٨٧هـ ـ ٦ نوفمبر ١١٩١م كمن بعض المسلمين لتصيد كل من يخرج من الصليبيين ويبتعد عن مدينة يافا. وحدث ان خرج بعض الصليبيين تحت حراسة فرسان الداوية واتجهوا الى الحقول المجاورة لجمع الحشائش. وعندما تفرق أولئك الصليبيون اطبق المسلمون على فرسان الداوية، وقتلوا منهم الكثير بعد مباغتهم. وكاد الداوية ان يهلكوا جميعاً لولا وصول نجدات صليبية اليهم، نجحت فى ان تنقذهم من قبضة المسلمين[٢].

اما عن صلاح الدين فقد اتجه الى مدينة بيت المقدس، فى يوم الجمعة ٢٣ ذى القعدة ٥٨٧هـ/ ٣ ديسمبر ١١٩١م ليحفظها، ويقضى بها الشتاء[٣]. هذا بينما سار الجيش الصليبى الى الرملة[٤] ومنها اتجه صوب مدينة بيت المقدس بغية

---

(١) النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١٣٥، العينى، عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢١، ابنا لفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٢١، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة٦٨، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٥.

(2)Devizes Chronicles,pp. 250-251;Ambroise, The Crusade, p. 286.
وايضاً: الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٥٩، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٩١-٢٠٠، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٥

(٣) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٨، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٥٦٢-٥٦٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٧٤، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٩٤

(٤) ابن الاثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص٤٩، الاصفهانى: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابو شامة: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، العينى: المصدر السابق، جـ٢١، قسم١، لوحة١٢٤.

الاستيلاء عليها[1] . وقد عانى الصليبيون أثناء زحفهم من نقص فى المؤن لذا قام فرسان الداوية بالإغارة على القرى القريبة من بيت المقدس وعادوا ومعهم مائتى ثور لتعويض ما يحتاجة الجيش الصليبى[2] .

وبذا يتضح أن جماعة فرسان الداوية لم تدخر اى جهد لتقديم العون للصليبيين فى تلك المرحلة من الصراع مع المسلمين وانها قامت بالعديد من الادوار لتمكين الصليبيين من مواصلة هجومهم على المدن الإسلامية، مما كان له اكبر الاثر على مجرى الأحداث فى منطقة الشرق الادنى الإسلامى آنذاك.

وبالرغم من أن فتح بيت المقدس كان يمثل أملاً يراود كل صليبى وان الجيش الصليبى قد سعى لتحقيق تلك الامنية بالفعل، إلا ان جماعة فرسان الداوية كان لها وجهة نظر مخالفة لتلك الآمال. فقد قدم رجالها للملك ريتشارد قلب الاسد نصيحتهم والتى تقضى بتأجيل التوجه الى المدينة المقدسة وبرزوا وجهة نظرهم بأنه إذا توجه الجيش الصليبى لمحاصرة صلاح الدين فى بيت المقدس، فإن الجيوش الإسلامية الأخرى سوف تتوافد الى المنطقة، وعندئذ يصبح الجيش الصليبى محاصراً بين فكى الكماشة، وانه على أحسن الفروض لو نجح الصليبيين فى الإستيلاء على بيت المقدس آنذاك، فإنهم سيعجزون عن المحافظة على هذا النصر، لأن الجيوش الإسلامية سوف تقوم بمحاصرتهم داخل المدينة، وعندئذ ستكون العواقب وخيمة.

ورأى الداوية ان الضرورة العسكرية تقضى بأن يقوم الصليبيين اولاً ببناء مراكز دفاعية وقلاع حصينة لهم بالقرب من بيت المقدس، ثم يتوجهوا بعد ذلك

(1)Devizes,op. cit., p. 249;Ambroise, op. cit., p. 292;Roger de Hoveden,Annals, II, p.266.
(2)Devizes,op. cit., p.254;Ambroise, op. cit., p. 293.

لمحاصرتها[1].

ولما كانت تلك النصيحة تخالف ما كان يرجوه بقية الصليبيين فقد امتنعوا جميعاً فيماعدا جماعة فرسان الاسبتارية عن تأييدها.[2]

ولعل هذا الموقف يمثل بوضوح نتاج خبرة الداوية بأحوال المنطقة[3] ونظراً لتعارض الآراء الصليبية حول هذا الموضوع، فقد امر الملك الإنجليزى بعقد مجلس للتشاور.وفيه أكد الداوية على الرأى السابق الذى ساندهم فيه الإسبتارية والبيازنة طالبوا بتحصين مدينة عسقلان أولاً ثم التوجه بعد ذلك الى مدينة بيت المقدس لحصارها ومحاولة الاستيلاء عليها، وفى نهاية المجلس وافق الجميع على الرأى المقدم من جماعة فرسان الداوية[4].

ويتضح مما سبق ان جماعة فرسان الداوية لم تبخل بخبرتها السابقة على الجيش الصليبى وقدمتها لهم، على الرغم من انها كانت تعلم تمام العلم، بأن هذا الرأى يتعلق بآمال كثير من الصليبيين، وعلى الرغم من ان فتح بيت المقدس كان يمثل بالنسبة لها استعادة المقر الرئيسى السابق فى القدس. إلا انهم تغاضوا عن كل ذلك ووضعوا الصالح العام للصليبيين فوق كل شىء آخر. أو لعل المحن التى بدأت تحيط بهم من كل جانب جعلتهم يتغاضون ولو مؤقتاً عن خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية.

وفى الحقيقة ان الرأى الذى قدمته جماعة فرسان الداوية كان صائباً كل الصواب فقد كان فصل الشتاء قد حل، وكانت الامطار وما يصحبها من وحلة الاراضى تمثل عائقاً للجيوش الغازية فى عصر لم يكن قد شهد بعد التطورات

---

(1)Devizes Chronicles,p. 257; Ambroise, The Crusade, p.300.
(2)Devizes, Ibid.
(3)Ambroise, Ibid
(4)Devizes Chronicles,p. 258; Ambroise, The Crusade, p.302.Roger de Hoveden,Annals, II, p.266.

الحديثة فى الاسلحة، هذا بالإضافة الى المبررات الأخرى التى ذكرتها الجماعة فى مجلس الشورة الذى عقد لهذا الغرض. وهذا يبين بشكل قاطع الدور الذى قامت به تلك الجماعة آنذاك، وانها قد تخلصت تماماً من الإنعكاسات والضغط القائم على العداء الشخصى بين مقدمها والحكام الصليبيين الآخرين بموت المقدم جيرارد ريدفورد. وهكذا اتبع الصليبيين مشورة الداوية وتوجهوا الى عسقلان بالفعل فى يوم الاربعاء ٤ محرم ٥٨٨ هـ/ ٢١ يناير ١١٩٢م، وشرعوا فى إعادة بناء تحصيناتها[١] بينما أغضب هذا العمل بعض الفرنسين الذين كانوا يأملون ان يتوجه الجيش الصليبى الى بيت المقدس مباشرة لفتحها. فطلبوا من الملك ريتشارد السماح ولهم بالتوجه الى عكا، فأذن لهم الملك وبالرغم من ذلك، فقد خرج بعض فرسان الداوية معهم لحمايتهم من اى اعتداء قد يقع عليهم من قبل المسلمين[٢]

وبالرغم من ان أولئك الفرنسين قد غادروا المعسكر الصليبى احتجاجاً على مشورة الداوية وحيث ان هذا العمل كان إهانة موجه الى جماعة فرسان الداوية فى تلك الفترة إلا انها جعلت بعض فرسانها يقومون بحماية اولئك الفرنسين. وعلى هذا تؤكد الجماعة بهذا مرة اخرى سعيها وراء الصالح العام التى وضعته نصب أعينها ولم تنزلق فى الخلافات القائمة على الحقد مثلما فعلت من قبل مما اثر على علاقتهم بالمسلمين. وقد بدأت جماعة فرسان الداوية تجنى ثمار هذا الدور الجديد. فقد نجحت بمساعدة القوات الصليبية من استعادة قلعتها السابقة فى الداروم[٣] بعد

---

(1)Devizes,op. cit., p.260;

وأيضاً ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٥٠-٥١، الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٨٣، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٩٧، النيرى: نهاية الارب، جـ٢٦، الانس الجليل، ورقة ١٨٨، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٢٧، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص١٠٨

(2)Devizes Chronicles,p. 268; Ambroise, The Crusade, p.323.
(3)Devizes,op. cit., p.282.

ان زحفت إليها فى يوم السبت ٩ جمادى الثانى ٥٨٨هـ/ ١٨ مايو ١١٩٢م[١] ونجحت فى الاستيلاء عليها بعد قتال مرير فى يوم الخميس ١٤ جمادى الثانية ٥٨٨/ ٢٣ مايو ١١٩٢[٢] ومرة اخرى تؤكد الجماعة اهتمامها بالصالح العام الصليبى فى تلك المرحلة الحاسمة من صراعها مع صلاح الدين. فبدلاً من ان يقيم بعض فرسان الداوية فى تلك القلعة، فانهم فضلوا هدمها[٣] ليتسنى لهم مشاركة الجيش الصليبى فى زحفه للاستيلاء على بقية المدن الاسلامية[٤].

ومما يدل على مدى ازدياد نفوذ جماعة فرسان الداوية واتساع دائرة املاكهم فى تلك المرحلة، قيامها بشراء جزيرة قبرص من الملك ريتشارد[٥]، بعد ان دفعوا له ستين الف بيزنط[٦]، وتعهدوا بدفع مبلغ أربعين الف بيزنط آخر بعد ان يتمكنوا من الجزيرة[٧]. ولكن هذه الجماعة لم توفق فى حكمها الجديد لتلك الجزيرة، مما يوضح افتقارها الى دبلوماسية الحكم. ولها فى ذلك العذر، حيث ان معظم اعمالها كانت تنصب على الدور العسكرى. وعلى هذا أعادت جماعة فرسان الداوية بيع الجزيرة للملك ريتشارد الذى دفع لها مبلغ اربعين الف بيزنط. وطلب منها استرداد

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢١٠، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٨٩، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٢٩.

(٢) الاصفهانى: الفتح القسى، ص٥٩١.

(3)Devizes,op. cit., p. 312; Ambroise, op. cit., p. 397.

وايضاً أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص١٩٦، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧ ورقة١٠١، درر التيجان، جـ٢٦، ورقة٥٠٤

(4)Addison, Templars, p. 148.

(5) Devizes Chronicles,p. 284; Ambroise, The Crusade, p.346.

(٦) البيزنط عملة ذهبية لبيزنطية كانت متداولة بكثرة فى العصور الوسطى ومتوسط قيمتها حوالى تسعة شلنات انجليزية. انظر: جوزيف نسيم، يوسف: العدوان الصليبى على مصر، ص٢٦١٦، حاشية(٢).

(7)Eracles, L'Estoire,p.190 ; Amadi,Chronicles, I,p. 83.

مبلغ الستين ألف الباقية من الملك جي دى لوزجنان الذى باع له الملك الأنجليزى الجزيرة فى تلك الفترة[١].

وهذا وضع جديد انغمست فيه جماعة الداوية جعل من رجالها ليس فقط رجالاً يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون فى نفس الوقت على ظهور الخيل بل رجالاً يتباعون ويشترون وتصبح لهم اطماع ومصالح مادية كان لها ابلغ الاثر على علاقاتهم بالمسلمين من ناحية، وعلى كيانهم كهيئة دينية عسكرية من ناحية اخرى.

وعلى اية حال بعد ان تم للصليبيين اعادة تحصين مدينة عسقلان، اختلفت آرائهم حول تحديد الجهة التي يقصدونها. فقد كانت هناك آراء تنادى بالتوجه لمهاجمة مصر باعتبارها معقل القوى الإسلامية فى الشرق الادني مركز امدادها الدائم المستمر بالمال والرجال والمؤن والسلاح، ومنها تنبعث صحة الجهاد ضد الفرنج ومنها تخرج الجيوش لقتالهم والتصدى لهم. وآراء أخرى ترى ضرورة التوجه الى مدينة بيت المقدس باعتبارها الهدف الرئيسى الذى من اجله قامت الحركة الصليبية. وفى هذا الصدد قدم فرسان الداوية مشورتهم كالعادة للجيش الصليبى. فقد وافق الملك ريتشارد قلب الاسد القادة الصليبيين على اختيار خمسة من كل من فرسان الداوية والفرنسيين والاسبتارية واهالى الشام اللاتينين، ليجتمعوا معاً ويتشاوروا فيما بينهم، ويقرروا فى النهاية تحديد الجهة التي يجب قصدها. فأجتمع أولئك العشرون وقرروا ضرورة التوجه الى مصر. والاستيلاء عليها. ولكن هذا المشروع لم يكتب له ان يخرج الى حيز التنفيذ نظراً لمعارضة الفرنسيين له. كما ان الملك الانجليزى لم يتجه الى مدينة بيت المقدس نظراً لأختلاف الأراء بين الصليبيين[٢].

(1) Devizes, Ibid; Ambroise, Ibid; Eracles, op. cit., p. 191; Amadi Ibid

(2) Devizes Chronicles, p. 302; Ambroise, The Crusade, pp.379-380; Roger de Hoveden, Annals, II, p.269.

وعلى هذا اتجه ريتشارد الى مدينة عكا بعد ان طلب من ثلاثمائة من فرسان الداوية والاسبتاريه والقيام بحماية مدينتي يافا وعسقلان وكانتا تتبعان اللاتيين وقتذاك[1].

بينما قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء ١٥ رجب ٥٨٨هـ/ ٢٦ يوليو ١١٩٢م بمهاجمة مدينة يافا، وتمكن من فتحها في يوم الاحد ٢٠ رجب ٥٨٨هـ/ ٣١ يوليو ١١٩٢م[2]. ولكن ما كاد المسلمين يدخلونها حتى وصل الملك ريتشارد ومعه بعض فرسان الداوية[3]، وتمكنوا من دخول المدينة ليلاً من جهة البحر،ونجحوا في انقاذها من السقوط في قبضة المسلمين[4].

ويعتبر دخول الداوية مدينة يافا وانقاذها من السقوط في قبضة المسلمين آخر عمل عسكري قامت به تلك الجماعة ضد صلاح الدين. فقد نجحت المفاوضات بين المسلمين والصليبيين بعد ذلك،وتم عقد الهدنة بين الطرفين في يوم الأربعاء ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م. وقد نص هذا الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف أما عسقلان فتكون بعد تخريبها للمسلمين، ويكون اقليم الساحل من جنوب عسقلان لصلاح الدين. كذلك تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين. وللمسيحيين حرية زيارة بيت المقدس، واستقر على ان تكون مدة هذا

---

(1)Devizes,op. cit., p.312; Ambroise, op. cit., p. 397,428.
وايضاً: الاصفهاني: الفتح القسي، ص٥٩٨.

(2)Devizes,op. cit., p.312-313.
وايضاً: ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٥٥، الاصفهاني: المصدر السابق،ص٥٩٨، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٢٢-٢٢٥، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٩٣-٣٩٥، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٣٠٠-٣٠١.

(3)Devizes,op. cit., pp.314-316; Ambroise, op. cit., p.410.

(٤) الاصفهاني: الفتح القسي، ص٥٩٩، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٢٦-٢٢٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص٣٩٦، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٣٠١، المقريزي: السلوك، جـ١، قسم١، ص١١٠

الصلح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر[١].

وقد وافقت جماعة الفرسان الداوية على هذه الهدنه[٢]. وبعد ان تم إبرامها رحل الملك ريتشارد قلب الاسد متوجهاً الى جزيرة قبرص[٣]، بينما ظل بعض فرسان الداوية في مدينة عكا. واتجه البعض الى صور، والبعض الآخر الى قلعة الداوية الجديدة في يافا[٤].

وهكذا اثمرت السياسة التي اتبعتها جماعة فرسان الداوية في تلك المرحلة بنتائج طيبة بالنسبة للصليبيين بصفة عامة وللجماعة بصفة خاصة. فقد حصل الصليبيون بمقتضى صلح الرملة على العديد من المدن التي سبق ان فتحها صلاح الدين بعد موقعة حطين، بينما اقامت جماعة فرسان الداوية في قلعتها الجديدة في يافا والتي اصبحت بمقتضى هذا الصلح في حوزتها.

---

(١)عن هذا الصلح أنظر: Devizes Chronicles,pp. 330-331;
Ambroise, The Crusade, pp.4110-413.
انظر ايضاً :ابن الاثير: الكامل،جـ١٢، ص٥٥،٥٦، الاصفهاني: المصدر السابق،ص٦٠٣-٦٠٥، ابن شداد: المصدر السابق، ص٣٣٤-٣٣٥، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص٤٠٢-٤٠٦، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٠٢-٢٠٣، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ورقة١٠١-١٠٢، ودرر التيجان، جـ٢٦، ورقة ٥٠٤، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٦، لوحة١٥٣، ابن الفرات: تاريخ الدول، جـ٨، لوحة٣٥، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٩٠، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٧٠، بامخرمة: قلادة النحر، جـ٤، ورقة٣٥١، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص١١٠.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٣٤، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٣.

(3)Devizes Chronicles,p. 331; Ambroise, The Crusade, pp.414-415
راجع ايضاً الاصفهاني: الفتح القسي، ص٦١٠.

(4)Addison, Templars, p. 149.

وبموت صلاح الدين الايوبى ليلة الاربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٣مارس ١١٩٣[1] تنتهى العلاقة بين جماعة فرسان الداوية والمسلمين فى الشرق الادنى الاسلامي فى عهد مؤسس الاسرة الايوبية.

ولعلنا نخلص مما سبق ان العلاقة بين صلاح الدين وجماعة فرسان الداوية بدأت فى عام ١١٦٩م / ٥٦٥هـ، وانتهت فى عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ. اى منذ تأسيس الدولة الايوبية فى مصر والشام حتى وفاة مؤسسها. وتباين الدور الذى قامت به الجماعة خلال تلك الفترة فقد مر بثلاث مراحل رئيسية: امتدت الأولى منها بعد عام ١١٦٩م/ ٥٦٥هـ وحتى عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ، حيث استطاعت جماعة فرسان الداوية فى بدايتها ان تصد الهجوم الذى شنه صلاح الدين على بعض قلاعها، وان تشارك الصليبيين فى إنزال الهزيمة بها فى موقعة الرملة عام ١١٧٧م/ ٥٧٣هـ، ولكن ما لبث ان تحول المد لصالح صلاح الدين واستطاع ان يوجه بعد ذلك لجماعة فرسان الداوية ضربتين متتاليتين أولاهما فى موقعة مرج عيون عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ، والحقها بضربة اخرى ثانية فى نفس العام فى قلعة بيت جبريل، وكان من أثار هاتين الهزيمتين ان جماعة فرسان الداوية لم تشترك فى اى عمل عسكرى ضد المسلمين حتى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. ويتولى جيرارد ريدفورد رئاسةتلك الجماعة فى عام ١١٨٥م / ٥٨١هـ تبدأ المرحلة الثانية فى علاقتها بصلاح الدين، وفيها انغمست الجماعة فى المشاكل

---

(١)عن وفاة صلاح الدين انظر:

ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٦١، الاصفهانى: المصدر السابق، ص٦٢٧، ابن شداد: المصدر السابق، ص٢٤٦، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ص٤١٩، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢١٢، ابن ايبك: درر التيجان جـ٢٦، ورقة٥٠٤، النويرى: نهاية الارب ،جـ٢٦، لوحة١٣٦، ابن دقمان: الجوهر الثمين، ورقة٢٩٤، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٣٨، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، قسم١لوحة١٦١، الحنبلى: الانس الجليل، ورقة١٩٢، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٧٤–٧٥، بامخرمة: قلادة النحر، جـ٤ ،ورقة٣٥١، ابن ابى السرور: عيون الاخبار، ورقة١٦١.

الداخلية التي قامت بين الصليبيين بعضهم البعض ، والتي كان لها إنعكاساتها المباشرة على هزيمة الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ والتي كان لها نتائجها في فقد الجماعة الغالبية العظمى من قلاعها في الشرق الادنى.

أما المرحلة الثالثة والاخيرة من علاقة الفرسان الداوية بصلاح الدين، فقد بدأت بعام ١١٨٩م/ ٥٨٥هـ وحتى وفاته في عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ. ويلاحظ انها مارست خلالها نشاطاً يختلف كل الاختلاف عن دورها في المرحلة السابقة. فقد اتسم دورها في تلك المرحلة بسياسة الهجوم البحت بعد ان ابتعدت عن الانغماس في المشاكل الداخلية للصليبيين ووضعت الصالح العام الصليبي نصب اعينها. وقد آتت تلك السياسة نتائجها. إذ تمكن الصليبيون من استرداد مدينة عكا والعديد من المدن التي كان صلاح الدين قد فتحها بعد موقعة حطين. كما عادت تلك السياسة على الجماعة بالنفع. إذ أقامت قلعة جديدة لها في يافا وتمركزت بها بعد ذلك.

وجدير بالذكر أن دور جماعة فرسان الداوية في معمعة الصراع الصليبي الإسلامي لم ينته عند هذا الحد، وإن كان قد توقف فترة ليست بقصيرة بعد صلح الرملة. فقد قامت بعد ذلك ببناء قلعة جديدة لها تسمى قلعة الحجاج، كما ساهمت بدور فعال في الحملتين الصليبيتين اللتين كانت مصر مسرحاً لهما في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الاول من القرن السابع الهجرى). بل يمكن القول بأن دورها امتد حتى خروج آخر جندى صليبي من الساحل الشامى أيام السلطان المملوكي الأشرف خليل في أخريات ذلك القرن (اواخر القرن السابع الهجرى).

الفصل السادس

موقف الداوية من الصراع الصليبي الإسلامي منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى وفاة الكامل محمد

(١١٩٣ - ١٢٣٨م / ٥٨٩ - ٦٣٥هـ)

- احوال جماعة الفرسان الداوية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي
- علاقة الداوية بالمسلمين في مصر والشام في عهد الملك العادل سيف الدين (٥٩٦ - ٦١٥هـ/ ١١٩٩ - ١٢١٨م).
- بناء قلعة عثليت في عام ١٢١٨م/٦١٥هـ، والآثار المترتبة على ذلك.
- دور الداوية في الحملة الصليبية الخامسة على مصر، ونتائجه.
- موقف الداوية من الأمبراطور فردريك الثاني وحملته الصليبية على الشام.
- الأشتباكات بين الداوية والمسلمين عام ١١٣٠م/٦٢٧هـ، والآثار المترتبة عليها.
- هزيمة الداوية أمام قلعة درباك عام ١١٣٧م / ٦٣٤هـ: أسبابها ونتائجها.

اتسمت المرحلة التى تلت وفاة صلاح الدين الأيوبى بعدة سمات، كان لها اكبر الأثر على مجريات الأحداث آنذاك. منها انقسام البيت الأيوبى على نفسه.، الى أن تمكن الملك العادل- أخى صلاح الدين- من إعادة توحيد الجبهة الإسلامية كما تميزت تلك المرحلة بأنغماس جماعة فرسان الداوية فى المنازعات التى نشبت بين الصليبيين وبعضهم البعض من جهة، وبين الصليبيين والأرمن من جهة أخرى، وإن كان هذا لم يحل دوون وقوع بعض المناوشات بين الداوية والمسلمين، مما يؤكد حقيقة استمرار الدور الذى تأسست تلك الجماعة من أجله. والذى ظلت تمارسه خلال مراحل الصراع الصليبى الرسلامى. ولعل ابرز ما تميزت به تلك المرحلة، ذلك التطور الذى طرأ على سياسة الصليبيين إزاء الشرق الأدنى. فقد اصبحت مصر هى الهدف الرئيسى للحملات الصليبية على اعتبار انها القاعدة الأولى ذات الأهمية الكبرى لمقاومة الصليبيين، ومركزاً لتجمع القوى الإسلامية ضدهم. إذ تجلت للصليبيين حقيقة تاريخه وجغرافية هامة، أكدتها سابق تجاربهم وخبراتهم بالشرق الإسلامى، وهى أن مصر مفتاح الشرق الإسلامى، وقاعدته الحصينة التى تمده بالمال والرجال والمؤن والسلاح، وانه ليس هناك فائدة ترجى من تكرار المحاولات لغزو بيت المقدس، طالما كانت مصر خارج النفوذ الصليبى. ومن ثم غدت مصر هى قبلة الصليبيين عند التخطيط لأى حملة صليبية، وإن كانت بعض الحملات أو الإغارات الصليبية منذ القرن الثالث عشر الميلادى/ القرن السابع الهجرى لم تتجه الى مصر، فإن ذلك جاء خروجاً عن القاعدة، وشذوذاً على المبدأ العام. لقد كانت مصر هى الهدف الرئيسى للحملة الصليبية المعروفة بالرابعة، وإن كانت هناك بعض الظروف والمسببات جعلت تلك الحملة تنحرف عن مقصدها الرئيسى. ولكن قدر لجماعة فرسان الداوية ان يبدأوا هذا الاتجاه الصليبى الجديد فى تلك الفترة بالغارات التى شنوها على مدينتى فوه ودمياط المصريتين فى عامى ١٢٠٤م/٦٠٠هـ و ١٢١١م/٦٠٧هـ. وبذلك كانوا أول من أدلوا بدلوهم فى هذا الميدان، وقبل ان تقوم الحملات الصليبية

المنظمة. وهذا ما سوف توضحه الصفحات التالية.

على أية حال، توفي صلاح الدين في ليلة الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٣ مارس١١٩٣م، بعد أن تولى زمام الجهاد ضد الصليبيين، ونجح بعد أن قام بتوحيد الجهة الإسلامية في مصر والشام في أن يكلل جهوده بتوجيه ضربات متتالية للصليبيين، جعلتهم يترنحون، ويفقدون الغالبية العظمى من الأراضي التي سبق أن أستولوا عليها.وكان للجهاد الاكبر الذي قام به صلاح الدين له اكبر الأثر في تحويل موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى لصالح المسلمين آنذاك. ولذلك كان من الجلي أن وفاته جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ انذرت بقيام المنازعات بين الورثة حول التركة، وهذا أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين بعد وفاته.

تفجرت المنازعات والخلافات بين ابناء صلاح الدين، واخذ العادل سيف الدين يراقب ذلك الصراع عن كثب وفي صبر وأناه، ريثما تتضح الأمور، ثم نجح أخيراً في السيطرة على مملكة صلاح الدين في عام ٥٩٦/١١٩٩م، ولم شمل الدولة الأيوبية مرة أخرى، وأناط بعض ابنائه في بعض الأقطار العربية ليحكموا نيابة عنه. فكان الكامل محمد في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في بلاد الجزيرة[١].

(١) عن الصراع بين البيت الأيوبي، وموقف العادل منه راجع:

ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٩٣-١٠٣، ابن الجوزي: مرآة الزمان، الهند، ١٩٥٢، جـ٨،قسم٢، ص٤٤١-٤٧١، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٢٤-٢٣٣، الذيل على الروضتين، القاهرة، ص٧-١٦، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت(بدون تحديد سنة الطبع) ص٢٢٢-٢٢٤، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٠-١١٢، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، لحة٣-٧، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٦، لوحة١٣٦-١٣٩، الذهبي: دول الإسلام، تحقيق محمد شلتوت، القاهرة، ١٩٧٤، جـ٢، ص١٠٣-١٠٥، العمري: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٢-٣٢، ابن الوردي: تمتة المختصر في إخبار البشر(المعروف بتاريخ ابن الوردي)، تحقيق احمد البدراوي، بيروت١٩٧٠، جـ٢،ص١٦٨-١٧٣، ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت، ١٩٧٧،جـ٣، ص١٥-٢٢، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٣٨-١٤٠، المقريزي: السلوك، جـ١ ،قسم١، ص١١٦-١٥٣، العيني: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة٢٦٥-٣١٥، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، القاهرة ١٩٣٦ص١٤٧-٦٢، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٨٠-٩٤.

وثمة تساؤل هو: هل استغل الصليبيون، بصفة عامة، والداوية بصفة خاصة، ذلك الانقسام الذى طرأ على الجبهة الإسلامية، وعملوا على أستعادة ما فقدوه على يد صلاح الدين. فى الواقع ان الصليبيين كانوا على علم تام بأحوال هذا الإنقسام، وقد عملوا جاهدين على استغلاله لصالحهم[1]. ولكن ما لبث ان انغمسوا هم ايضاً فى المنازعات والخلاف فيما بينهم، ومن هنا جاءت المصادمات بين الصليبيين والمسلمين فى تلك الفترة فاترة، ولا تتعدى مناوشات غير حاسمة بين الطرفين.

أما عن جماعة فرسان الداوية، فقد توفى مقدمهم روبرت دى سابل فى يوم الخميس ٢٨ سبتمبر ١١٩٣م/٢٩ رمضان ٥٨٩هـ، وخلفه المقدم جيلبرت هورال Gilbert Horal[2] والذى بدأت فى عهدة جماعة فرسان الداوية تنغمس فى النزاع بين الصليبيين وبعضهم البعض. ففى عام ١١٩٣م/٥٨٩هـ. نشب

---

(1)Letter de pope I nnocenti III, dons, partologia Latina, paris, 1846, VoI. xxx, p. 306.

(٢) اختلفت آراء المؤرخين المحدثين الذين عنوا بدراسة تاريخ جماعة الفرسان الداوية، حول اسم المقدم الذى خلف روبرت دى سابل. فيرى المؤرخ رى Rey ان جوتيه دى فوشه Gautier de Faueher توليرئاسة الداوية بعد المقدم السابق، وانه انغمس فى صراع مع ليو الثانى ملك ارمينية حتى عام ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ، بينما يرى اديسون وملفيل ان جليبرت هورال قد اصبح مقدماً فى عام ١١٩٤م/ ٥٩١هـ. وعن طريق الدراسة المقارنة نؤيد الرأى الأخير، خاصة انه يوجد خطاب ارسله قادة الفرنج الى البابا انوسنت الثالث فى ٥ مارس ١١٩٨م، يوضحون فيه احوال الصليبيين فى الشرق الأدنى، وكان من بين الموقين على ذلك الخطاب جليبرت هورال باعتباره مقدم للداوية. أما عن جليبرت هورال، فكان يشغل منصب نائب مقدم الداوية فى فرنسا قبل ان يصبح مقدماً للداوية، وقد جاء الى الشرق الأدنى فى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠هـ. أنظر:

Regesta Regni Hierosolymitani, ed. Rohricht, Innsbruck, 1893, doc. 740, p. 197; alse; Rey, E.G., Les Familles d'Outre-mer de Du-cange, paris, 1869, p. 881; Addison, Templaars, p. 149; Melville, Le Vie des Templiers, paris, 1951,p. 127.

نزاع بين هنرى دى شامبانيا Henri de chapagne [1] وبين الجاليات الإيطالية التجارية فى مدينة عكا من جهة، وبين هنرى وافرنج الشرق من جهة أخرى. ويهمنا فى هذا الجانب ان الداوية قد ايدوا هنرى شامبانيا فى صراعه ضد الجنوية والبيازنة[2] ولعل ذلك لسبب انهم وجدوا فى تلك الجاليات التجارية منافساً خطيراً لهم فى المجال التجارى الذى بدأوا ينغمسون فيه، خاصة بعد ان امتلك الداوية اسطولاً لنقل العتاد والحجاج من الغرب الأوروبى الى الشرق الأدنى[3] اما عن تأييدهم لهنرى ضد رجال الدين، فربما يرجع الى انهم كانوا فى صراع مستمر مع رجال الدين اللاتين فى الشرق الأدنى، لسبب امتناع الداوية عن دفع ضريبة العشور الواجبة على الممتلكات والمزارع التى كانوا يمتلكونها[4]. وهذا الموقف من جانب الداوية إن دل على شيء فإنما يدل على مدى اهتمامهم المتزايد بالشئون الدنيوية، وإنصرافهم الى اعمال التجارة ومحاربة من ينافسهم فى هذا المجال، وبذلك يكونوا قد بعدوا كل البعد عن مبادئهم الأولى التى كان من أهم بنودها الزهد والفقر والتقشف[5].

لم يكن موقف العداء حيال الجاليات التجارية الإيطالية، ورجال الدين، يمثل دور الداوية فى تلك الفترة بحسب، بل سرعان ما أنغمسوا فى صراع الملك ليو

---

(١) تولى حكم مدينة صور بعد مقتل حاكمها كونكراد دى منتفرات فى عام ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ وتزوج من إيزابيل الوريثة الشرعية(الاسمية) لبيت المقدس، وبعد رحيل الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الاسد من الشام، واصبح هنرى القائد الأعلى للصليبيين. راجع

Ambroise, The Crusade, pp. 233-238; Estaire d'Eracles, pp. 194-195,202; Amadi, chroniques, VoI.I, pp. 77,86.

(2)Estoire d'Eracles, p.203; Regesta regni Hierosallymitani doc. 710,p. 190.

(3) Dacuments concernant Les Templiers, No. xv, p. 22

(4)Letter of pope Innocenti III, in, R.O.L., voI. xi.,p, 419.

(٥) عن تلك المبادىء راجع الفصل الأول من الرسالة ، ص

الثاني الأرميني[١]، بسبب رفض الأخير إرجاع قلعة بغراس التى كانت تابعة لهم من قبل، والتى سبق ان استولى عليها الملك الأرمينى فى عام ١١٩١م/٥٨٧هـ، بعدما رحل عنها صلاح الدين الأيوبى[٢] كل هذا يوضح إلى أى مدى انغمس الداوية فى المنازعات التى نشبت بين الصليبيين على مختلف فئاتهم وطوائفهم فى تلك الفترة[٣].

أما عن علاقاتهم بالمسلمين، فقد ظل الجانبان الصليبى والإسلامى ملتزمين ببنود صلح الرملة وذلك لأنشغال كلا الفريقين بالمنازعات الداخلية، ولم يحدث ما يعكر صفو الجو بينهما إلا مجيء بعض الحجاج الألمان الى الشرق الأدنى فى يناير ١١٩٧م/ ربيع الأول ٥٩٣هـ. وقد حاولوا استغلال الاوضاع المضطربة فى الجبهة الإسلامية فشنوا الغارات على اقليم الجليل[٤]. عندئذ اعتبر الملك العادل الأيوبى هذا العمل بمثابة خرق للهدنة. فخرج بقواته، ونجح فى إنزال الهزيمة بأولئك الحجاج، ثم توجه الي مدينة يافا التى كانت آنذاك فى حوزة اللاتين، ويقوم الداوية بحماية قلعتها.[٥] ونجح المسلمون فى الإستيلاء على المدينة، بينما ظلت

---

(1) Lettre de Roi d'Armenie, dans, partologia Latina,VoI. xI III. p.1003.

(2)Estoire d'Eracles, pp. 217-218; Amadi, chroniques, VoI.I, p. 101.

(3)Grousset, Histoire des crusades, VoI.III, p.194.

(٤) ابن الأثير الكامل، جـ١٢، ص٨٢؛ ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٤٥٣، ابن العديم: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، دمشق، ١٩٦٨م، جـ٣، ص١٤٠، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٣٣، الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص١٠٣؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٥، العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٢٥١، وايضاً:
Estoire d'Eracles, p.218; Amadi, chroniques, VoI.I, pp. 90-91.

(5)Devizes, chronicles, p. 312; Ambroise, The crusade, pp.204.269; Ludoles,von suchems, Desciption of the Holy Land, in p.p.T.S., vol.xII, part. 3, London, 1895, p. 64.

القلمة تقاومهم الى ان سقطت فى ايديهم فى عام ١١٩٧م/ ٥٩٣هـ[١] لم تشر المصادر التى تحت ايدينا، سواء اكانت عربية أم غربية، إلى تاريخ محدد لسقوط القلعة. ولكن وردت فيها إشارات عامة لا تشفى غله الباحث، بل ان هناك عدداً من المصادر قد اغفل تماماً مهاجمة العادل ليافا وقلعتها[٢]. ولكن عن طريق الدراسة المقارنة لتلك المصادر أمكن تحديد تاريخ استرداد المسلمين لقلعة يافا من الداوية. فقد اشار المؤرخان ابن الاثير والعينى الى ان الجيش الإسلامى الذى خرج مع الملك العادل لمنازلته يافا قد اقام شهر رمضان وبعض شوال من عام ٥٩٣هـ/ (اغسطس- سبتمبر ١١٩٧م) فى عين جالوت قبل التحرك لمهاجمة يافا.[٣] اما المؤرخان، روجرمن هوفدن، وصاحب تاريخ هرقل، فقد الحا إلى ان مهاجمة المسلمين لمدينة يافا كانت فى شهر سبتمبر[٤] من عام ١١٩٧ (شوال ٥٩٣هـ). [٥]. وقد اتفق

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٨٣، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص١٤٠-١٤١، ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٢٣٣، والذيل على الروضتين، ص١٠-١١، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٥٢٢، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٧٥، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة٢٢، ابو الفدا: المختصر فى اخبار البشر: القاهرة ١٣٢٥هـ، جـ٣، ص٩٠-٩٣، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٠٣، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٢٥، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٦٨، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٤، المقريزى:السلوك، جـ١ ،قسم١، ص١٤٠، العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٢٥١-٢٥٢، وايضاً:

Estoire d'Eracles, pp. 216-217; Roger of Hovedem, Amnales, VOI.II, p. 404.

(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٤٥٢-٤٥٥، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٤٧، وايضاً:

Amadi, chroniques, VoI.I, pp.99-100, Matthew of westmnster, the Flowers of Histary, VOI.2, pp.89-91

(٣) ابن الاثير: الكامل: جـ١٢ ص٨٣، العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة٢٥٢

(٤) يلاحظ ان بداية شهر سبتمبر من عام ١١٩٧م توافق يوم الأثنين السادس عشر من شوال ٥٩٣هـ. راجع: ويستنفلد: جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها فى السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٨٠، ص٥٦-٥٧.

(5)Roger of Hovedem, Amnales, VOI.II, p. 404.Estoire d'Eracles, p. 216.

المصادر العربية والغربية على ان الصليبيين بمجرد سماعهم نبأ مهاجمة القوات الإسلامية لمدينة يافا، ومحاصرة قلعتها، حشدوا قواتهم في مدينة عكا استعداداً لنجدة الداوية، ولكن مات في ذلك الوقت الأمير هنرى دى شامبانيا[1]. والمعروف ان هذا الامير توفي في يوم الاربعاء ١٠ سبتمبر ١١٩٧م / ٢٥ شوال ٥٩٣هـ.[2] لذا يمكن القول بأن القوات الإسلامية قد هاجمت مدينة يافا، ثم اتجهت الى محاصرة قلعتها في الفترة من يوم الاثنين ١ سبتمبر/ ١٦ شوال حتى يوم الأربعاء ١٠ سبتمبر/ ٢٥ شوال من العام نفسه.

أما فيما يتعلق بتاريخ سقوط القلعة، فينفرد المؤرخ ابن الاثير بالإشارة الى انها سقطت في يوم الجمعة قبل وصول النجدات إليها، وكان سبب تأخر النجدات موت الأمير هنرى[3]. وعل هذا يكون يوم الجمعة الذى تلى وفاة الأمير هنرى هو تاريخ سقوط القلعة. أى ١٢ سبتمبر ١١٩٧م/ ٢٧ شوال ٥٩٣هـ.

أما المؤرخ أبو شامة فقد اورد حادثة «عجيبة» على حد قوله وهي ان المسلمين عندما دخلوا القلعة وجدوا بها أربعين فارساً من الفرنج العزب البحرية، قد تجالدوا بسيوفهم بعضهم البعض، خوفاً من أن يقعوا في أسر القوات الإسلامية[4]. ولعل ابى شامة يقصد بالفرسان المشار إليهم آنفاً فرسان الداوية، حيث انهم كانوا يقومون بحراسة القلعة آنذاك ولعله وصفهم بالفرنج العزب، نظراً لانه كان من أهم مبادىء الداوية عدم الزواج. اما كونه قد نعتهم بالبحرية، فربما يرجع الى انهم كانوا يقومون

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٨٣، العيني: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة٢٥، انظر ايضاً:
Estoire d'Eracles,p.217;Roger of Hovedem, Amnales, VOI.II,p 404.,
(2)Amadi, chroniques,pp. 90;Roger of Hovedem,Ibid;Estoir d'Eracles

(٣) ابن الاثير: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٠-١١.

بحماية ميناء يافا[1]، أو لكونهم يمتلكون اسطولاً جاب البحر المتوسط آنذاك.[2] وعلى هذا جاز انطباق تلك الصفتين على الداوية، يكون المؤرخ ابو شامة قد أضاف اسمين جديدين الى مسميات هذه الجماعة.

ومما سبق يتضح ان قلعة الداوية في يافا، والتي كانت آخر القلاع التي استولوا عليها في اخريات أيام صلاح الدين، كانت في الوقت نفسه أولى القلاع التي فقدوها بعد وفاته، على يد العادل. وكعادة بابوات روما عندما تحل البلايا بالداوية، فقد سارع البابا انوسنت الثالث الى مناشدة أولي الأمر في الغرب الأوروبي لتقديم المساعدات للداوية في الشرق الأدنى[3].

أما عن القوات الصليبية التي كانت قد احتشدت في عكا، وكان من بينها فرسان الداوية، فقد اتجهت الى مدينة قيسارية، ولكن جاءتهم الأخبار بسقوط قلعة يافا، فاتجه الصليبيون الى مدينة بيروت، ونجحوا في ٢٤ اكتوبر ١١٩٧م/ ٩ ذى الحجة في الاستحواذ عليها بدون قتال. ثم توجهوا الى حصار تبنين[4]، فخرجت إليهم القوات الإسلامية، مما دفع الصليبيين الى فك الحصار والعودة الى عكا[5].

---

(1)Devizes, chronicles, p. 312; Ambroise, The crusade, p. 397.
(2)Dacuments concernant Les Templiers, No. xv, p. 22
(3)Letter de pope I nnocenti III, in, Roger of Hovedem, Amnales, VOI.II,p 447.

(٤)تبنين: بلدة في جبال عامر المطلة على بانياس، وتقع بين مدينتي دمشق وصور، راجع: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٦٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٨٣-٨٤، ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٤٥٥-٤٥٦، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص١٤٠-١٤١ ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٧٥-٧٦، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة٢٢، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٩٤، دول الإسلام، جـ٢، ص١٠٤، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٢٥، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٦٩، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٤، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص١٤٠، العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة٢٥٢-٢٦٥، وايضاً:

Estoire d'Eracles,pp.221-226; Roger of Hovedem,

عقد القادة الصليبيون ومن بينهم هررال مقدم الداوية مجلساً فى عكا، قرروا فيه اختبار عمورى الثانى ملك قبرص ليتولى حكم مملكة بيت المقدس الإسمية. وقد شرع الملك الجديد فى عقد الصلح مع المسلمين فى ٢٢ يونيو ١١٩٨م / ١٤ شعبان ٥٩٤، على نمط صلح الرملة سالف الذكر، ولمدة خمس سنوات ونصف[١].

وشغل الداوية تلك الفترة بصراعهم مع جماعة الفرسان الاسبتارية، حول امتلاك بعض الأراضى القريبةمن قلعة المرقب[٢]، وتطور النزاع الى حد الاقتتال، بصورة هددت الصالح الصليبى العام[٣]، فتدخل الملك عمورى ورجال الدين اللاتين فى الشرق، ونجحوا فى إقناع أفراد الجماعتين على عرض مشكلتهما برمتها على البابا انوسنت الثالث، على ان يكفوا عن القتال لحين البت فى المشكلة. وبالفعل بدأت وفود من أفراد الجماعتين تتجه الى روما، ثم أمر جماعة فرسان الإسبتارية برد الحقول والبساتين التى استولوا عليها من الداوية[٤].

(١) ابن الاثير: الكامل، جـ١٢، ص٨٤، ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٤٥٦، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص١٤٢، ابو شامة الذيل على الروضتين، ص١٣، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٧٨، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة٢٢، ابوا الفدا: المختصر، جـ٣، ص٩٣،الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٠٤، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٢٦-١٢٧، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٦٩، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٥-١٧، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص١٤١، العينى: عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة٢٦٥، وايضاً:

Estoire d'Eracles,pp.227-228;Roger of Hovedem, Annales, VOI.II,407-410,Amadi, chroniques,VOI.I,p.91;Regesta regni Hierosolymitani, doc. 741,p. 197.

(٢) المرقب: قلعة حصينة تشرف على ساحل الشام وتقع بالقرب من مدينة جبلة. راجع: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٨، ص٢٨.

(3)King,Haspitallers, p. 171.

(4)Letter de pope I nnocenti III, dons, partologia Latina,VoI. x, p.522; papal Decision on the Quarrel betiween TheHaspitallers,pp. 179-180.

وهذا موقف آخر يوضح إلى أى مدى كان النزاع قائماً بين أهم جماعتين من الرهبان العسكريين حول امتلاك الأراضى فى الشرق الأدنى، ويشير بصورة أو بأخرى الى حقيقة الأطماع الصليبية فى تلك المنطقة . وقد انعكس هذا التطور الذى طرأ على الجماعة على علاقتها السياسية بجيرانها المسلمين.

ولم يقف جشع الداوية عند هذا الحد فى تلك الفترة، بل شكا وفودهم للبابا ضيق حالهم، بصورة تؤثر على قدراتهم فى ممارسة الدور الذى انيط بهم فى الشرق الأدنى[1]. لذا أصدر البابا انوسنت الثالث عدة مراسيم فى ٢٥ يونيو ١١٩٩م / ٢٨ شعبان ٥٩٥هـ. موجهة الى رجال الدين والعلمانيين فى الشرق الأدنى، يأمرهم فيها بمنح الداوية العديد من الامتيازات، ويقرر اعفاءهم من العديد من الضرائب[2]. كما أرسل البابا الى الداوية فى العام نفسه سفينة محملة بالأسلحة والحبوب، وناشدهم الاستعداد للمشاركة فى الحملة الصليبية المزمع قيامها آنذاك[3].

وبعد وفاة جيلبرت هورال مقدم الداوية فى عام ١٢٠١م / ٥٩٨ هـ، تولى رئاسة الجماعة المقدم فيليب دى بليسيس Philippe de plissiez[4] الذى ما لبث أن زج بجماعته فى الصراع الدائر بين ليو الثانى الأرمينى ويوهمند الرابع Boheond IV أمير طرابلس (١١٨٩-١٢٣٣م/ ٥٨٥-٦٣١هـ) حول إمارة انطاكية. وقد ايد الداوية فى هذا الصراع موقف الأمير الصليبى وأمدوه بقوة من رجالهم، ومكنوه من الأستحواذ على حكم إمارة أنطاكية، بينما ناصر الاسبتارية الملك الأرمينى ليو

(1)Letter de pope I nnocenti III,in, Roger of Hovedem, Amnales, VOI.II,p 473.
(2)Letter of pope Innocenti III, in, R.O.L., voI. xi.,pp, 419-420;Roger of Hovedem,op. cit, VOI.II,p 498.
(3)Regesta regni Hierosolymitani, doc. 760,pp. 202-203.
(4) Letter du pope Innocenti III, dans, Bullaire de Temple, Rogesra, doc, 794, pp. 211-212 .

الثانى[١]. فكان هذا إيذاناً باشتعال الخلف بين الجماعتين مرة أخرى، وانقسام الجبهة الصليبية على نفسها[٢]. لكن سرعان ما تبدل الموقف بين الداوية والاسبتارية، عندما شن الاخيرين هجوماً على مدينة بعرين[٣] فى يوم الجمعة ١٦ مايو ١٢٠٣م / ٣ رمضان ٥٩٩هـ. فتصدى لهم الملك المنصور محمد صاحب حماة(٥٨٧-٦١٧هـ / ١١٩١-١٢٢٠م)، وتكن من هزيمتهم، واسر العديد من فرسانهم، وما لبث ان عاد الاسبتارية، وهاجموا بعرينمرة أخرى فى ٣ يوليو ١٢٠٣م / ٢١ رمضان ٥٩٩هـ، وللكرة الثانية الملك المنصور من إلحاق الهزيمة بهم[٤]. ونتيجة لهاتين الهزيمتين التين لحقتا بالاسبتارية، طلبوا من الداوية ان يتوسطوا لهم عند الملك المنصور لاطلاق سراح اسراهم، وعقد الصلح بين الطرفين[٥]، فقبل الداوية القيام بتلك المهمة.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مشكلة انطاكية راجع :

Estrire d'Eracles, PP.317-318, 346-347; Annalaes de terre Sainte, in A,O.L. , Vol. II, Part 2, PP. 434-436; les Gestes des chiprois, in, R.H.C.-Doc. Arm. Vol. II, Paris, 1906, pp. 620-630; chronologique de Hethoum, cont De corigos, in R.H.C. Doc. Arm., Vol. I, Paris, 1869, P. 480; Regesta Regni Hierosalymitani, dac. 785, P. 209 .

(2) Grousset, Histoire des croisades, Vol III, P. 252; King, Hosptaller, p. 198; Stevenson, W.B., The crusaders in the East, Beirut, 1968, P. 229 .

(٣) بعرين : مدينة تقع بين حلب وحماه من جهة الغرب، ويذكر ياقوت الحموى : أن صحة اللفظ بارين، اما العامة فيسمونها بعرين، وراجع ثاقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٢، ص٣٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص١٤١-١٤٣ ، ١٤٨-١٤٩، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢ لوحة ٤١، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحة ٧، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٠٣، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢ لوحة ١٤١،ابن الوردى : تتمة المختصر، ص١٧٩، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، نشر حسن محمد الشماع، البصرة، ١٩٦٩م، المجلد الرابع، جـ٢، ص٢٥٢، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص١٦١، العينى : عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٣٥١ ،وايضا :

Estoire d'Eracles, pp. 248-249; Roger of Hoveden, Annales, Vol II, PP. 501-502 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص ١٤٦ .

ثمة تساؤلات تفرض نفسها هى: لماذا اختار الاسبتارية جماعة فرسان الداوية للقيام بتلك المهمة؟ ولماذا قبل الداوية القيام بهذا العمل رغم النزاع بينهما حول مشكلة انطاكية؟ وإلى أى مدى نجح الداوية فى الدور الجديد الذى تعهدوا به؟ وللإجابة عن كل هذه التساؤلات، نرى أن الاسبتارية رشحوا الداوية للقيام بهذا الدور بعلمهم انهم كانوا على صلة عداء مع الملك الأرمينى، وكان الملك المنصور هو الآخر على نفس الصلة بالملك الأرمينى، نظراً لهجمات الأخير على مناطق حماه وحلب(١) . وبهذا يكون العدو مشتركاً بين الداوية والملك المنصور، اما عن سبب قبول الداوية القيام بتلك المهمة رغم النزاع بين الجماعتين، فربما يرجع الى انهم ارادوا ان يدعموا من موقفهم بإنضمام الاسبتارية إليهم ضد الملك الأرمينى، وفى الوقت نفسه يضعفون من شأن ليو الثانى بفقده نصيراً قبل الاسبتارية. اما بالنسبة للتساؤل الأخير، فقد أوفد الداوية رسولاً الى الملك المنصور حال دفعه على عقد الصلح مع الاسبتارية عن طريق التهديد، ملوحاً له بوجود حشود صليبية فى طريقها الى الشرق الأدنى. ولكن ملك حلب فطن الى ذلك الأسلوب، واجاب رسول الداوية بأنه لا يجزع بما يقول ولا يكترث، وعندئذ اعتذر المبعوث عن قوله السابق، ورجا الملك المنصور الموافقة على عقد الصلح مع الاسبتارية، فأجابه الى طلبه، وتم عقد الصلح فى بداية عام ٦٠٠هـ/ نهاية عام ١٢٠٣م(٢)، وبذلك كتب للداوية النجاح فى مهمتهم لجديدة.

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٣، ص١٥٥، ابو الفدا :، المختصر، جـ٣، ص١٠٥، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٤٤، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص١٨١، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس، جـ١، ص٢، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص ١٦١، وايضا :

Estoire d'Eracles, PP.207-209; chronolagique de Hethoum, in, R.H.C. Doc Arm., P. 480; Annales de Terre Sainte, in, A.O. L., Vol II part. 2, PP. 434-437 .

(2) Estoire d'Eracles, pp. 258-259 .

أما عن موقف الداوية من الصراع الصليبي الإسلامي آنذاك، فقد اشتركوا في القيام بأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية، وذلك عندما اعترضت سفنهم في إبريل ١٢٠٤م/ شعبان ٦٠٠هـ عشرين سفينة تجارية مصرية كانت في طريقها الى ميناء اللاذقية فأستولوا على حمولتها، واسروا من بها من المسلمين، وتم إيداعهم في سجون عكا[1]. وقد شجعت تلك الإغارة الصليبيين بصفة عامة، والداوية بصفة اصة، على مهاجمة شواطيء مصر. فأعدوا اسطولاً قوامه عشرين قطعة حربية من بينها خمس للداوية، وابحروا في ١٩ مايو ١٢٠٤م/ ١٧ رمضان ٦٠٠هـ الى مدينة فوه- شمال الدلتا- وشنوا غارة عليها استمرت خمسة ايام، قاموا خلالها بأعمال السلب والنهب، وعادوا الى ميناء عكا. كما اشترك الداوية في شن الغارات على منطقة الجليل الإسلامية في أغسطس ١٢٠٤م / ذى الحجة ٦٠٠هـ، فخرج إليهم الملك العادل، ودارت بين الفريقين مناوشات غير حاسمة. وعلى هذا وافق العادل في المحرم ٦٠١هـ/ سبتمبر ١٢٠٤م على عقد الصلح مع الصليبيين على دمشق وتوابعها، وتنازل لهم عن يافا والناصرة، بينما كانت اللدوالرملة مناصفة بينهما[2]. وهكذا عادت قلعة يافا مرة أخرى الى حوزة الداوية. ولكن الصليبيين عامة والداوية على وجه الخصوص لم يكتفوا بما حصلوا عليه نتيجة للإغارات

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص١٣٠، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص٥٠، ابن واصل : امفرج الكروب، جـ٣، ص١٦١، النويرى : نهاية الآرب، جـ٢٧، لوحة ٩، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٠٩، الذهبى دول الاسلام، جـ٢، ص١٠٧، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص١٦٣، ايضا :

estaire d'Eracles, P. 260.

(٢) ابن الاثيـر : الكامل، جـ١٢، ص١٢٧-١٢٨، ابن العـديم : زبدة الحلب، جـ٣، ١٥٥، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص١٥٩-١٦٢، ابن زيبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة ٤١، النويرى: نهاية الآرب، جـ٢٧ لوحة ٨-١٠، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٠٥، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٠٧، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة ١٤٦، ابن الوردى: تتمة المختصر، ص١٨٢، ابن كثير : البداية جـ١٣، ص٣٦-٣٧، المقريزى : السلوك جـ١، قسم١، ص ١٦٣ - ١٦٤، ايضا :

Estoire d'Eracles. PP. 260-263; Regesta, doc. 808. p. 216; Amadi, chroniques, Vol. I, P. 93; matthew of Westmnster, The Flowers of History, Vol II, P. 100.

السابقة، فسرعان ما شاركوا الاسبتارية بعدما انتهت هدنتهم مع الملك المنصور- فى الإغارة على مدينة حماه الإسلامية، جرت بينهم وبين الملك المنصور مناوشات انتهت بتجديد الهدنة مرة أخرى(١).

والتساؤل الآن. لماذا قام الصليبيون ومن بينهم الدوية بتلك الاغارات فى هذه الفترة بالذات؟ وما سبب الموقف غير الحاسم للمسلمين تجاه الصليبيين وقتذاك؟ وفى الحقيقة قام الصليبين بتلك الإغارات فى هذه الفترة بعدما علموا خروج حشود من الغرب اللاتينى فى طريقها الى الشرق الأدنى فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة، وعلى هذا تجاسروا وتشجعوا على القيام بتلك الأعمال. أما عن سبب قيام المسلمين بأتخاذ موقف حاسم إزاء الإغارات، وعلى الرغم من دعوات الجهاد التى كانت توجه إليهم، انما يرجع الى السبب الأول من جهة، ولحرص القادة المسلمين على عدم جذب تلك الحشود الصليبية الى الشرق الأدنى، خاصة بعدما علموا بتوجهها الى مدينة القسطنطينية، وإستيلائها عليها. وبذلك يمكن القول ان موازين القوى فى الصراع الصليبى الإسلامى فى تلك الفترة كانت متعادلة، وعلى هذا جاءت المناوشات بين الفريقين غير حاسمة.

فى تلك الأثناء توفي الملك عمورى الثانى فى يوم الجمعة أول ابريل ١٢٠٥م/ ٩ شعبان ٦٠١هـ، فعقد القادة الصليبيون اجتماعاً حضره فيليب دى بليسيس

(١) ابم الجرزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٥٢٣، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص٥١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص١٦٢-١٦٤،ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة٤١، النويرى : نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٩، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ١٠٦-١٠٧، الذهنى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٠٨، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة ١٤٦، ابن الوردى: تمة المختصر، جـ٢، ص١٨٣، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٣،ص٣٦-٣٧، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم١، ص٦٤، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٨٦، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس، جـ١، ص٢١، وايضا :

Estoire d'Eralces, PP. 262-263; Regesta Regni . Hierosolymitani, doc. 794, PP. 211-212; Amadi, chromiques, Vol. z, p. 93 .

مقدم الداوية، وقرروا فيه أن يؤول أمر المملكة الصليبية الى يوحنا ابلين Johon d'ybelin كوصى على المملكة الصغيرة مارى.[1]

ويجب ألا يفوتنا فى هذا المجال انه فى معمعة الإغارات السابقة التى شنها الداوية، لم ينسوا موقفهم العدائى حيال الملك ليو الثانى الأرمينى، ومساندة الأمير بوهمند الرابع[2]، وانهم شاركوا الملك الظاهر غازى صاحب حلب (٥٨٢-٦١٣هـ/ ١١٨٦-١٢١٦م) فى معاركه ضد الملك الأرمينى[3]. وهذا موقف آخر من مواقف الداوية اتحدوا فيه مع ملك مسلم ضد ملك مسيحى من أجل مصالحهم الذاتية ونعنى بذلك اعادة قلعتهم فى بغراس.

ويبدو أن الإغارات والمعارك السابقة التى خاضها الداوية قد اهلكت العديد من الأخوة المساعدين فى جماعتهم، لذلك سمحوا للكثير من الافصال اللاتين المتواجدين فى الشرق الأدنى، بالإنضمام الى صفوف جماعتهم[4]، والقيام بالمهام المختلفة التى انيطت بهم[5].

واصل الصليبيون بمشاركة الداوية إغاراتهم على مدينتى حماه وحمص فى

---

(1) Estoire d,Eracles, P. 305 Regesta, doc, 812, P. 217, Amadi, chroniques, Vol. I. P. 93 .

(2) Letter du Pope Innocenti, III, dons, Partologia Latina, Vol, VII, P. 687.

(٣) عن الصراع بين الملك المظفر والملك الأرمينى، وموقف الداوية من هذا الصراع راجع : ابن الاثير :الكامل، جـ١٢، ص١٥٨-١٥٩؛ ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٥٢٦، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص١٥٦، ١٥٨، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص٥٣، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص١٥٤-١٥٥، ١٧٠-١٧١، ١٨٧ ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص١٨١-١٨٨، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص٤٣، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم ١٦٢-١٦٣، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص١٩٠، وايضا Letter du pope Innocenti. III, Patrologia Latina, Vol, VIII, P. 794 .

(4) Letter of pope Innocent III, in A.O.L., Vol. x i, P. 421 .

(٥) عن المهام التى قام بها الأخوة المساعدون فى جماعة الفرسان الداوية، راجع الفصل الأول من الرسالة، ص

عام ١٢٠٧م/ ٢٦٣هـ. ولكن بعد ان اتضحت معالم الحملة الصليبية الرابعة، كان طبيعياً ان يتبدل موقف المسلمين حيال غارات الصليبيين فى الشام. ففى منتصف عام ٦٠٣هـ/ أوائل عام ١٢٠٧م، خرج الملك العادل بقواته، وشن الغارات على مدينة عكا التى كانت آنذاك فى حوزة اللاتين، فاضطر من بداخلها من الفرنج، ومن بينهم الداوية، الى مصالحة العادل، وإطلاق سراح عندهم من اسرى المسلمين(١).

ويتضح من المصادر التى تحت أيدينا ان الداوية لم يكن لهم أى دور عسكرى لهم اى دور عسكرى حتى عام ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ. وفى خلال تلك الفترة توفى فيليب دى بليسيس مقدم الداوية فى يوم الأثنين ٩ نوفمبر ١٢٠٩م/ ٩ جمادى الأولى ٦٠٦ هـ، واصبح وليم دى شارتر Guillaume de Chartres مقدما من بعده(٢). كما ظل الداوية يقدمون شكاواهم الى البابا انوسنت الثالث ضد الملك الأرمينى الذى رفض بعناد رد قلعة بغراس إليهم(٣).

أما عن أحوال الصليبيين فى تلك الفترة، فقد بلغت الأميرة مارى سن الرشد، فاستقر رأى الصليبيين على أن تتزوج من أحد الأمراء الفرنسيين، ويدعى جان دى برين Jean de Brienne(٤)، بينما كانت الاستعدادات تجرى فى الغرب الأوروبى على قدم وساق لأرسال حملة صليبية جديدة الى الشرق الأدنى. وعلى هذا طلب الملك العادل من الصليبيين فى أواخر عام ١٢٠٩م/ اواخر عام ٦٠٧هـ تجديد الهدنة، فوافق القادة الصليبيون على مطلبه، فيما عدا جماعة الفرسان الداوية،(٥) الذين آبوا أن يرتبط الصليبيون فى معاهدة مع المسلمين، فى الوقت الذى تم

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص١٨١، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص١٧٢-١٧٣، ابن الايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة ٤١، النويرى : نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٩، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٠٨، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١١٠، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧ قسم٢، لوحة ١٥٠، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص١٨٤-١٨٥، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص٤٩.

(2) Etorire d'Eracles, P. 309; Amadi, chroniques, Vol. I. P. 97

(3) Letter du pope Innocenti III, dans, Patro logia Latina, Vol. x II, P. 54, Regest, doc. 851, P. 227

(4) Estoire d'Eracles, P. 306; Amadi, chroniques, Vol. I. P. 97

(5) Estoire d' Eracles, P. 309; amadi, chroniques, Vol. I, PP. 97-98.

الاستعداد فى الغرب لإرسال حملة الى الشرق[1]. وحتى يجبر الداوية القادة الصليبيين على قبول رأيهم، خرجوا بفرسانهم من عكا فى نهاية عام ١٢١٠م/ أواخر عام ٦٠٧هـ، وشنوا الغارات على المناطق القريبة من بيت المقدس. ولكن تصدى لهم الملك المعظم عيسى، واجبرهم على الإرتداد الى عكا، ثم شرع فى بناء قلعة حصينة على جبل الطور، فكان هذا كافياً لردع الداوية، وجعلهم يوافقون هو ايضاً على عقد الصلح مع الملك العادل[2]، ولعل هذا الموقف من جانب الداوية يوضح بجلاء لماذا وصفهم المؤرخون العرب بأنهم كانوا الد اعداء المسلمين.

تطورت الأزمة بين الداوية، والملك الأرميني، عندما رفض الأخير الاستجابة لمطالب البابا برد قلعة بغراس إليهم. لذلك زحف الداوية فى أوائل عام ١٢١١م/ أواخر عام ٦٠٧هـ بقواتهم تجاه الأراضى الأرمينية فى محاولة منهم لاسترجاع تلك القلعة بالقوة. لكن تصدت لهم القوات الأرمينية، واجبرتهم على الأرتداد. وهنا رفع الداوية مرة اخرى شكواهم الى الباب انوسنت الثالث، مطالبين إياه بضرورة إستخدام نفوذه لإجبار الملك الأرمينى على رد قلعة بغراس إليهم[3]. وهذا الموقف الأخير، يوضح أن النشاط العسكرى للداوية فى منطقة الشرق الأدنى لم يقتصر على محاربة المسلمين من أجل الاستحواذ على الأراضى والقلاع فحسب، بل شمل ايضاً محاربتهم للأرمن من أجل نفس الغرض.

ولنا ان نتساءل: هل التزم الداوية بالمعاهدة التى عقدت بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة؟ فى الواقع لم تلتزم تلك الجماعة بالمعاهدة، كسابق عهودها بعدم أحترام المواثيق. فبعد أن وصلت اليها الهبات والأموال من الغرب

---

(1) King, Hospitallers, P. 183 .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٥٤٥، ابو شامة : الذيل على دول الاسلام، جـ٢، ١١٣، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص٥٧، المقريزى : السلوك جـ١، قسم١، ص١٧١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس، جـ١، ص١٠٧، وايضا :

Jacque de vitry, A History of Jerusalem, P. 119, Estoire d'Eracles, pp. 310-317; Amadi, chroinques, Vol I, P. 98 .

(3) Letter du pope Innocenti III dans, Patrologia Latina, Vol. xiv, p. 430, Vol. XLiv, pp. 15-18 .

الأوروبى[1] خرج رجالها بسفنهم فى منتصف يونيو ١٢١١م/ أواخر ذى الحجة ٦٠٧هـ لمشاركة والتر دى مونتبليار Walter de Montbeliard الوصى على عرش قبرص، وشنوا غارة على غربى مدينة دمياط أثناء الليل، فأسروا، وسلبوا وسبوا، وعادوا مسرعين الى مراكبهم قبل أن تصل النجدات الإسلامية الى المدينة[2] وهكذا توضح غارات الداوية على مدينتى فوه ودمياط المصريتين أن فكرة مهاجمة مصر- حسب الاتجاه الجديد الذى اشرنا اليه من قبل- قد تبلورت فى أذهان الصليبيين فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى/ بدايات القرن السابع اهجرى، وإن الداوية كانوا من أوائل الفرنج المقيمين فى الشرق الأدنى الذين نفذوا هذا الأتجاه.

ولما كانت المنازعات بين ملوك الغرب الأوروبى تؤثر على أوضاع الداوية فى الشرق الأدنى من جهة، وعلى الاستعدادات للحملة المزمع قيامها من جهة أخرى، لذا جعل افراد تلك الفئة من انفسهم رسل سلام لحسم النزاع الذى قام بين يوحنا الأول ملك انجلترا (١١٩٩-١٢١٦م/ ٥٩٦-٥٦١٢) فيليب أوغسطس ملك فرنسا فى عام ١٢١٣م / ٦١٠هـ[3]، وناشدوا الملكين المساهمة فى الحملة الصليبية[4]. وهذا موقف يضاف الى المواقف المتعددة لتلك الفئة، يتضح منه انهم كرسوا كل جهودهم لتجميع القوى الصليبية من أجل محاربة المسلمين.

ما إن فرغ الداوية من المهمة السابقة، حتى اتجه الى مراكز الجماعة المتعددة فى الغرب بفرض جمع الأموال وحشد الفرسان، تمهيداً لإرسالهم الى

---

(1) Letter of pope Innocanti III, in, A.O.L., Vol, II, Part 2,P. 421; Cartulaire Générale de L'Order des Hospitalian St. Jean de Jérusalem, éd. le Roulx, Vol. 2, Paris, 1893; Doc 218; PP. 49-50 .

(٢) ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص٧٧، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص ٦٤، العينى : عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٥١٩، وايضا :
Estoire d'Eracles, P. 316; Amadi, chroniques, Vol. I, PP. 99-100 .

(3) Roger of wendover, The Flowers of History, London, Vol. 2, PP. 253,263 .

(4) Matthew of westminster, the Flowers of History, Vol. 2,PP. 114-118 .

الشرق الأدنى[1]. ثم توجه وفد الداوية لحضور مؤتمر اللاتيران الكنسى فى ٢١ نوفمبر ١٢١٥م/ ٢٧ رجب ٦١٢هـ، الذى نوقشت فيه امور الحملة الصليبية المرتقبة، فى نهايته، سلم البابا وفد الداوية الأموال التى جمعها لهذا الفرض حتى يتولوا امر الصرف على الحملة[2].

وفى الوقت الذى كان يمارس فيه الداوية هذا الدور فى الغرب، شن أخوانهم فى الشرق الزدنى حرباً على طائفة الإسماعيلية، بسبب قيامهم بقتل ريموند ابن بوهمند بالداوية، وشنوا فى عام ١٢١٥م / ٦١٣هـ الغارات على قلاع الإسماعيلية ومن بينها قلعة الخوابى[3]. ولم يكف الداوية عن محاربة الإسماعيلية إلا بعد تدخل كل من الملك الظاهر صاحب حماه والملك العادل[4]، وبعد أن تعهد الإسماعيلية بدفع جزية سنوية للداوية قدرها ثلاثة آلاف قطعة ذهبية[5]. وعلى هذا يتضح ان الداوية كانوا فى ذلك الوقت يشكلان قوة لا يستهان بها، بصورة جعلت طائفة الإسماعيلية الشيعية والتى كان يخشاها المسلمون السنة نظراً لما اشتهر به رجالها من أعمال الاغتيالات والمؤامرات، تخضع للداوية وتوافق على دفع الجزية لهم.

(1) Roger of wendover, op. cit., Vol. 2, PP. 390-393 .

(2) Estoire d'Eracles, PP. 318-319; Matthew of westminster, op. Cit, Vol. 2, PP. 121-124; Roger of wendover, op. cit Vol. 2,P. 345; Letter of Pope Innocent III, in, Asource Book of the History, P. 450 .

(٣) الخوابى : احدى قلاع الاسماعيلية، وتقع شمالى طرابلس، وعلى بعد خمسة عشر ميلا من انطرطوس راجع : القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٤٦-١٤٧، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص ١٧٩، ح (١) .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص ١٦٦، ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ٨٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص٢١٧، ٢٢٤، ٢٢٩، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص٦٩، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم١، ص١٨٠-١٨١، العينى : عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٥٥٠، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس، جـ١، ص١٦٦ .

(5) Olover of Padenborn, The copture of Damietta, London, 1948, P. 51 .

أما عن علاق الداوية بالملك الأرميني، فقد استمر الداوية يبعثون بشكواهم الى البابا انوسنت الثالث، فأنذر الأخير الملك الأرميني، بأنه اذا لم يرد قلعة بغراس للداوية، فسوف يوقع عليه قرار الحرمان الكنسي[١] وأخيراً بعد ما نجح الملك الأرميني في الإستيلاء على انطاكية في يناير ١٢١٦م/ شوال ٦١٢هـ، قام بإرجاع تلك القلعة للداوية[٢]. وبذلك تنتهي علاقة العداء بين الداوية والأرمن، ولو لفترة قصيرة شغلت حوالي ربع قرن(١١٩١-١٢٦١م / ٥٨٧-٦١٢هـ) تخللتها مصادمات ومشاحنات بين الفريقين حول امتلاك قطعة من الأراضي الإسلامية.

وفي عام ١٢١٦م/ ٦١٣هـ توفي البابا انوسنت الثالث، وخلفه البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م/ ٦١٣ - ٦٢٥هـ) الذي سار على نهج سلفه في تقديم كل التسهيلات والمنح والهبات والامتيازات لجماعة الفسان الداوية، من أجل تدعيمهم في العمل على المحافظة على الكيان الصليبي في الشرق الأدنى[٣].

وكانت الحشود الصليبية تتوافد آنذاك على مدينة عكا، وعقد القادة الصليبيون مجلساً للحرب في أكتوبر ١٢١٧م / رجب ٦١٤هـ، حضره وليم دى شارتر مقدم الداوية، وقرر المجتمعون، ضرورة شن الغارات على البلدان الإسلامية في الشام، لحين وصول بقية الحشود الصليبية[٤]. وعلى هذا خرجت القوات الصليبية، تلازمها فرقة من الداوية[٥]، وشنوا غارة مفاجئة على مدينة بيسان[٦] الإسلامية في

(1) Letter du pope Innocenti III, Patrologia, Latina, Vol. xvi, p. 792

(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم ٢، ص ٥٧٢، ابو شامة : الذيل على الروضتين ص٩٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٣٣، العيني : عقد الجمان، جـ٢٠ ورقة ٥٥٠، وايضا : Estoire d'Eracles, PP. 318; Annales de Terre sainte, in, A.O.L., Vol. II, P.2. P.436; Les Gestes des chiprois, pp. 661-662; Amadi, chroniques, Vol. I,P.101; Regesta, doc. 889,P. 239.

(3) Dacuments concernant les Templiers, No. xII-x III, P. 21, Cartulaire Généralede L'Order des Hospitaliers, Doc. 1477, P. 192., Matthew of westminster, The Flowers of History, Vol.2,P. 132.

(4) Estoire d'Eracles, pp. 322-323; Oliver, Damitta, pp. 12-13; Amadi, chroniques, Vol. I,P. 102 .

(5) Estoire d'Eracles, pp. 323-324; Oliver, Damietta, P. 20

(٦) بيسان : مدينة بالأردن تقع بالقرب من جوران، راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٣١

نوفمبر ١٢١٧م/ شعبان ٦١٤هـ، ثم اتجهوا الى القرى الإسلامية المجاورة، وعاثوا فيها نهباً وفساداً وما لبثوا أن أغاروا على مدينة بانياس الإسلامية، وقفلوا عائدين الى عكا. حيث أمضوا بها بعض الوقت، وقاموا بعد ذلك بشن الغارات على المناطق المحيطة بمدينة صيدا، وعادوا الى عكا، ثم خرجوا للمرة الثالثة، حاولا الإستيلاء على حصن الطور، ولكن باءت محاولتهم بالفشل. إذ تصدت لهم القوات الإسلامية، ونجحت فى قتل وجرح العديد من فرسان الداوية فى تلك المحاولة[١]. وقد انفرد المؤرخ أوليفر بالإشارة الى أن الداوية قد نجحوا فى إعادة فرض سيطرتهم على قلعة صافيتا[٢] اثناء قيامهم بشن تلك الغارات. بينما لم تشر تلك الحادثة المصادر الاخرى سواء أكانت عربية أم غربية، اللهم إلا فى احداث لاحقة، توضح ان القلعة قد اصبحت فى حوزة الداوية[٣]. وهذا يجعلنا نتقبل رأى المؤرخ بشيء من التحفظ.

---

(١) عن تلك الغارات راجع :

ابن الاثير : الكامل، جـ١٢، ص٢٠٨-٢١٠، ابن الجوزى : مرأة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٥٨٣-٥٨٥، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٠٢-١٠٣، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٥٤-٢٥٧، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحه ٧٧-٧٨، النويرى : نهاية الآرب، جـ٢٧، لوحه ١٤-١٥، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص ١١٧، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١١٦-١١٧، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحه ١٦٤، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص١٩٩، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص٧٦-٧٧، المقريزى : السلوك، جـ١، ص١، ص١٨٦-١٨٧، العينى : عقد الجمان، جـ٢٠، ورقة ٥٨٢-٥٨٤، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٠٠، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس، جـ١، ص١٩، وايضا :

Estorire d'Eracles, PP. 324-325; oliver, Damietta, PP. 16-20; Amadi, chroniques, Vol. I, P. 102; Ernoul, chronique d'Ernoul, ed. Rohricht, Genewa, 1882, P. 292; Jaquws des Vitry, a History of Jerusalem, p. 119 .

(٢) صافيتا : من أشهر قلاع الداوية، وبها برج اطلقوا عليه اسم القصر لابيض، وتقع فوق تل مرتفع إلى الجنوب الشرقى من طرطوس المواجهة لجزيره ارواد . انظر : ابن الشحنه : الدر المنتخب فى مملكه حلب، بيروت ١٩٠٩، ٢٦٧ .

(٣) عن تلك الحداث راجع مهاجمة الملك الاشرف موسى لقلعجه صافيتا فى عنام ٦١٥هـ/١٤١٨م فى الصفحات التالية .

بعد أن فرغ الصليبيين من شن تلك الإغارات، اخذوا يعدون العدة للتوجه الى مصر، ويبدو أن الداوية نتيجة لخبرتهم السابقة فى الإغارة على الأراضى المصرية، قد نصحوا القادة الصليبيين بناء قلعة حصينة في غليث[1]، تكون بمثابة نقطة ارتكاز بين المقر الرئيسى للفرنج فى عكا، وبين الأراضى المصرية، بالإضافة الش إشرافها على البحر المتوسط مما يسهل اتجاه السفن الصليبية إليها، وفوق كل ذلك قربها من بيت المقدس.(٢) لذلك اقام الصليبيون تلك القلعة، واطلقوا عليها اسم «قلعة الحجاج»[3]

وقد اختلفت آراء المؤرخين الغربيين حول تاريخ بناء تلك القلعة، فهناك فريق يتكون من روجر الوند فرى، وبورشارد ولودلوف، وصاحب كتاب مآثر القبارصة، يرون أن بناء تلك القلعة قد تم فى عام ١٢١٧م[4]/ ٦١٤هـ، بينما يرى فريق آخر يتكون من صاحب كتاب هرقل وأوليفرياد رنيورن أن تلك القلعة تم بناؤها فى عام١٢١٨م[5]/ ٦١٥هـ. أما المصادر العربية فلم تشر الى تلك الحادثة. ولما كانت أعمال البناء لا تحدث بين يوم وليلة، وتستغرق فترة طويلة من الزمن، خاصة وأن

---

(١) عثليت : قلعة حصينه تعرف بالحصن الأحمر ويحدها من الشمال مدينة حيفا ومن الجنوب مدينة قيسارية، راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٦، ص ١٢٣

(٢) عن أسباب بناء تلك القلعة راجع :

Addison, Templars, P.149; Melville, Levie des Templiers, PP. 137-140, Pernoud, Les Templiers, Paris, 1977, P. King, Hospitallers, P. 190; Smail, crusading warfare warfare, P. 177; Benvenist, M. The crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1976, P. 175.

(٣) ترجع هذه التسمية إلى أن الداوية كانوا قد اقاموا بالقرب من ذلك الحصن برجا منيعا يسمى دسترو Destrait فى عام ١١٩٥م/٥٩٢هـ، ليكون بمثابة نقطه حصينه يتم فيها تخزين الأسلحة والمون التى يستخدمونها اثناء قيامهم بارشاد الحجاج والمسيحين راجع :

Burchord, Description of Mont Sion, in O.P.T.S. Vol. 12, Part I,P. 93 .

(4) Roger Of wendaver, The Elowers of History, Vol. 2, PP. 387-388; Burchord, op. Cit., P. 6; Les Gestes des Chip rois, P. 665; Ludo;ph Von Suchems, Description og the Holy Land, in P.P.T.S., Vol. 12, Part 3, P. 65 .

(5) Oliver, Damietta, PP.18-19; Estoire d'Eracles, P. 325 .

أولئك المؤرخوخين قد أشاروا الى إلى حصانة تلك القلعة التى أحاطت بها السفوح الجبلية الوعرة من جميع الجهات، فيما عدا القسم الشرقى الذى تقويتة ببناء اسوار ضخمة استغرق وضع الاساس لها فقط ستة اسابيع، وزودت بأبراج ارتفاع كل واحد منها مائة وخمس وسبعين قدماً، وقد شيدت تلك الأسوار من الكتل الحجرية الضخمة الذى استخدم فى حجر الكتلة الواحدة منها زوج من الثيران. لذلك يمكن القول بأن بداية بناء القلعة كان فى عام ١٢١٧م/ ٦١٤هـ، وان عملية البناء استمرت حتى عام ١٢١٨م ٦١٥هـ، وهذا ما المح إليه المؤرخان امادى وارنول[1].

وكيفما كان الأمر، فبعد ان انتهى الصليبيون من بناء تلك القلعة، عهدوا بحمايتها الى جماعة الفرسان الداوية، فانتقل اليها العديد من فرسانهم، ومن الأخوة المساعدين، كما شحنوها بالأسلحة، وبنوا فى وسطها خزاناً كبيراً للمياة[2] ويتضح مما سبق، ان الصراع بين الصليبيين والمسلمين فى الفترة التى تلت وفاة صلاح الدين كان قاصراً على مناوشات ومصادمات خفيفة، وإغارات متبادلة بين الفريقين، دون ان تكون هناك معركة حاسمة ترجع كفة أحد الفريقين على الآخر، وذلك لأنغماس كل منهما فى المنازعات والصراعات الداخلية والتى استنفذت الكثير من جهدها. كما يتضح ان الصليبيين قد جعلوا من مصر هدفهم الرئيسى قبل بيت المقدس، وكان فرسان الداوية هم السباقين فى الإغارة على مصر فى تلك الفترة، وقاموا بدور كبير فى الدعوة للحملة الصليبية المعروفة بالخامسة[3]، وانهم بنوا قلعة جديدة فى عثليت واخذوا يتباهون للمساهمة للحملة الصليبية المرتقبة .

---

(1) Amadi, chroniques, Vol. I,PP.103-104; Eronul, chronique, PP. 394-395 .

(2) Roger of wendaver, The Flowers of History, Vol.2,P. 338; Burchard, Description of Mant Sion, P. 6; Ludolph, Description og the Holy Land, P.65; Les Gestes des Chiprois, P. 665; Estoire d'Eracles, P. 325; Olover, Dametta, P.19; Amadi, chroniques, P. 104, Ernoul, chronique, P. 295 .

(٣) عن الاستعدادات والدعوة لتلك الحملة راجع :

محمود سعيد عمران : الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دى برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١/٦١٥-٦١٨ هـ ، الاسكندرية ١٩٧٨، ص١٤٣-١٩٣ .

أما عن دور الداية فى تلك الحملة، فبعد عودة الصليبيين الى عكا، عقدوا فى أوائل مايو ١٢١٨م/ أوائل صفر ٦١٥هـ مجلساً لحرب، حضره وليم دى شارتر مقدم الداوية. وعرض المجتمعون مشروعين لمهاجمة مصر: أولهما ينادى بمهاجمة مدينة دمياط، والآخر ينادى بمهاجمة الاسكندرية، وايد وليم دى شارتر المشروع الأول[١]، وربما يرجع ذلك الى الخيرة التى اكتسبها الداية عن طريق شن الغارة السابقة على تلك المدينة. وعلى هذا شرع الصليبيون معهم فرسان الداوية فى التوجه الى مصر. وفى يم الثلاثاء ٢١ مايو ١٢١٨م/ ٢ ربيع الأول ٦١٥هـ، نزل الملك جان دى برين ومعه فرقة كبيرة من الداوية على الضفة الغربية فرع مياط[٢]، اى فى نفس الموضع الذى سبق للداوية ان هاجموه من قبل، بينما كان غالبية الجيش الصليبى قد سبقوهم فى النزول فى تلك المنطقة(٣) ولما كان برج السلسلة يمثل عقبة امام الصليبيين فى التقدم الى مدينة دمياط، لذا اعد الداوية مقلاعاً ضخماً، وحملوه على إحدى سفنهم، وتقدموا فى محاولة منهم للإستيلاء على البرج ولكن خرج إليهم بعض المسلمين على سفنهم، وجرت بين الفريقين معركة نهرية، انتهت بهزيمة الداوية وإغراق سفينتهم وعليها اربعين من فرسانهم.

---

(1) Roger of wendover, the flowers of History, vol, P.344, Ernoul, chronique, P. 393; Estoire d'Eracles, P, 323; Matthew of westminster, the Flowers of History, vol.,2,p.133.

(2) Ernoul, op. cit, p. 394. Estoire d'Eracles, P.327; Oliver, Daminetta, pp. 22-23; Les Gestes des chiprois, P. 665; Matt. of Westminster, op. cit, vol., 2, P. 133; Jacques de Vitry, A History of Jerusalem, P. 104; Roger of Wendover, op. cit., Vol., 2,P.405; Amadi, chroniques, Vol., I, P. 104 .

(٣) ابنالاثير الكامل : جـ١٢، ص٢١٠، ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٥٩٢،ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص١٨٤، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٠٨،ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣، ص٢٥٨، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة ١٤١، درر التيجان، جـ٢٧، ورقة ٥٢٢-٥٢٣، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحة ١٧-٢٢، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١١٨،الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١١٧،العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحه ١٦٥، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٠٠، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٣، ص٧٩، ابن دقاق : الجوهر الثمين، ورقة ٩٨، ابن الشحنة : روض المناظر، ورقة ١٤٤-١٤٥، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١ ص ١٨٨، العينى : عقد الجمان، جـ٢، ورقة ٥٠٤، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦، ص٢٢٢، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٠٠-١٠١، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الخامس : جـ١، ص٢٢٨، بامخرمة، قلادة النحر، جـ٥، ورقة ٨٣ .

وقد أختلفت آراء المؤرخين الغربيين حول تاريخ هذا الهجوم، فهناك فريق يتكون من المؤرخين اوليفر، وصاحب تاريخ هرقل، وصاحب كتاب مآثر القبارصة، ومتى من ستمنستر وويجلر يرى ان هذه الاحداث وقعت فى عام ١٢١٨م/ ٦١٥هـ[١]. بينما يرى فريق آخر يتكون من ارنول وامادى وروجر الوندفرى انها حدثت فى عام ١٢١٩م/ ٦١٦هـ[٢]. أما المصادر العربية فلم تشر الى تلك الحادثة، وإنما اكتفت بالإشارة الى مهاجمة الفرنج للبرج، وانهم لم يظفروا منه بشيء، وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا ظلوا ملازمين لقتاله وابقوا كذلك اربعة اشهر[٣]. وبمقارنة ما جاء في المصادر العربية والغربية، نميل الى ترجيح الرأى الأول، ذلك لأن المصادر العربية اجتمعت على ان وفاة الملك العادل كانت فى يوم الجمعة- السبت ٧-٨ جمادى الآخرة ٦١٥هـ[٤]/ ٣١ أغسطس - ١ سبتمبر ١٢١٨م بعد ان سمع بنبأ سقوط برج السلسلة فى يد الفرنج وطالما ان محاولة الداوية السابقة قد فشلت ولم يستولوا على البرج، فيكون ذلك قبل وفاة الملك العادل

---

(1)Oliver, Damietta, pp. 24-25, 33:Estoire d'Eracles. p. 327:Les Gestes des Chiprais, p.666: Matt of Wesminster. the Flowers of History. VOI. 2,p. Wieglar, the Infidel Emperor and is Struggles against the pope. London, 1930,p. 107

(2)Ernoul, chronique, p. 295; Amadi;chroniques, Vol I, 105; Roger of Wendover. The Flowers, VoI. 2,p. 414.

(٣) ابن الأثير. الكامل جـ١٢، ص٢١١، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٠٩، ابن واصل مفرج الكروب، جـ٣، ص٢٦١، ابن ايبك كنز الدرر، جـ٧، قسم٢، لوحة١٤١-١٤٢، درر التيجان، جـ٢٧ ورقة٥٢٢-٥٢٣؛ النويرى نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٢٤؛ الذهبى. دول الإسلام، جـ٢ ،ص١١٨؛ ابن كثير. البداية والنهاية، جـ١٣، ص٧٩؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧. قسم٢، لوحة١٦٥ ١٦٦؛ المقريزى السلوك، جـ١ ،قسم١ ،ص١٨٨-١٨٩؛ العينى عقد الجمان، جـ٢٠ ورقة٥٩٢

(٤) ابن الاثير. المصدر السابق، جـ١٢، ص٢٢٩؛ ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، قسم٢، ص٥٩٥-٥٩٦، ابن العديم زبدة الحلب، جـ٣، ص ابو شامة: المصدر السابق، ص١١١ ١١٢ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٣٢، ابن واصل. المصدر السابق=

وقد اختلف اصحاب الرأى الأول ايضاً فى تحديد الشهر الذى وقعت فيه تلك الحادثة، فالمؤرخ أوليفر يذكر حادثتين متشابهتين فى التفاصيل قام بهما الداوية لمهاجمة برج السلسلة احداهما فى يوم الأحد ٢٤ يونيو ١٢١٨م/ ليلة ٩ رمضان ٦١٥هـ[1]. وبذلك أورد تاريخين لتلك الحادثة. أما المؤرخ متى من وستمنستر فيذكر أنها جرت فى أواخر مايو[2]/ اواخر ٣صفر من العام نفسه، بينما أشار كل من صاحب تاريخ هرقل وكاتب مآثر القبارصة وويجلر انها حدثت بعد نزول الصليبيين على بر دمياط[3]. ولكن يمكن استبعاد التاريخ الثانى الذى أورده المؤرخ أوليفر، لانه جاء بعد تاريخ سقوط البرج وموت الملك العادل من جهة، ويتفق مع حادثة اخرى جرت للداوية، ستظهرها الصفحات التالية من جهة اخرى وعلى هذا ينحصر الخلاف بين أولئك المؤرخين فى أن تلك الحادثة وقعت ما بين أواخر مايو حتى ٢٤ يونيو ١٢١٨م ما بين أواخر صفر وحتى ٢٨ ربيع الأول ٦١٥هـ. ولما كان نزول الداوية على بر جزيرة دمياط فى ٢٩ مايو ١٢١٨م (٢ ربيع الأول ٦١٥هـ) اى قبل نهاية الشهر بيومين، هما غير كافيين لكى يقيم فيهما الداوية معسكرهم ويخندقوا حوله،[4] ويعدوا السفينة اللازمة لهذا الهجوم، لذا يمكن القول ان محاولة الداوية السابقة جرت فى الفترة من ١ - ٢٤ يونيو ١٢١٨م/ ٥-٢٨ ربيع الأول ٦١٥هـ.

- جـ٣،ص٢٧٠، ابن ايبك المصدر السابق، جـ٧، قسم٢، لوحة١٤٣، درر التيجان،جـ٢٧، ورقة٢٢-٢٣، النويرى: المصدر السابق، جـ٢٧، لوحة٢٢،ابو الفداء المختصر، جـ٣، ص١١٩؛ الذهبى: المصدر السابق، جـ٢، ص١١٨؛ العمرى: المصدر السابق، جـ٢٧،قسم٢، لوحة١٦٧؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٠١، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٤٥، المقريزى: المصدر السابق، جـ١،ص١٩٤؛ العينى: المصدر السابق، جـ٢٠، ورقة٥٩٩-٦٠٠.

(1)Oliver, Damietta, p. 24-25, 33
(2) Matthew. of Wesminster, the Flowers of History, VOI. 2,p.131.
(3)Estoire d'Eracles, p. 327;Les Gestes des Chiprois, p.666; of Wieglar, the Infidel Imperor p.107.
(4)Letter of william of chartre, in, Addison, Templars, p.152; Oliver, Damietta, p. 24

وحرصاً من الملك العادل على تشتيت انظار الصليبيين، وفي محاولة منه لتخفيف ضغطهم على مدينة دمياط، اتجه بقواته الى قلعة صافيتا[1] التابعة لفرسان الداوية[2]. ثم استدعى ابنه الملك الأشرف موسى، فسار الأخير في عسكره، وهاجم القلعة، وخرب ما حولها من حقول، وحطم أبراجها، ولكنه لم يتمكن من فتحها، فتوجه الى حصن الاسبتارية في الكرك، ووصله في تلك الفترة رسول من قبل الأتابك شهاب الدين بن الملك الظاهر صاحب حلب، يطلب منه سرعة التوجه الى مدينة حلب لنجدتها من خطر عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم (٦٠٧-٦١٦هـ / ١٢١٠-١٢١٩م). ولم تحدد المصادر العربية تاريخ تلك الحادثة، ولكن اكتفت بسردها في حوادث عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م[3].

أما المصادر الغربية فقد اختلفت حول تحديد تاريخ تلك الوقعة. فالمؤرخ ارنول يذكر انها جرت في عام ١٢١٨م / ٦١٥هـ[4]. بينما يذر المؤرخ أوليفرباد نبورن ان الملك الأشرف بن الملك العادل، قد الحق بالداوية الذين كانوا وقتئذ يضربون الحصار حول مدينة دمياط خسائر كبيرة، عندما حطم اسوار قلعتهم في صافيتا، وانه تمكن من اشعال النيران في ابراج القلعة، ثم عاد حيث جرت وقعات بينه وبين المسلمين[5]. وعلى هذا يفهم مما اشار اليه المؤرخ أوليفر، ان هذه الحادثة وقعت اثناء حصار الصليبيين لمدينة دمياط في الفترة من ١٥ فبراير- ٥ نوفمبر ١٢١٩م/ ١٨ ذي القعدة ٦١٥-٢٠ شعبان هـ. أما المؤرخ روجر الندفرى فيرى انها جرت في عام ١٢١٩م / ٦١٦هـ. دون تحديد اليوم والشهر[6]. بينما لم يشر

---

(١) ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٣٦.

(2)Oliver, Damietta, p. 24

(٣) ابن العديم :زبدة الحلب: جـ٣ ،ص١٨٠ ؛ابو شامة :المصدر السابق ،ص١٠٩ ؛ابن واصل :مفرج الكروب ،جـ٣ ،ص٢٦٥ ؛ابن ايبك: كنز الدرر ،جـ٧ ،لوحة١٤٢-١٤٣ ؛العمرى :مسالك الابصار ،جـ٢٧ ،قسم٢ ،لوحة١٦٦-١٦٧ ؛العينى :عقد الجمان ؛جـ٢٠ ،ورقة٥٩٥ ؛ابن بهادر :فتوح النصر ،ورقة١٠١-١٠٣.

(4)Ernoul, chronique, p. 294
(5)Oliver, op Cit., p. 42.
(6)Roger of Wendover, The Flowers,of History, Vol. 2,pp.423-433.

كل من صاحب تاريخ هرقل، وأمادى، وجاك دفترى الى تلك الحادثة، وإنما اكتفوا بالإشارة الى أنه عندما عرض الملك الكامل محمد الصلح على الصليبيين فى سبتمبر ١٢١٩م/ جمادى الثانى ٦١٦هـ، كان من ضمن بنوده، تعويض الصليبيين عن القلاع التى خربت لهم ومن بينها قلعة صافيتا(١)، تعنى هذه الإشارة ان القلعة قد خربت قبل هذا التاريخ. ولكن المؤرخ لبن واصل يحسم الأمر بالإشارة الى أن رسول الاتابك شهاب الدين قد وصل الى الملك الأشرف موسى فى ربيع الأول ٦١٥هـ/ يونية١٢١٨م(٢). لذا يمكن القول بأن الملك الأشرف موسى قد هاجم قلعة صافيتا فى الشام فى نفس الوقت الذى كان بعض الداوية يهاجمون فيه برج السلسلة على ضفاف النيل.

كما اختلفت المصادر العربية والغربية حول تاريخ الحادثة السابقة، اختلفت ايضاً حول تاريخ مهاجمة الملك المعظم عيسى للداوية عند القيمون(٣) واسر مائة من فرسانهم. فقد أجمعت المصادر العربية على أن تلك الحادثة قد قعت فى جمادى الآخرة ٦١٥هـ(٤)/ اغسطس ١٢١٨م. أما بالنسبة للمصادر الغربية، فيشير المؤرخ أرنول انها حدثت قبل وفاة الملك العادل(٥) فى عام ١٢١٨م (٦١٥هـ). بينما يذكر المؤرخ صاحب تاريخ هرقل: ان تلك الحادثة جاءت بعد وفاة الملك العادل(٦)، اما المؤرخ امادى فيذكر انها حدثت فى عام ١٢١٩م / ٦١٦هـ(٧). بينما يشير

(1)Estoire d'Eracles,p.342 Amadi; chroniques, VoI. I,pp.112-113;Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem, p. 125.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٢٦٦.

(٣)القيمون: حصن فى فلسطين يقع بالقرب من مدينة الرملة. أرجع، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٧،ص١٩٩.

(٤) ابن الجوزى: مرآة الزمان،جـ٨،قسم٢،ص٥٩٣؛ابو شامة: الذيل على الروضتين،ص١٠٩؛ابن ايبك:كنز الدرر،جـ٧،ورقة١٨١؛النويرى: نهاية الأرب،جـ٢٧،لوحة١٦؛ابن كثير:البداية،جـ١٣،ص٧٩؛العينى:عقد الجمان،جـ٢٠،ورقة٥٩٩؛ابو المحاسن:النجوم الزاهرة،جـ٦،ص٢٢٣،بامخرمة،قلادة النحر،جـ٥،ورقة٨١.

(5)Ernoul, chronique, p. 295.
(6)Estoire d'Eracles,p.330 .
(7)Amadi; chroniques, VoI. I,p.105

المؤرخ أوليفر بادنبورن الى الهزائم التى منى بها الداوية على يد الملك المعظم، فى حوادث عام ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ[1]. أما المؤرخ روجر الندفرى فقد أورد خطاباً لمقدم الداوية الى البابا هونوريوس الثالث، يوضح فيه الأضرار التى لحقت بالداوية من هجمات المعظم، ولكنه لم يحدد تاريخاً لتلك الحادثة[2]. وكما حسم المؤرخ ابن واصل الاختلاف السابق، يحسم هذا الاختلاف المؤرخ ابن الجوزى- والذى كان ملازماً للملك المعظم فى معظم تحركاته- عندما ذكر ان هزيمة الفرنج عند القيمون كانت في يوم الأربعاء أو الخميس الخامس من جمادى الآخرة ٦١٥هـ[3]. ولما كان بداية شهر جمادى الآخرة عام ٦١٥هـ توافق يوم السبت[4]، ٢٥ أغسطس ١٢١٨م، لذا يمكن القول بأن تلك الحادثة وقعت يوم الأربعاء ٥ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٢٩اغسطس ١٢١٨م، وقبل وفاة الملك العادل.

ويتضح مما سبق ان ابناء البيت الأيوبي لم يقفوا مكتوفى اليدين أمام الغزو الصليبي لمصر، بل هاجموا القلاع الصليبية ومن بينها قلاع الداوية فى الشام، فى محاولة منهم لتخفيف ضغط الصليبيين على مدينة دمياط، وإرغامهم على العودة الي الشام لحماية تلك القلاع. وكانت هذه هي السياسة العامة التى لجأ إليها مسلمو مصر والشام عندما كانت بلادهم تتعرض لخطر الغزو الصليبي.

وكيفما كان الأمر، وفدت الى جزيرة دمياط فى يوم الاحد ٩ سبتمبر ١٢١٨م/ ١٦ جمادى الآخرة ٦١٥هـ، بعض الحشود الصليبية، كان على رأسها الكاردينال بلاجيوس Pelagius، ومعه بعض فرسان الداوية على رأسهم

(1)Oliver, Damietta, p. 67.
(2)Letter of peter Montacut, in, Roger of Wendover, The Flowers, VoI. 2,pp. 433-434.

(٣) أبن الجوزى: مرآة الزمان،جـ٨،قسم٢،ص٥٩٦.

(٤) راجع تقويمات وستنفلد ص٥٨-٥٩.

الكونت ميلين الثالث Miln III والد مقدم وليم دى شارتر واخيه وليم بويسيهWillia puiset[١]، وعدد آخر من بارونات وامراء الغرب الأوروبى[٢]. وقد قويت شوكة الصليبيين بصفة عامة، والداوية، بصفة خاصة بوصول تلك القوات حتى جعلتهم يتمكنون من صد الهجوم الإسلامى فى يوم الجمعة ٢٦ اكتوبر ١٢١٨م/ ٤ شعبان ٥١٦هـ، بعدما أقام المسلمون جسراً على النيل، وعبروا الى المعسكر الصليبى، وخاصة معسكر الداوية[٣]. ولكن عندما هبت عاصفة شديدة فى يوم الأربعاء ٢٩ نوفمبر ١٢١٨م/ ٩ مضان ٦١٥هـ، جرف تيار المياه احدى مرمات[٤] الداوية، ودفعها الى المعسكر الإسلامى، فأخذ المسلمون ما عليها من مؤن واسلحة، ثم قاموا باغراقها فى مياة النهر[٥]. وربما فعلوا ذلك حتى تعوق تلك السفينة الضخمة حركة تقدم السفن الصليبية فى النهر.

وبعدما تعرضت الجبهة الإسلامية لهزة عنيفة بعد مؤامرة ابن المشطوب، وما ترتب عليها من أنسحاب الجيش الإسلامى من العادلية[٦]، تمكن الصليبيون من العبور الى الضفة الشرقية للنهر فى يوم الثلاثاء ٥ فبراير ١٢١٩م/ ١٨ ذى القعدة

---

(١) خلط بعض المؤرخين المحدثين بين وليم دى شارتر مقدم الداوية، وبين أخيه وليم بويسيه،راجع :محمود عمران:حملة جان دى برين،ص٢١٠-٢٩٦.

(2)Regesta regni Hierosolymitani, doc. 910,p.243;Oliver, Damita,pp. 29-39.

(3)Estoire d'Eracles,p.334-335;Oliver,op.cit,p,31;Roger of Hoveden, The Flowers, VoI. 2,p. 412.

(٤) مرمات: مفردها مرمة، وهى من السفن الحربية الكبيرة التى استخدمت فى العصور الوسطى لحمل الميرة والسلاح والعتاد، كما وضعت عليها الأبراج الخشبية.راجع: درويش النخيلى:السفن الإسلامية على حروف المعجم،دار المعارف- الاسكندرية ١٩٧٩،ص١٤٠-١٤١،ابن واصل: مفرج الكروب،جـ٣ ،ص٢٦٠ ،ح(١).

(٥)المقريزى: السلوك،جـ١ ،قسم١ ،ص١٩٥ ،وايضاً:

Oliver, op Cit., p. 33

(٦)عن مؤامرة ابن المشطوب ونتائجها راجع :محمود عمران: حملة جان دى برين ص٢٤٥-٢٥١

٦١٥هـ، وكان الداوية في طليعة الصليبيين الذين اجتازوا المجر المائي[١]، حيث توجهوا الى المعسكر الإسلامي، واستولوا على ما تركه المسلمون من عتاد ودواب[٢]. وحاولوا أستغلال تلك الأحداث، فشنوا هجوماً مفاجئاً على مدينة دمياط، ولكن تصدى لهم المدافعون عنها، وأرغموهم على الأرتداد[٣]. وما إن شرع الصليبيون في ضرب الحصار حول المدينة، حتى تمركز الداوية في الصفوف الأمامية، وبعثوا مقاليعهم ومجانيقهم قبالة اسوار المدينة، وظلوا يلقون عليها الكتل الحجرية والنيران، فأحدثت بعض الأضرار بأسوار المدينة[٤]. لذا شن المسلمون هجوماً على معسكر الداوية في يوم الأحد ٣١ مارس ١٢١٩م/ ١٣ المحرم ٦١٦هـ، وتمكنوا من إشعال النيران في أحد ابراجهم[٥]. كما شن المسلمون هجوماً آخر عليهم في الأربعاء ٣١ يوليو/ ١٧ جمادى الأولى من العام نفسه، ونجحوا في إجتياز المتاريس التي وضعها افراد تلك الجماعة على أطراف معسكرهم، واحاطوا بهم الى حد أن معسكرهم اصبح منفصلاً عن كافة المعسكر الصليبي. ولم ينقذ الداوية من هذه المحنة إلا حلول الليل، وخروج بعض القوات الصليبية لنجدتهم[٦].

الحق الهجوم الإسلامي الأخير بالداوية خسائر كبيرة، فبالإضافة الى مقتل وأسر العديد منهم، اصيب في هذه المعركة افراد اسرة المقدم وليم دى شارتر بجراح خطيرة، حتى انهم توفوا متأثرين بجراحهم في أغسطس ١٢١٩م/ جمادى الآخرة ٦١٦هـ[١].

---

(1)Estoire d'Eracles,pp.336-337.
(2)Oliver, op Cit., p. 35; Roger of Wendover, VoI. 2,pp. 415-416 ; Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem, p. 126.
(3)Roger of Wendover, The Flowers, VoI. 2,p. 416;Amadi; chroniques, VoI. I,p.105
(4)Estoire d'Eracles,pp.337-338;Roger of Wenver,op.cit,VoI.2.,p. 416,Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem, p. 126.
(5)Oliver, Damietta,p. 38;Roger of Wenver,op.cit,VoI.2.,pp.416-7
(6)Oliver, op. Cit., pp. 39-40; Roger of Wendover, op. Cit.,pp. 417 -18

(٧) توفي الكونت ميلين والد دى شانز في يوم الأحد ١٨ اغسطس ١٢١٩م/ ٤ جمادى الآخرة ٦١٦هـ. وما لبث ان لحق به ابنه وليم يويسييه في يوم السبت ٢٤ اغسطس/ ١٠ جمادى الآخرة، وأخيراً المقدم وليم دى شارتر في يوم الأثنين ٢٦ أغسطس/ ١٢ جمادى الآخرة. راجع:
Oliver, op. Cit., p.30,n. 15-61; of also Addison,Addison, Tem-plars, p.155

وهكذا ابرزت الهجمات المتكررة التى شنها المسلمون على معسكر الداوية عدة حقائق، منها ادراك الجانب الإسلامى مدى قوة تلك الجماعة. وعلى هذا، عمل المسلمون بقدر الإمكان على إلحاق أكبر الأضرار بها، مما يؤثر على قوة الصليبيين وجدير بالذكر ان تلك الحقيقة قد أمح اليها المؤرخان أوليفر بادنوبورن وجاك دى فترى بقولهما انه عندما كان المسلمون يهاجمون معسكر الداوية، كان يصيب الفزع والهلع كافة الصليبيين[1]. وهناك حقيقة اخرى تتضح مما سبق ذكره من احداث، ألا وهى أن الداوية قد ألحقوا بأسوار مدينة دمياط اضرار بالغة، وعلى هذا كانت معظم الهجمات الإسلامية تنصب على معسكر الداوية على وجه التحديد بهدف تقليل تلك الأضرار.

على أية حال، بعد وفاة وليم دى شاتر، تولى المقدم بطرس دى مونتياجو رئاسة الداوية فى أغسطس[2] ١٢١٩م/ جمادى الآخرة ٦١٦هـ. وفى بداية عهده، شارك الداوية الملك جان دى برين فى شن الهجوم على المعسكر الإسلامى فى فارسكور، ولكن تصدت لهم القوات الإسلامية وارغمتهم على الأرتداد بعد ان سقط ثلاثة وثلاثون فارساً منهم[3]. فعاد الداوية الى معسكرهم وشددوا مع بقية الصليبيين الحصار حول مدينة دمياط، بصورة جعلت من بداخلها يعانون الكثير من ندرة الأقوات عندهم[4]. لذلك

(1)Oliver, Damietta,pp. 5,40,Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem, pp. 50,126.

(2)Letter of peter Montacut, in, Roger of Wendover, The Flowers, VoI. 2,p. 433.

(3)Oliver, op. Cit., p. 41; Roger of Wendover, op. Cit.,VoI. 2 , pp .458-459; Estoire d'Eracles,pp.340-341;Jacque de Vitry,op. Cit .,p.129,Amadi; chroniques, VoI. I,p.110-111; Ernoul, chronique, pp. 297-298.

(٤)ابن الأثير: الكامل، جـ١٢ ،ص٢١٣ ؛ ابن الجوزى:مرآة الزمان، جـ٨ ،قسم٢ ،ص٦٠٣ ،ابن العديم:زبدة الحلب،جـ٣ ،ص١٨٨ ؛ابو شامة:الذيل على الروضين، ص١١٧ ،ابنواصل:مفرج الكروب،جـ٤ ،مطبعة دار الكتب،١٩٧٢ ،ص٣٣؛ابن ايبك: كنز الدرر،جـ٧ ،قسم٢ ،لوحة١٤٨ ؛النويرى:نهاية الأرب،جـ٢٧ ،لوحة٢٦ ؛ابو الفدا: المختصر، جـ٣ ،ص١٢٢؛ الذهبى دول الإسلام،جـ٣ ،ص١١٨-١١٩ ؛العمرى: مسالك الإبصار،جـ٢٧ ،قسم٢ ،لوحة١٧٠-١٧١ ،ابن كثير:البداية،جـ١٣ ،ص٨٢-٨٣، المقريزى:السلوك، جـ١ ،ص٢٠٠-٢٠١ ،العينى: عقد الجمان، جـ٢١ ورقة٦-٨

حاول الملك الكامل محمد فى ليلة الأحد ٢ نوفمبر ١٢١٩م/ ٢٢ شعبان ٦١٦هـ. دفع بعض المسلمين للنفاذ عبر المعسكر الصليبى، وإدخال بعض المؤن الى المدينة. ولكن تصدى لهم فرسان الداوية والإسبتارية الذين كانوا يقومون بحراسة المعسكر الصليبى أثناء الليل، واحبطوا تلك المحاولة[1]. وهذا موقف آخر للداوية، يوضح أن اعمالهم العسكرية لم تقتصر على شن الهجوم، والدفاع عن المواقع الصليبية، بل شملوا ايضاً اعمال الحراسة والأمن.

ادرك الصليبيون مدى ما تعانيه مدينة دمياط. لذا شنوا عليها في يوم الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٢١٩م/ ٢٥ شعبان ٦١٦ه، وتمكنو من الاستيلاء عليها[2]. ويقول صاحب تاريخ هرقل ان الداوية كانوا من أوائل الصليبيين الذين اقتحموا المدينة[3]. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الداوية وغيرهم من الصليبيين حول الغنائم التى استولوا عليها، وحول ملكية المدينة الإسلامية. لذلك ارسل البابا هورنوريوس الثالث

---

(1)Estoire d'Eracles,p.345.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ستيلاء الصليبيين على مدينة دمياط راجع:

ابن الأثير:الكامل،جـ١٢،ص٢١٣؛ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢،ص٦٠٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب،جـ٣، ص١٨٨؛ ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١١٧، ابن واصل: مفرج الكروب،جـ٤،ص٣٣٦؛ النويرى: نهاية الأرب،جـ٢٧،لوحة٢٦؛ ابو الفدا: المختصر،جـ٣، ص١٢٢؛ الذهبى دول الإسلام، جـ٣،ص١١٩، العمرى:مسالك الإبصار،جـ٢٧،قسم٢، لوحة٧١، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، صص٢٠٣؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣،ص٨٣-٨٤؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٤٥؛ المقريزى: السلوك،جـ١،قسم١،ص٢٠١؛ العينى: عقد الجمان،جـ٢١، ورقة٣-٨؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٣٨؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة١٠٥-١٠٦، وايضاً:

Letter of peter Montacut, in, Roger of Wendover, The Flowers, VoI. 2,p. 433.Oliver, Damietta,pp. 47-48,Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem,pp.154.Ernoul,chronique,pp.299-300;Estoire d'Eracles, p p.345-346;Matt.of Wesmnster,the Flowers,VOI.2, p.136,Wendover , op. Cit.,VoI. 2 . p.423;Amadi; chroniques, VoI. I,p.111

(3)Estoire d'Eracles,p.346.

خطاباً الى مقدمى الداوية والإسبتارية فى يوم الأثنين ٢٤ فبراير ١٢٢٠م/ ١٨ ذى الحجة ٦١٦هـ، يطالبهم فيه بالكف عن إثارة المنازعات، ويناشدهم بإطاعة المندوب البابوى[1]. ولعل إشارة البابا هذه تلقى مزيداً من الضوء على الدور التى كانت تمارسه الداوية آنذاك، والمتمثل فى إثارة المنازعات حول الحصول على الغنائم.

أما عن الجبهة الإسلامية، فقد الم الحز بالمسلمين لضياع مدينة دمياط ولكن الملك الكامل محمد طيب خاطر أخيه الملك لمعظم عيسى، الذى كان متواجداً فى مصر آنذاك، وطلب منه ان يتوجه الى اشام لشغل الفرنج عن مؤازرة اخوانهم فى دمياط. فسار المعظم فى مارس ١٢٢٠م/ المحرم ٦١٧هـ، وهاجم مدينة قيسارية، وهدم قلعتها، ثم توجه الى قلعة الداوية فى عثليت، وضرب الحصار حولها، ولكنه ادرك صعوبة الإستيلاء عليها، لقوة تحصيناتها، فعاد الى دمشق[2]. بينما ناشد الداوية فى عثليت إخوانهم فى دمياط بسرعة العودة الى الشام لمواجهة هجمات الملك المعظم. فعاد المقدم بطرس موشاجو ومعه بعض الداوية الى عثليت فى يوم الحد ٢٩ مارس ١٢٢٠م/ ٢٢ المحرم ٦١٧هـ[3]. بينما قام الملك المعظم عيسى فى يوم الاحد ٢٠ سبتمبر ١١٢٢٠م/ ٢٠ رجب ٦١٧هـ بشن هجوم آخر على قلعة عثليت، ولكنة لم يتمكن من الاستيلاء عليها، فضرب الصار حولها، واخذ يقذف اسوارها، واستمر الحصار حتى يوم الأثنين ٢ نوفمبر ١٢٢٠م/ ٤ رمضان ٦١٧هـ، حيث أدرك المعظم صعوبة الاستيلاء على المدينة، فرحل بقواته عائداً

---

(1)Cartulaiure Gèneral de L'Ordre des Hospitalliers,VOI,2,doc.1671, p .267.

(٢)ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨،قسم٢ ،ص٦٠٣-٦٠٤، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١١٨؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٠٧، وايضاً:
Oliver, Damietta,p. 58;Letter of peter Montacut, in, Roger of Wendover,Flowers,VoI.2,p.433,Estoire d'Eracles,pp.330-33,Ernoul, chronique, pp. 297-298.

(3) Letter de pierre Montaiqu, èd Melville, le Vie des Templiers, p. 157,Oliver op. cit, p. 68.

الى دمشق[١].

وفي الوقت الذى كان يمارس فيه الداوية هذا الدور فى الشام، قام أخوانهم فى دمياط بشن الهجوم على مدينة تنيس، والإستيلاء عليها، ونهب ما بداخلها[٢]. كما شاركوا الصليبيين فى شن غارة على بلدة البرلس فى يوليو ١٢٢٠م/ جمادى الأولى٦١٧هـ، ولكنهم وقعوا فى كمين اعدته لهم القوات الإسلامية هناك[٣].

بعد أن اطمأن بطرس دى منتياجو مقدم الداوية الى زوال الخطر الإسلامى على قلعة عثليت، عاد الى ضفاف النيل، فى الوقت الذى كانت الحملة الصليبية الخامسة فى مراحل نهايتها. إذ تمكنت القوات الإسلامية من إحاطة الصليبيين من كل جانب بعدما فجروا قناطر المياه التى غمرت معسكرهم[٤]. فوقع الصليبيون ومن بينهم فرسان الداوية فى الأسر، وطالبوا الملك الكامل بعقد الصلح، فأشترط عليهم، إعادة مدينة دمياط، وتقديم بعض الرهائن من كبارهم، كان من بينهم بطرس دى مونتياجو مقدم الداوية، والذى مارس دوراً كبيراً فى إقناع الصليبيين فى دمياط بإعادة المدينة للمسلمين فى سبتمبر ١٢٢١م/ رجب ٦١٨هـ[٥].

بتلك النتيجة انتهت الحملة المعروفة بالخامسة، حيث عاد الفرنج الى عكا بعد فشل مشروعهم فى مهاجمة مصر تمهيداً لإعادة سيطرتهم على بيت المقدس.

---

(1)Letter de pierre Montacat Tbid;Oliver op. cit, pp.67-68; Ernoul, chronique, pp. 306-307,Estoire d'Eracles,p.349.

(2) Jacque de Vitry, A.History of Jerusalem,pp.127-128;.Oliver op. cit, pp.56-58; Letter de pierre Montacut Tbid

(٣) ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٢٢؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧ لحة٢٨، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢ ،ص٩٠، وايضاً
Oliver, Damiet,p. 68;Estoire d'Eracles,p.348.

(٤) عن تلك الأحداث راجع: محمود سعيد عمران: حملة جان دى برين، ص٢٨٣-٢٩٣.

(5)Oliver,op.cit,pp.85,90-92;Roger of Wendover,The Flowers, Vol .2,p.436.

ويتضح مما سبق ان الداوية قاموا بدور بارز فى احداث تلك الحملة منذ ان وطأت اقدام الصليبيين ارض الكنانة، حتى رحلوا عنها الى عكا. وقد ترتبت على فشل آثار خطيرة. إذ انفجرت المنازعات بين افرنج الشرق والغرب الأوروبى الذى بدأت تساوره الشكوك فى إمكان إحراز نصر حاسم على المسلمين، بينما بدأ مركز الثقل يميل بوضوح لصالح مسلمى مصر والشام. كما اخذ الغرب ينغمس فى مشاغله ومشاكه الداخلية. فقد تطور النزاع بين الباب هونوريوس الثالى والإمبراطور فودريك الثانى بسبب مماطلة الأخير، للخروج بحملة صليبية الى الشرق الأدنى كان قد تعهد القيام بها، أما فى الشرق الأدنى، فقد نشبت المنازعات بين الصليبيين وبعضهم البعض، وكان طبيعياً ان ينغمس الداوية فى تلك المنازعات، بل وويصبحون طرفاً رئيسياً فيها.

وجاء نزاع الداوية، هذه المرة، مع من شاركوهم معظم العمليات العسكرية على ضفاف النيل، وتعنى بهم جماعة الفرسان الإسبتارية إخوانهم فى السلاح والرهينة. ففى أوائل اكتوبر ١٢٢١م/ أواخر شعبان ٦١٨هـ. نشب صراع مرير بين أفراد الجماعتين حل أمتلاك مدينة جبلة[١]، والتى كانت آنذاك فى حوزة المسلمين. وكان تصارعهم بسبب الوعد الذى صرح به بوهمند الرابع امير طرابلس للإسبتارية من قبل بمنحهم مدينة جبلة، إذا هم ساعدوه فى الإستيلاء عليها. ولكن ما لبث ان سحب هذا الوعد للإسبتارية ومنحه للداوية. وكان هذا إيذاناً ببدء الصراع بين الجماعتين، الى أن تدخل المندوب البابوى بلاجيوس. وحسم الخلاف بينهم فى يوم الجمعة ١٥ اكتوبر ١٢٢١م/ ٢٦ شعبان ٦١٨ه، على اساس أن يقتسم الفريقان المدينة بعد الاستيلاء عليها[٢]. هكذا تشابك افراد الجماعتين على

(١) جبل: اشا ياقوت الحموى الى عدة مواضيع اسلامية تحمل هذا الإسم، ومن بينها قلعة لساحل الشام تقع بين حلب واللازقية، هو الموضع المعنى بالذكر. راجع: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٣، ص٥١-٥٥.

(2) Documents coneernant les Tepliers, No.Xiv, p.22.

امتلاك مدينة إسلامية، لم تكن فى حوزة أى منهما، بل فى حوزة المسلمين، وكان صراعهم اساسه الوعود من الأمير الصليبي، فكانت وعوداً ممن لا يملك لمن لا يستحق. ويكشف الصراع بجلاء حقيقة الأطماع التوسعية للصليبيين بصفة عامة، وجماعتى الداوية والإسبتارية بصفة خاصة، فى رقعة الشرق الأدنى.

وأذا عدنا إلى الغرب نجد أنه كان ميداناً لصراع آخر بين البابوية والامبراطورية شغل حيزاً كبيراً من تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بسبب تصارع عاهلى المسيحية الغربية على مسألة التقليد العلمانى وبكلمة اخرى على السلطة والنفوذ. وكان الكفاح بين فردريك الثانى وهونوريوس الثالث حلقة من حلقات هذا الصراع الطويل. وأما عن السبب المباشر للنزاع بين العاهلين، فيرجع الى تعهد الامبراطور فردريك الثانى اكثر من مرة بالخروج بحملة صليبية الى الشرق الأدنى. ولكنه سرعان ما يتراجع عن ذلك متعللاً ببعض الحجج والمعاذير، بينما كانت البابوية تبذل قصارى جهدها، لإرسال الصليبيين الى الشرق الأدنى لإنقاذ الكيان اللاتينى الذى بدأ يتداعى بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة. وفى يوم الأثنين ١٨ ابريل ١٢٢٢م/ ٤ ربيع الأول ٦١٩هـ التقى البابا هونوريس الثالث بالإمبراطور فردريك الثانى بمدينة فيرولى Veroli الإيطالية لتنسيق أمر إرسال النجدات الصليبية الى الشرق الأدنى، وبعد هذه المقابلة تقرر استدعاء الملك جان دى برين ومقدمى الداوية والإسبتارية الى الغرب اللاتينى للتشاور فى هذا الامر. لذا عقد الصليبيون فى عكا مجلساً فى أكتوبر/ رمضان من العام نفسه تقرر فيه توجه الملك الصليبى جان دى برين ومقدم الاسبتارية، وفارس الداوية وليم كاديل Guillaum Caclel– نائباً عن مقدم الداوية بطرس مونتياجو لضروف مرضه– الى الغرب الأوروبى للتشاور مع البابا فى أمر الحملة الصليبية المرتقبة[١].

(1)Estoire d'Eracles,pp.354-355;Amadi;chroniques,VoI.I,p.115, Roger of Wendover,The Flowers, VoI .2,pp.490-491.

وبالنسبة للجبهة الإسلامية، فقد كان للإرتباط الذى يجمع بين اقطاب البيت الأيوبى الثلاثة الكامل ، المعظم، والأشرف، الفضل فى التغلب على الحملة الصليبة الخامسة. ولكن بدأ هذا الأرتباط ينهار فى نهاية عام ٦٢٠- وأوائل عام ٦٢١هـ/ نهاية عام ١٢٢٣وأوائل عام ١٢٢٤م، نتيجة للسياسة التى انتجها المعظم عيسى فى التوسع على حساب بعض افراد البيت الأيوبى فى الشام. فكان هذا إيذاناً ببدء الخلف بين أولئك الاقطاب[1].

وأما عن الجانب الصليبى فى الشام، فقد عاود الداوية الانغماس فى تلك الفترة فى الصراع الذى كان قائما بين الملك الأرمينى وبين الأمير الصليبى بوهمند الرابع. وعلى الرغم من ان البابا هونوريوس الثالث قد وقع قرار الحرمان الأخير[2]، إلا أن الداية قد شاركوه فى عام ١٢٢٦م/ ٦٢٣هـ فى شن الغارات على الأراضى الأرمينية[3]. وربما كان هدفهم من وراء ذلك، ه الحصول على المزيد من الهبات والمنح والاملاك الذى كان يقدمها الأمير الصليبى لهم، ضاربين بقرارات البابا عرض الحائط، طالما أن موقفهم هذا يخدم مصالحهم الخاصة.

وهكذا كان كل من افرنج الشام وآل البيت الأيوبى مشغولين بنزاعاتهم وصراعاتهم الداخلية التى حالت دون قيام أى من الطرفين بعمل حاسم ضد الطرف الآخر، اللهم إلا المناوشات والمناورات السريعة الخاطفة التى كانت تحدث

---

(١) عن الصراع بين افراد البيت الأيوبى فى تلك الفترة راجع:

ابن الأثير الكامل، جـ١٢،ص٣٠٢-٣٠٣، ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٦٢٥-٦٤٣، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣،ص٢٠٦، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٢٤، ١٣٣، ١٤٢، ابن واصل مفرج الكروب، جـ٤،ص١٢٧-١٢٨، ١٣٧-١٣٨، ١٧٦، ١٨١، ٢٠٦، النويرى: نهاية الأرب،جـ٢٧، لوحة٣٠-٣٦.

(2)Oliver, Damiet,p. 53.

(٣) ابن الآثير: الكامل، جـ١٢، ص٣٠٢-٤٠٣، وايضاً:

Amadi;chroniques,VoI.I,p.120.

بين وقت وآخر نتيجة متامة الحدود والعداء المتأصل لدى كل منهما حيال خصمه. فقد حدث فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م أن جماعة من التركمان تصيدوا أحد فرسان الداوية قتلوه وفقاً لرواية انفرد بها ابن الأثير. وعندما علم الداوية فى انطاكية بذلك، اتجهوا الى أولئك التركمان. أغاروا عليهم، فنهبوا وسلبوا وأسروا. عندئذ راسل الداوية شهاب الدين متولى أمور حلب، وهددهم بقصد بلادهم إن لم يردوا ما نهبوه، فى نفس الوقت الذى نجح فيه عسكر حلب فى قتل فارسين آخرين من الداوية، مما دفع الآخيرين الى الاذعان لأمر شهاب الدين، وردوا الى التركمان كثيراً من أموالهم واسراهم[١]. ولم تشر المصادر العربية أو الغربية المعاصرة لتلك الحادثة والمتأخرة عنها زمنياً، الى تلك الحادثة، مما يجعلنا نتقبل رواية ابن الاثير بشيء من التحفظ.

على أى حال، عندما تطور الخلف بين ابناء البيت الأيوبى فى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، اخذ كل من الملكين المعظم والكامل يبحث عن نصير له ضد خصمه. فأتجه المعظم الى جلال الدين خوارزم شاه زعيم الخوارزميين، بينما راسل الكامل الإمبراطور فردريك مستنجداً به ضد اخيه، وعده بتسليم بيت المقدس له مقابل ذلك[٢] وقد اغتنم الأمبراطور تلك الدعوة، ووجد فيها الخلاص من منازعاته مع

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٣٠٩.

(٢) ابن الجوزى: مرآة الزمان،جـ٨، قسم٢، ص٦٣٢، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٤٨،١٥١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٠٦، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٣، لوحة٢٩٤، الذهبى: دول الإسلام جـ٢، ص١٣٢، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة٢٠٥، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢١٩، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٢٣، المقريزى: السلوك جـ١، قسم١، ص١٦٢، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة١٦٥-١٦٦، وايضاً: Wielger,The Infidel Emperor,p. 134 ; Amadi ; chroniques,VoI.I, p . 124; Roger of Wendover,TheFlowers,VoI.2,pp.512.

البابا، فأخذ يستعد للرحيل الى الشرق الأدنى، بينما ظن البابا جريجورى التاسع(١٢٢٧-١٢٤١م/ ٦٢٤-٦٣٩هـ) ان الأمبراطور يماطله كعادته، فأصدر ضده قرار الحرمان فى نوفمبر ١٢٢٧م/ ذى الحجة ٦٢٤هـ[1]. وارسل خطابات الى مقدم الداوية فى الشرق الأدنى يعلمه بذلك، ويطلب منه عدم التعامل مع الأمبراطور المحروم كنسياً، يؤكد للداوية انه لا سلطان عليهم إلا من قبل البابا فقط[2].

وقبل ان تصل خطابات البابا الى الداوية فى الشرق الأدنى، كان الامبراطور فردريك قد توجه الى ميناء عكا فى سبتمبر ١٢٢٨م/ شوال ٦٢٥هـ، فاستقبله بطرس دى مونتياجو مقدم الداوية مع بعض القادة الصليبيين بالترحاب[3]. وعلى هذا يمكن القول بان علاقة الداوية بالامبراطور كان يسودها الوفاق، ولكن بمجرد وصول خطابات البابا إليهم تبدل موقفهم من الأخير. ففى يوم الخميس ٢٣ نوفمبر ١٢٢٨م/ ٢٣ ذى الحجة ٦٢٥هـ، طلب فردريك من مقدمى الداوية والإسبتارية أن يشاركاه فى التوجه الى مدينة يافا، وفى إعادة تحصينها. فرداً عليه بانهما لا يأتمران إلا بأوامر البابا فى روما الذى لا يروقه هذا الأمر، ولكن طالما أن إعادة تحصين يافا سوف يعود بالنفع على الصليبيين، فإنهما سيذهبان معه طواعية غيرمأمورين.

وثمة تساؤل هو: إذا كان الداوية لا يتعاملون بالفعل مع شخص حلت عليه لعنة الكنيسة، وطبق عليه قرار الحرمان، فلماذا إذن شاركوا الأمير بوهمند المقطوع من الكنيسة فى إغارته على الأراضى الأرمينية؟ ولماذا وافقوا على مشاكة الإمبراطور فردريك فى توجهه الى يافا رغم ان البابا قد نهاهم عن التعامل معه؟ فى الحقيقة انه كما أظهرت الأحداث السابقة، فإن تلك الفئة كانت تضع مصالحها نصب اعينها،

(1) Wiegler, op. cit., p. 110.
(2)Letter de pierre Grègoire ix, in R.O.L., xi, pp. 421-23, VOI. III, p. 81; Estoire d'Eracles, p. 370.
(3)Wiegler, op. cit., p. 135.

وفوق أى إعتبار آخر، وإنهم لم يقدموا على أى عمل إلا وهم يعلمون تمام العلم بأنه سوف يعود عليهم بالمنفعة، حتى ولو كان يسبب اضراراً بالصالح الصليبى العام، وحتى لو كان ضد رغبة البابا فى رما. وإن مشاركتهم للإنبراطور فى التوجه الى يافا كانت أيضاً من أجل ذلك الغرض، خاصة إذا عرفنا ان للداوية قلعة فى يافا وإن إعادة حصين المدينة سوف يعزز من مقدرة القلعة من الناحية العسكرية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنهم ارادوألا يقطعوا صلتهم تماماً بالأمبراطور الألمانى وأن يكونوا على مقربة من مجرى الأحداث ريثما تتضح الأمور.

ظلت المراسلات بين الملك الكامل محمد، والإمبراطور فردريك الثانى قائمة، على الرغم من آن الدافع لآستنجاد الكامل بالامبراطور قد زال بوفاة الملك المعظم فى يوم الجمعة غرة ذى الحجة ٦٢٤هـ/ ١٣ نوفمبر ١٢٢٧م[١]، أى قبل مجىء الإمبراطور الى الشام. ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن خطر المغول والخوارزمية كان لا يزال مائلاً، بالإضافة الى استمرار الخلف بين افراد البيت الأيوبى، وفوق كل ذلك شخصية الرجلين اللذين سبقا عصرهما، وميلهما الى السلام والتسامح.

---

(١) اختلفت آراء المؤرخين العرب حول وفاة الملك المعظم ففريق منهم يرى أنه فى نهاية ذى القعدة، والفريق الآخر يرى انه فى غرة ذى الحجة، ولكنهم اتفقوا جميعاً على ان وفاته كانت يوم الجمعة. راجع:

ابن الأثير الكامل، جـ١٢، ص٣٠٨، ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٦٤٤، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٥٢، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٠٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٣، لوحة٢٣٣، النويرى: نهاية الارب، جـ٢٧، لوحة٣٧، ابو الفدا: المختصر جـ٣، ص١٣٨، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٣١، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة١٩٨، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٢٢؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٢١، ابن حبيب: جهينة الاخبار فى اسماء الخلفاء والانصار(مخطوط) ورقة ٤٣، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٤٧، المقريزى: السلوك،جـ١، قسم١، ص٢٢٤، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة١٧٨-١٨٠.

لكل هذا وافق الفريقان على عقد صلح يافا فى يوم الاحد ١٨ فبراير ١٢٢٩م/ ٢٢ ربيع الأول ٦٢٦هـ، والذى كان من أم بنوده ان يتسلم الفرنج مدينة المقدس على ألا يقوموا بإضافة أى منشآت حربية إليها، ويظل المسجد الأقصى والقرى التى حل بيت المقدس فى حوزة المسلمين، وان تظل الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات[١].

كان من الممكن ان تهيء تلك المعاهدة حلاً معولاً للمشكلة التى عكرت صفو السلام فى الشرق الأدنى لمدة طويلة إلا عقلية هذا العصر لم تستطع ان تهضم تماماً ما توصل اليه العاهلان من إتفاق. إذ قوبل الإتفاق بالرفض والاحتجاج من جانب المسلمين والصليبيين على حد سواء. اما عن الداية فقد رفضوا تماماً تلك

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الإتفاقية راجع:

ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٣١٤-٣١٥، ابن الجوزى: مرآة الزمان- جـ٨، قسم٢، ص٦٥٣، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٠٥، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٥٤، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢١٤-٢٤٣؛ ابن ايبك: كنز الدرر جـ٧، قسم٣، لوحة٢٣٦، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٣٩، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٤١، الذهبى: دول الرسلام، جـ٢، ص١٣٢، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة٢٠٤، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٢٢، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٢٣، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة٢٤٧، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص٢٣٠، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٢٢١-٢٢٣، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٢٧١، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة١١٦، وايضاً:

Wielger,The Infidel Emperor,pp.135-137;Estoire,pp.371-372, chronolagigue de Hèthoum, in,R.H.G.-Doc. Arm., VOI.I, p.486,Amadi ;chroniques,VoI.I,pp.135-136 ;Matt .of Westminster ,The Flowers,TheFlower, Vol .2, p.157; Roger of Wendover, TheFlowers, VoI.2,pp.506-507.

الإتفاقية، وأخذوا يدبرون المؤامرات لأعتيال الإمبراطور، خاصة بعدما توجه الى زيارة بيت المقدس في يوم ١٧ مارس ١٢٢٩م/ ٢٩ ربيع الآخر ٦٢٦هـ(١). ولعل السبب في ذلك يرجع الى تلك الإتفاقية التى حرمت الداوية من الإستيلاء على المسجد الأقصى الذى كان مقراً رئيسياً من قبل(٢)، أو بسبب رغبة الإمبراطور فى مصادرة حصن عثليت حرمانهم من حق حمايته، نظراً للهجوم العنيف، والتوبيخ اللازع الذى وجهه مقدمهم للإمبراطور عندما عقد تلك الإتفاقية(٣). وإزاء هذا الموقف المتعنت من جانب الصليبيين، قرر الامبراطر فردريك العودة الى بلادة بعد ان قام بحملته التى اختلفت كل الإختلاف عن الحملات الصليبية السابقة عنها واللحقة لها.

ومن خلال علاقة الداوية بالامبراطور فردريك، يتأكد ان هذه الفئة لم تتورع عن تدبير المؤامرات فى سبيل مصالحها الخاصة. فبالرغم من أن مدينة بيت لمقدس قد اصبحت، مرة اخرى، في حوزة اللاتين، إلا انهم كانوا يأملون فى الحصول على المزيد من المكاسب، فهاجموا شخص الإمبراطور، الذى يعتبر فى عداد اعظم الشخصيات التى انجبتها العصور الوسطى فى القرن الثالث عشر الميلادى/ القرن السابع الهجرى. كما يتضح ان جماعتى الداوية والإسبتاريةقد سارتا على نهج واحد فى موقفها حيال الإمبراطور. وعلى هذا اتسمت الفترة التى تلت رحيل فردريك بالتعاون العسكرى بين أفراد تلك الجماعتين، خلافاً للعلاقات السيئة التى كانت

(١)ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨قسم٢، ص٦٥٥-٦٥٧؛ أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٥٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص٦٢٦، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، قسم٣، لوحة٢٣٨-٢٣٩؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٦٢٦، وأيضاً:
Les Gestes des chiprois,p.679;Amadi,op.Cit.,p.143; Matt.of Westminster, Tbid.

(2)Les Monuments des creisès,dans, Les Royaume de Jèrusalem, èd, camille Enlart, paris, 1928, voI.2,p.5.

(3)Estoire d'Eracles,p.375.Les Gestes de chiprois, p . 679 ; Wielger,The Infidel Emperor,p.141;Roger of Wendover, TheFlowers ,VoI.2,p 507.

قائمة بينهما قبل ذلك. والمهم ان المصالح الخاصة والمشتركة كانت تتحكم فى تكييف طبيعة العلاقات بينهما.

وكعادة الداوية والإسبتارية، فى عدم إحترام العهود والمواثيق اخذ افراد الجماعتين يستعدون لشن الغارات على القى والبلدان الإسلامية دون مراعاة للهدنة القائمة بين المسلمين والصليبيين آنذاك. فقد كانت جماعة الفرسان الإسبتارية على خلاف مستمر مع حكام مدينة حماة الإسلامية، نظراً للعداء المستحكم بين الصليبيين والمسلمين فى تلك الفترة من جهة، ولتقارب مناطق نفوذها من جهة أخرى. لكل ذلك، اشترك الداوية مع الإسبتارية فى شن إغارة مفاجئة على حصن بارين الذى يقع بالقرب من كل من حصن الداوية فى صافيتا وحصن الأكراد للإسبتارية[1]، في أواخر عام ١٢٢٩م/ أواخر عام ٦٢٦هـ، فسلبوا ونهبوا وعادوا الى قلاعهم[2]. وفى اغسطس/ رمضان من العام التالى، شن الداوية هجوماً آخر على مدينة حماة الإسلامية، فتصدى لهم ملكها المظفر محمود الثانى(٦٢٦-٦٤٢هـ/ ١٢٢٩-١٢٤٤م) والتقى بهم عند افنون[3]، حيث انزل بهم الهزيمة وقتل وأسر بعض فرسانهم[4].

اراد الداوية والإسبتارية أن يثأروا من هزيمتهم السابقة، فخرجوا فى أوائل يونيو ١٢٣١/ أوائل شعبان ٦٢٨هـ للهجوم على مدينة حلب، ولكن تصدى لهم مرة أخرى عسكر حلب، وجرت بين الفريقين مناوشات انتهت بعقد الهدنة بين

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٧، ص٦٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٣١٩، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٧٩، وايضاً:
Les Gestes des chiprois,p.724.

(٣) يبدو أن المقصد بها قرية قفليون الحالية التى تقع بالقرب من بارين، وتبعد الآن عن حماه بمسافة ٣٥ كيلو متراً. راجع: ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص٣٠٢، ح(٣).

(٤) ابن واصل: نفس الجزء والصفحة، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٢٦، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٢٧٠، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة١١٨، وايضاً:
Estoire d'Eracles,p.304;Les Gestes des chiprois, p . 724.

الطرفين فى يوم الاثنين ٢٣ يونيو ١٢٣١م/ ٢٠ شعبان ٦٢٨هـ.[١]

ما لبث ان توفى بطرس دى مونتيباجو مقدم الداوية فى عام ١٢٣٢م/ ٦٣٠هـ، وتولى رئاسة جماعته من بعده ارمان دى بريجورد Armand de perigord[٢] وفى بداية عهده، خطط الداوية والإسبتارية مع بوهمند الخامس امير طرابلس وانطاكية (١٢٣٣-١٢٥١م/ ٦٣١-٦٥١) للقيام بحملة عسكرية على الأراضى الأرمينية[٣]، لكن هذا المشروع فشل لأختلاف الشركاء. وخلال تلك الفترة قام الداوية بشراء قلعة كفرلات[٤] من يوحنا سيد قيسارية(١٢٢٩-١٢١٤م / ٦٢٦-٦٣٩هـ)، وأضافوا إليها بعض المنشآت العسكرية[٥]. وهذا موقف آخر يوضح أن الداوية كانوا على درجة كبيرة من الثراء، يبتاعون ويشترون القلاع، اى انهم تحولوا من رهبان عسكريين الى رجال لهم مطامع دنيوية. ولم يكن هذا الموقف الوحيد الذى يوضح هذا الإتجاه. بل هناك موقف آخر يؤكد انهم كانوا يضعون مصالحهم فوق الصالح الصليبى العام. فبالرغم من الوفاق والتعاون العسكرى الذى لمسناه بين الداوية والإسبتارية من قبل، إلا أن حلفاء الأمس قد صاروا أعداء عندما شب نزاع بينهما حول استغلال احد روافد الأنهار فى عكا. واخذ أفراد الجماعتين يتقاتلان فى شوارع المدينة، بصورة هددت الوضع الصليبى هناك. لهذا تدخل البابا جريجورى التاسع، وناشد افراد الجماعتين

---

(١) على الرغم من ان المصادر العربية قد أشارت الى الداوية والإسبتارية بعينهم فى تلك الحادثة إلا انها لم تحدد مدة تلك الهدنة، بينما لم تشر المصادر الغربية الى الحادثة المذكورة. راجع: ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٠٩-٢١٠، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص٣١٠-٣١١.

(2)Estoire d'Eracles,p.394; Also; Addison, Templars, p. 160.

(3)Estoire d'Eracles,p.405.

(٤) كفر لات أو كفر لاب: بلدة تقع على ساحل الشام بالقرب من مدينة قيسارية. راجع: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٧، ص٢٦٦.

(5) Letter of Armand perigord, in Addison,Templars, p.163; Les Gestes des chiprois,p.711; Also: Benvensti, M.The crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1976,p.331.

بحسم الخلاف بينهما عن طريق التفاوض، وإلا وقع عليهما عقوبة الحرمان[1].
وفى يوم الأربعاء ٢٥ يوليو ١٢٣٥م/ ٨ ذى القعدة ٦٣٢هـ، تم الاتفاق بينهما على كيفية استخدام المياه فى ذلك الرافد[2].

استمرت جماعة الفرسان الداوية تشن الهجمات على القرى والبلدان الإسلامية، على الرغم من إنعقاد الهدنة بين لمسلمين والصليبيين. ففى أوائل يوليو ١٢٣٧م/ أواخر شوال ٦٣٤هـ، خرج الداوية من قلعه في بغراس، وشنوا هجوماً على العمق[3]. واستولوا على اغنام وماشى التركمان فى تلك المنطقة، فخرج إليهم المعظم تورانشاه (٦١٣-٦٣٤هـ/ ١٢١٦-١٢٣٦م) عم الملك العزيز صاحب حلب وحاصر قلعة بغراس، وضيق عليه، حتى نفد ما عند الداوية من الأقوات بينما كانت القوات الإسلامية قد نجحت في إحداث بعض الثغرات فى أسوار القلعة، وكاد المسلمون ان يفتحوها، لولا استنجاد الداوية بالأمير بوهمند الخامس، الذى شفع عند المعظم، فأجابه الآخير الى طلبه، ورحل بعسكره من أمام بغراس بعد ان عقد الصلح بينه وبين الداوية[4]. ولكن، كعادة الداوية فى عدم احترام العهود، فإنهم لم يلتزموا بالمعاهدة السابقة. فقد حشدوا قواتهم تحت قيادة

(1) Documents concernant Les Templiers, No.XVII, p23;Estoire d'Eracles,pp.413-414; Rosheln, Continuation de Guillau de Tyre dite du Monuscrit de Rothelin, (1229-1261) in R.H.C-H.Occ., voI.II, Paris, 1859,pp. 539,548; Matthew paris, English History, London, 1852, voI.I.p.212.
(2) Documents concernant Les Templiers, No.XVII,pp.23-26.
(٣) العمق: كورة من كور الشام، تقع بين حلب وانطاكية. راجع: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٦، ص٢٤٤.
(٤) ابن العديم: زبدة حلب، جـ٣، ص٢٣٠-٢٣١، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص١٣٢؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٥٩، العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٢، لوحة٢٣٤؛ ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢، ص٢٤٢، العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٣٦٧، وايضاً:
Estoire d'Eracles,p.403; Matt.paris, English History,voI.I,p.62; Amadi;chroniques, voI.I,p.184; Annales de Terre Sainte, in, A.O.L. VOI. II, part.2, p.436.

المارشال وليم دى مونتفرات Giullaume de Montferrat، واتجهوا في يوم الأربعاء ٢٤ يونيو ١٢٣٧م/ ٢٨ شوال ٦٣٤ للهجوم على قلعة دربساك والتى كانت آنذاك في حوزة المسلمين. وأراد الداوية ان يخفوا تحركاتهم حتى يستولوا على الحصن في غفلة من أهله. لذا سلكوا الدروب الوعرة الممتدة بين بغراس وقلعة دربساك. ولكن المسلمينعلموا عن طريق عيونهم بأمر هذا الهجوم، فكمنت الغالبية العظمى من قوات حلب وراء السفوح الجبلية القريبة من قلعة درسال، بينما تجه البعض منهم الى داخل القلعة لحمايتها من جهة، وشغل الداوية من جهة اخرى. وحتى يغرى المسلمون الداوية للقوع في الكمين تركوا باب الحصن مفتوحاً. وما إن صل الداوية الى مقربة من دربساك، حتى خرجت القوات الإسلامية من داخل الحصن وظلت تناوشهم، وتتراجع الى داخله. وهنا ملك الغرور وليم دى مونتفراك مارشال الداوية، وشعر أن النصر قريب. فصمم على تتبع المسلمين، واقتحام الحصن، بينما نصحه بعض فرسان الداوية بالتريث، ولكنه رماهم بالجبن، وصمم على ما نوى عليه. ما كاد الداوية يقتربون من أبواب القلعة، حتى كبس عليهم عسكر حلب، وأحاطوا بهم من كل جانب وأنزلوا بالداوية هزيمة منكرة[1].

وترجع هزيمة الداوية في تلك المعركة الى عدة اسباب بعضها يتعلق بالداوية انفسهم، والبعض الآخر بالجانب الإسلامي. ففيما يتعلق بالداوية نلاحظ أولاً انهم خرجوا لمهاجمة دربساك بعد هزيمتهم السابقة بعد ان عقدوا الصلح مع معسكر حلب، ولكنهم لم يلتزموا به. يضاف الى ذلك، أنهم حاولوا إتباع اسلوب المخادعة، فسلكوا الطرق الوعرة، والتى كان لها أكبر الأثر على استنفاد قواهم، وإحلال

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٣١-٢٣٢، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص١٣٢-١٣٣، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٥٩، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، لوحة٢٣٤؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٤٢؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٣٧٨، وايضاً:-
Matt.paris,English History,voI.I,pp.62-63;Estiore d'Eracles,pp.404 - 405,Amadi; chroniques, p. 184; Annales

التعب بهم بجيادهم. فوق كل هذا، غطرسة المارشال وليم دى مونتفرات الذى رفض ان يستمع الى نصيحة بعض فرسان الداوية الذين الفوا اسلوب المسلمين فى معاركهم وتكتيكاتهم العسكرية. أما بالنسبة للجانب الإسلامى، فما لا شك فيه، ان نجاح كشافة المسلمين فى رصد تحركات الداوية، كان له اكبر الأثر فى إنتصارهم، حيث بدأوا يستعدون لتلك المواجهة، ووضعوا الخطط المناسبة لها. يضاف الى ذلك، دبراعة المسلمين فى تنفيذ اسلوب الكمائن، وفى عمليات الكر والفر.

أما عن نتائج تلك المعركة، فمما لا شك فيه ان هزيمة الداوية السابقة قد أثرت الى حد مبير فى مقدرتهم العسكرية. إذ قتل فى هذه المعركة مائة من خيرة فرسانهم، وثلاثمائة من حملة النبال، كما نجح المسلمون فى إسقاط رايتهم، بعد ان قتلوا حاملها ريجنالد دى ارجينتون، هذا، بالإضافة الى أسر العديد من فرسانهم، بعد ما تتبع عسكر حلب من فر منهم وأختبأ فى الجبال وخلف الأشجار، بحيث لم ينج منهم إلا نفر قليل[1]. لكل ذلك، سارع الداوية إسال الأموال والرجال إليهم[2]. وكان للهزيمة السابقة أثر كبير فى ردع الداوية، وجعلهم لا يقدمون، لفترة ليست بقصيرة، على مهاجمة القرى والبلدان الإسلامية.

أما فيما يتعلق بالجانب الإسلامى، فقد استمر الخلف بين أبناء البيت الأيوبى، والذى كان له اكبر الأثر على مجريات الأحداث فى خضم الصراع الصليبى الإسلامى، وإن كان هذا الصراع قد توقف لفترة قصيرة بعد وفاة كل من الملك

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٣، ص٣٣٢، ابن واصل: مفرج الكروب،جـ٥، ص١٣٣، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٥٩، العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، لوحة٢٣٤، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٤٢، العينى عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٣٦٨، وايضاً:
Matt.paris,English History,voI.I,p 63;Estiore d'Eracles, p405,Amadi ; chroniques,voI.I, p. 184; Annales de Terre Sai te,p. 436.
(2) Matt.paris. op. cit., VOI. I, pp.63,137; Estiore d'Eracles,p 405

الأشرف والملك الكامل فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م[١] ، إلا أنه سرعان ما تفجر من جديد.

وهكذا يتضح أن الفترة التى تلت وفاة صلاح الدين تميزت بأنقسام البيت الأيوبى، وإنغماس الصليبيين فى الصراعات بين بعضهم البعض من جهة، وبينهم وبين الأرمن من جهة أخرى. وعلى هذا كان الصراع الصليبى الإسلامى فى تلك الفترة منحصراً فى بعض المناوشات غير الحاسمة بين الجانبين. كما اصبحت مصر منذ القرن الثالث الميلادى/ القرن السابع الهجرى هى الهدف الرئيسي للحملات الصليبية ، وكان فرسان الداوية من أوائل الفرنج المقيمين فى الشام، والذين شرعوا فى تنفيذ هذا الإتجاه الجديدبغاراتهم على موانى مصر فى عامى ١٢٠٤م/ ٦٠هـ، ١٢١١م/ ٦٠٧هـ. كما وضح ان افراد تلك الجماعة كانوا لا يقدمون إلا على الأعمال التى ستعودبالمنفعةعليهم دون اعتبار للصالح الصليبى أو لقرارات البابا. وعلى هذا تباين دورهم فى الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة بين الإيجابية فى الأولى والسلبية فى الثانية، وأنغمسوا فى صراعات مريرة مع أخوانهم الصليبيين.

أما عن الأيوبيين فإنهم لم يألوا جهداً فى مواجهة الأتجاه الجديد للصليبيين، وقد عمدوا فى ذلك الى اسلوبين: الأسلوب الأول وينحصر فى المقاومة المسلحة ، والمتمثلة فى غارات كل من الملكين الأشرف والمعظم على قلاع الصليبيين فى الشام، والتصدى مع أخيهم الملك الكامل محمد للفرنج على ضفاف النيل. وأما

(١) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٦٩٩، ٧٠٤-٧٠٦، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٦٥-١٦٦، ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص١٣٧، ١٥٤، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧ قسم٣، لوحة ٢٦٥، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٥٨-٥٩، ابو الفدا: المصدر السابق، جـ٣، ص١٥٩، ١٦١، العمرى: المصدر السابق، جـ٢٧، قسم٢، لوحة٢٣٥؛ ابن الوردى: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٤٢-٢٤٣، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٤٦-١٤٩، العينى: المصدر السابق، جـ٢١، ورقة٢٦٢-٢٦٣، ٢٩٠-٢٩٣، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ١٢٦-١٢٧.

الأسلوب الثاني فهو سياسة المسالمة التي كانت تتميز بكثير من التساهل من جانب المسلمين إزاء مواقف الفرنج. ولعله أبرزه موقف الملك الكامل من الإمبراطور فردريك الثاني في حملته على الشرق الأدنى. كما جاء الصراع بين أفراد ذلك البيت عاملاً مشجعاً للبقاء الصليبي في الشرق الأدنى بعد ما نجح صلاح الدين في زعزعة هذا الكيان بانتصاراته العديدة على الفرنج، وعلى هذا يمكن القول بأن كفة الميزان في الصراع الصليبي الإسلامي في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي، كانت متعادلة بين الفريقين، بحيث لم يتسن لأى منهما إحراز نصر حاسم على خصمه، وانحصر الأمر في مناوشات ومغامرات سطحية. وإن كان الصراع بين أفراد البيت الأيوبي قد توقف لفترة قصيرة بعد وفاة الملكين الأشرف والكامل في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، فإنه سرعان ما عاد أقوى مما كان عليه من ذى قبل، بل وتدخلت فيه قوى أخرى، ونعنى بها الخوارزمية وافرنج الشام مما سيكون له اكبر الأثر على مجريات الأحداث كما سيتضح في الفصل التالي.



الفصل السابع

العلاقات السياسية بين الداوية والمسلمين منذ وفاة الملك الكامل وحتى النهاية الدولة الايوبية

(١٢٣٨ - ١٢٥٠ / ٦٣٥ - ٦٤٨ هـ)

- موقف الداوية من حملة الملك ثيوبولد (١٢٣٩ - ١٢٤٠م/٦٣٧-٦٣٨ هـ)
- الصراع بين الداوية والاستبارية وانعكاساته على علاقة الداوية بالمسلمين .
- هزيمة الداوية فى معركة غزة عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ اسبابها ونتائجها .
- دور الداوية فى حملة الملك لويس التاسع على مصر (١٢٤٨- ١٢٥٠م/ ٦٤٦- ٦٤٨ هـ) .
- تقييم عام للعلاقات بين الداوية والمسلمين فى العصر الايوبى .

غدت منطقة الشرق الادنى فى اواسط القرن الثالث عشر الميلادى / اواسط القرن السابع الهجرى، مسرحا للاضطرابات والقلاقل . اذ خرج المغول بجحافلهم وانزالوا الخراب والدمار بمعظم بلاد فارس وغربى اسيا، كما تفرق الخوارزمية بعد مقتل زعيمهم جلال الدين خوارزم شاه، وعاشوا فسادا فى الاراضى الواقعة الى الشمال من نهر الاردن اما عن الايوبين فى مصر والشام، فقد انفجر الصراع بينهم، بعد وفاه كل من الملك الاشراف والملك الكامل فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، بصورة زعزعت الكيان الايوبى، وجعلته يسير بخطى سريعة نحو الضعف والانهيار . وكان لكل ذلك اثره فى انعاش الامارات اللاتينية فى الشرق الادنى، وفى استمرار تواجد الصليبيين فى الشام ولو الى حين اذ لجأوا الى أساليب الخداع والمداهنة لتوسيع مرجل الخلف بين اقطاب الايوبيين، فتحالف البعض منهم مع فريق مسلم ضد فريق آخر، الى أن تجمعت كلمتهم على الانحياز الى جانب اعداء مصر، فكان نصيبهم هزيمة شديدة فى معركة غزة عام ٦٤٢/١٢٤٤ فى عهد الصالح نجم الدين ايوب، جعلتهم يفقدون الغالبية العظمى من المدن والقلاع الاسلامية التى كانوا قد استولوا عليها ، هذا ، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه الاستعدادت فى الغرب الاوربى على قدم وساق لارسال حملة بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع من أجل مهاجمة مصر، تأكيداً للاتجاه السابق من قبل الصليبيين، بأن مصر هى مفتاح الشرق، وبداية الطريق إلى بيت المقدس ولكن خاب ظنهم بأن منى أصحاب تلك الحملة بهزيمة كبرى على ضفاف النيل، وفشلوا فى تحقيق مآربهم،وكان هذا آخر انجاز للايوبيين فى مصر بعد مقتل المعظم تورانشاه، وتولى شجر الدرزمام الأمور بها لتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ دولة المماليك البحرية .

واذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص نقول أن وفاة الملك الكامل محمد فى ليلة الأربعاء ٢١ رجب ٦٣٥هـ/ ٩ مارس ١٢٣٨م، كانت نذيرا بتفكك الدولة الأيوبية، وانهيار بنيانها الشامخ الذى اقامه الناصر صلاح الدين اذ خلفه فى حكم مصر ابنه الملك العادل ابى بكر،والذى لم يكن له شىء من صفات ابيه واسلافه

.وقد اناط ابن عمه الملك الجواد يونس فى حكم دمشق . ولكن الأخير اراد ان يستقل بها، فعزم العادل على عزله، عندئذ تنازل الملك الجواد عن حكم دمشق للصالح نجم الدين زيوب – أخى الملك العادل – مقابل بعض المواضع الآخرى فى العراق ، وبعد أن دخل الصالح نجم الدين دمشق فى جمادى الآخره ٦٣٦هـ/ يناير ١٢٣٩م ، اتفق مع ابن عمه الملك الناصر صلاح الدين داود صاحب حصن الكرك وعمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك على التوجه إلى مصر، وعزل اخيه . وما أن خرج الصالح نجم الدين الى نابلس، حتى هجم الصالح اسماعيل على دمشق وامتلكها فى صفر ٦٣٧هـ/ سبتمبر ١٢٣٩م، بينما توجه الصالح نجم الدين فى صحبه الناصر داود إلى مصر، واصبح الأول سلطانا عليها بعد عزل اخيه فيى يوم الأحد ٢٤ ذى العقدة ٦٣٧ هـ/ ١٦ يونيو ١٢٤٠م[١] .

وثمة تساؤل يطرح نفسه هل استغل الصليبيون بصفه عامة،وجماعة الفرسان الداوية بصفة عامة، تلك المنازعات التى فتت من عضد الجبهة الاسلامية آنذاك ؟

اذا تتبعنا موقف الصليبيين فى تلك الفترة،نجد أن الداوية كانوا على علم بما يجرى داخل الساحة الاسلامية، وانهم ارسلوا خطابا إلى البابا جريجورى التاسع ١٢٢٧-١٢٤١/ ٦٢٤-٦٣٩هـ يعلمونه بذلك ويطالبونه بسرعة استغلال هذا الموقف،وارسال الصليبيين إلى الشرق الادنى.[٢] فأوفد البابا بعض رسله إلى ملكى

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الاحداث راجع :

ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٠٤-٧٢٨، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٤٥-٢٤٧، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥،ص١٩٥-٢٦٦، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤لوحه ٢٦٥-٢٧٨،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ٦٢-٧١، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٦٠-١٦٦، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٣٩-١٤٢، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٣٥-٢٥٢، ابن الوردى : تنمية المختصر، جـ٢، ص٢٤٢-٢٤٧، ابن كثير ك البداية ،جـ١٣، ص١٥٢-١٥٤، المقريزى : السلوك جـ١، قسم٢، ص٢٦٧-٢٩٧، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٣٩٣-٤٣٤.

(2) Letter of pope Gregory IX, in, Mathhew Paris, English History, Vol. I, P. 216

انجلترا وفرنسا لدعوتهما إلى المشاركة فى حملة صليبية وقد أثمرت دعوة البابا بتوجه بعض ملوك وامراء الغرب اللاتينى من بينهم ثيوبولد الثالث Theobald III ملك نافار Navarre، وهنرى اميربارا Heneri de Barra وبطرس امير بريتانى Peter do Berteigne، إلى مدينة عكا فى سبتمبر ١٢٣٩م / صفر ٦٣٧ هـ[١].

وبمجرد وصول تلك الحشود الصليبية، عقد القادة الصليبيون مجلسا حربيا حضره ارمان بريجورد مقدم الداوية، وقرر المجتمعون ضرورة الزحف صوب مدينة عسقلان للاستيلاء عليها، فأعد الداوية فرقة من فرسانهم، خرجت أثناء هذا الزحف فى الايقاع بقافلة من التركمان، واستولوا على أغنامها ومواشيها، ثم اتجهوا إلى مدينة يافا، حيث مكث الملك ثيوبولد ومقدم الداوية بعض الوقت[٢].

وقد اعزى هذا الانتصار الهزيل بعض القوات الصليبية، ومن بينهم بعض فرسان الداوية، مهاجمة الجيش المصرى، والذى كان آنذاك مرابطا بالقرب من مدينة غزة وعندما وصل الصليبيون إلى قرية الجميزة القريبة من غزة فى مساء يوم يوم السبت ١٢ نوفمبر ١٢٣٩م / ١٣ ربيع الآخر ٦٣٧هـ، اقاموا معسكرهم فى تلك المنطقة التى كانت تحيط بها الرمال من كل صوب، وانشغلوا فى نصب خيامهم، وتناول طعامهم. وفى تلك اللحظة شن المسلمون هجوما مباغتا عليهم، فساد الفزع والرعب المعسكر الصليبى، وتفرق الصليبيون على غير هدى، مما جعلهم يقعون فريسة سهلة فى يد المسلمين واستمر القتال حتى فجر الأحد ١٣ نوفمبر / ١٤ ربيع الثانى[٣]، ومنى الصليبيون بالهزيمة، وقتل منهم ألف

(1) Estoire d'Eracles, P. 414; Matthew Paris, op. cit, Vol. I, p.499; Rothelin, Continuation, P. 531; Les Gestes des Chiprois, p.625; Amadi, Chronique Vol.I, P. 184.

(2) Matthew Paris, English History, Vol.I, p.500; Estoire d'Eracles p.414; Rothelin, Continuation, p.532; les Gestes des chiprois,p. 626.

(٣) ذكر المؤرخ المقريزى ان تلك المعركة وقعت فى يوم الاحد ١٤ ربيع الاول ٦٣٧هـ ولكن بالمقارنة بما جاء فى المصادر العربية الاخرى، وما اوردته المصادر الغربية يتضح ان التاريخ الصحيح هو الاحد ١٤ ربيع الثانى ٦٣٧هـ/ ١٣ نوفمبر ١٢٣٩، راجع :
المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٢٩٢ .

وثمانمائة،ولم ينج من فرقة الداوية والتى كان قوامها سبعة وستين فارسا سوى ثمانية عشر فقط، اسرعوا بالتوجه إلى مدينة يافا لطلب النجدة من مقدمهم ارمان بريجورد والملك ثيوبولد الثالث، وعندما اراد الملك التوجه إلى غزه، لانقاذ ما تبقى من الصليبيين، نصحه مقدما الداوية والاستبارية، بعدم الإقبال على مثل هذا العمل، حتى لا يواجه نفس المصير السابق للصليبيين من جهة، وحتى لا يعطى فرصة للمسلمين بقتل الاسرى الصليبيين الذين فى حوزتهم من جهة أخرى، فامتثل الملك لتلك النصيحة، وعاد بمن معه من الداوية والاستبارية الى مدينة عكا[1] .

وترجع أسباب هزيمة الصليبيين بصفة عامة، والداوية على وجه الخصوص، فى تلك المعركة إلى عدة أسباب بعضها يتعلق بالجانب الصليبى،والبعض الأخر بعض المسلمين فبالنسبة للجانب الاول، يتضح أن أزدواج القيادة، نظرا لوجود أكثر من قائد يمثلون امراء الغرب اللاتينى، وزعماء اللاتين فى الشرق الادنى، كان له أكبر الأثر على عدم اتفاق الصليبيين على خطه محددة موحدة عند مواجهة المسلمين يضاف إلى ذلك عدم توفيق الصليبيين فى اختيار المكان الملائم لاقامة معسكرهم من جهه، وعدم اقامه العراقيل الدفاعيه من جهه أخرى، وربما يرجع ذلك إلى حالة التعب الشديدة التى نالت منهم، فاضطروا للتوقف فى تلك البقعة العراء، لينالوا قسطا من الراحة، آملا فى مواصلة السير بعد ذلك اما فيما يتعلق بالمسلمين فما لاشك فيه ان الهجوم الاسلامى المباغت،كان له أكبر الأثر فى انزال

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة راجع :

ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص٢٤٧، ابو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٦٧-٢٦٨، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ٧٠، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٢٩٢، ابو المحاسن. النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٢٢-٣٢٣، وايضا :

Letter of Herman Perigord, in Matthew Paris, English History, Vol. I, p. 305; Estoire d'Eracles, p. 414; Amadi, Chroniques, Vol. I, p. 184; Rothelin, Continuation, pp.542-545, 547,550; Gestes des chiprois, p. 726; Matthew Paris, op. cit, Vol. I, p. 52

الرعب فى قلوب الصليبيين، حيث جعلهم يتخبطون فى قرارتهم،ولا يعلمون إلى أى مسار يتجهون،وفوق كل هذا وذاك، خفه حركة المقاتل المسلم، واعتياده على حرب الصحراء، فى الوقت الذى كانت جياد الصليبيين الضخمة الثقيلة تنعثر بين الكثبان الرملية . ويضيف المقدم أرمان بريجورد فى الرسالة التى عبث بها الى روبرت سانفورد Robert Sanbford مقدم الداوية فى انجلترا، مفسراً له اسباب هزيمة الداوية فى المعركة السابقة، بقوله ان الجلبه التى حدثت نتيجة للهجوم الاسلامى المفاجىء قد أثارت الرمال، فاصبح جو المعركة ملبدا بالغيوم، بحيث لم يكن بوسع فرسان الداوية أن يروا بعضهم البعض، بل ربما يكون احدهم قد قتل الآخر ظنا منه انه مقاتل مسلم، بينما كان المسلمون قد اعتادوا على تلك الحرب، فانتصروا على الصليبيين[1] . أما المؤرخ روتلان فقد ذكر أن تلك الهزيمة انما ترجع الى تقاعس الداوية والاستبارية ومعهم الملك ثيوبولد عن نجدة الصليبيين وهم يواجهون مصيرهم عند غزه، ويضيف أن الشاعر فيليب نانتيل Phelipes des Nantueil احد أسرى الصليبيين فى تلك المعركة، قد نظم قصيدة، هاجم فيها الداوية والاستبارية،وجعلهم المسئولين الأول عن تلك الهزيمة[2] .

اما عن النتائج المعركة، فقد كان لمقتل اعداد كبيرة من فرسان الداوية أثر فى اضعاف قوتهم . لذا ناشدوا اخوانهم فى الغرب الأوربى بسرعة التوجه إلى الشرق الأدنى[3] . كما شجع الانتصار الذى حققه المسلمون فى تلك المعركة، الملك الناصر داود فى توجيه ضربة أخرى للصليبيين بصفة عامة، ولجماعة الفرسان الداوية بصفة خاصة، ذلك لانه بعد رحيل الامبراطور فردبك الثانى، لم يالتزم الداوية ببنود معاهدة يافا، وقاموا بتحصين اسوار بيت المقدس، واستولوا على المسجد الأقصى، ومعبد داود، واعادوا فيه مقرهم السابق. لذا توجه الملك الناصر داود

(1) Letter of Herman Perigord to Robert Sanford; in Matthew Paris, English History Vol. I, p. 305 .
(2) Rothelin, Continuation, pp. 548-549 .
(3) Letter Herman Perigord, Ibid .

بقواته في يوم الاربعاء ١٧ ربيع الثاني ٦٣٧هـ / ١٦ نوفمبر ١٢٣٩م، إلى مدينة بيت المقدس، وضرب الحصار من حولها، إلى أن داخلها فى يوم الثلاثاء ١٥ جمادى الأولى / ١٣ ديسمبر من العام نفسه، واخرج من بها من الداوية ولاصليبيين، وهدم ما اقامه الفرنج بها من تحصينات[١] .

على أيه حال، اذا كان الداوية قد فشلوا فى استغلال الخلف الاسلامى، لحماية كيانهم وتحقيق بعض المكاسب عن طريق الحرب، فانهم اتجهوا الى طريق آخر، آلا وهو طريق المفاوضات، أو ما يعرف فى العصر الحديث بالدبلوماسية، لتحقيق الغرض السابق . فعندما استشرى النزاع الصالح اسماعيل فى دمشق والصالح نجم الدين فى مصر، أخذ كل منهما يبحث عن نصير له يعضد موقفه ضد الآخر لهذا اتجهت انظار الصالح اسماعيل إلى الصليبيين بصفة عامة، وجماعة الفرسان الداوية على وجه الخصوص[٢] . فأرسل اليهم رسولاً من قبله، التقى بارماند بريجورد مقدم الداوية فى مدينة عكا[٣]، وعرض عليه اتفاقا يقوم على اساس مسانده

(١) اشار الشاعر ابن مطروح بما انجزه الملك الناصر بقوله :

المسجد الاقصى له عاده	سارت فصارت مثلا سائرا
اذ غدا بالكفر مستوطنا	ان يبعث الله لـه ناصـرا
فـناصـــره طهـره آولا	وناصـــر طهـــره أخـرا

وعن تلك الحادثه راجع :

ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٢٤٦-٢٤٧، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، لوحه ٣٤٦،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ٧٠، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٦٥، الفيومى : نثر الجمان، جـ٢ ،و رقة ١١٠، المقريزى: السلوك، جـ١ ، قسم٢ ، ص٢٩٢، المينى : عقد الجمان جـ٢١ ، ورقة٤٤١ ، وايضا :

Rothelin, Continuation, pp. 529-530; A madi, Chroniques, Vol. I, p. 185 .

(٢) ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٤٧

(٣) النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧ ، لوحه ٦٨ ، ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٤٦ ، المينى : عقد الجمان ، جـ٢١ ، ورقة٤٦٣ ، وايضا :

Letter of Herman perigord, in Matthe Paris, English History, Vol. I, p. 482; Estoire d'Eracles, p. 417; Rothelin, Continuation, pp. 551-552; Les Gestes des Chiprois, p. 727 .

الداوية للصالح اسماعيل ضد سلطان مصر، مقابل منحهم قلعتي صفد وشقيف أرنون[1]، وما للمسلمين في صيدا وبيروت، بالاضافة الى بيت المقدس[2]. فوافق الداوية على عقد تلك الاتفاقية، وعند ئذ سمح لهم الصالح اسماعيل بدخول دمشق، والقيام بأعمال المتاجرة، وابتياع الاسلحة[3]. بل وتوسط لهم عند الملك الناصر صاحب حلب، لكي يطلق الاسرى منهم، فتم له ذلك[4].

وقد اختلفت اراء المؤرخين الغربيين والعرب حول تاريخ الاتفاقية التي عقدها الملك الصالح اسماعيل مع الداوية، وحول ما تنازل عنه لهم من قلاع ومدن اسلامية فبالنسبة للمؤرخين العرب هناك فريق منهم يرى ان الملك الصالح اسماعيل، سلم للفرنج قلعة شقيف ارنون في عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠ - ١٢٤١م ليكونوا معه على ابن أخيه الصالح ايوب[5]. وهناك فريق آخر يرى انه سلم لهم صفد والشقيف في العام نفسه[6]. أما المؤرخ ابن ايبك فيشير إلى أنه في ربيع

(١) شقيف ارنون : قلعة حصينه تقع بين بانياس ودمشق، راجع : ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٥، ص ٢٨٤ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٣٢، ٧٤٥، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١٧٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٠١-٣٠٢، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤ ، لوحه ٢٨٢، النويرى : المصدر السالق، جـ٢٧، لوحه ٧٨-٧٩، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٦٩، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٤٣، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٥٥، ابن الوردى : تتمية المختصر، جـ٢ ص ٢٥٠، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٥٥، ابن دقماق : المصدر السابق ، لوحه ٤٦-٤٧، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٠٣، العينى : المصدر السابق، جـ٢١، ورقة ٤٥، وايضا :

Letter of Heriman Perigord, Ibid; Estoire d'Eracles, Ibid; Rpthelin, op. cit., pp. 552-553; Les Gestes des Chiprois, Ibid; Marino Sanuto, Liber secretorum Fidelium Grucis, in, Gesta Dei pr Francos, Honover, 1611. V. II, p. 216.

(٣) ابن دقماق : الصمدر السابق، لوحه ٤٩، المقريزى : المصدر السابق، جـ١ قسم٢، ص٣٠٤ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص ٣٥٤، ابن واصل : المصدر السابق جـ٥، ص٢٨٨ .

(٥) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص ٧٣٢، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٧٠، الذهبى :دول الاسلام، جـ٢، ص١٤٣، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص ١٥٥ .

(٦) ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص ١٦٩ ، ابن الوردى، تتمية المختصر، قسم٢، ص ٢٥٠ ،ابن دقماق

الآخر ٦٣٨هـ/ اكتوبر ٠- نوفمبر ١٢٤٠م، وردت الاخبار ان الملك الناصر صاحب الكرك، والملك الصالح اسماعيل، قد اتفقا مع الفرنج، وسلما لهم القدس وصيدا وبيروت[١]. بينما أشار النويرى والمقريزى، انه في عام ٦٣٨هـ، قام الصالح عماد الدين بمكاتبة الفرنج واتفق معهم على معاضدته ومساعدته، ومحاربة صاحب مصر، واعطاهم قلعه صفد وبلادها، وقلعة الشقيف، ومناصفه صيدا وطبرية واعمالها وجبل عامله وسائر بلاد الساحل[٢]. أما المؤرخ ابن واصل فيشير إلى أن تسليم صفد والشقيف للفرنج كان فى عام ٦٣٩[٣]هـ/ ١٢٤٢م، بينما يرى المؤرخ العمرى ان ذلك كان فى عام ٦٤٠[٤]هـ/١٢٤٢-١٢٤٣م.

أما عن المؤرخين الغربيين، فبالرغم من انهم اتفقوا على أن تلك الاتفاقية كانت قبل رحيل ثيوبولد عائد إلى بلاده فى سبتمبر ١٢٤٠م/ صفر - ربيع الأول ٦٣٨هـ، إلا أنهم اختلفوا حول المناطق التى تنازل عنها الملك الصالح اسماعيل للصليبيين، وحول الشخص الذى تسلمها من الفرنج فيشير المؤرخ روتلان : « ان ملك دمشق قد سلم حصن شقيف ارنرن إلى صاحب صيدا »[٥] آنذاك وهو جوليان Julien (١٢٣٩-١٢٦٠م/ ٦٣٧-٦٥٩هـ) بينما يرى صاحب كتاب هرقل، ومارينو ان الداوية هم الذين تسلموا قلعتى صفد والشقيف[٦] ويزيد عليهم صاحب كتاب مآثر القبارصة بأنهم تسلموا أيضا مدينة بيت المقدس[٧]، أما

= نزهه الانام، لوحه ٤٦-٤٩، العينى : عقد الجامن، جـ٢١، ورقة ٤٥٢-٤٥٤، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٣٠-١٣١، ابن ابى السرور : عيون الاخبار، ورقة ٤٦.

(١) ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، ولحه ٢٨٢ .

(٢) النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ٧٩، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم٢، ص٣٠٣ .

(٣) ابن واصل : مفرة الكروب، جـ٥، ص ٣٠١-٣٠٢ .

(٤) العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٥٢ .

(5) Rothalin, Continuatiohn, p. 552.

(6) Estoire d'Eracles, p. 418; Marino Sanuto, Liber Secretarum, in Gesta Dei, p. 216 .

(7) les Gestes des Chiprois, p. 727 .

المؤرخ متى الباريسى فقد أورد خطابا لأرمان بريجورد مقدم الداوية يوضح فيه أن جماعته قد استلمت قلعتى صفد والشقيف، واقاموا بها تحصينات عظيمة، ولكنه لم يحدد متى تم هذا الاستلام.[1] بينما ذكرت حوليات الآراضى المقدسة ،والمؤرخ امادى أن ملك دمشق قد وعد بتسليم صفد والشقيف وبيت المقدس للصليبيين فى عام ١٢٤٠م .

وامام هذا الاختلاف والتباين فى المصادر العربية والغربية ، يكون امامنا أكثر من تساؤل : أولها فى أى فترة تمت هذه الاتفاقية ؟ وثانيها متى تم تسليم تلك المدن والقلاع للصليبيين ؟، واخيراً أى فئة من الفرنج تسلمت تلك المدن والقلاع[2] ؟

وبالنسبة للتساؤل الأول، فعلى الرغم من التباين الواضح بين ما اورده المؤرخين العرب، وبعضهم البعض من جهة،وبينهم وبين ما جاء به المؤرخين الغربيون من جهة اخرى،الا انه يمكن تحددى زمن تلك الاتفاقية عن طريق تتبع الاحداث التى اتفق عليها أولئك المؤرخون. منها ان المصادر العربية والغربية قد اجتمعت على ان استنجاد الصالح اسماعيل بالفرنج، كان بغرض مناصرته ضد سلطان مصر . والمعروف أن الصالح نجم الدين قد تولى الامور فى مصر فى يوم الاحد ٢٤ ذى القعدة ٦٣٧هـ/ ١٦يونيو ١٢٤٠م . واكن طبيعيا آلا يستنجد ملك دمشق بالصليبيين الا بعد ما تسؤ العلاقات تماما بينه وبين اخيه حاكم مصر . وقد أشار المؤرخ ابن العديم إلى أن الملك الصالح اسماعيل ارسله فى يوم الخميس ٤ المحرم ٦٣٨هـ/ ٢٦ يونيو ١٢٤٠م الى الملكة خاتون[3] الوصية على ابنها الملك الناصر صلاح الدين ابن العزيز صاحب حلب ٦٣١ - ٦٤١هـ/١٢٣٦-١٢٤٣م) لكى يطلب منها معاضدته ومساعدته على الملك الصالح نجم الدين[4] .

---

(1) Letter orf Periger, in Matthew Paris, English History, Vol. I, p. 484 .

(2) Annales de Terre Sainte, in A.O.L., Vol. II, Part2 p; 440; Amadi, Chroniqu, Vol. I, p. 185.

(٣) هى ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين، توفيت عام ٦٤٠م/ ١٢٤٢م، وعمرها تسعا وخمسين صنه، وكانت تدير الحكم، وتتصرف كالسلاطين، راجع: ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣١٢-٣١٣ ، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص ١٧٩

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ٢٤٨ .

وأن ما أورد المؤرخ ابن العديم يدل دلالة تامة على أن العلاقة بين الصالحين قد ساءت تماما، وأن صاحب دمشق أخذ يبحث عن نصير له وعلى ذلك يمكن أن نعتبر تاريخ اتصال الملك الصالح بضيفه خاتون هو بداية لتحديد الفترة الزمنية التى عقدت خلالها الاتفاقية سالفة الذكر . ولما كانت المصادر الغربية قد اجتمعت على ان الاتصال بين ملك دمشق والصليبيين جاء قبل رحيل الملك ثيوبولد إلى بلاده فى يوم الثلاثاء ٣٠ سبتمبر ١٢٤٠م / ٣ذ ربيع الثانى ٦٣٨هـ[١]، لذا يمكن القول بزن فى الفترة من يوم الخميس ٢٦ يوليو ١٢٤٠م / ٤ المحرم ٦٣٨هـ وحتى يو الثلاثاء ٣٠ سبتمبر / ٣ ربيع الثانى من العام نفسه .

وبالنسبة للتساؤل الثانى، يتضح عدم اتفاق المصادر العربية أوالغربية على تاريخ محدد لتسليم تلك المدن والقلاع للفرنج، وهكذا يمكن القول ان الصليبيين لم يتسلموا تلك المدن والقلاع دفعة واحدة، بل على فترات متفاوته، وفقا لمجريات الاحداث التى سوف توضحها الصفحات التالية، بحيث كانت مدينة صيداً، وقلعة شقيف ارنون من المناطق الأولى التى تناول عنها الصالح اسماعيل للفرنج، بينما كانت مدينة بيت المقدس آخر ما تسلموه .

أما عن التساؤل الآخير فيمكن القول بأن هناك شبه اجماع بين الغالبية العظمى من المؤرخين الغربيين وبعض المؤرخين العرب على أن تلك الاتفاقية كانت مع الداوية، وانهم تسلموا معظم المدن والقلاع التى تنازل عنها الصالح اسماعيل للصليبيين، وان كان المؤرخ رونلان قد أشار إلى أن صاحب صيدا قد تسلم قلعة شقيف ارنون، فان هذا لا يتعارض كثيرا مع الرأى السابق، خاصة بعد أن اشترى الداوية مدينةص صيدا وقلعة شقيف ارنون من جوليان بين باليان[٢] .

وكيفما كان الامر، فبعد ان وقع الداوية على تلك الاتفاقية، خرجوا بقواتهم

(1) Estoire d'Eraceles, p. 420; Rothellin, continuation, p; 555; Les Gestes des Chiprois, p. 727; Amadi, Chroniques, Vol. 7, p. 186.
(2) Les Gestes des Chiprois, p. 775 .

من مدينة عكا فى أوائل سبتمبر ١٢٤٠ . اواسط ربيع الاول ٦٣٨هـ، يشاركهم الملك ثيوبولد، لمساندة قوات دمشق فى الزحف نحو الاراضى المصرية، ولكن تصدت لهم القوات المصرية الموجودة فى غزة، والتقت بهم بالقرب منها، وانزلت بهم الهزيمة وارغمتهم على الارتداد إلى الشام[١]. ويبدو أنه بعد تلك المعركة مباشرة، خشى الملك الصالح اسماعيل ان ينقض الداوية من حوله، لذا منحهم قلعه صفد [٢]، وتوسط لهم لاطلاق اسراهم عند صاحب حلب[٣]، وبمجرد استلام الداوية تلك القلعة شرعوا فى اعادة تحصينها، وشحنها بالفرسان والاسلحة[٤] .

وثمة تساؤل يلح فى طلب الاجابة عنه هو : اذ كان الداوية قد اعترضوا على سياسة الامبراطور فردريك الثانى فى اتباعه الطرق السلمية، وتوقيعة صلح يافا مع الملك الكامل محمد، فلماذا إذن عقدوا تلك الإتفاقية مع صاحب دمشق ؟ وبمعنى آخر : لماذا سلكوا نفس الطريق الذى سلكه الامبراطور الألمانى، فى حين انهم هن أنفسهم اتبعوه وساروا فيه :؟ فى الحقيقة - وكما سبق أن اشرنا مرارا - أن تلك الفئة لم يكن لها منهاج محدد أو سياسة معينة تلتزم بها وتسير عليها، وانما كانت مصالحها هى الهدف الأسمى لها، حتى لو تعددت الطرق، وتباينت الأساليب التى قد تتعارض مع مصلحة غيرهم من الصليبيين وقد تنبه الإمبراطور فردريك إلى تلك الحقيقة، فارسل خطابا إلى الامير الانجليزى ريتشارد Richard، كله عبارات تهكم وسخرية من الداوية الذين زفوا نبأ الاتفاق مع ملك دمشق إلى

(١) ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٥٠،المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم٢ ، ص ٣٠٥، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٢٣، وأيضا :

Estoire d'Eracles, p. 420; Les Gestes des Chiprois, p. 727; Rpthelin, Continuation, pp. 554-555; Annales de Terre Sainte, in, A.O.L., Vol. I, Part 2, P.440 .

(2) Letter of Herman Perigord, in Matthew Paris, English History, Vol. I, pp. 303-305 .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص ٢٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥ ص ٢٨٨ .

(4) Letter og Herman Perigord, op. cit, Vol. I, p. 482; also : Mayer, The crusades, p. 151; Addison, Templars, p. 161; Benevisti, TAhe Crusaders, p. 288.

الغرب الاوربى[١]، وتباهوا باعادة مدينة بيت المقدس عن طريق المفاوضات[٢] ،
بينما كانوا قد وقفوا ضده عندما انجز ذلك[٣] .

واذا كان الداوية والاستبارية قد عارضا اتفاقية يافا السابقة لأنهما لم يجدا فيهاآية منفعة لهم، فلقد جاءت المعارضة هذه ضد اتفاقية الداوية الأخيرة من حانب جماعة الفرسان اللاستبارية، الذين شعروا بأن الداوية كان لهم نصيب الأسد، وعلى الاسبتارية هم ايضا أن يديروا المفاوضات مع سلطان مصر للحصول على امتيازات لهم، فاعلنوا معارضتهم للإتفاقية التى عقدها الداوية مع ملك دمشق، وحثوا الصليبيين على التعاون مع الصالح نجم الدين[٤] بحجة اطلاق سراح أسرى موقعة غزة الاولى[٥] . وكل هذا يوضح إلى أى مدى كان التحاسد والتطاحن بين الصليبيين بصفة عامة، وبين الجماعات الرهبانية العسكرية بوجه خاص، من أجلامتلاك الأراضى الاسلامية فى الشرق الادنى، ويلقى مزيداً من الضؤ على حقيقة الحركة الصليبية واهدافها التوسعية .

أدى الاختلاف بين الداوية والاستبارية حول الاتفاق مع أى من الصالحين، إلى انقسام الصليبيين إلى فريقين : احدهما أيد الداوية فى معاونه ملك دمشق،والآخر ساندا الاستبارية فى مسانده الصالح نجم الدين ايوب[٦] . وكان هذا ايذانا بانقسام وكان هذا ايذانا بانقسام الجبهة الصليبية، وبدء العداء السافر بين

(1) Letter of Frederick II, in Mattew Paris, English History, Vol. I, p. 492.
(2) Letter of Arman Perig rd, in Addison, Templars, p. 136; Estoire d'Eracles, p. 419; Rothelin, Continuation, p.553; Les Gestes des Chiprois, p. 728; Matthew paris, op. cit., Vol. I, p. 493.
(3) Letter of Frederick II, Ibid.
(4) Estoire d'Eracles, p. 419, Rohtelin, Continuation, p. 553; Les Gestes des Chiprois, pp. 727-728; Matthew Paris, English
(5) History, Vol. I, p. 493 King, Hospitallers, p. 223 .

(٦) ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٤٦، أيضا :
Estoired, Eracles, p. 420; Rothelin, op, cit., pp. 553-5; Amadi, Chroniques Vol. I, p. 186; Les Gestes des Chiprois Ibid ..

الجماعتين العسكرين[1]، والذى كان له أكبر الاثر فى تفتيت القوى الصليبية آنذاك اذ سام الملك ثيوبولد هذا الخلف الذى استشرى بين الداوية والاستبارية، فعاد بمن معه من الصليبيين إلى بلاده فى ٣٠ سبتمبر ١٢٤٠م /[2] ٣ ربيع الثانى ٦٣٨هـ .

لم تمضى ايام قلائل على رحيل ملك نافار، حتى وصلت الى ميناء عكا فى يوم الخميس ١١ أكتوبر/ ٢٢ ربيع الاول ٦٣٨هـ، بعض الحشود الصليبية على رأسها الأمير ريتشارد كورنول Richard of Cornowl أخى الملك الانجليزى هلرى الثالث Henry III (١٢١٦ - ١٢٧٢م/٦١٣ - ٦٧١هـ) والذى احيط علما بما بين الداوية ولاسبتارية من خلف، فأبى فى بداية الأمر أن ينجاز إلى أى من الفريقين، بل ناشدهما باعادة توحيد صفوفهما، والتعاون معه فى اعادة تحصين مدينة عسقلان[3] التى كانت آنذاك فى حوزة اللاتين .

ما ان شرع الامير الانجليزى فى تحصين تلك المدينة، حتى جاءه رسل من قبل الصالح نجم الدين للتشاور معه فى عقد اتفاقية مع الصليبيين، والتى نصت كما جاء فى خطاب الأمير ريتشارد[4]، إلى إعادة حصن كوكب وبيت جبريل، وكل القرى القريبة من بيت المقدس للاستبارية، واطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذى وقعوا فى الأسر بعد معركة غزة[5] الأولى، واقرت الوجود الصليبى فى يافا وعسقلان وتبنين والطور وطبرية[6]. وقد حث مقدم الاسبتارية الأمير ريتشارد بسرعة

(1) Stevenson, the Crusaders, p. 319 .
(2) Estoire d'Eracles, Ibid, Rothelin, op. cit., p. 555; Les Gestes des Chiprois, p. 728; Amadi, op. cit, Vol. I, p. 185.
(3) Les Gestes des Chiprois, p. 728; Mattew Paris, English History, Vol. I, pp. 363-365; Matthew of Westminster, The Flowers of History, Vol. 2, p. 205 .
(٤) لم تشر المصادر العربية الى بنود تلك الاتفاقية، وانما اكتفى البعض منها بالاشارة إلى أنه تم الصلح بين الصالح نجم الدين والفرنج، راجع : ابن دقماق : نزهة الأنام، لوحه ٤٦، المقريزى :السلوك، جـ١ ،قسم٢، ص٣٠٥ .
(5) Letter of Richard, in Matthew Paris, op. cit., Vol. I, p. 366 .
(6) Estoire d'Eracles, p. 421; Les Gestes des Chiprois, p. 728; Rothelin, Continuation, p. 555.

الموافقة على تلك الاتفاقية، لما تضمنته من مكاسب لجماعته[1] . فتمت الاتفاقية بين الجانبين فى يوم الجمعة ٨ فبراير ١٢٤١م / ٢٤ رجب ٦٣٨هـ، واطلق الصالح نجم الدين سراح بعض الاسرى الصليبيين، وكان من بينهم بعض فرسان الداوية، فوصلوا إلى مدينة عكا فى يوم الثلاثاء ٢٣ ابريل/ ٩ شوال من العام نفسه[2].

وهكذا، يتضح أن أفراد جماعتيى الداوية والاستبارية، لم يتفقا على كيفية استغلال الأوضاع المضطربة للمسلمين، وأن كل جماعة منهما أخذت تدير وجهها شطرا الفريق المسلم الذى يمنحها المكاسب ، وهذا يدل دلالة واضحة على ان المصالح الخاصة لكل من هاتين الجماعتين طغت على الصالح الصليبى العام، وانه لم يكن لدى آى منهما مانعا من الانضمام إلى مسلمى مصر أو الشام طالما فى ذلك مصلحة محققه. وأن الهدف الدينى الذى تسترت وراءه الحركة الصليبية لم يكن سوى ستاراً يخفى أغراضا أخرى ابعد ما تكون عن الدين .

وهنا تساؤل يطرح نفسه هو : اذا كانت الاتفاقية التى عقدها سلطان مصر كانت مع الاستبارية، فلماذا أذن أطلق سراح بعض الأسرى من الداوية ؟

وفى الاجابة عن هذا التساؤل يتضح أن الاتفاقية السابقة التى عقدها الصالح نجم الدين مع الفرنج كانت لأكثر من غرض . فهى بمثابة ضربة موجهة للتحالف بين الداوية والصالح اسماعيل، ومن جهه أخرى، تؤدى إلى تنازع الداوية الاستبارية وازدياد هوة الخلاف بينهما، فينشغلان عن محاربة المسلمين واخيرا لعل الصالح نجم الدين أراد ان يضعف من شأن ملك دمشق . فاطلق للداوية بعض أسرهم حتى ينفضوا من حول خصمه .

---

(1) Stevenson, The Crusaders, p. 320; King, Hospitallers, p. 224.

(٢) المقريزى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ايضا :

Matthew Paris, op. cit., Vol. I, pp. 368, 493, Les Gestes des Chiprois, Ibid; Eracles, Ibid; Rothalin, op. cit., pp. 555-556 .

ولم تكن احوال الصليبيين فى الشرق الأدنى مشجعة على استمرار بقاء الأمير ريتشارد فى الشام، لهذا عاد إلى بلاده فى ٣ مارس ١٢٤١م / ٩ شوال ٦٣٨هـ[١] . بينما تفاقم الخلف بين الجماعتين الرهبانيتين العسكريتين، عندما رفض الداوية أن ينال الاستبارية ما حصلوا عليه، نظير اتفاقهم مع سلطان مصر، وفى محاوله منهم لهدم هذا الاتفاق، حاصروا مقر الاستبارية فى مدينة عكا، ومنعوا عنهم المؤن والامدادات، كما منعوا الرهبان منهم من الخروج لدفن موتاهم، ولم يتراجعون عن ذلك إلا بعد أن تدخل البابا سلستين الرابع .Celedstin IV عام ١٢٤١ / ٦٣٩هـ مناشداً الداوية فك الحصار حول مقر الاستبارية[٢] وذكر المؤرخ متى الباريسى، ان العديد من رجال الغرب الأوربى استاءوا إلى حد كبير، عند سماعهم انباء التطاحن بين أفراد الجماعتين،والذى كان يمثل تهديداً للكنيسة الكاثوليكية، وأخذوا يتساءلون : لما هذا الصراع على الماديات، الجماعتان لديهما من الأملاك والاقطاعيات ما يكفيها لإعداد آلاف الفرسان، ويبين المورخ متى الباريسى حقيقة ابعاد الحركة الصليبيية عامة، والدور الذى يقوم به افراد تلك الجماعتين وقتذاك خاصة بقوله انهم قد مالوا إلى أسلوب الدهاء والمخادعة للحصول على الأموال والممتلكات من الحجاج اللاتين، وامراء وملوك الغربى الاوربى، بحيث أصبح للداوية وحدهم تسعة الآف اقطاعية[٣] ». ولم يكتف الداوية بما قاموا به ضد الاسبتارية، بل عملوا على ابطال اتفاقيتهم، بشن غاره عل يمدينة نابلس فى يوم الجمعة ٣٠ أكتوبر ١٢٤٢م / ٤ جمادى الأولى ٦٣٨هـ، واستمرت ثلاثة ايام، قتلوا خلالها العديد من المسلمين ونهبوا ما كان معهم[٤] .

(1) Matthew Paris, English History, Vol. I, pp. 368; Estoire d'Eracles, p. 422, Rothelin, Continuation, p. 556; Les Gestes des Chiprois, p. 728 .
(2) Matthew Paris, English History, Vol. I, pp. 386-456; Matthew of Westminster, The Flowers of History, Vol. 2, p. 205; Estoire d'Eracles, p. 422; Annales de Terre Sainte, in, A. O. L. Vol, par 2, 441 .
(3) Matthew Paris, op. cit., Vol. I, pp. 475,478, 484 .
(٤) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٤١، ابن دقماق : نزهة الانام، لوحه٤٦، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣١١، ايضا :

Matthew Paris, op. cit., Vol. I, p. 409 .

أما عن الجبهة الاسلامية، فقد أخذت الأمور تتعقد وتزداد سؤا يوما بعد يوم بين الصالح نجم الدين ايوب،وخاصة بعدما فشل مشروع الصلح بينهما فى ربيع الاول ٦٤١هـ/ أغسطس ١٢٤٣م[١] ، وبعد أن تحالف الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك،ومع الملك المنصور صاحب حمص، ونجحوا فى استعماله معظم الصليبيين إلى جانبهم، بعدما منحوهم مدينة بيت المقدس التى عمرها الفرنج[٢] ، وبعد نجاح سياسة الداوية، وانضمام الاسبتارية اليهم فى معاداة سلطان مصر لكل هذا اخذ الصالح نجم الدين يبحث عن نصير آخر، فراسل الخوارزمية لمساندته ضد الحلف الصليبى الإسلامى[٣] .

وهكذا انقسم اقطاب الأيوبيين إلى فريقين متنازعين، وكل منهما استعان بنصير له :فريق الشام ويضم الصالح اسماعيل والناصر داود والملك المنصور والفرنج، و

(١) لمزيد من التفاصيل عن محاولات هذا الصلح راجع :

ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ص٧٤١، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١٧٣، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٢٧-٣٣٢، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، ورقة٧٨، ابو الفدا : المختصر جـ٣، ص ١٧٢، الدهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٤٦، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه٢٥٢، ابن الوردى : تتمة المختصر، جـ٢، ص ٢٥٣، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٦٢، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣١٤، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٤٧٩-٤٨٠، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٢٢ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٢-٣٣٣، النويرى : المصدر السابق، جـ٢٧، ورقة٧٩، ابو الفدا : المصدر السابق، جـ٣، ص١٧٢، ابن الوردى : المصدر السابق، جـ٢، ص٢٥٣، المقريزى : المصدر السابق جـ١، قسم٢، ص٣١٥، العينى : المصدر السابق، جـ٢١، ورقة ٤٨٠، وايضا :

Letter of Herman perigord, in Matthew Paris, English History, Vol. I, pp. 482-484; Estoire d'Eracles, p. 420 .

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٢، الذهبى : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، ابن كثير : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، العينى : المصدر السابق، جـ٢١، لوحه ٤٨٠، ابو المحاسن : المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة .

فريق مصر وحليفه الخوارزمية. وأخذ كل من الفريقين يعد العدة للقضاء على الفريق الآخر، أو يوجه اليه ضربه قاصمه تمهد للانتصار النهائى عليه وكان فريق مصر السباق في هذا الامر، عندما اراد الصالح نجم الدين أن يفتت تحالف فريق الشام، أو يعمل على اضعافه، فحرض الخوارزمية على التوجه إلى مدينة بيت المقدس وطرد الصليبيين منها .

ففى أوائل عام ٦٤٢هـ/ اواسط عام ١٢٤٤م، عبر الخوارزمية نهر الفرات، متوجهين نحو الجنوب، وعاثوا فساد فى المناطق التى مروا بها، ونجحوا فى تدمير المناطق المحيطة بقلعة الداوية فى صفد . ثم توجهوا إلى مدينة بيت المقدس فى يوم الاثنين ٣ صفر ٦٤٢هـ / ١١ يوليو ١٢٤٤م، وضربوا الحصار من حولها . وحاول افراد جماعتي الداوية والاستبارية التصدى لهجوم الخوارزمية، باقامة المتاريس في شوارع المدينة، وارسلوا فى طلب النجدات من ملكى دمشق وحمص، فسير الآخيران بعض قواتهما إلى مدينة بيت المقدس، فى الوقت الذي كان الخوارزمية قد قضوا تماما على أية محاولة للدفاع عن المدينة، وكان لوصول قوات دمشق وحمص اكبر الأثر فى موافقة الخوارزمية على السماح لمن تبقى من الفرنج فى مدينة بيت المقدس بالخروج آمنين، والتوجه إلى مدينة يافا تحت حماية جماعتى الداوية والاسبتارية وكانت وقتها فى حوزة الفرنج[(١)] . وبذلك تم اجلاء الفرنج من مدينة بيت المقدس؛ والتى ظلت فى جوزه المسمين منذ ذلك التاريخ وحتى الحرب العالمية الأولى .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : جـ٥، ص٣٣٦-٣٣٧، النويرى : نهاية الارب ، جـ٢٧، لوحه٨٤-٨٥،ابن دقمان: نزهه الانام، لوحه ٥٧ ، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم٢، ص٣١٦، العينى : عقد لجمان، جـ٢١، ورقة ٤٨٧-٤٨٨ ، ايضا :
letter of William of Rochefort, in Matthew Paris, English History, Vol. I, pp. 522-524, Rothelin, Continuation, pp. 563-565; Amadi, Chroniques, Vol. I, p. 197; Marino Sanuto, Liber secretarum, in, Gesta Dei, Vol. 2, pp. 217-218; Matthew Paris, op. cit., Vol. I, pp. 498-499; Wieglar, The Infidel Emperor, p. 22; Matthew of Westminster, The Flowers, Vol. 2, p. 225.

توجه مقدما الداوية والاستبارية الى مدينة عكا، للتشاور مع القادة الصليبيين فيما يجب اتخاذه لمواجهة الخطر المتزايد من قبل الخوارزمية والقوات المصرية، واستقرا رأيهم بعد مشاوره ملوك دمشق والكرك وحمص، على ضرورة الاستعداد لخوضى معركة فاصله مع المصريين والخوارزمى[1] . ويوضح وليم روكفورت William Rochetort نائب مقدم الداوية فى خطابه الى البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤٢-١٢٥٤م/ ٦٤٠-٦٥٢هـ) مجريات الاحداث بعد ذلك خطوة بعد آخرى، بالأضافة الى ما جاء عرضا فى المصادر الغربية والعربية على النحو التالى : أخذ الصليبيون يحشدون قواتهم فى عكا، وفى تلك الفترة انضمت اليهم قوات حمص بقيادة الملك المنصور، وقوات دمشق بقيادة الملك الصالح اسماعيل، بينما اكتفى الملك الناصر داود بارسال بعض قواته، وظل مرابطا فى حصن الكرك، وخرجت تلك الحشود من عكا فى يوم الثلاثاء ٤ أكتوبر ١٢٤٤م/ ٢٩ ربيع ٦٤٢هـ، وتوجهت إلى مدينة قيسارية . وفى الوقت نفسه سير الملك الصالح نجم الدين ايوب جيوشه بقيادة الأمير حسام الدين بن محمد، ليرتكز بها، ويكون على أهبة الاستعداد للمشاركة فى المعركة المرتقبة، بينما انضم الخوارزمية إلى قوات الأمير بيبرس فى غزة، ولم يشرعوا فى القيام بزية عمليات عسكرية، حيث كان الصليبيون وحلفاؤهم آنذاك قد وصلوا إلى مدينة عسقلان، وعقدوا مجلسا للحرب، حضره مقدم الداوية، ودارت المناقشات حول نفس المسألة التى تداولها الصليبيون من قبل قبيل معركة حطين - سالفه الذكر - فيما اذا كانوا يتقدمون ويبادرون جيش الملك الصالح نجم الدين بالهجوم . أم يبقون فى عسقلان حتى يبدأهم الفريق الآخر بالهجوم، آخذين فى أعتبارهم أن نقص المون لديهم قى يتسبب فى هزيمتهم اذ هم تركوا قاعدتهم فى عسقلان . وكان بعض الفرنج والملك المنصور من انصار الرأى الثانى، بينما أيدت غالبية الفرنج ومن بينهما مقدما الداوية ولاستبارية وجوتيه دى برين Gautier de Breine صاحب يافا

(1) Letter of Master of Hospitallers, in Matthew Paris, English History, Vol. I, p. 499 .

(١٢٢١-١٢٤٦م/ ٦١٨-٦٤٤هـ) الرأى المنادى بضرورة المبادرة بالهجوم، وعلى هذا سارت حشود فريق الشام والفرنج إلى غزة فى يوم الاثنين ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م/ ١٣ جمادى الأولى ٦٤٢هـ وعندما علم الامير بيبرس والخوارزمية بأنباء هذا التحرك، شكلوا قواتهم فى قسمين، تولى الخوارزمية الميمنه، بينما اصطف جيش بيبرس فى الميسرة، والتقى الجمعان فى معركة استمرت حتى يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر / ١٤ جمادى من العام نفسه، وانتهت بهزيمة كبرى للقوات الصليبية المتحالفة مع بعض المسلمين[١].

وقبل ان نوضح دور الداوية فى تلك المعركة، يجب الاشارة إلى أن المصادر العربية قد اختلفت فيما بينهما حول تحديد البقعة التى دارت عليها تلك الواقعة فهناك فريق من المؤرخين العرب يرى أنها قامت بظاهر غزة[٢]، أى بالقرب منها أما

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٤٥-٧٤٦،ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٧٤، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٨-٣٣٩، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه٨٦، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٧٢، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٤٧-١٤٩، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، لوحه٥٧-٥٨، ابن الوردى: تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٥٤، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٦٤-١٦٥، ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٥٨،المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم٢، ص٣١٧، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٤٨٩-٤٩٢، ابو المحاسن : النجوم الزاهره، جـ٦، ص٣٢٣، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٤٦ وايضا :
Letter of Williom Rochefort, in Addison, Templars, pp. 167-170; Marino Sanuto, Liber Secretomrum, in, Gesta Dei, Vol, 2, pp. 217-218; Estorire d'Eracles, pp. 488-431; Matthew Paris, English Histary, Vol I, pp. 492-493, 500,522-526; Les Gestes des Chiprois, pp. 739-740; Rothelin, Continuation, PP. 562-565; Matthew of Westminster, The Elowers of History, Vol. 2, p. 526; Amadi, Chroniques, Vol . I, 197 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٨، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ٨٦، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص ١٧٢ ،العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧ ، قسم٣، لوحه ٢٥٧، ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٥٤، ابن كثير : البداية، جـ١٣ ص١٦٤، ابن دقماق، نزهه الانام، لوحه ٥٨، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم٢، ص٢١٧، العينى : عقد الجامن، جـ٢١، ورقة ٤٨٩، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٢٣، ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ١٤٦ .

المؤرخ ابو شامه فيشير إلى انها جرت فى المنطقة بين عسقلان وغزة[1] ، اضاف المؤرخ الذهنى، بأنها امتدت حتي قربة الزعقه الواقعة على الحدود بين مصر والشام،[2] بينما انفرد المؤرخ ابن الجوزى بالاشارة إلى أنها بدأت عند مدينة مفرما وامتدت حتي مدينة العريش ، أما المصادر الغربية فقد اجمعت على ن تلك المعركة قد بدأت عند قرية اطلقت عليها اسم Forbie[3] ومع ذلك يمكن حسم هذا التباين بالاشارة الى أن هذه المعركة قد اشتركت فيها اعداد ضخمة لقوات متعددة، واستمرت يومين جرى أثناءها عمليات للكر والفر،والتى تطلب مساحات شاسعه من الاراضى، بحيث كان القتال يحدث فى منطقة ثم مايلبث أن يتنقل إلى أخرى . وعلى هذا يمكن القول بأن تلك المعركة قد امتدت من المنطقة الواقعة جنوب مدينة عسقلان حتى مدينة العريش.[4] اما ما ذكره المؤرخ ابن الجوزى بأنها بدزت عند مدينة الفرما فهو امر مستبعد، لقرب تلك المدينة من الديار المصرية وبعدها

(١) ابو شامه : الذيل على الروضتين، ص١٧٤ .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٤٥-٧٤٦ .

(٣) لم نعثر على الاسم العربى لهذه القرية . وقد اشار الدكتور / السيد الباز العرينى فى ترجمة لكتاب المؤرخ ستيفن رانسمان نقلا عما جاء فى حواشي كتاب « مآثر القبارصة »، إلى أن تلك القريةتسمي الحربية، وتقع على بعد بضعة اميال شمال شرقى غزه، ولكن يحدد ياقوت الحموى، والحميرى موضع الحربية بانها محله كبيرة مشهورة ببغداد تنسب الى حرب بن عبد الله بن البلخى، ولم يذكرا موضعا آخر على حدود مصر يحمل هذا الاسم ، ولكن يحتمل أن تكون قرية قربيا التى اشار اليها ياقوت الحموى، والقرينة فى تعريبها الى حد ما الى اللفظة اللاتينية التى اوردها المؤرخون الغربيون ويحدد ياقوت الحموى موضع تلك القرية : بأنها تقع بالقرب من مدينة عسقلان راجع :

ياقوت الحموى : معجم البلدان، (حربية) جـ٣، ص٢٤٥، (قربيا) جـ٦، ص٢٤٥، الحيرى : الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٧٥، ص١٩٣-١٩٤ ،السيد الباز العرينى : تاريخ الحروب الصليبية، بيروت جـ٣، ص٣٩٤، وأيضا :

Les Gestes des Chiprois P. 740, N.C; also : Runciman, The History of the crusades, Vol. 3, P. 23 .

(٤) راجع خريطة تلك المعركة فى نهاية الرسالة .

الشاسع عن غزه[١] من جهة، ولأن المصادر العربية أو الغربية لم تشر إلى اقتراب فريق الشام والفرنج من الحدود المصرية إلى هذا الحد من جهة أخرى، أو إلى انسحاب قوات الأمير بيبرس والخوارزمية قبل بدء المعركة من غزة إلى الفرما من جهة ثالثة .

وحتى يتسنى التعرف على دور الداوية فى المعركة سالفة الذكر لابد من تحديد موقعهم فى تشكيل الجيش الصليبى الإسلامى المتحالف وفى هذا التشكيل . فقد اجمعت المصادر العربية على ان الفرنج كانوا يشكلون ميمنه هذا الجيش، وقوات حمص فى القلب، وقوات حصن الكرك فى المسيرة . وبذلك يتضح أن تلك المصادر قد أغلفت وضع قوات دمشق أما المصادر الغربية فقد اجمعت هى الآخرى على أن قوات دمشق وغالبية الصليبيين كانوا فى الميمنه، وقوات حصن الكرك والاسبتارية فى المسيرة، اما الداوية فكانوا يشكلون القلب مع قوات الملك المنصور صاحب حمص ، والمرجح أن رأى المصادر الغربية هو الأقرب إلى الحقيقة، نضرا لأنه حوى كل العناصر المتحالفة من جهة، ولانه أوضح أن كل قسم من أقسام هذا التشكيل كان يتكون من بعض الصليبيين والمسلمين معا من جهة أخرى وفوق كل هذا وذاك أن وليم روكفورت نائب مقدم الداوية،والذى اشترك فى تلك المعركة، ذكر أن جماعته كانت تمثل القلب إلى جانب قوات حمص[٢] .

أما عن سير المعركة، فقد اتفق المؤرخين العرب مع المؤرخين الغربيين فى بعض أحداثها، واختلفوا فى البعض الآخر، اذ اتفقوا على أن الملك المنصور كان قد فر بقواته من ميدان المعركة، وان الواقعة انتهت بانتصار الخوارزمية والمصريين أما لأمور التى اختلفوا عليها فهى اعداد الجيوش عند كل من الفريقين، وسير المعركة بعد انكسارالميسرة وحتى نهايتها . فبالنسبة للاختلاف الاول : يرى بعض المؤرخين

---

(١) تقع مدينة الفرما شرقى تنيس وعلى بعد ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط راجع ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٦ ، ص٣٦٨، الحميرى : الروض المعطار، ص ٤٣٩ .

(2) Letter of Willion Rochefort, in Addison, Templars, p. 167 .

العرب أن عدد قتلى فريق الشام والفرنج لغ حوالى ثلاثين الفا، وأن الاسرى الفرنج وحدهم كانوا ثمانمائة[1]. بينما أشار بعض المؤرخين الغربيين ان عدد القوات المتحالفة لم يتعد ثلاثين الفا منهم سبعة آلاف من الصليبيين، ومن بينهم فرقة الداوية،والتى كانت تتألف من ثلاثمائة فارس، بالإضافة إلى الآخوة المساعدين، وانهم واجهوا جيشا من الخوارزمية قوامه عشرين الفا،وانضمت اليهم الفرقة المصرية التى بلغ تعدادها الفى محارب[2]. ويمكن حسم هذا التباين بالاشارة الى أن مسألة تحديد اعداد الجيوش اثناء المعارك ليست هينه وبخاصة فى فترة العصور الوسطى حيث تسود نغمة المبالغة فى اقوال المؤرخين القدامى، فى الشرق والغرب على السواء، فيما يتعلق بالبيانات الرقمية الاحصائية . وعلى هذا، لاشك أن كلا من الفريقين قد بالغ إلى حد كبير فى ذكر اعداد الجيش الاخر، ولكن مع ذلك يمكن القول بانه يتضح مما روته تلك المصادر ان اعداد جيوش فريق الشام المتحالفة مع الصليبيين كان يفوق اعداد الخورزامية مع القوات المصرية .

أما عن الاختلاف الثانى، فهناك شبه المؤرخين العرب على أن الخوارزمية، وقوات الامير بيبرس معا قد انزلوا بالقوات المتحالفة الهزيمة وتعقبوهم حتى حدود الشام، وأن الملك المنصور كان أول من هزم فى المعركة[3]. بينما تذكر المصادر الغربية أن الميسرة كانت أول الأقسام التى منيت بالهزيمة، ثم تلتها الميمنة . وتضيف

(1) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، ص٦٤٦، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧ لوحه٨٦، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢ ، ص١٤٩، ان كثير : البداية جـ١٣، ص١٦٥، ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٥٨، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣١٧، العينى :عقد الجمان، جـ٢١ ورقة ٤٩٢

(2) Estoire d'Eracles, P. 428; Matthew Paris, English History, Vol. I, P. 492; Rothelin, Continuation, PP. 562-563.

(3) ابو شامه : الذيل على الروضتين، ص١٧٤، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣٨، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه٨٦، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٧٢، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٥٧، ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٥٤، ابن كثير البداية، جـ١٣، ص١٦٤، ابن دقماق : نزهه الانام، لوحه ٥٨، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣١٧، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٤٨٩، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ص٣٢٣، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٤٦ .

أن الداوية قد الحقوا الهزيمة بالقوات المصرية، ففرت من امامهم، فسارت الداوية فى اثرها مسافة بعيدة، ولكن فرار ملك حمص، قد أضعف من القلب، فأدى ذلك إلى هزيمة الداوية[1] . وجدير بالذكر أن المؤرخين العربيين ابن الجوزى ولاذهبى قد انفردا من بين المصادر العربية بالاشارة إلى هزيمة قوات الأمير بيبرس وارتدادها إلى مدينة العريش[2] . وعلى هذا ينحصر التباين بين ما اوردته غالبية المصادر العربية، وبين ما زشار إليه المؤرخون الغربيون فى هذا الجانب فى أمرين : أولهما، أى قسم من أقسام الجيش الاسلامى المتحالف مع الصليبيين قد هزم فى بداية المعركة : القلب أم الميسرة ؟ وثانيهما، هل انهزم الجيش المصرى فى تلك المعركة أو لا ؟ ولحسم هذا الاختلاف نقول . اننا نرجح رأى المصادر الغربية فيما يتعلق بأن الميسرة كانت أول من منى بالهزيمة، اذ المعروف أنه عندما يصطف جيشان للمعركة، تكون ميمنه أحدهما مواجهه لميسرة الآخر، وطالما أن جيش الخوارزمية كان يشكل ميمنه فريق مصر بينما كانت الاسبتارية وقوات الكرك يمثلون ميسرة فريق الشام، وطالما أن المصادر العربية ولاغربية قد اتفقت بان الخوارزمية كانوا أول من شنوا الهجوم، لذا تكون ميسرة فريق الشام هى أول من التقوا بها .

أما فيما يتعلق بهزيمة الجيش المصرى، فنحن لا نؤيد المصادر الغربية فى هذا الامر، لتعارضه مع ما جاءت به غالبية المصادر العربية من جهة، ولانه لا يتمشى مع نتيجة المعركة المتفق عليها من كلا الجانبين من جهة اخرى . ولكن نرجح ما جاءت به المصادر الغربية وبعض المؤرخين العرب من أن الجيش المصرى قد ارتد إلى مسافة بعيدة، لا يفسر هذا الارتداء بهزيمة اطلاقا، بل أنه نوع من التكتيك العسكرى، الذى تميزت به أساليب القتال عند المسلمين فى عصر الحروب

(1) Letter of Williom Rochefort, in, Addison, Templars, PP. 167-170; Estoire d'Eracles, PP. 428-430; Matthew Paris, English History, Vol, I, PP. 492-493, 522-226; Les Gestes des Chiprois, PP. 739-740; Rothelin, Continuation, PP. 562-564; Amadi, Chroniques, Vol. I. P. 197 .

(٢) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨ ، قسم٢ ، ص٧٤٦، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢ ، ص ١٤٩ .

الصليبية، وكان الفرض منه، تجنب الصدمة الاولى لفرسان الفرنج المدججين بالاسلحة الثقيلة[1]، ويبدو أن ارتداد الأمير بيبرس بفرقته فى تلك المعركة كان بفرض جذب بعض القوات الإسلامية الصليبية خلفه، وبذا يتم انقسامها ويسهل القضاء علس كل قسم على حده، وربما كان هذا الارتداد وفقا لخطة مسبقة بين الأمير بيبرس والخوارزمية .

وبعد مقارنة ما جاء فى المصادر، وفى ضؤ ما سبق ذكره، يمكن رسم صورة واضحة لمجريات تلك المعركة ففى مساء يوم الاثنين ١٧ أكتوبر ١٢٤٢م / ١٣ جمادى الأولى ٦٤٢هـ، التقى الجمعان فى المنطقة الممتده من جنوب عسقلان وحتى شمال شرقى غزه، وفى هذا اليوم، هجم الخوارزمية على ميسره فريق الشام والفرنج، بينما تظاهر الأمير بيبرس ومن معه من الصمريين بالإرتداد، واخوا فى التراجع، واغرى هذا لاموقف ميمنه وقلب فريق الشام لتتبع القوات المصرية، وبذلك اتقسم جيشهم إلى قسمين، واستمرت المطاردة حتى مدينة العريش، وفى فجر يوم الثلاثاء ١٨ أكتوبر / ١٤ جمادى الأولى، كان الخوارزمية قد قضوا تماما على ميسرة فريق الشام، واتجهوا وراء الميمنه والقلب، واللتين اصبحتا بين فكى الكماشة من قبل قوات الأمير بيبرس، الخوارزمية وعلى هذا شعر ملك حمص بعدم جدوى القتال، ففر بقواته، بينما تكاتف المصريون والخوارزمية فى انزال الهزيمة بمن بقى من فريق الشام والفرنج، وتعقبوهم حتى مدينة عسقلان . وبذلك امتدت المعركة فى مساحة شاسعة وفى أكثر من موضع، فأدى هذا إلى اختلاف المؤرخين حو لتحديد مكانها .

وقد اختلف المؤرخون الفربيون، حول تحديد عدد الداوية الذين نجوا من تلك الهزيمة، وحول مصير مقدمهم ارمان بريجورد. فبالنسبة للاختلاف الأول، يرى المؤرخ روتلان أن من نجا منهم كان سته وثلاثين فارسا[2] بينما ذكر المؤرخ متى

(١) عن التكتيك العسكرى للمسلمين فى تلك الفترة راجع :
عبد الرؤف عوف : الفن الحربى فى صدر الاسلام، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٥٢-٢٥٣، ايضا :
Smail, Crusading Warfare, PP. 76-78
(2) Rothelin, Continuation, P.564 .

الباريسي أنهم لم يلفوا أكثر من ثلاثة وثلاثين فارسا[1] . أما المؤرخ متى من وستمنستر قال أنه لم ينج أحد من الداوية بعد تلك المعركة[2] ونحن نرجح الرأى الثاني، وخاصة أن وليم روكفورت الذى كان من بين الذين نجوا من الداوية، قد أشار في رسالته، الى ما يؤيد رأى متى الباريسي[3] .

أما عن مصير المقدم ارمان بريجورد، فهناك فريق من الكتاب اللاتين القدامى يتكون من متى الباريسي، وامادى، وصاحب كتاب مآثر القبارصة، ومارينو سانوتو، وحوليات الاراضي المقدسة، ويرى أنه قتل في ميدان المعركة مع مارشال الداوية هيودى دى مونتاجي Huge de Monteagu[4] أما صاحب كتاب تاريخ هرقل فيرى ان المقدم ارمان قد وقع في الاسر،ومات في سجنه في القاهرة[5] ، وبلرغم من أن الخطاب الذى ارسله ولم ركفورت الى البابا انوسنت الرابع بعد تلك المعركة،يتفق مع انصار الرأى الأول[6] ، الا أننا نرجح رأى صاحب كتاب هرقل . ذلك لانه من دراسته تاريخ تلك الجماعة، نرى أنها اعتادت على اختيار مقدم جديد بمجرد موت المقدم السابق، ولكن بعد هذه المعركة مباشرة لم تشر وثائقهم بخاصة أوالمصادر الغربية بصفة عامة، الى وجود مقدم جديد في تلك الفترة، وانما أوضحت الوثائق أن أمر الداوية قد آل في نوفمبر ١٢٤٤م / جمادى الثانى ٦٤٢هـ اللى القائد الاعلى لهم ويدعى جان دى روكفورت الذى ظل في هذا المنصب الى أن تم اختيار مقدم جددى للداوية في عام ١٢٤٧م/ ٦٤٥هـ، ويدعى وليم سوناك Guillam de Sonnac[7]

(1) Matthew Paris, english History, Vol. I,p. 526.
(2) Matthew of Westminster, The Flowers, Vol. I, P. 226 .
(3) Letter of Williom Rachefort, iN, Addisson Templars, P. 169.
(4) Matthw paris, English History, Vol.I.P. 526; Amadi Chroniques Vol. 197; Les Gestes des Chiprois, P. 746; Marino snuto, I, ber Secretorum, in Gesta Dei, Vol, 2, P. 218; Annales de Terre Sainte, in A.O.L., Vol. II; Part 2, PP. 441-442 .
(5) Estoire d'Eracles, P. 430 .
(6) Letter of William Rochefort, in, Addison, Templars, P. 169 .
(7) Documents concernant les Templiers, No., XVIII, P. 26; Regerst regni Hierosolymitani, Doc. 1127

أما عن أسباب هزيمة الجيش الصليبي الإسلامي المتحالف عامة، والداوية خاصة في تلك المعركة، فنرجع إلى عدة أمور، منها أن هذا الجيش كان يفتقر إلى التجانس نظراً لأنه كان يضم بين صفوفه محاربين مسلمين وافرنج، على حد سواء . وكان كل منهم له طباعه، وأساليبه القتاله المتباينه مع الجانب الآخر . ايضا يشير المؤرخ ابن واصل إلى ضعف الروح المعنوية عند الملك المنصور - الذى كان يمثل القلب مع الداوية - ويفسر ذلك بأن صاحب حمص قد حكى له أنه حضر الحرب غير واثق فى النصر، لاشتراكه إلى جانب الفرنج في محاربة المسلمين.[(١)] او ربما يرجع ذلك إلى عدم اتباع الصليبيين، وخاصة الداوية، مشورته بالالتزام بمواقعهم فى عسقلان . يضاف إلى ذلك، عدم توافر المؤن والأمدادات لتلك الأعداد الضخمة، وفى معركة صحراوية كانت تتطلب المزيد من الأقوات والعتاد . وفوق كل هذا وذاك، براعة القائد بيبرس فى التظاهر بالتقهقر، وجذب الميمنة والقلب خلفه مما ادى إلى انقسام الجيش الصليبى الإسلامى إلى قسمين، وتم القضاء على كل قسم على حده .

وبالنسبة لنتائج تلك المعركة والمتعلقة بجماعة الفرسان الداوية، فما من شك أن الهزيمة التيمنى بها افراد تلك الجماعة فى المعركة السابقة، كان لها أكبر الآثر على أضعاف قوتهم، لذا اخذوا فى مراسله اخوانهم فى الغرب الأوروبى، لحثهم على سرعة ارسال الأموال، والتوجه إلى الشرق الأدنى[(٢)] . ولكن بالرغم من كل ذلك، يمكن القول بان الداوية قد استفادوا من الخلف الذى استشترى بين أقطاب البيت الأيوبى، بأن ظلوا مسيطرين على قلعة صفد[(٣)] ، والتى جعلوها عل درجة كبيرة من الحضانة، وعلى هذا لم يستردها الصالح نجم الدين بعد تلك المعركة[(٤)]

(١) ابن واصل مفرج الكروب، جـ٥، ص ٣٣٩

(2) Matthew Paris, English History, Vol.II,PP. 52,68, 240,257,291

(3) Estoire d'Eracles, P. 435 .

(٤) كان الصالح نجم الدين قد سير جيوشه بعد معركة غزه، استرد مدينتى الخليل، وبيت جبريل فى عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، كما استرد طبرية وعسقلان فى عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م راجع :
ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ص٧٦١، ٧٦٤، ٧٦٦، ابو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٧٨-١٨٠، ،ابن وتاصل :مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٤٠، ٣٧٨، ابو الفدا : المختصر، =

وربما يرجع ذلك لقيام الخلف بينه وبين الخوارزمية(٥) .

وهكذا، يتضح مما سبق، أن الصليبيين ومن بينهم الداوية، قد حاولوا الاستفادة من الصراع الذى شب بين أبناء البيت الأيوبى، وانضموا إلى فريق الشام، ضد الصالح نجم الدين، كى يزيدوا من لهيب هذا الصراع من جهة، ويحافظوا على كيانهم اللاتينى فى الشام الذى أخذ فى التداعى من حهة اخرى . ولكنهم منوا بهزيمة ثقيلة على حدود مصر الشرقية، مما يؤكد أنه لولا الخلف الذى استشرى بين أبناء البيت الأيوبى، لكانوا قد وجهوا ضربتهم القاصمة لمعاقل اللاتين فى الشام فى النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى / النصف الاول من القرن السابع الهجرى، بدلا من ارجاء ذلك إلى اخريات ذلك القرن .

كان من نتائج الأحداث الخطيرة التى دارت فى تلك السنوات القيلة الأخيرة من حيث الهزائم الساحقة التى لحقت بالصليبيين فى اماكن متفرقة، واستعادة المسلمين مدينة بيت المقدس، ونظرا لما أنتاب الصليبيين فى تلك الفترة من ضعف شديد، هدد البقية الباقية منهم بسرعة قضاء المسلمين عليهم – كان من نتائج كل

=جـ٢، ص١٧٢-١٧٣، ١٧٦ ،الذهبى : دول الاسلام، حـ٢، ص ١٥٠-١٥١ ،ابن الوردى: تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٥٩ ،المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٢٨ ،العينى : عقد لجمان، جـ٢١، ورقة٤٩٢-٤٩٣، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٢٦، ابن بهادر : فترح النصر، ورقة ١٤٩، وأيضا :

Estoire d'Eracles, P. 434; Les Gestes des chiprois, P. 740; Matthew Paris, English History, Vol I, P. 491; Amadi, Chraniqu es, Vol.I,P. 198 .

(١) عن أسابا هذا الخلف وتطوره راجع :

ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨، ص٧٥٣، ٧٦٠ ؛ابو شامه : المصدر السابق، ص١٧٨ ،ابن واصل : المصدر السابق، جـ٥، ص٣٤٩-٣٥٤، ٣٥٨-٣٥٩، ابو الفدا : المصدر السابق، جـ٣، ص١٧٤-١٧٥، الذهبى : المصدر السابق، جـ٢، ص١٤٨-١٥٠، ابن الوردى : المصدو السابق، جـ٢، ص٢٥٥-٢٥٧، ابنكثير : المصدر السابق، جـ١٣، ص١٦٦-١٦٧ ،المقريزى : المصدر السابق، جـ١، قسم٢، ص٣١٩، ٣٢١-٣١٤، ابو المحاسن :المصدر السابق، جـ٦، ص٣٢٢-٣٢٥ .

ذلك، أن الغرب الأوروبى ثارت ثائرته، واخذ يعد العدة للقيام بحملة صليبية جددى . وفى هذا الصدد بذل البابا انوسنت الرابع أقصى جهده لحث ملوك وامراء الغرب الاوروبى للمشاركة فى تلك الحملة المرتقبة[١] . وقد استجاب الملك الفرنسى لويس التاسع Louis IX (١٢٢٦-١٢٧٠م/ ٦٢٦-٦٦٩هـ) لدعوه البابا، واستعد للرحيل إلى الشرق الادنى .[٢] ولما كان البابا على علم تام باهمية مشاركة الجماعات الرهبانية العسكرية بصفة عامة، والداوية بصفة خاصة فى تلك الحملة، لذا اصدر عدة مراسيم فى الفترة من الاثنين ٢ يناير ١٢٤٥م / مستهل شعبان ٦٤٢هـ، وحتى الاثنين ٢٦ نوفمبر ١٢٤٦/ ١٥ رجب ٦٤٤هـ، يأمر فيها رجال الدين فى الغرب اللاتينى، والشرق الادنى، بتقديم كل عون لداوية،وعدم فرض أية ضرائب عليهم.[٣] كما تلقى الداوية فى تلك الفترة العديد من الهبات والعطايا من بعض ملوك وامراء الغرب اللاتينى[٤] فتجمعت لديهم مبالغ كبيرة من المال، وضعت تحت تصرف مقدمهم وليم دى سوناك، ونائبه فى فرنسا رينودى فيشيه،الذى شارك الملك الفرنسى فى الإعداد للحملة المرتقبة، وتوجه مع جيشه، على رأس فرقة كبيرة من الداوية إلى ميناد اللمسون القبرص فى سبتمبر ١٢٤٨م / جمادى الثانى ٦٤٦هـ[٥] .

وما أن علم المقدم وليم دى سوناك بتوجه الملك الفرنسى إلى الشرق، حتى صحب عدداً كبيراً من فرسان جماعته، وتوجه إلى جزيرة قبرص، لاستقبال ملك فرنسا،والانضواء تحت لوائه[٦] . وكل هذا يوضح أنه بالرغم من الهزائم المتالية التى

(١) عن دور البابا انوسنت فى تلك الفترة، راجع : جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، هزيمة الويس التاسع فى المنصورة وفارسكور، الاسكندرية ١٩٦٩، ص٥٤-٥٨ .

(2) Jainville, J., Histoire de Saint Louis ed. Wailly, M.N., paris, 1874, P.62; Matthew Paris, English Hisory, Vol. II, PP. 214-215 .

(3) Bulles Pour L'Order du Temple, dans, R.O.L., Tame, Xi, No., XXv II-XXX, PP. 423-425 .

(4) Mattew of Westminater, The Flowers, Vol. 2, p. 301 .

مني بها افراد جماعة الفرسان الداوية في السنوات الاخيرة السابقة الا أنهم ظلوا يمارسون ودرهم في الصراع الصليبي الاسلامي،ويرجع ذلك إلى تأييد وتشجيع البابوية في روما لهم، وارسال الإمدادات اليهم بصفة مستمره من مراكزهم المنتشرة في الغرب .

ويذكر بعض المؤرخين الغربيين، أن الملك الفرنسي أثناء تواجده في جزيرة قبرص، طلب من مقدمي الداوية والاسبتارية نبذ الحقد والكراهية بينهما، والتكاتف سويا النجاح حملته[1]. ولعل تلك الاشارة توضح أن الملك لويس كان على علم تام بما جرى بين الداوية والاسبتارية من خلاف وصراع، وكان هذا من أهم الاسباب التي أدت إلى أحداث العديد من الانتكاسات للصليبيين في الشرق الأدنى إلى جانب عوامل آخرى عديدة متداخلة في بعضها،ومن ثم اراد الملك أن يتجنب كل ذلك، فأصدر تلك النصيحة لهم وايضا لانه كان شديد التدين حتى لقد رفع بعد موته الي مرتبه القداسة واصبح يعرف بالقديس لويس، وكان يعز عليه ان يرى جماعتين رهبانتين تتناحران حول امور دنيوية، في وقت كانت فيه اوروبا تتسم بالتعصب الشديد

أخذ الصليبون يستعدون لمغادرة جزيزرة قبرص، والابحار صوب الشواطىء المصرية، فنظم الداوية صفوفهم،وجعلوا رينودى فيشيه ماريشالا لهم[2] ولكن ما ان ابحر الأسطول الصليبي من الجزيرة، حتى هبت في مايو ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ عاصفة عاتيه ادت إلى انحراف بعض السفن الصليبية إلى ميناء عكا، وجنوح بعض سفن الداوية إلى قلعتهم في عثليت[3] بينما واصل الجزء الاكبر من الأسطول الصليبي تشاركه بعض سفن الداوية، ابحاره، حتى رسا قباله مدينة

(1) Mattew Paeis, English History, Vol. II,P 307; Les Gestes des Chiprois, Ibid; Amadi, Ibid
(2) Regesta regeni Hierosolymitani, Doc. 1183
(3) Joinville, Histoire de st. Louis, P.82, Les Gestes, Ibid; Estoire d'Eracles, P. 437; Amaid, Ibid Rothelin, Continuation, P 580; Wiegler, Op. Cit., P 257

دمياط في المنطقة التي تعرف باسم جيزة دمياط في يوم ٤ يونيو ١٢٤٩م / ٢٠ صفر ٦٤٧هـ ، وسرعان ما سقطت المدينة في يد الصليبيين[١] .

وانفرد المؤرخ متى الباريسى من بين المؤرخين الغربيين القدامى بالاشارة إلى أنه بعد سقوط دمياط،جاءته الاخبار بأن أحد القواد المسلمين . والذى كان انذاك يتولى حكم مدينة لاقاهرة،قد دخل السجن الذى كان يوجد به اسرى الداوية والاسبتارية من موقعة غزه، وقال لهم : سوف ابوح لكم بسر، ولكن قبل أن أكشفه لابد أن تؤدوا اليمين بكتم هذا السر، ومساعدتى على التخلص من سلطان مصر، الذى يعانى من وطاه المرض، لاننى اكن كل حقد وكراهية[٢] .

(١) لم تشر المصادر الغربية أو العربية عن دور الداوية في الاستيلاء على مدينة دمياط، وربما يرجع ذلك إلى أن الصليبيين قد استولوا على تلك المدينة بدون قتل . راجع :

ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٣، ابو شامة ك الذيل على الروضتين، ص١٨٣، ابن العبرى : تا ريخ مختصر الدول، ص٢٥٨، ابن واصل : مفرج الكروب، (مخطوط)، جـ٢، لوحة ٢٥٦-٢٥٧، اليونينى : ذل مرآة الزمان، الدكن (الهند) ١٩٥٥ جـ١٢، ص٢٠٦-٢٠٧، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، لوحه ٢٩٥-٣٠٠، درر التيجان، ورقة ٥٦٧، النويرى :نهاية الارب، ج٢٧، لوحة ٩٥، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٧٨-١٧٩، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٥٢، الكتبى : عيون التواريخ (مخطوط) جـ٢٠، لوحه١٨، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٦٧، ابن دقمان . نزهه الانام، لوحه٧١،الجوهر الثمين، ورقه ١٠٢، ابن الشحنه : روض المناظر، ورقة ١٥٢، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢ ص٣٣٣-٣٣٤، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ، ورقة ٥٤٧-٥٤٨، ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٣٣٠، ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ١٥٤-١٥٥، بامخرمه : قلاده النحر، جـ٥، ورقة ٢٦٣ وأيضا :

Joinville, Histore de St. Louis, p. 90; Estoire d'Eracles, P. 437; Les Gestes des chiprois, P. 741; Rothelin, Continuation, P. 589. Amadi, Chroniquas, P. 199; Wiegler, The Infidel Emperor, P. 257,

(2) Matthew Paris, op. Cit, PP. 361-392 .

أما المصادر العربية فقد روت أن النائب فى القاهرة انذاك كان الامير حسام الدين بن ابى على بن محمد، وان علاقته بالصالح نجم الدين تتسم بالود والاخلاص[1] . والمحت المصادر العربية إلى أن العلاقة بين الصالح نجم الدين والامير فخر الدين يوسف، قد ساءت للغاية فى تلك الفترة، نظرا لتهاون الاخير فى الدفاع عن مدينة دمياط وعلم الأول أن فخر الدين كان يستعد للوثوب على السلطة مستغلا فرصة مرض الصالح نجم الدين[2] . وقد عقد المورخ ابن واصل مقارنة بين

(١) كان الامير حسام الدين بن ابى على بن محمد بن أبى على الهذبانى، من أشهر قواد الملك المظفر تقى الدين صاحب حماه، ولكن عندما وقع الخلف بينهما، اتصل تالامير حسام بالصالح نجم الدين ايوب عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م وصار من أقرب المقربين اليه حتى وفاه الملك الصالح فى عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م / راجع :

ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٥٤-٧٨٢-٧٨٣، ابن العديم : زبدة الحلب، جـ٣، ص١٩٣، ابن واصل : مفرج الكروب،جـ٤، ص٢٥٩، جـ٥، ص١٨٩، ٢١٠-٢١٣، ٢١٣-٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٢-٢٤٣-٢٣٩، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٣٩-٣٤٠، ٣٤٩-٥٠، ٣٥٣، ٣٦١-٣٦٢، ٣٦٩-٣٧٠، ٢٧٢-٣٧٦، جـ٢ (مخطوط) لوحه ٣٧١، النويرى : نهاية الارب، ج٢٧، لوحه ٨١-٨٢,٨٤,٩٥، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٧٢-١٧٦ ،ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧-٢٥٨، ٢٦٦، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٢٨١، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٤٢-٣٤٣، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٤٩٢-٤٩٣، ابو المحاسن : النجوم الزاهره ، جـ٦، ص ٣٢٣-٣٢٦، ٣٣٦ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٣-٧٧٤، ٧٧٦، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٩ ،اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٢٠٦-٢٠٧، ابن ايبك :كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، وه ٣٠٠، النويرى : المصدر السابق، جـ٢٧، لوحه ٩٥، ابو الفدا : المصدر السابق، جـ٣، ص١٧٩-١٨٠، الذهبى : دول الاسلام ، جـ٢، ص١٥٢، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٦٦-٢٦٧، ابن الوردى : المصدر السابق، جـ٢، ص٢٦٣، ابن دقماق : الجوهر الثمين،ورقة ١٠٢ ، المقريزى : المصدر السابق : جـ١ قسم٢، ص ٣٣٦، العينى : المصدر السابق، جـ٢١، ورقة ٥٤٨، ابو المحاسن : المصدر السابق، جـ٦، ص٣٣٠، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٥٥-١٥٦ .

سقوط دمياط على زيام حملة جان دى برين، وبين سقوطها عندما عهد للآمير فخر الدين امر الدفاع عنها فى الفترة الاخيرة[1] .

واذا كانت هناك قرائن تدين الأمير فخر الدين اشار اليها المورخ المعاصر له ابن واصل[2]، وجعله اقرب ما يكون للشخصية التى أشار اليها المؤرخ متى الباريسى، فهناك مواقف اخرى تبعده كل البعد عنها . منها أن هذا الامير لم يتول اطلاقا منصب حاكم القاهرة ، كما زنه لم يستول على مقاليد الحكم فى الفترة ما بين وفاه الصالح نجم الدين ايوب / شعبان ٦٤٧هـ/ نوفمبر ١٢٤٩، وحتى أستشهاده فى ساحه الوغى وهو يجاهد ضد الصليبيين داخل مدينة المنصورة[3] .

لذا يمكن القول انه اذا كانت الشخصية الاسلامية التى أشار اليها المؤرخ متى الباريسى فى رواية تتطبق على الأمير حسام الدين، عندئذ تصبح هذه الحادثة غير صحيحة، اما عن تطابق تلك الشخصية على الأمير فخر الدين، فهذه مسألة ليس من السهل البت فيها برأى قاطع، نظرا لتباين مواقف هذا الأمير من جهة واختلاف الروايتين من جهة أخرى، ولان المؤرخ متى الباريسى لم يكن شاهد عيان لتلك

(١) ابن واصل : مفرج الكوارب، جـ٢، لوحه ٣٥٧ .

(٢) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب، نفس الموضع .

(٣) ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٤، ٧٧٥، أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص١٨٣، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، لوحه ٣٥٩-٣٦٤، اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٢٠٨، ابن ايبك :كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، لوحه ٣٠٠، ٣٠٤، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢ ص ١٥٢-١٥٣، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٦٧، ٢٦٩، ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢، ص٢٦٣-٢٦٤، الكتبى : عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحه ١٧-١٨، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٦٧، ابن دقماق: نزهه الانام، لوحه ٧٩,٧٠ ، والجوهر الثمين، ورقة ١٠٣-١٠٤، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢ ص ٣٣٩-٣٤٦، العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٥٥١-٥٥٤، ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦، ص ٣٣٠، ٣٦٤، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٥٧ - ١٢٥٩، ابن ابى السرور : عيون الاخبار، ورقه ١٦٣ .

الاحداث انما اعتمد على الروايات الشفوية وبعض الخطابات التى تصل اليه، والتى كانت بها كثير من المبالغات، وعلى هذا يجب علينا أن نأخذ ماذكره متي الباريسي في هذا الصدد بشيء من الحذر والحيطة .

وكيفما كان الامر، فقد انفرد المورخ متي الباريسي، مرة أخرى، بالإشارة إلى أنه بعد سقوط مدينة دمياط، ارسل الداوية بعض التقارير الكاذبة، والتى جاء بها أن مدينة القاهرة قد سقطت في يد الصليبيين، وأن المسلمين قد اخوا مدينة الاسكندرية، وعقدوا العزم على مغادرة مصر ويفسر متي الباريسي أسباب قيام الداوية بترويج تلك الاشاعات بقوله : أنهم كانوا ياملون أن يصدقها رجال الغرب اللاتيني فيسرعون بالتوجه إلى الشرق الأدنى، وعند ئذ يحصل الداوية على أموال مضاعفة منهم، مظراً لاشتغالهم باعمال نقل الحجاج المسيحين من الغرب اللاتيني إلى الشرق الاسلامي انذاك . ويضيف المؤرخ متي الباريسي بانه سرعان مما اتضحت الأمور، ووضح للجميع مدى بهتان تلك الاتساعات فعم السخط على الداوية[1] .ولعل تلك الاشارة من جانب مؤرخ لاتينى توضح بشكل غير مباشر انه كان يوجد فى الغرب الاوربى رأى عام معارض لفكرة الحروب الصليبية من جهة، ومن جهة أخرى توكد حقيقة الدور الذى كان يقوم به افراد جماعة الفرسان الداوية فى تلك الفترة والقائم على اساس العمل من أجل مصلحة تلك الجماعة دون ماعاة لاى قيم او مبادىء .

على أية حال، بعد أن استولى الصليبيون على مدينة دمياط، وفدت اليهم سفن الداوية التيب كانت قد انحرفت إلى قلعة غليث[2]، واخذ الجميع يستعدون لمغادرة دمياط،والتقدم صوب مدينة القاهرة، واما أن علم الأمير فخر الدين بأنباد هذا

(1) Matthew Paris, English History, Vol. II, PP. 319, 361, 343.
(2) Les Gestes des chiprois, P. 741.

التحرك الصليبي، حتى أخذ بحرض المسلمين على مجاهدة الصليبيين[1] وبعد المدة للتصدى لهم[2] وعندما اتجه الصليبيون إلى المنطقة الواقعة بين فارسكو وشاررمساح قام المسلمون فى يوم الاربعاء ١٨ ديسمبر ١٢٤٩م / مستهل رمضان ٦٤٧هـ . بمناوشة مؤخرة الجيش الصليبي، والتى كان الداوية قد انيطوا بحمايتها، وتمكن أحد المسلمين من اصابه فارس من الداوية، فسقط الأخير امام جواد الماريشال رينودى فيشيه . عندئذ امر الماريشال قواته بالتوقف وشن الهجوم على المسلمين وتتبعهم، على الرغم من ان الملك الفرنسى كان قد اصدر اوامره بعدم التوقف زثناد الزحف، وعندما وصل الصليبيون الى ترعة بحر اشموم واقاموا معسركم على ضفة النهر، اخذ الأمير فخر الدين بدفع الفرق الاسلامية، لمناوشة الصليبيين وفى يوم السبت ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م / ١٨ رمضان ٦٤٧هـ، وبينما كان الصليبيون يتنازلون طعامهم، شن المسلمون جوما مفاجئا على المعسكر الصليبي، فتصدى لهم فرسان الداوية، واجبروهم على الارتداد. ومع ذلك لم يقنط الأمير فخر الدين من مجاهد الصليبيين، ففى يوم الخميس ٢٠ يناير ١٢٥٠/ ١٤ شوال ٦٤٧هـ عبرت القوات الاسلامية بحر اشموم، وشنت هجوما مباغتا على المعسكر الصليبي من كافة جهاته، ونجحت فى اسر عدد كبير من الصليبيين من بينهم ثلاثة من فرسان الداوية[3] . وكل هذا يوضح أن الأمير فخر الدين، لم يتوانى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، لوحه ٣٦٤، اليونينى : ذيل مرآة الزمان جـ٢، ص٢٠٨، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧ ، قسم٤، لوحه ٣٤، درر التيجان ورقة ٥٦٧، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٨٠، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٥٢، المقريزى : السلوك، جـ١ ، قسم٢ ، ص٣٤٦، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ، ورقة ٥٥٦، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٥٧ .

(٢) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر، ص ١٤٥.

(٣) ابن واصل: مفرة الكروب، جـ٢ ، لوحه ٣٦٤-٣٦٥، ابو شامه : الذيلعلى الروضتين، ص١٨٣، اليونينى : ذل مرآة الزمان، جـ٢ ، ص ٢٠٨-٢٠٩، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤ ، لوحه ٣٠٤، ٣٠٦، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٨٠، ابن الوردى: تتمه المختصر، جـ٢، ص ٢٦٤ ،المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٣٤٧-٣٤٨، العينى عقد الجمان، جـ٢١، قسم٢ ، ورقة ٥٥٦، وايضا :

Letter of Williom de Sonnac, i8n, Addison, Templars, P. 176; Joinville, Histoirede St. Louis, P. 102, 108, 100, Matthew Paris, English History, Vol. II,PP.. 367-369; Estoire d"Eracles, PP. 737-438; Wiegler, The Infidl Emperor, P. 258; Amadi, Chroniques, Vol. I, PP. 199-200; Rotheiln, Continuation, PP. 597-598, 602.

الدفاع عن أرض مصر فى تلك الفترة، وعن مجاهدة الصليبين، واسر فرسانهم، ولرسالهم إلى القاهرة لرفع الروح المعنوية المعنوية عند المصريين .

ظل الصليبيون فى معسكرهم قباله المسلمين، وبينهما بحر اشموم، إلى أن دلهم أحد الأعراب على مخاضة لعبور البحر . وعندذذ قسم الملك لويش جيشه إلى ثلاث فرق، تتقدمهم طليعة من الداوية والاستبارية، ووضع خطته على أساس أت ن تعبر الطليعة مع الفرقة الأولى بقيادة أخيه روبرت أميراً رتوا Robert Conte Arois ، ويشن رجالها هجوما مباغتا على المعسكر الرسلامى، ويشتبكوا مع المسلمين فى قتال موقت، لحين وصول بقية الفرق الصليبية، لكن هذه الخطه لم تنفذ بحذا فيرها مما ادى إلى فشلها، وهزيمة الصليبيين . وفى فجر الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م / ٤ ذى القعدة ٦٤٧ هـ، نجح الداوية فى شن هجوم مفاجىء على المعسكر الاسلامى، وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين من بينهم الأمير فخر الدين، كما استولوا على ما تركه المسلمون من خيام وعتاد بعد إأن توجهوا إلى مدينة المنصورة(١) . وبذلك يكون الشق الأول من خطة الملك لويس قد نجح عند هذا

---

(١) ابن الجوزى :مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٤، ٧٧٦،ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، لوحه ٢٦٦، اليونينى : ذيل مرآة الزمان،و جـ٢، ص٢٠٩-٢١٠، ابن ايبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤، لوحه ٣٠٦،النويرى نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه٩٩، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٨٠، الذهبى دول الاسلام، جـ٣، ص١٥٢، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٦٩ ،ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢ ص٦٤، الكتبى : عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحه ١٨، ابن كثير : البداية، جـ١٣، ص١٦٧، ابن دقماق، نزهه الانام، لوحه ٧٨، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٤٩،العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٥٥٧، ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ،ص٣٦٤، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٥٧ راجع أيضا :

Letter of williom de Sonnac, in Addiron, Templars, P. 176; Joinville, History de St, Louis, P. 118, Estoire d'Eracles, P. 347; Wiegler, The Infidel Emperor, P. 258, Amadi, Chroniques, Vol. I, P. 200; Rothelin, Continuation, P. 604, Matthew Paris, English History, Vol. II, P. 368 .

الحد، ويكون الأمير فخر الدين قد استشهد فى ساحة القتال بعد أن محى عن جبينه وصمه العار التى لحقت به منذ أن تخلى عن مدينة دمياط[1] .

ويرسم المؤرخ متى الباريسى صوره واضحة لمجريات الأحداث بعد ذلك بقوله أن الضرورة كانت تقتضى على المقدمة أن تنتظر وصول بقية الجيش طبقا لخطة الملك لويس، ولكن بعد هذا الانتصار، طلب الأمير روبرت من الداوية الاسراع فى تتبع المسلمين داخل مدينة المنصورة، فرد عليه وليم دى سوناك مقدم الداوية، طلب منه التريث حتى تسترد جيادهم انفاسها،ويروى فرسانه ظمأ هم، وحتى يقبل الملك بمن معه، ويأخذوا منه المشوره . وبين مقدم الداوية للأمير روبرت عدم جدوى تتبع المسلمين فى تلك الفترة بقوله : ان فرار الكثير منهم على تلك الصورة، سوف يثير حماسة بقية الجيش الاسلامى، وخاصه الفرسان خفيفى الحركة، الذين قد يشكلون خطراً على الجيش الصليبى المنقسم، وان المسلمين لن يتركوهم يدخلون مدينة المنصورة بسلام لانهم سوف سهبون عن بكره ابيهم للدفاع عن ارضهم وذويهم فلم يقتنع اميرارتوا بتلك النصائح، وظن أن هذه خدعة من خدع الداوية، ورد على مقدم الداوية بالقول بأن الداوية والاستبارية اعتادوا على الغدر والخديعة، وكان ذلك من زسباب ضياع ما حققه اللاتينيين فى الشرق،وأن فرصة الانتصار على المصريين أصبحت قاب قوسين أو ادنى واستطرد قائلا: إن هاتين الجماعتين تحاولان بأساليهما المخادعة منع ذلك، لما فيه ضياع لنفوذهم وأخذ يذكرهم بأنهم سبق أن تحالفوا مع المسلمين، ووقفوا بعناد ضد الامبراطور فرديك وأنهم يخفون نواياهم الخبيثة وراء ثياب الدين، وعندئذ رد عليه مقدم الداوية مدافعا عن جماعة بقولة : أيها الأمير، لتعلم جيدا بأننا لانخفى نوايانا ابدا، وأن كنا نقوم بما ذكرت فلماذا اذن نرتدى ثوب التدين، الم تؤدى مثل هذه الاعمال الى اضرار لكنيسة، وضياع لا رواحنا، وسوف نبرهن لك هذا الان. وفى تلك اللحظة التفت مقدم الداوية، الى حامل رايه جماعة، مخاطبا اياه : ارفع رايتنا، ولاتطويها ابدا ، ثم اصدر

(١) جوزيف نسيم . العدوان الصليبى على الشام، ص١٦٤-١٦٥ .

اوامره لبقية فرسانه بالتقدم صوب مدينة المنصورة،وعدم التراجع مهما حدث[١] .
وجدير بالذكر أن الخطاب الذى ارسله وليم دى سوناك الى روبرت سانفورد robert Sanford نائبة ه في انجلترا، قد تضمن هذا الحوار مجملا مع اختلاف طفيف فى بعض العبارات، ولكن تحمل نفس المعنى[٢] . اما المؤرخ روتلان فيشير الى حوار آخر، طرفاه الأمير روبرت واحد قواد الداوية ويدعى جيل Giles والذى دافع عن جماعته بعدما رماهم أميرارتوا بالجبن بقوله : سنرى أننا لا نهاب الموت، وسوف نمضى قدما إلى القتال ولن نتراجع ابدا، ولكن أعلم جيدا، بأن القوات المسيحية لن تعود سالمه من تلك المعركة [٣] . ومن المرجح أن هذه العبارة قد صدرت عن الفارس جيل تعقيبا على الحوار الذى دار بين الامير روبرت ومقدم الداوية .

ومن الحوار سالف الذكر يتضح أن الصليبيين كانوا على علم بما آلت اليه سياسة الداوية فى تلك الفترة، والقائمة على أساس مراعاة مصالحهم قبل أى شيء آخر،وعلى هذا أخذ الفرنج يتشككون فى أى عمل يقبل عليه أفراد تلك الجماعة، وسوف يكون لهذا الانطباع عواقب وخيمه على الصليبيين والداوية معا. كما يتضح أيضا، أن الداوية كانوا على علم تام باساليب المسلمين العسكرية، ولعل ذلك يرجع إلى الخبره التى اكتسبرها أثناء صراعهم الطويل مع المسلمين .

وثمة تساؤل يطرح نفسه هنا هو : اذا كان الداوية عل يعلم بأن تلك المعركة لافائدة ترجى من ورائها، فلماذا اقبلوا على القتال، ومشاركة الأمير روبرت فى زحفة صوب مدينة المنصورة ؟ ويجيب المؤرخ شارل ارمان على هذا التساؤل بالاشارة ؤلى أن صفة الجبن والخداع،والتى رمى بها الامير الداوية، كانت السبب الرئيسى الذى جعل الداوية يخوضون غمار تلك المعركة، لأنهم ارادوا أن يستردوا ماء وجههم أمام من معهم من الصليبيين[١] . أو المعلم وضعوا فى الحسبان احتمال

(1) Matthew Paris, English Hisory, Vol. II, PP. 368-369 .
(2)Letter of Williom de Sonnac, in Addison, Templars, pp. 176-177.
(3) Rothelin, Continuation, P. 604 .
(4) Oman, A.History of the Art of War in the Missle Ages, New York, 1924, P.347 .

احراز النصر على المسلمين فلا ينفرد به اميرارتوا دونهم اذا امتنعوا عن الذهاب معه

سار الداوية مع فرقة روبرت، واقتحموا مدينة المنصورة، فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة الزمير بيبرس البند قدارى، قد استعدوا لملاقاة الصليبيين، فتتبعوهم فى شوارع المدينة الضيقة، ونجحوا فى القضاد عليهم بعدما قتل الأمير روبرت، واعداد كبيره من فرسان الصليبيين، وأصيب المقدم وليم دى سوناك بجراح بالغة، وفقد أحد عينيه، ونجح فى الفرار بمن تبقى معه من الداوية، وعاد الى الملك لويس التاسع ليقص عليه ما جرى[١] .

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول عدد من تبقى من فرسان الداوية عقب تلك المعركة . فهناك فريق يتكون من متى الباريسى، ووليم دى نانجى، وويجلر، « وحوليات الأراضى المقدسة »، يرون انه لم ينح من الداوية سوى فارسين فقط من بينهم مقدم الجماعة[٢] ، وقد ايدهم فى ذلك المؤرخ الكتبى[٣] . بينما يشير المؤرخ

---

(١) ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٤، ابو شامة : الذيل عليالروضتين، ص١٨٣، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص٢٥٩، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، لوحه ٣٦٦، اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٢١٠، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧، قسم٤ : لوحة ٣٠٦ ،النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، ولحه ٩٢-٩٣ ،ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص ١٨٠ ،الذهبى : دول الاسلام،جـ٢، ص ١٥٢، العمرى : مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحه ٢٦٩ ،ابن الوردى : تتمه المختصر، جـ٢، ص ٢٦٤، الكتبى : عيون التورايخ.، جـ٢٠، لوحه ٢٢-٢٣ ،ابن كثير :البداية ، جـ١٣، ص ١٦٧، ابن دقمان : نزهة الانام، لوحه ٨٠ ،ابن الشحنه : روض المناظر، ورقه ١٥٣-١٥٤، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٥٠-٣٥١ ،العينى : عقد الجمان، جـ٢١، ورقة ٥٥٧-٥٥٨، ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٣٦٤، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٥٨-١٥٩، ايضا :
Letter of Williom de Sonnac, in Addisom Templars, P. 177; Joinville, Histoire de St, Louis, PP. 120-122; Estaire d'Eracles, P. 437; Amadi, Chroniques Vol, I, P. 200, Rothclin, Continuation, PP. 604-606; Weigler, The Infidel Emperor, P. 258; Guillelmi de Nangico, Chronicon, in, R.H.G.F., Vol. xx, P. 790; Annales de Terre Sainte, in, A.O.L., Vol II, Part. 2, P. 443; Matthew Paris, English History, Vol. II,, PP. 372-373

(2) Matthew Paris, op. Cit, Vol.II,p. 373; Guillelme de Nangico, id; Wiglar, Ibid; Annales de Terre Sainte, Ibid .

(٣) الكتبى : عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحه ٢٣ .

روتلان انه لم ينج سوى أربعة أو خمسة من فرسان فرقة الداوية التى كان قوامها مائتين وتسعين فارسا[1] . اما المؤرخ جوانفيل قد أشار بان ثله قليلة من الداوية قد نجحت فى الفرار مع مقدمها وليم دى سوناك[2] . بينما اشار كل من صاحب كتاب تاريخ هرقل والمؤرخ امادى، بانه لم ينج احد من الداوية فى تلك المعركة[3] . ونحن نرجح رأى الفريق الأول، الذى يدعمه الخطاب الذى أرسله وليم سوناك إلى نائبه روبرت سانفورد .

وعن أسباب هزيمة الصليبيين بصفة عامة والداوية على وجه الخصوص فى تلك المعكة، يتضح ان تهور فرسان الداوية بعد سماعهم التـأنيب اللاذ ع من جانب الامير روبرت، قد دفع بهم الى التهلكة. يضاف إلى ذلك أن أجيادهم كانت فى حالة يرثى لها نظرا للإجهاد الشديد الذى ألم بها عندما عبرت المخاضة وباغتت المعسكر الإسلامى على الضفة الجنوبية لبحر اشموم . وفوق كل هذا وذاك، كان تفرقهم داخل شوارع المنصورة الضيقة . هى الفرصة التى اغتنمها المسلمون آنذاك. اذ استغلوا حالة العجز عن الحركة والمناوره التى كانوا عليها،والحقوا بهم خسارة كبيرة . كما يجب ألا يفوتنا فى هذا المجال الاشارة الى تكاتف الشعب المصرى داخل مدينة المنصورة مع جيشه، ومساهمته فى تحقيق النصر على افراد تلك الفرقة

أما عن نتائج تلكالمعركة، والمتعلقة ايضا بالداوية محور هذه الدراسة فقد كان للهزيمة الثقيلة التى منى بها افرادها أكبر الأثر على عدم اقبالهم على المشاركة فى أى هجوم صليبى على المسلمين فى تلك الحملة، اذ التزموا بسياسة الفاع، واقاموا المترايس حول معسكرهم خشية أى هجوم من قبل المسلمين[4] ولايفرتنا فى هذا المجال أن بعض المؤرخين العرب قد تنبهوا إلى نتائج المعركة السابقة، وأنها كانت بمثابة ضربة قاصمه للصليبيين، جعلت الحملة تدنو من نهايتها وفشلها الذريع .

(1) Rothelin, Continuation, P. 606 .
(2) Joinville, Histiore de St.Louis, P. 126 .
(3) Estoire d'Eracles, P.437; Amadi, Chroniques, Vol. I, P. 200.
(4) Joinville, Histoire de St. Louis, P. 146 .

فوصفوا تلك المعركة بانها مقدمه النصر، مفتاح الظفر[1] .

ويذكر المورخ جوانفيل أن السملمين قد استغلوا ما الت اليه احوال الداوية أنذاك، فظلوا يلقون على معسكرهم النيران حتى صباح يوم الجمعة ١١ فبراير ١٢٥٠م/ ٧ ذى القعدة ٦٤٧هـ، وقد ادى ذلك إلى اشتعال بعض خيام الداوية، وبعض المتاريس الخشبية التى اقاموا . وما ان انشغل الداوية بمحاولة اطفاد النيران، حتى شن المسلمون هجوما عليهم، وقتلوا الكثير منهم، بينما اصيب المقدم وليم دى سوناك، وفقد عينه الاخرى، ثم مات متأثرا بجراحه[2] . وخلفه وينودى فيشية فى رئاسة جماعته، بينما أصبح اتين دى اوتوكورت Etienne d'otricort ماريشالا لها[3]

وسرعان ما ألمت بالصليبيين هزيمة كبرى عند قرية فارسكو فى مساء يوم الثلاثاء ٥ ابريل ١٢٥٠م / مستهل المحرم ٦٤٨هـ، وتم اسر الملك الفرنسى لويس التاسع، ووضع فى دار كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمان بمدينة المنصورة[4] .وتشير بعض المصادر الغربية، أن المسلمين حاولوا الضغط على الملك لويس اثناء اسره، وطلبوا منه تلسيم قلاع الداوية والاسبتارية فى الشام، بالرضافة إلى مدينة دمياط للمسلمين، مقابل اقتداء اسرى الفرنج واكنوا يعدون بالآلاف ولكن الملك الفرنسى رفض هذا المطلب، بحجة أن الداوية والاسبتارية قد أقسموا عند استلامهم للتلك القلاع بألا يتنازلوا عنها لأقتداد أحد[5] . بينما لم تشر المصادر العربية إلى تلك الحادثة . ومع ذلك يمكن أن نتقلب ما اوردته بعض المصادر الغربية فى هذا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ، لوحه٣٦٦، المقريزى : السلوك، جـ١ قسم٢، ص٣٥١ .

(2) Joinville, Op. Cit., PP. 146-147 .

(3) Regesta regni Hieroslymitni, Doc. 1191 .

(٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، ص١٨٩-٢٠٤ ، محمد مصطفى زياده :حملة لويس التاسع على مصر، هزيمته فى المنصورة، القاهرة ١٩٦١، ص ١٧٢-١٧٣ .

(5) Joinville, Histoire de St. Louis, P. 184; Wiegler, The Infidel Emperrar, P. 260; Rothelin, Coinuation, PP. 616-617 .

الصدد، على اعتبار ان تلك القلاع كانت تشكل تهديدا للمسلمين . وقد انتهت المفاوضات بين الجانب الاسلامى والصليبى، بتعهد الملك الفرنسى بدفع ثمانمائة دينار، ورد مدينة دمياط للمسلمين[1] . مقابل اطلاق سراحه هو والآسرى الصليبيين

عانى الملك الفرنسى الكثير فى سبيل توفير المال المطلوب، لذا ارسل المؤرخ جوانفيل إلى فرسان الداوية، الذى تم اطلاق سراحهم، لكى يطلب منهم مبلغ ثلاثين الف دينار فرفض الماريشال اتين أو تركورت ان تقوم جماعة بدفع هذا المبلغ، ورد على مطلب جوانفيل بقوله : « أيها اللورد انك تعلم جيدا اننا حصلنا على تلك الأموال بعدما اقسمنا اغلظ الايمان بان لا نسلمها إلا لمن اودعنا اياها » وعندئذ جرت مشاده كلامية بين الاثنين، تبادلا خلالها عبارات السب والشتائم، فتدخل المقدم رينودى فيشيه مهددا جوانفيل بقوله : « اذا استوليت على ما معنا من أموال هنا بزرض مصر، فسوف نأخذها من أموالكم فى عكا » فحمل جوانفيل هذا التهديد للملك الفرنسى، ونصحه بعدم الاهتمام به، وضرورة الحصول على تلك الاموال منهم، فوافقة الملك على ذلك، فتوجه جوانفيل إلى سفينه الداوية، واستولى بالقوة على ما بها من أموال[2] .

ومن الحوار السابق تتضح عدة أمور، منها أن الداوية لم يكن نشاطهم قاصراً على الأعمال العسكرية والتجارية فحسب، بل مارسوا ايضا فى تلك الفترة أعمال الصيارفة والبنوك . وهذا دليل آخر على مدى انحراف تلك الفئة عن مبادئها الأولى،واهتمامها المتزايد بأمور الدنيا، كما يتضح أيضا أنها كانت على أتم الإستعداد لمحاربة اخوانهما المسيحين اذا ما سلبوها بعض اموالهم وهم فى أحلك الظروف .

على أيه حال، بعد أن سدد الملك لويس التاسع نصف المبلغ المطلوب، ورد

(١) جوزيف نسيم : المرجع السابق، ص٢١٥، ٢٣٢ .

(2) Joinville, Histoire de St, Louis, PPA. 206; Matthew Paris, English History, Vol. II, P. 391 .

مدينة دمياط للمسلمين، توجه بمن تبقى معه من الصليبيين إلى مدينة عكا عاصمة مملكة اللاتين فى الاراضى المقدسة فى يوم الاحد ٨ مايو ١٢٥٠م / ٤ صفر ٦٤٨هـ، بعدما باءت حملته بالفشل التام[١] . فى غمرة الاحداث سالفة الذكر كان المماليك قد تخلصوا من النمعظم توران شاه آخر ملوك بنى ايوب فى يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ مايو ١٢٥٠م . وآلت الامور من بعده إلى زوجه ابية شجر الدر[٢] وبذلك تنتهى الدولة الأيوبية وتنتقل السلطة فى مصر الى المماليك البحرية[٣] .

ومن خلال متابعة العلاقة بين جماعة الفرسان الداوية، وبين اقطاب الدولة الأيوبية فى مصر والشام يتضح، ان الناصر صلاح الدن -مؤسس تلك الدولة قد الحق بالداوية ضربات متتالية، واسترد منهم العديد من الحصون، ولكنهم مع ذلك

---

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر، ص ٢٤٠ .

(٢) ابنالجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٨٢، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٠، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، لوحه ٣٧١، اليونينى : ذيل مراة الزمان، جـ٢، ص٢١٣، ودور التيجان، ورقة ٥٦٨، النويرى : نهاية الارب، جـ٢٧، لوحه ١٠١، ابو الفدا : المختصر، جـ٣، ص١٩٠، الذهبى : دول الاسلام، جـ٢، ص١٥٤، العمرى :مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٣، لوحه ٢٧٠-٢٧١، ابنالوردى : تتمه المختصر، جـ٣ ص ٢٦٥-٢٦٦، الكتبى : عيون التورايخ.، جـ٢٠، لوحه ٢٥، ابن كثير :البداية، جـ١٣، ص ١٨٠، ١٩٥، ابن دقماق : نزهة الانام، لوحـه ٨٢، والجوهر الثمين، ورقـه ١٠٥-١٠٦، ابن الشحنه : روض المناظر، ورقـه ١٥٤-١٥٥، المقريزى : السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٥٨-٣٦١، العينى : عقد الجمان، جـ٢١ ورقة ٥٦٧، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٦ ص ٣٧١-٣٧٢، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ١٦٠-١٦١، ابن ابى السرور : عيون الاخبار ورقه ١٦٥ ،وأيضا :
جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر، ص٢٢٦-٢٢٩ .

(٣) اختلفت اراء المؤرخين العرب حول نهاية الدولة الأيوبية وبداية الدولة المملوكية الاولى، ولمزيد من التفاصيل عن تلك الآراء راجع : جوزيف نسيم : لويس التاسع فى الشرق الاوسط، الاسكندرية، ١٩٧٦، ص ١١٧.

اخذوا يتجمعون فى مدينة صور، ويعدون العدة لمواصلة عدوانهم على المسلمين فشاركوا الصليبيين فى الاستيلاء على مدينة عكا، واستردوا قلعتهم فى يافا، كما استغلوا الخلف الذى استشرى بين ابناء البيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين، وشنوا الإغارات تباعا على البقاع الرسلامية،ومن بينها مدينتى فوه ودمياط المصريتين، كما قاموا بدور بارز فى احداث الحملة الصليبية الخامسة ولكنهم لم يؤيدوا سياسة الإمبراطور فردريك الثانى فى الميل إلى السلم والمهادنة مع الملك الكامل محمد، لتعارض تلك السياسة مع مصالحهم الشخصية، فى الوقت الذى عقدوا فيه تحالفا مع الصالح اسماعيل ملك دمشق ضد الصالح نجم الدين سلطان مصر، نظرا لما اقطعه الأول لهم من قلاع ومدن اسلامية، ولكنهم تلقوا هزيمة كبرى فى موقعة غزة الثانية، وفقدوا ما حصلوا عليه من مكاسب باستثناء قلعتهم فى صفد. ولم يقف دورهم عند هذا الحد، بل تجلى بشكل ملموس احداث حملة لويس التاسع على مصر. كما وضح من خلال ما سبق، إن نشاط تلك الجماعة فى الشرق الأدنى لم يقتصر على العمليات العسكرية فحسب، بل مارسوا إلى جانب ذلك اعمال التجاره والصيرفه، وجعلوا سياستهم قائمة على اساس مصالحهم دون مراعاه للمبادىء والقيم التى كانوا قد أقسموا فى بداية نشأتهم بالسير على نهجها. وجدير بالذكر ان دور تلك الجماعة لم ينته برحيل الملك الفرنسى إلى عكا، بل استمر قائما فى بداية عهد المماليك البحرية المعروفة بدولة الممالية الأولى وان كانت قوتهم قد تقلصت، وموقفهم قد تزعزع بسبب الهزائم المتتالية التى لحقت بهم خلال السنوات السابقة، مما مهد السبيل لاقطاب الدولة المملوكية الاولى لتوجية ضربات متتالية موثرة لافراد تلك الجماعة، الامر الذى قوض بنيانها وهز اركانها، كما سيتضح فى الفصل التالى.

الفصل الثامن

موقف جماعة الفرسان الداوية من دولة المماليك الأولى حتى وفاة الملك الظاهر بيبرس (١٢٥٠ - ١٢٧٧م/ ٦٤٨ - ٦٧٧هـ)

- قيام دولة المماليك الأولى، وموقفها من جماعة الفرسان الداوية.
- دور الداوية فى حملة لويس التاسع على الشام ١٢٥٠ - ١٢٥٤م/ ٦٤٨ - ٦٥٢هـ)، وأثر ذلك على علاقاتهم بالمسلمين.
- المناوشات بين المماليك والداوية فى عام ١٢٥٦م/ ٦٥٤هـ، ونتائجها.
- علاقة جماعة الفرسان الداوية بالمغول، وأثرها على الصراع الصليبى الإسلامى.
- جهاد الظاهر بيبرس ضد الداوية (١٢٦٠ - ١٢٧٧م/ ٦٥٨ - ٦٧٦هـ)، والآثار المترتبة عليه.

قام المماليك البحرية بدور هام منذ معركة المنصورة، وفرضوا أنفسهم على مجريات الأحداث فى مصر بعدما قتلوا تورانشاه، واتفقوا على أن تكون شجرة الدر هى القائمة بأمر السلطنة، وعلى أن يتولى عز الدين ايبك التركمانى الصالحى اتبكية العسكر. وبذلك طويت آخر صفحة فى تاريخ الدولة الأيوبية فى مصر، لتبدأ دولة جديدة هى دولة المماليك الأولى، التى اثبت بعض حكامها كفاءتهم فى التغلب على أعظم خطرين واجها مصر خاصة والعالم الإسلامى عامة فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى، إلا وهما خطر المغول الذين وفدوا من أواسط آسيا، وخطر الصليبيين العدو الأوربى التقليدى.

وعلى أية حال، بعد أن تلقى الصليبيون الهزيمة الساحقة على ضفاف النيل، أعد الملك الفرنسى عدته، وغادر مصر بمن تبقى معه، متجها نحو عكا، ليجمع شمل شتات الصليبيين، وينهى خلافاتهم، ويضع أسس سياستهم وعلاقاتهم بالمسلمين فى المرحلة التالية.

وقد حاول الداوية الاستمرار فى سياستهم التقليدية، والتى ترمى إلى استغلال الخلاف الذى استشرى بين بقايا الايوبين فى الشام وبين الدولة الناشئة فى مصر، من أجل تحقيق نفع ذاتى لهم بصفة خاصة والصليبيين بصفة عامة. ولكن تلك السياسة تحطمت أمام ازدياد قوة المماليك، خاصة بعد الانتصار العظيم الذى حققه سيف الدين قطز على المغول فى وقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وبعدما آلت الأمور فى مصر إلى الظاهر بيبرس، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات الحربية بين الصليبيين والمسلمين، تلقى خلالها الداوية العديد من الهزائم، وبدأوا يفقدون معظم قلاعهم فى بلاد الشام الواحدة تلو الأخرى.

وعند الانتقال من التعميم إلى التخصيص نرى أن الهزة الكبيرة التى حدثت فى مصر بعد مقتل المعظم تورانشاه وتولى شجرة الدر لم تمر بسلام تام، إذ نعى الخليفة العباسى أهل مصر بإقامة امرأة عليهم، وترجم استنكاره لتولية شجرة الدر برسالة

بعث بها إلى امرأة المماليك. ولذلك تنازلت شجرة الدر عن العرش لعز الدين ايبك بعد أن تزوجت منه[1].

كذلك آثار انتقال السلطنة فى مصر إلى المماليك معارضة قوية من قبل الأمراء الايوبيين فى الشام. فاستقل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بين الظاهر غازى صاحب حلب بدمشق فى ربيع الثانى ٦٤٨هـ/ يوليو ١٢٥٠م بفضل تعضيد الأمراء القيمرية. كذلك استغل الملك المغيث عمر بن العادل سيف الدين بن الكامل تلك الظروف واستقل بالكرك والشوبك. كما استولى الملك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بقلعة الصبيبة فى الشام[2]. وعلى هذا استقر الرأى بين المماليك على أن يشركوا مع عز الدين ايبك طفلا من سلالة الايوبيين هو الأشرف موسى حفيد الكامل محمد، لكى يقضوا على معارضة الايوبيين.

والخلاصة أن المشرق الإسلامى صار منقسما على نفسه، وتنازعته قوتان:

---

(١) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٨٥، ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٩٦؛ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، لوحة٣٧٥، اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص٦١؛ ابن ايبك: كنز الدرر جـ٨، لحة١٢-١٣، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة٩٦، ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٨٣؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣ لحة٢٧٤؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٦٨؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٦٨-٣٦٩؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٥٩٠؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٤.

(٢) عن تلك الأحداث راجع:

ابن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، قسم٢، ص٧٧٩-٧٨٠؛ ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٨٦؛ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٠، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، لوحة٣٧٤، اليونينى: لوحة٩٧؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحة٢٧٤؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٦٨؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٦٩؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٥٧٨-٥٧٩؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة١٦٣.

المماليك فى مصر، والايوبيين فى الشام. كل هذا أنعش آمال الملك الفرنسى لويس التاسع، فأراد أن يستغل هذا الانقسام فى تحقيق المكاسب للكيان الصليبى فى الشام. وعقد مجلسا حربيا فى مدينة عكا عاصمة دولة اللاتين فى الأراضى المقدسة منذ ضياع بيت المقدس منهم نهائيا فى عهد الصالح نجم الدين أيوب، والتى كان قد وصل إليها قادما من دمياط وذلك فى الفترة من ١٩ يونيه إلى ٣ يوليو ١٢٥٠م/ ١٧ ربيع الأول – مستهل ربيع الآخر ٦٤٨هـ، وقد حضره مقدم الداوية[١]. ومعظم القادة الصليبيين وتقرر فيه بقاء الملك الفرنسى فى الشام، لحماية الكيان الصليبى المتداعى من جهة، واستغلال الأوضاع المضطربة فى المشرق الإسلامى من جهة أخرى[٢].

وكانت أولى الثمار التى جناها الملك الفرنسى من هذا الخلاف الإسلامى العرض الذى تقدم به الملك الناصر صاحب دمشق للملك الفرنسى بأن يتنازل له عن بيت المقدس مقابل تحالف الفرنج معه ضد المماليك فى مصر. ولم يشأ الملك الفرنسى أن يقطع بأمر حاسم فى هذا التحالف[٣]. إنما استغل هذا الأمر للضغط على المماليك فى مصر من أجل إطلاق سراح أسرى الفرنج وإعفائه من الجزء المتبقى من الفدية الذى كان قد تعهد بدفعه بعد مغادرته مصر[٤]. فاستجاب المماليك، وتم إطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين ومن بينهم خمس عشرة من فرسان الداوية وصلوا إلى ميناء عكا فى السابع عشر من اكتوبر ١٢٥٠م/ ١٨ رجب ٦٤٨هـ[٥].

---

(1) Rothelin, continuation,p.622.
(2)Joinville, Histoire de Saint Louis, pp. 288-238; Rothelin, continuation,pp.622-623.

(٣) جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص١٥٥.

(4) Estoire d'Eracles, p. 349, Joniville, op. cit., pp. 253-254; Matthew paris, English History, VOl., II, p. 482; Rothelin, op. cit., p. 635; Amadi, chronique, vol.,Ip. 201.
(5)Annales de Terre sainte, in, A.O.L., VOl. II, parts,pp. 244.

وعندما اشتد الخلاف بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام، وبلغ مبلغ الإقتتال بينهما بالقرب من العباسة[1]، وبالرغم من تفوق المماليك فى هذه الوقعة إلا أنهم سارعوا بطلب محالفة الملك الفرنسى ضد الايوبيين، بعدما شعروا بخطورتهم على سلطانهم فى مصر. فوافق الملك لويس على الفور، وعقد المحالفة مع المماليك فى مايو ١٢٥٠م/ ربيع الأول ٦٥٠هـ، والتى كان من أهم بنودها إعفاء الملك الفرنسى من نصف الفدية وإعادة مدينة بيت المقدس للصليبيين بعدما يشارك الملك الفرنسى المماليك فى حملتهم على الايوبيين فى الشام[2].

وعلى هذا يمكن القول بأن الملك الفرنسى قد نجح عند هذا الحد فى استغلال الخلاف الإسلامى أحسن استغلال، وأن أحداث الحملة الصليبية السادسة كادت أن تتكرر لولا توسط الخليفة العباسى المستعصم بالله فأرسل رسولاً من قبله لحسم الخلاف بين المماليك والايوبيين[3]. وبذلك تلاشت آمال الملك الفرنسى فى استغلال هذا الخلاف لتحقيق ماعجز أن ينجزه فى حملته العسكرية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الموقعة راجع:

ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٨٦؛ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص٢٦٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، لوحة٣٨١-٣٨٢، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، لوحة١٧؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٣، لحة٢٧٦-٢٧٧؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٦٩-٢٧٠؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٣٧٤-٣٧٥؛ العينى عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٥٧٩-٥٨٣؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٨.

(٢) عن نصوص تلك المحالفة راجع:

العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٦٠٩-٦١٠؛ وايضاً:

Joinville, Histoire de Saint Louis, pp. 282-284; Rothelin, continuation,p.623.Matthew paris, English History, VOI., II, pp. 502-503.

(٣) بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص٣٨٩؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٧٤؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٨٤؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، ص٣٨٢-٣٨٣؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢١، ورقة٦١١-٦١٢، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٥.

علي مصر.

أما عن موقف جماعة الفرسان الداوية من الملك الفرنسي في تلك الفترة، فنجد أن أفرادها كان لهم ثلاثة مواقف متباينة. وتمثل الموقف الأول، عندما وفد إلى الملك الفرنسي أثناء إقامته بمدينة عكا سفارة من قبل شيخ الجبل - رئيس طائفة الاسماعيلية بالشام - بغرض ارهاب الملك لويس حتى يبادر بإرسال الهدايا إليه، أو إعفائه من دفع الجزية السنوية التى كان يدفعها للداوية والاسبتارية من قبل. وعندئذ عنف مقدما الداوية والاسبتارية الوفد الاسماعيلي لتطاول سيده على الملك الفرنسي، وأشار بأنهما لولا شرف الملك الذى وفدوا إليه مبعوثين، لأغرقوهم فى بحر عكا، وكان لهذا الموقف الحاسم من قبل الداوية والاسبتارية، أثره الحاسم في اسراع شيخ الجبل بخطب ود الملك الفرنسي وإرسال الهدايا إليه[1].

ولعل التساؤل هنا: هل قام الداوية والاسبتارية بهذا الموقف من وحي حرصهما على الصالح الصليبي العام، ودفاعاً عن الملك الفرنسي وهيبته؟ أم لخدمة مصالحهما؟، والحقيقة أن الداوية والاسبتارية قد حرصا قبل كل شئ على تحقيق مصالحهما، وكان موقفهما هذا يرمى إلى حرصهما على عدم التنازل عن الجزية التي يحصلون عليها سنويا من طائفة الاسماعيلية، وأن كان هذا الموقف قد وجد هوى عند الملك الفرنسي لما ينطوى عليه من حفظ هيبته. وعلى هذا يمكن القول بأن هذا الموقف كان في جوهره المحافظة على مصالح الداوية التى أصبح رجالها في ذلك الوقت رجال دين ودنيا، وفي ظاهره مساندة الملك الفرنسي.

أما عن الموقف الآخر: فيتمثل في أنه بالرغم من أن الملك الفرنسي قد حدد السياسة الصليبية تجاه الخلاف الايوبي - المملوكي، بالإنضمام إلى الجانب المصرى، إلا أن الداوية سعوا لعقد الإتفاق مع الجانب الايوبي. فيشير جوانفيلي

(1)Joinville, Histoire de Saint Louis, pp. 246-248; Rothelin, continuation,p.624.

مؤرخ سيرة لويس التاسع أن مقدمهم رينيه فوشيه قد أرسل المارشال هيو دى جوى Huges de Jouy إلى ملك دمشق دون الحصول على إذن الملك لويس، لكى يتفاوض بشأن قطعة كبيرة من الأرض كانت محل نزاع بينهما، وأن الجانبان قد توصلا إلى اتفاقية فى هذا الشأن، ولكنها كانت مرهونة بموافقة لويس لذا عندما أخبر مقدم الداوية الملك الفرنسى بما تم التوصل إليه، غضب وأمر مقدم الداوية وأفراد جماعته بالمثول أمامه حفاة الأقدام لكى يلتمسوا منه العفو والغفران وأن تقطع الداوية كل صلة بسلطان دمشق، بالإضافة إلى إبعاد المارشال هيو ونفيه إلى خارج المملكة اللاتينية فى الشام[1].

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن مغزى هذا الموقف، يجب الإشارة إلى عدة حقائق منها أن المصادر العربية المعاصرة لهذه الأحداث والمتأخرة عنها زمنياً لم تشر إلى هذه المفاوضات، ولانجد تعليلاً لذلك اللهم إلا اهتمام المؤرخين العرب بأحداث الصراع بين الايوبيين والمماليك بصفة عامة دون الاهتمام بالأحداث الفرعية. أما عن المصادر الغربية فقد انفرد المؤرخ جوانفيلى بسرد تفاصيلها وإن كان لم يحدد الوقت الذى جرت فيه تلك المفاوضات. وإنما اكتفى بالإشارة بأنها جرت أثناء إقامة الملك الفرنسى بمدينة قيسارية. كما أنه لم يحدد المنطقة التى دارت المفاوضات حولها بين الداوية وملك دمشق. وعلى هذا علينا أولا تحديد الفترة الزمنية التى جرت فيها تلك المباحثات، ثم تحديد المنطقة محور المباحثات.

وبالنسبة للجانب الأول، تشير «حوليات الأراضى المقدسة» أن إقامة الملك الفرنسى فى مدينة قيسارية امتدت فى الفترة من مارس ١٢٥١م حتى مايو ١٢٥٢م/ المحرم ٦٤٩هـ - ربيع الأول ٦٥٠هـ[2]. ولما كان رد الفعل من الملك الفرنسى ناجماً على أساس انتهاج الداوية سياسة تخالف تماما السياسة التى وضعها

(1)Joinville, Histoire de Saint Louis, pp. 280-282.
(2)Annales de Terre sainte, in, A.O.L., VOI. II, parts,p. 445.

هو للصليبيين، والقائمة على أساس التحالف مع المماليك فى مصر، لذا فمن الطبيعى أن تكون المفاوضات بين الداوية وملك دمشق قد تمت بعد عقد التحالف بين الملك الفرنسى والمماليك[١]. وبذلك يمكن القول أن تلك المفاوضات تمت فى وقت ما خلال شهر مايو ١٢٥٢م/ ربيع الأول ٦٥٠هـ.

أما عن المنطقة التى دارت حولها المفاوضات، فهناك إشارة سريعة فى وثائق الداوية توضح أنها تقع بالقرب من قلعة الداوية فى صفد، كما توضح تلك الوثائق أن المارشال هيو دى جوى قد توجه بعد هذه الحادثة إلى أسبانيا حيث استقر فى دار الداوية بها[٢].

ولعل هذا الموقف يؤكد أن جماعة الفرسان الداوية كان لايعينها مصالح الصليبيين بقدر ماتعنيها مصالحها الخاصة فى امتلاك الأراضى، حتى ولو كان هذا ضد رغبة الملك الصليبى، وضد المحالفة التى عقدها مع المماليك فى مصر والتى كان من أهم بنودها إعادة مدينة بيت المقدس للصليبيين فى حالة الانتصار على الايوبيين فى الشام.

وبالنسبة للموقف الثالث فينحصر فى أن الداوية قاموا هذه المرة بدور يختلف عن الموقفين السابقين، خاصة بعدما ادركوا قوة شخصية الملك الفرنسى. لذا عملوا على التكالف معه لمواجهة المسلمين. فقد كان طبيعيا بعد أن أعلن الملك الفرنسى عن نيته بالتحالف مع المماليك فى مصر ضد الايوبيين فى الشام، وبعدما أمر الداوية بقطع كل صلة لهم بالملك الناصر يوسف فى دمشق، أن يقوم الزخير بشن الغارات على الممالك الصليبية فى الشام انتقاماً منهم، خاصة وأنه قد آمن الجانب المملوكى بعد تدخل الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الايوبيين والمماليك فى أواخر مارس

---

(١) تمت هذه المحالفة فى أوائل مايو ١٢٥٢م/ أوائل ربيع الأول ٦٥٠هـ، راجع:

Joinville, Histoire de Saint Louis,p.282; Matthew paris, English History, VOI., II, p. 502.

(2)Lèonard, Introduction au cartulaire manuscrit du Temple, paris, 1882, p.26.

١٢٥٣م/ أواخر المحرم ٦٥١هـ. فتشير المصادر أن الملك الناصر صاحب دمشق أخذ يشن الغارات على القوات الصليبية فى يافا وعكا وصيدا فى الفترة مابين مايو ويونيو ١٢٥٣م/ ربيع الأول - ربيع الآخر ٦٥١هـ[١]. لذلك قرر الملك الفرنسى شن غارة على مدينة نابلس الإسلامية وكانت خاضعة للحكم المصرية ولكن الداوية والاسبتارية قدموا النصيحة للملك بالإشتراك بنفسه فى هذه الغارة[٢] وربما يرجع ذلك إلى حرصهما على حياة الملك الفرنسى من جهة، ولكونهم يعلمون خطورة الهجوم على تلك المدينة من جهة أخرى[٣]. وعلى هذا أقلع الملك الفرنسى عن فكرة مهاجمة نابلس، وقرر أن يتوجه بنفسه ومعه جزء من جيشه إلى مدينة صيدا الخاضعة للصليبيين لإصلاح ماتهدم من أسوارها بعد الهجوم الإسلامى عليها، بينما يقوم الجيش الصليبى ومن بينه فرسان الداوية بمهاجمة مدينة بانياس التابعة للايوبيين فى الشام[٤]، وبالرغم من فشل الهجوم الصليبى على تلك المدينة الإسلامية[٥]، إلا أن مشاركة الداوية فى هذا المجال تعنى أنهم عملوا على استرضاء الملك الفرنسى، والعمل على تأمين الكيان الصليبى فى الشام بمهاجمة بعض المدن والقلاع الإسلامية.

تلك هى أهم مواقف الداوية من الملك الفرنسى لويس التاسع أثناء إقامته فى الشام والتى امتدت قرابة أربع سنوات، منذ رحيل حملته عن أرض مصر فى مايو

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن تلك الغارات نتائجها راجع:

Joinville, Histoire de Saint Louis,p.282-302;Estoire d'Eracles,pp. 440-442; Annales de Terre sainte, in, A.O.L.,VOI.II,p.445; Amadi, chronique, voI.,I,pp. 202-203.

(2) Joinville, op. cit., p. 308.

(٣) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٢١٠-٢١١.

(4) Joinville, op. cit., p. 312.

(٥) للمزيد من التفاصيل عن هذا الهجوم وفشله- انظر: جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص٢١٦-٢٢١، وايضاً:

Joinville, op. cit., pp. 312-318.

١٢٥٠م/ صفر ٦٤٨هـ، بعد أن واجهت الفشل الذريع فى تحقيق أهدافها، إلى أن غادر الشام فى ابريل ١٢٥٤م/ ربيع الأول ٦٥٢هـ عائداً إلى فرنسا. وجدير بالذكر أن المؤرخ جوانفيلى قد أورد إشارة لها مغزاها ودلالتها، مؤداها أنه خلال رحلة العودة، اصطدمت سفينة الملك بسلسلة من الصخور بالقرب من جزيرة قبرص، عندئذ قام أحد الداوية ويدعى ريموند Raymond وكان يتولى منصب كبير الملاحين وأمر أحد اتباعه باستطلاع الأمر، فأخبره بأن السفينة اصطدمت بالقاع وليس هناك ثمة أمل فى استصلاحها. فانتقل من عليها إلى سفينة أخرى[1].

ولقد برهنت تلك الإشارة بأنه كان بين جماعة فرسان الداوية من مارسوا أعمال الملاحة، وقيادة السفن مما مكن الداوية من امتلاك الأساطيل التى جابت البحار وقامت بنقل المؤن والعتاد والحجاج المسيحيين من الغرب الأوربى إلى المشرق الإسلامى.

أما عن العلاقة بين المسلمين والصليبيين بعد رحيل الملك الفرنسى، فكان لتجدد الصراع بين المماليك والايوبيين من جهة، واقتراب الخطر المغولى من منطقة الشرق الأدنى الإسلامى من جهة أخرى، وافتقار الصليبيين إلى القيادة الحكيمة بعد رحيل مليكهم من جهة ثالثة، كان لكل ذلك أثره فى موافقة الملك الناصر صاحب دمشق، وعز الدين ايبك ملك مصر، على عقد معاهدة مع الداوية فى عام ١٢٥٥م/ ٦٥٣هـ ولمدة عشر سنوات، اقرت ملكية الصليبيين للمنطقة الواقعة بين ارسوف وبيروت، باستثناء يافا[2].

---

(1) Joinville, Histoire de Saint Louis,pp.341-342.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، ص٣٩٣، وايضاً:

Rothelin, continuation,p.630;Estoire d'Eracles,p.422; Annales de Terre sainte, in, A.O.L.,VOl.II,parts 2,p.446.

وقد استغل يوحنا أمير يافا تلك الأمور، وشن الغارات على الممتلكات المملوكية فى المنطقة الواقعة بين غزة وعسقلان، وكان لذلك صداه عند المماليك، إذ هاجمت القوات المملوكية مدينة يافا، فتصدت لها قوات الداوية، وجرت بين الفريقين مناوشات غير حاسمة، تعرض فيها الجانبان لبعض الخسائر مما دفعهما إلى تجديد الهدنة بينهما في عام ١٢٥٦م/ ٦٥٤هـ على أن تكون يافا من ضمن المناطق المهادنة[١].

وفى تلك الفترة توفى مقدم الداوية رينيه دى فوشيه، وخلفه توماس بيرارد Thomas Bérard فى رئاسة الجماعة[٢]. وفي عهده انغمس الصليبيون فى الخلاف بينهم بعدما نشب النزاع بين البنادقة والجنوية حول امتلاك أحد الأديرة فى عكا، وانقسموا إلى فريقين أحدهما آيد البنادقة، والآخر ساند الجنوية[٣]. لذلك سعى مقدم الداوية إلى ترميم هذا الصدع داخل الجبهة الصليبية، واتجه إلى روما لمقابلة البابا اسكندر الرابع Alexander IV (١٢٥٤ - ١٢٦١م/ ٦٥٢ - ٦٦٠هـ) وحثه على مناشدة الفريقين بالتكاتف سويا من أجل خدمة الصالح الصليبى العام[٤]. وهذا الموقف يدل على أن جماعة فرسان الداوية قد نهجت فى تلك الفترة منهاجاً يرمى إلى تكتيل الجبهة الصليبية للمحافظة على الكيان الصليبى المتداعى، ومواجهة الأخطار المحدقة به من قبل الايوبيين فى الشام والمماليك فى مصر. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل فى نفس الوقت على بعد نظر هذه الجماعة لأنها تعلم تماماً أن فى الصالح الصليبى العام مصلحة خاصة لها وإن كان بطريق غير مباشر.

---

(1)Rothelin, op. cit., pp. 631-633; Estoire d'Eracles,pp.442-443; Annales de Terre sainte,op.cit., pp.446-447.

(2) Rôhricht, Rogesta, doc. 1201; Estoire d'Eracles,p. 443.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن ذلك الخلف راجع:

Estoire d'Eracles,pp. 443-445;Amadi , chronique, voI.,I,pp.

(4)Estoire d'Eracles,p. 444;Matthew of westminster, The Flowers of History, voI, II, p. 362.

أما عن الجبهة الإسلامية، فكانت مصر آنذاك تمر بثورة فى القصر عندما أراد الملك عز الدين ايبك أن يتخذ له زوجة جديدة، فواجهت شجرة الدر تلك الرغبة بمعارضة شديدة، وصممت على التخلص من ايبك، فدبرت مؤامرة لاغتياله وتم لها ما أرادت يوم الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول ٦٥٥هـ/ ١٠ ابريل ١٢٥٧م. ولكنها واجهت نفس المصير، وتم قتلها فى ربيع الآخر / ابريل من العام نفسه. وتولى العرش نور الدين على بن عز الدين ايبك وكان طفلاً صغيراً، فوضع تحت وصاية الأمير سيف الدين قطز[١].

هذا، بينما نجح المغول بقيادة هولاكو فى اجتياح العراق، والاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية بعدما أقاموا المذابح فى شوارعها، وقتلوا الكثير من سكانها ومن بينهم الخليفة العباسى المستعصم بالله فى المحرم ٦٥٦هـ/ يناير ١٢٥٨م. وتقدم المغول صوب الشام الذى أصبح بصورة هددت المسلمين والفرنج على السواد. لهذا رأى قطز أن الظروف لاتتحمل وجود طفل على العرش، فقام بانقلابه وعز نور الدين، وتولى السلطة فى ذى القعدة ٦٥٧هـ/ اكتوبر ١٢٥٩م وأخذ يعد العدة لمواجهة المغول[٢].

---

(١) ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص١٩٦؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٦٢-٦٣؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٢؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، لوحة١٢٩-١٣٠؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص١٩٢؛ الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٥٩؛ العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٣، لوحة٢٨٨؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص١٩٣-١٩٤؛ الكتبى : عيون التواريخ. جـ٢٠، لحة٨٢-٨٧؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص١٩٥-١٩٩؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٤٠٤؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٤٣-٦٣؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٤٠-٤١.

(٢) ابو شامة: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ اليونينى: المصدر السابق، ص٦٣؛ ابن ايبك: المصدر السابق، نفس الجزء، لوحة٣٣؛ النويرى: المصدر السابق، نفس الجزء، لوحة١٣٣؛ ابو الندا: المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٩٩-٢١١؛ ابن الوردى: المصدر السابق، نفس الجزء، ١٩٥؛ الكتبى: المصدر السابق، نفس الجزء، لوحة١٧٣؛ ابن كثير: المصدر السابق؛ نفس الجزء، ص٢١٦؛ المقريزى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٤١٧؛ العينى: المصدر السابق، نفس الجزء، ورقة ١٠٥-١٠٦؛ ابو المحاسن: المصدز السابق، نفسالجزء، ص٧٢.

ولقد استغل الداوية فرصة انشغال سيف الدين قطز بالاستعداد لمحاربة المغول فحشدوا قواتهم وهاجموا جماعة من التركمان بالقرب من طبرية، واستولوا على أغنامهم ومواشيهم[١]، وذلك على الرغم من الهدنة السابقة بين المسلمين والصليبيين. وهذا يوضح إلى أى حد عمل الداوية على استغلال كافة الظروف المحيطة لتحقيق المكاسب لجماعتهم وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق طالما فى ذلك غنم لهم.

ولعل التساؤل الآن: هل استغل الصليبيون اجتياح المغول للعراق والشام وتقلص القوى الإسلامية أمامهم؟ وهل عملوا على التكاتف مع المغول فى مواجهة المسلمين؟

وفى الإجابة يتضح أنه على الرغم من المحاولات السابقة التى جرت بين الغرب الأوربى وبين المغول فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى/ أواسط القرن السابع الهجرى للإتفاق معاً على محاربة المسلمين، إلا أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل لأسباب عديدة ليس هنا مجالها[٢]. ويلاحظ أنه فى تلك الفترة كان المغول يدمرون ما يعترض طريقهم من مدن وقلاع تأبى الانصياع لهم والدخول فى طاعتهم، سواء أكانت تابعة للمسلمين أم للصليبيين، لهذا اجتمع القادة الصليبيون فى عكا وقرروا الدفاع عن القلاع الصليبية ضد أى هجوم مرتقب من قبل المغول، وعهدوا بذلك إلى الجماعات الرهبانية العسكرية وفى مقدمتها الداوية[٣].

ويذكر المؤرخ متى من وستمتستر أن أحد فرسان الداوية قد حضر إلى لندن حاملاً بعض الرسائل إلى نائب مقدم الداوية فى لندن. وكانت هذه الرسائل تنطوى على استنجاد الداوية بإخوانهم فى الغرب الأوربى لمواجهة التتار الذين تقدموا بجيوشهم إلى الشام، واتجهت فرقة من قواتهم صوب مدينة عكا، واشتبكت مع

---

(1) Les Gestes des chiprois, pp. 752-753.

(٢) عن تلك المحاولات راجع: جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٢٥٣-٢٨٨.

(3)Rothelin, continuation,p.636.

فرسان الداوية الذين كان قد عهد إليهم بأمر الدفاع عن تلك المدينة، وأن غالبية أولئك الفرسان قد قتلوا فى هذا الصدام[1].

أما صاحب كتاب «مآثر القبارصة» و «حوليات الأراضى المقدسة» فيشيران إلى أن قوات الداوية وحنا دبلين صاحب بيروت قد اشتبكوا مع التتار فى منطقة الجليل، وفى هذا الاشتباك نجح التتار فى انزال الهزائم بالقوات الصليبية بالقرب من طبرية[2]. بينما أورد صاحب كتاب «تاريخ هرقل» أن صاحب بيروت ومعه ماريشال الداوية اتين دى سيس Estien de Sissi قد حشدا قواتهما، وشنا الغارات على المماليك الإسلامية التى أصبحت تابعة للتتار، فتصدت لهم فرقة تترية، وأوقعت بهم الهزيمة، وتم أسر معظم فرسان الداوية[3].

أما المؤرخ روتلان فيذكر أن الداوية شاركوا صاحب صيدا فى الإغارة على الأراضى التى أصبحت تابعة للتتار[4]. تلك هى أهم الروايات التى ذكرتها المصادر الغربية فى هذا الصدد. ويلاحظ أن جميعها قد اتفقت على أن فرسان الداوية قد شاركوا الصليبيين فى شن الغارات على التتار، مما يوضح أنهم فى تلك المرحلة لم ينهجوا المنهاج الذى وضعه من قبل البابا انوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع، والذى كان يهدف إلى التحالف مع التتار ضد المسلمين. وإنما قام أفرادها بإثارة هذا العنصر، وشن الغارات على ممتلكاته. ويلاحظ أيضاً أن جميع تلك الروايات لم تحدد لتلك الغارات، إنما اكتفت بالإشارة إليها ضمن أحداث عام ١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ، دون الدخول فى أية تفاصيل.

ويمكن تحديد الفترة الزمنية لتلك الغارات عن طريق بعض الإشارات التى وردت فى المصادر. إذ يشير المؤرخان روتلان وصاحب مثر القبارصة إلى أن القائد

---

(1)Matthew of westminster, The Flowers of History, vol, II, p. 382.
(2) Les Gestes des chiprois, pp. 751-752; Annales de Terre sainte, in, A.O.L., VOI.II.II., p.449.
(3)Estoire d'Eracles,pp.444-445.
(4)Rothelin, continuation,p.636.

المغولى كتبغا عندما علم بأنباء تلك الغارات أرسل صهره على رأس فرقة من التتار لشن الغارة على مدينة صيدا التابعة للفرنج، فكمن له الداوية والأمير حنا، وتمكنوا من قتل الأمير التترى. عندئذ صمم القائد كتبغا على مهاجمة المدينة، فخرج بجيشه وتمكن التتار من دخولها وتحطيم أسوارها[١].

ويُفهم من الرواية السابقة أن تلك الأحداث قد وقعت عندما عاد هولاكو إلى بلاده وعهد بقيادة الجيش إلى قائده كتبغا، الذى نجح فى الإستيلاء على قلعة مدينة دمشق فى منتصف شعبان ٦٥٨هـ/ أواخر يوليو ١٢٦٠م[٢]. ومن الطبيعى أن تكون غارات الداوية على التتار تالية للتاريخ السابق. أما عن تحطيم المغول لأسوار صيدا فلم تحدد المصادر الغربية تاريخا لهذا الهجوم، بينما يشير المؤرخ العربى اليونينى بأن نجاح التتار فى تحطيم مدينة صيدا وأسر ثلاثمائة من الفرنج كان فى الثانى من رمضان ٦٥٨هـ/ الحادى عشر من اغسطس ١٢٦٠م[٣] هذا، بينما يرى المؤرخ أبو شامة أن الهجوم التترى على مدينة صيدا كان فى الثامن من رمضان/ السابع عشر من اغسطس من العام نفسه[٤]. ولما كان تحطيم مدينة صيدا كرد فعل لغارات الداوية والصليبين المذكورة نفا، لذا يمكن القول بزن تلك الغارات التى شنها الداوية على التتار كانت فى النصف الثانى من شعبان ٦٥٨هـ/ النصف الأول من اغسطس ١٢٦٠م. وكان من أهم نتائج الهجوم التترى على صيدا أن باع جوليان الثانى صاحب صيدا المدينة بالإضافة إلى قلعة شقيف ارنون إلى الداوية الذين قاموا بإعادة تحصينها.[٥]

هذا عن العلاقة بين الفرنج الشام والمغول التى وصلت إلى درجة شديدة من

---

(1) Les Gestes des chiprois, p.752; Rothelin, op. cit., pp. 636-637.

(٢) ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٩٦.

(٣) اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٦٠.

(٤) ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٠٧.

(5) Les Gestes des chiprois, p.752.

السؤ. ولم تكن العلاقة بين المغول ودولة المماليك الناشئة فى مصر بأحسن من ذلك. فقد انتهى الصراع بينهما بانتصار القوات المملوكية فى وقعة عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م[١]. وكان لهذا الانتصار نتائج ذات أهمية كبرى، إذ أنه ساعد على تدعيم سلطان المماليك فى مصر، وبالإضافة إلى أنه قضى تماما على معارضة بنى أيوب فى الشام لحكم المماليك فى مصر، بل أصبح الشام خاضعا للنفوذ المملوكى. وهكذا أصبحت مصر والشام جبهة إسلامية متحدة، مرة أخرى، ضد الكيان الصليبى المتداعى فى الأراضى المقدسة. وقد مهد هذا الطريق للمماليك بالتفرغ تماما لمواجهة الصليبيين واستئصال وجودهم من المشرق الإسلامى.

ولكن الأقدار لم تمهل قطز لكى يجنى ثمار انتصاره، إذ قام الأمير بيبرس بقتله عند أبواب القاهرة فى يوم السبت ١٦ ذى القعدة ٦٥٨هـ/ ٢٣ اكتوبر ١٢٦٠م وأعلن نفسه سلطان على مصر، ولقب بالملك الظاهر[٢].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الوقعة راجع:

ابو شامة: الذيل على الروضتين، ص٢٠٧-٢٠٨؛ ابن العمرى: تاريخ مختصر الدول، ص٢٨٠؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ، ص٦٥-٦٧؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، (مخطوط)، جـ٩، لوحة ٢٨-٣٢؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٦٠-٣٦١؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، لوحة٤٢-٤٤؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٢٠٥؛ الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٦٣؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٩٧-٢٩٨؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٢٠-٢٢١؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٤٢٩-٤٣١؛ العينى: عقد الجمان:جـ٢٢، ورقة١٢٤-١٢٦؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد نشر بلوشيه، باريس ١٩١٢، جـ٢، ص٤١٦-٤١٧؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٧٩.

(٢) ابن الظاهر: المصدر السابق، ص٦٨؛ بو الفدا: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٢٠٧؛ ابن ابى الفضائل: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٤٠٨؛ المقريزى: المصدر السابق، نفس الجزء، ص٤٣٥-٤٣٦.

وبإعتلاء بيبرس عرش السلطنة المملوكية تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ العلاقت بين المسلمين والصليبيين تمخض عنها تحطيم الكيان الصليبى فى الشام. وكانت الداوية طرفاً رئيسياً فى الأحداث التى كانت المنطقة مسرحاً لها.

وفى بداية عهد الظاهر بيبرس شعر الفرنج فى الشام بالحاجة إلى فترة من الهدوء والسلام، خاصة بعد إبعاد الخطر المغولى عند المنطقة. لذا أرسل حنا دبلين أمير يافا ومقدم الداوية الرسل إلى الظاهر بيبرس، يسألونه عقد الهدنة وتبادل الأسرى بين الطرفين. فوافق السلطان بيبرس على ذلك، وعقدت بين الطرفين اتفاقية فى شوال ٦٥٩هـ/ سبتمبر ١٢٥١م. وأمر السلطان بجمع الأسرى الصليبيين وإرسالهم رلى مدينة نابلس تمهيدا لمبادلاتهم بالأسرى المسلمين ولكن الفرنة أخذوا المماطلة. لذا أمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس إلى دمشق[١]. وفشلت بذلك الجهود السلمية بين الفريقين.

ولم يكتف الداوية بإثارة المغول من قبل، وبما أحدثته غاراتهم من نتائج ترتب عليها تحطيم مدينة صيدا، بل قاموا بشن الغارات من قلعتهم فى صفد على التركمان فى منطقة الجولان. ولكنهم مالبثوا أن تعرضوا لهزيمة قاسية على يد التركمان[٢]، ووقع الكثير من فرسانهم في الأسر[٣]. وكان من بينهم ماريشال

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١١٧-١١٨؛ بيبرس الداودار: زبدة الفكر، جـ٩، لوحة٤٩-٥٠؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨، لوحة٢٣؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة١٢، المقريزى: السلوك، جـ١، ق٢، ص٤٦٣-٤٦٤؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٥٢.

(٢) بيبرس الداودار: المصدر السابق، جـ٩، لوحة٥٣؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة١٨٥؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٢٢٧.

(3)Estoire d'Eracles,p.445;Annales de Terre sainte,in, A.O.L.,VOI . II.part 2,p.449.

الداوية، الذى لم يطلق سراحه إلا بعد دفع مبلغ عشرة آلاف بيزنط[(١)] للتركمان[(٢)] أثارت غارة الداوية على التركمان السلطان الظاهر بيبرس، وجعلته يكشف عن نواياه تجاه الصليبيين. فسير الفرق من عسكره فى عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م لشن الغارات على بلاد الفرنج فى الشام، فسلبت وغنمت ورجعت سالمة[(٣)]. ثم عادت القوات الإسلامية لشن الغارات على المدن والقلاع الصليبية مرة أخرى. ففى رمضان ٦٦١هـ/ يوليو ١٢٦٣م، قامت فرقة إسلامية بقيادة الأمير سنقر الرومى بشن غارة على مدينة انطاكية، وكان يتولى أمرها نذاك الأمير بوهمند السادس، وعادت ومعها مائتين وخمسين أسيراً[(٤)]. من بينهم بعض فرسان الداوية[(٥)].

أدرك الداوية سؤ عاقبة أعمالهم وأن الوقت لم يعد فى صالحهم، وأنهم بغارتهم على الممتلكات الإسلامية قد أشعلوا نيران الغضب الإسلامى ضد الصليبيين. ومن ثم أرادوا إعادة التفاوض من أجل الصلح. فسار مقدمهم توماس بيرارد ومعه بعض الرسل الصليبيين إلى المعسكر الإسلامى فى دمشق فى ١٢ جمادى الأولى ٦٦١هـ/ ٢٤ مارس ١٢٦٣م. والتمس من السلطان بيبرس الإبقاء على الهدنة السابقة. فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن عنفه لنقض الداوية للهدنة المبرمة بينهما، وذكره بأنهم لم يحترموا العهود والمواثيق، واشترط عليه بأن يرد الداوية أولاً القلاع والمدن الإسلامية التى استولوا عليها من قبل، ويطلقوا سراح جميع أسرى

---

(١) البيزنط عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية، كانت متداولة فى اوروبا فى العصور الوسطى، وكان متوسط قيمة البيزنطة الذهبى المتداول فى اوروبا فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى يبلغ حوالى نصف جنيه إنجليزى. راجع جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على الشام، ص٢٠٤، ج(٢)

(2)Cartulaire Gènèral de L'ordre du Temple, p. 397.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٢٠؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة٦٢؛ شافع بن على: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة لوحة١٩٧؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٣٣.

(٤) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٣؛ بيبرس الدوادار: المصدر السابق، نفس الجزء، لوحة٦٣.

(5)Cartulaire Gènèral de L'ordre du Temple, p. 400.

المسلمين عندهم، وعندئذ يكون السلطان على استعداد للتفاوض مع الصليبيين. وقد اصدر الظاهر بيبرس أوامره بطرد الرسل الفرنج شر طرده[1]. وكان هذا إيذاناً بإعلان الحرب على الصليبيين بعامة وعلى الداوية بخاصة الذين كانوا يعتبرون على حد قول المصادر العربية من ألد أعداء العروبة والإسلام.

وفى الرابع والخامس من جمادى الثانى ٦٦١هـ/ ١٤ - ١٥ابريل ١٢٦٣م، أغارت القوات الإسلامية على مدينة عكا ونواحيها، وألحقت الدمار ببعض أجزائها كما نجحت فى أسر بعض الصليبيين[2]. وكان من بينهم خمسة عشر فارسا من الداوية[3].

وبالرغم من الخسائر التى حلت بجماعة فرسان الداوية فى تلك الفترة، إلا أنها قامت بتوحيد جهودها مع جماعة الفرسان الاسبتارية، وشن بعض أفراد الجماعتين هجوماً فى يوليو ١٢٦٤م/ رمضان ٦٦٢هـ على مدينة عسقلان الإسلامية[4] وقد قوبلت تلك الأعمال بالردع الحازم من قبل الظاهر بيبرس، إذ أمر قائده ناصر الدين القيمرى بالرد على هجمات الداوية، عن طريق شن الغارات على قلعتهم فى عثليت[5].

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحوار الذى دار بين مقدم الداوية والسلطان الظاهر بيبرس راجع: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٥١-١٥٦؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة٣٣-٣٤؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٤٨٧، وايضاً:

Estoire d'Eracles,p.447.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة٧٠؛ ابو الفدا: المختصر جـ٣، ص٢١٧-٢١٨؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوة٣٤؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٤٨٧؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، لوحة٢١٤؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٢٣.

(٣) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص١٥٩، وايضاً:

Estoire d'Eracles,p.447-448;Les Gestes des chiprois, p.742.

(4)Annales de Terre sainte,in, A.R.L.,VOI . II.part 2,p.451;Amadi , chronique, voI.,I,p.206.

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٩٧-٢٠٠؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة٥٣؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥١٣؛ ابن بهادر: فتوح النصر ورقة٢٣٧-٢٣٨واضاً:

Les Gestes des chiprois, p.752

وعند هذا الحد يمكن القول بأن الصراع بين المسلمين والصليبيين فى تلك الفترة كان قاصراً على مجرد شن الغارات بين الفريقين، والتى من خلالها أدرك السلطان بيبرس مدى ضعف الصليبيين. لذا أخذ يعد العدة لشن جوم شامل على الوجود الصليبى المنهار فى فلسطين بغرض استرداد المدن والقلاع الإسلامية السليبة. وكانت قلعة عثليت من أولى القلاع الداوية التى تعرضت لذلك الهجوم. ففى السادس والعشرين من جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ السادس عشر من مارس ١٢٦٥م قامت القوات الإسلامية بضرب الحصار من حولها، وقطعت الأشجار وحطمت الأبنية المجاورة لها، ولكن نظراً لمناعة تلك القلعة، رأى السلطان بيبرس أن يرجئ أمرها إلى مابعد. فتحولت القوات الإسلامية عنها إلى مدينة قيسارية، وتمكنت من استردادها، وهدمها[١]. وإن دل هذا على شئ فـإنما يدل على أنه بالرغم من الضعف العام الذى استشرى في الكيان اللاتينى المنهار فى الأراضى المقدسة، فقد كانت معاقل وحصون الجماعات الرهبانية العسكرية، وفى مقدمتها الداوية فى وضع يسمح لها بالصمود أمام الهجمات الإسلامية المتتالية بينما ميزان القوى فى الصراع بين الطرفين كان قد اعتدل بشكل واضح لصالح المسلمين.

أما عن جماعة فرسان الداوية فقد شاركت فى تلك الفترة بوهمند السادس أمير طرابلس وانطاكية (١٢٥١ - ١٢٧٥م/ ٦٤ - ٦٧٤هـ) فى الهجوم على مدينة حمص الإسلامية فى الثامن من صفر ٦٦٤هـ/ التاسع عشر من نوفمبر ١٢٦٥م وكانت حمص تخضع نداك لحكم المماليك فى مصر. ولكن تصدت لها القوات الإسلامية فى حمص وارغمتها على الإرتداد[٢]. وكان لهذا الهجوم رد فعل

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٣٤؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٢٧-٥٢٨؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٣٨ وايضاً:

Estoire d'Eracles,p.446;Annales de Terre sainte,in,A.R.L.,VOI.II .part 2,p.452.

(٢) ابن عبد الظاهر: روض الزاهر: ص٢٤٥؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨، لوحة٨٦-٨٧؛ المقريزى:السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٤٣؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٢٦٨؛ ابن بهادر: فتوح النصر ورقة٢٤.

عنيف لدى السلطان بيبرس، إذ خرج بقواته لمهاجمة أملاك الأمير بوهمند فى طرابلس، وأحاطت قواته بالمدينة. وعندئذ أدرك بوهمند أنه لامفر أمامه سوى طلب الصلح. فأجابه السلطان بيبرس إلى طلبه وعقد بين الطرفين هدنة لمدة عشر سنوات[1]. ويبدو أن تلك الهدنة كانت تمشيا مع سياسة السلطان بيبرس تجاه الصليبيين فى تلك الفترة، والتى كانت تنطوى على مهادنة فريق منهم ومحاربة الآخر، سعيا وراء الهدف الأسمى ألا وهو استرداد كافة المدن والقلاع الإسلامية التى استولى عليها الصليبيون من قبل فى وقت كان يعلم فيه تماماً أن الكيان الصليبى فى الأراضى المقدسة فى طريقه إلى الإنهيار والزوال.

ومهما يكن من أمر، فبعد أن فرغ الظاهر بيبرس من أمر أمير صيدا، بدأ يوجه جهوده تجاه قلعة الداوية فى صفد. ويذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر أن السبب فى توجه بيبرس لمهاجمتها أنها كانت تمثل الشوكة فى حلق الشام، والخنجر فى صد الإسلام[2].

وقد اختلفت المصادر العربية حول تاريخ الهجوم الإسلامى على مدينة صفد. ويمكن تقسيم المؤرخين العرب بصفة عامة إلى فريقين: أحدهما يرى أن هذا الهجوم قد بدأ فى شهر شعبان ٦٦٤هـ/ مايو ١٢٦٦م، والآخر يرى أنه كان فى رمضان/ يونيو من العام نفسه. وقد تشعبت آراء الفريق الأول: فيرى المؤرخ ابن أبى الفضائل أن بداية هجوم قوات بيبرس على مدينة صفد كان فى مستهل شعبان/ الثامن من مايو[3]. بينما يرى المؤرخان أبو الفدا وابن الوردى أنه كان فى الثامن من شعبان/ الخامس عشر من مايو[4]. أما المؤرخ العمرى فيرى أنه كان فى التاسع عشر

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر: ص٢٥٥؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة.

(٢)ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٤.

(٣) ابن ابى الفضائل: النهج السديد، ص٤٩٠.

(٤)ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص٣؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٢١.

من شعبان/ السادس والعشرين من مايو من العام نفسه[1].

وبالنسبة للفريق الثانى فقد تشبعت الآراء أيضاً. فيرى كل من ابن عبد الظاهر وابن ايبك وشافع بن على وأبى المحاسن وابن بهادر أن هذا الهجوم بدأ فى الثامن من رمضان ٦٦٤هـ/ ١٣ يونيو ١٢٦٦م[2]. بينما يرى المؤرخ المقريزى أنه كان فى الثامن عشر من رمضان/ الثالث والعشرين من يونيو[3]. أما المؤرخ العينى فيرى أنه كان فى التاسع عشر من رمضان/ الرابع والعشرين من يونيو[4].

وبالنسبة للمصادر الأجنبية، يشير المؤرخ امادى أن هذا الهجوم كان فى الخامس عشر من مايو ١٢٦٦م/ الثامن من شعبان ٦٦٤هـ[5]. بينما يشير كل من صاحب مآثر القبارصة، وصاحب كتاب تاريخ هرقل، وحوليات الأراضى المقدسة، بأنه كان فى أواخر يونيو/ أواخر رمضان من العام[6]. وبذلك يتضح الخلاف بين أولئك المؤرخين قد انحصر فى الفترة مابين شعبان ورمضان ٦٦٤هـ (مايو - يونيو ١٢٦٦م). ولكن المؤرخين اليونينى والكتبى يحسمان هذا الخلاف بقولهما أن الظاهر بيبرس خرج من مصر فى مستهل شعبان قاصداً صفد، وأنه نزل عليها فى الثامن من رمضان، ولم يبادرها بالهجوم، بل أخذ يستعد لنصب المجانيق[7]. وبذلك يمكن القول بأن الهجوم الإسلامى على مدينة صفد قد بدأ فى النصف الثانى من

---

(١) العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، ق٣، لوحة٣٢٩.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٥؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، لوحة١٠٤؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة٨٦، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٨؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٠.

(٣) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٤٥.

(٤) العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٣٦٣.

(5) Amadi chronique, voI., p. 207.

(6)Les Gestes des chiprois,p.764.Estoire d'Eracles,p.455;Annales de Terre sainte,in,A.R.L.,VOI.II.part 2,p.453.

(٧) اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٣٧؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحة٢٧٠.

رمضان ٦٦٤هـ/ أواخر يونيو ١٢٦٦م، وبعدما جهز السلطان بيبرس كل الآلات اللازمة لضرب أسوار المدينة. وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن الظاهر بيبرس قد شارك بنفسه في سحب أحد المجانيق، وعرف باسم المنجنيق المغربى، استعداداً للهجوم على المدينة[1].

أما عن كيفية استرداد المدينة وقلعتها من يد جماعة فرسان الداوية، فيلاحظ أن المصادر العربية قد أفاضت فى ذكر تفاصيل هذا الفتح، بينما أشارت إليه المصادر الغربية إشارة عابرة بين ثنايا السطور، ولانجد لذلك تعليلاً اللهم إلا أن هذا الفتح الإسلامى لتلك المدينة لم يكن يتفق مع رغبات وأهواء أولئك المؤرخين الغربيين.

وتروى المصادر العربية أن السلطان بيبرس عندما ضرب الحصار حول مدينة صفد، أرسل فى الوقت نفسه بعض الفرق لشن الغارات على عكا وصور وعرقه وطرابلس وحصن الأكراد لشغل الفرنج فيها من ناحية ولمنع وصول الإمدادات الصليبية إلى مدينة صفد من ناحية أخرى. ثم أمر النقابين والحجارين بالجد فى ضرب أسوار المدينة وأخذ يشرف على ذلك بنفسه، ويكافأ من أحسن منهم بالأموال. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الداوية ومعهم الاسبتارية فى داخل المدينة قد أبدوا مقاومة عنيفة. إذ تذكر المصادر العربية أن الأمير بدر الدين الديدمرى قد أصابته إحد الكتل الحجرية عندما خرج ليستطلع هلال شهر شوال. كما تشير المصادر أيضا إلى استشهاد عدداً ليس بقليل من المسلمين خلال ذلك الهجوم، بالإضافة إلى أنها أوردت أن الظاهر بيبرس قد أمر بسجن حوالى أربعين قائداً من قواد المسلمين بعدما تقاعصوا عن القتال. ومالوا إلى الإستكانة لشدة تعبهم وطول الإقتتال، بالإضافة إلى شدة ماوجهوا من مقاومة. وفوق هذا وذاك، تذكر المصادر أن بعض القادة المسلمين قد قدموا النصح للظاهر بيبرس بعدم التوجه بنفسه إلى الخطوط الأمامية حتى لايصاب بمكروه، من قذائف المدافعين عن المدينة، ولكن

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٧.

السلطان لم يلتفت إلى تلك النصائح، وظل ينتقل من موضع إلى آخر، ويحث العسكر على مواصلة الهجمات[1].

هذا ماذكرته المصادر العربية عن الهجوم الإسلامى الكبير على قلعة صفد التابعة للداوية. أما المصادر الغربية فقد أشادت بالمقاومة العنيفة التى أبداها الداوية ومعهم الاسبتارية ضد الهجوم الإسلامى[2]. لكن بعض المؤرخين الغربيين القدامى والمحدثين أخذوا على الظاهر بيبرس قيامه بقتل الداوية والاسبتارية داخل المدينة بعد أن منحهم الأمان[3].

وبالنسبة للمصادر العربية فقد أوردت هذا الصدد روايتين: إحداهما تذكر أنه عندما استبد اليأس بالفرنج من شدة القتال أرسلوا إلى السلطان فى طلب الأمان، فاشترط عليهم ألا يستصحبوا سلاحاً ولا مالاً ولاشيئاً من الفضيات، ولايؤذوا شيئا من ذخائر القلعة. فوافق الفرنج، واستسلموا. ووقف السلطان على باب صفد، ونزل الفرنج، وساروا جميعاً بين يديه وأخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها فى ملابسهم، كما أنهم قد أخذوا معهم من أسرى المسلمين والبسوهم رداء

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥٦-٢٦٠؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٣٧-٣٣٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٠٤-١٠٥؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص٣؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة٨٦-٨٧؛ العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٤، لوحة٣٣٠؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٢١-٣١٣؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢، لوحة٢٧٠-٢٧١؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ٢٤٦-٢٤٧؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة٢٤٠، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٤٥-٥٤٧؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد، ص٤٩٠-٤٩١؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٨-١٣٩؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٠.

(2)Les Gestes des chiprois,pp.764-766;Estoire d'Eracles,p.455 ;Annales de Terre sainte,in,A.O.L.,VOI.II.part 2,p.453. Amadi chronique, voI., p. 209.

(3)Les Gestes des chiprois,p.766;Also:Addison,Templars,p.181; king Hospitallers, p. 261.

النصارى. وعندما هم المسلمون بتفتيشهم، وجدوا معهم ماذكر آنفاً، مما ينقض الأمان[1]. أما الرواية الثانية فتشير إلى أن أهل صفد عندما طلبوا الأمان لم يحلف لهم السلطان على ذلك، وإنما أجلس مكانه الأمير كرمون الذى كان يشبه إلى حد كبير، فانخدع الفرنج بذلك[2]. وقد جمع بعض المؤرخين العرب بين هاتين الروايتين على أنهما من أسباب نقض السلطان بيبرس للأمان الذى منحه لأهل صفد[3].

وهكذا يمكن الرد على من ادعوا بأن المسلمين قد نقضوا عهد الأمان مع الداوية فى صفد، بأن الفرنج لم يلتزموا هم فى بداية الأمر ببنود هذا الأمان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن السلطان بيبرس لم يقسم لهم على هذا الأمان، لأنه أراد مخادعتهم، والحرب خدعة. وفوق هذا وذاك، فقد نسى أولئك المؤرخون كم من أمان منحه الصليبيون لسكان المدن الإسلامية ولكنهم مالبثوا أن غدروا بأولئك السكان.

وجدير بالذكر أن هناك شبه إجماع بين غالبية المؤرخين العرب على أن مدينة صفد وقلعتها قد سقطت فى يد المسلمين فى يوم الجمعة الثامن عشر من شوال ٦٦٤هـ/ الثالث والعشرين من يوليو ١٢٦٦م[4]. وإن كان بعض المؤرخين العرب

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦١؛ شافع بن على حسن المناقب، لوحة٨٧-٨٨، اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٣٨.

(٢) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٠٥؛ العمرى: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٤، لوحة٣٣٠؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٦٧.

(٣) الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢، لوحة٢٧٠-٢٧١؛ ابن كثير البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٤٦-٢٤٧؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم١، ص٥٤٧-٥٤٨؛ ابن ابى الفضائل، النهج السديد، ص٤٩١،٤٩٢؛ ابو المحاسن النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٨.

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٠، شافع بن على حسن: المناقب، لوحة٨٨؛ العمرى مسالك الابصار، جـ٢٨، قسم٤، لوحة٣٣٠؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحة٢٧١؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٤٦؛ ابن الشحنة: روض المناظر ورقة١٦٧؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٤٥، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٨، ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة٢٤٠.

يقدم تاريخ سقوط مدينة صفد فى أيدى المسلمين إلى يوم الثلاثاء ١٥ شوال/ ٢٠ يوليو[١]. ويقدمه البعض الآخر إلى يوم الأربعاء التاسع عشر من شعبان/ السادس والعشرون من مايو فى العام نفسه[٢]. أما المصادر الغربية فقد اتفقت مع رأى الفريق الأول من المؤرخين العرب، وقالت أن سقوط صفد وقلعتها كان فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من يوليو ١٢٦٦م/ الثامن عشر من شوال ٦٦٤هـ[٣].

أما عن مصير جماعة فرسان الداوية داخل مدينة صفد، فتروى المصادر العربية أن السلطان بيبرس قد جمعهم، وأمر بضرب رقابهم على تل قريب من صفد، فى المكان الذى كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين، ولم يسلم منهم غير نفرين. أحدهما الرسول الذى كان قد شرب مع السلطان قمزاً[٤]، أما الآخر فقد ترك لكى يخبر أهله بما جرى[٥]. ويقول الذهبى أن عدد من ضرب رقابهم من فرسان الداوية والاسبتارية يقدر بحوالى مائتين[٦]، بينما يذكر الكتبى أنهم كانوا حوالى ألفين[٧].

---

(١) اليويني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٣٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٠٥.

(٢) ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص٣؛ العمرى: مسالك الإبصار، جـ١٧، قسم٤، لوحة٣٣٠

(3)Les Gestes des chiprois,p.766;Estoire d'Eracles,p.455;Annales de Terre sainte,in,A.O.L.,VOI.II.part 2,p.453.

(٤) القمز لبن مروب من حليب الفرس وكان من عادات المسلمين فى العصور الوسطى انه من أكل وشرب منهم أمن. راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٢.

(٥) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص٢٦٢؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٠٥؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص٣؛ شافع بن على: حسن المناقب لوحة٨٧-٨٨؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم٤، لوحة٣٣٠، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣١٣؛ الكتبى: عيون التواريخ؛ جـ٢٠، لوحة٢٧١؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٤٧؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٦٧؛ السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٤٧-٥٤٨؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد، ص٤٩١؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٣٩؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٠.

(٦) الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٦٩.

(٧) الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحة٢٧١، وانظر ايضاً الملحق الرابع آخر الرسالة.

ونميل إلى الأخذ بالرأى الأول الذى يبدو أنه قرب إلى الصواب، وواضح أن الكتبي جنح إلى المبالغة على عادة كتاب العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء.

على أية حال، كانت قلعة الداوية في صفد من أولى القلاع التي انتقلت من حوزة جماعة فرسان الداوية إلى المسلمين[1]، وأصبحت بعد ذلك بمثابة القاعدة التي تنطلق منها هجمات الإسلامية على القلاع والمدن الصليبية الأخرى، وبخاصة تلك التي تخص الداوية[2].

وهكذا استمر السلطان بيبرط في شن هجومه الشامل على الممتلكات الصليبية، بينما ظلت جماعة الداوية تبذل أقصى ما في وسعها لصد الهجمات الإسلامية. ففى المحرم عام ٦٦٥هـ/ اكتوبر ١٢٦٦م توجهت فرقة من الجيش الإسلامى لشن الغارة على مدينة عكا. فتصدت لها القوات الصليبية ومن بينها بعض فرسان الداوية[3]، ومنى الصليبيون بالهزيمة، وعادوا ادراجهم إلى داخل المدينة[4].

وقد حاول الداوية الرد على تلك الهجمات بشنت الغارات على بعض القلاع الإسلامية فشاركوا قوات الملك القبرصي هيو دي لوزجنان Huges de Lizeignan (١٢٥٣-١٢٦٧م) الذى وفد بجيشه إلى الشام فى تلك الفترة حرصا منه على حماية الكيان الصليبي الذى أخذ يتداعى أمام شدة الهجمات الإسلامية. وشن الصليبيون الغارات على منطقة طبرية التي كانت آنذاك تحت نفوذ المماليك فى مصر فمال السلطان بيبرس إلى الخديعة مرة أخرى، وألبس بعض فرسانه رداء جماعتى

---

(١) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٦٣.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٧.

(3)Estoire d'Eracles,p.455.

(٤)(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٦٧.

الفرسان الداوية والاسبتارية، وجعلهم يقصدون للصليبيين أثناء عودتهم إلى مدينة عكا. فلما أطمأن لهم الفرنج، انقضوا عليهم بالقرب من أبواب مدينة عكا فى رجب ٦٦٥هـ/ مارس ١٢٦٧م وقتلوا وأسروا الكثير من أهلها[١].

أخذ الظاهر بيبرس يوجه الضربات المتالية إلى الصليبيين بصفة عامة، وجماعة فرسان الداوية على وجه الأخص. وكانت قلعة الداوية فى شقيف ارنون هى المقصد التالى للمسلمين. وقبل أن يتوجه إليها الجيش الإسلامى، أمر السلطان بيبرط الأمير بدر الدين بكتوت بالمرابطة أمام القلعة، وضرب الحصار من حولها، وألا يقوم بمنازلتها لحين قدوم بقية الجيش الإسلامى. وفى يوم الأربعاء التاسع عشر من رجب ٦٦٦هـ/ الثالث من ابريل ١٢٦٨م، نزلت الجيوش الإسلامية بقيادة بيبرس على القلعة[٢].

وقد اكتفت المصادر الغربية بالإشارة إلى أن القلعة تعرضت للقذائف المتالية لمدة عشرة أيام، مما دفع الداوية إلى الإستسلام[٣]. بينما تلقى المصادر العربية المزيد من التفاصيل، فتذكر أنه كانت توجد فى شقيف ارنون قلعتان إحداهما القديمة والأخرى المستحدثة. وعندما بدأ الهجوم الإسلامى، وشعر الداوية بعدم جدوى

(١) شافع بن على: حسن المناقب، لوحة٩٢؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٢٤٨؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٥٨-٥٥٩؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة ٢٧٣: وايضاً:
Les Gestes des chiprois,p.766;Estoire d'Eracles,p.455;Amadi chronique, voI.I, pp. 208-209.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٦، اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٧٦؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١١٢-١١٣، ابو الفدا، المختصر، جـ٤، ص٤، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص١٧٠؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة١٠؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢، لوحة٢٩١؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٥١؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٦٧؛ المقريزى، السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٦٥؛ العينى: عقد الجمان، جـ١٢، ورقة٢٨١؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٧.

(3)Les Gestes des chiprois,p.770-771;Estoire d'Eracles,p.456 ;Amadi chronique, voI.I, p.209.

الدفاع عن كلتي القلعتين، خربوا القلعة المستحدثة، واشعلوا فيها النيران، ثم انتقلوا إلى القلعة القديمة وظلوا يقاومون منها الهجمات الإسلامية المتتالية. وتشير المصادر الغربية إلى رواية طريفة كانت السبب المباشر في سقوط تلك القلعة، ومؤداها أن الداوية في عكا قد أوفدوا رسولاً يحمل كتاباً إلى نائب المقدم في شقيف ارنون، وأن القوات الإسلامية تمكنت من الإستحواذ على ذلك الكتاب. ويوضح المؤرخ شافع بن على أن السبب في ذلك يرجع إلى أن حامل الكتاب كان من المسلمين ويدعى أو الجد[1].

وقبل أن نسترط في سرد بقية تفاصيل تلك الرواية يواجهنا تساؤل، لماذا أرسل الداوية ذلك الكتاب مع أحد المسلمين ولم يبعثوا به مثلا مع أحد رجالهم؟

لم توضح المصادر العربية أو الغربية سبب ذلك، مما يجعلنا نرجح بأن ذلك المسلم إما كان أسيراً لدى الداوية، وحاولوا اقناعه بأنهم سيطلقون سراحه مقابل أن يقوم بنقل الكتاب، أو أن المسلم قد ادعى التنصر ليسلم من بطش الداوية، فأمنوا له، وجعلوه يحمل هذا الكتاب، ولم يغامروا بإرسال أحد فرسانهم، أو لإعتقادهم بأن المسلمين لن يشكوا في أمره لأنه يرتدى زيهم ويتحدث بلسانهم.

على أية حال تذكر المصادر العربية عندما عرض هذا الكتاب على السلطان بيبرس، وتم تعريبه على يد أحد المسلمين ممن يعلمون لغة الفرنج، استغل السلطان الإشارات التي وردت فيه، ومن بينها أسماء بعض الداوية الذين كانوا بداخل القلعة، وأمر كاتبه بخط كتاب آخر يحذر فيه نائب المقدم من الماريشال. ووضع الكتاب في سهم، وأطلقه إلي داخل القلعة. وعندئذ وقع الخلاف بين فرسان الداوية في داخل القلعة. لذا مالوا إلى الأمان، واستسلمت القلعة في يوم الأحد ٢٩ رجب ٦٦٦هـ/ ١٥ إبريل ١٢٦٨م. فدخلها المسلمون، وأمر السلطان بهدمها،

(١) شافع بن على: حسن المناقب، لوحة ١٠٥، وانظر ايضاً الملحق رقم (٥) بآخر الرسالة.

بعدما خرج من بها من الداوية وتوجهوا إلى مدينة صور[1].

وبعد أن استردت القوات الإسلامية مدينة انطاكية في يوم السبت ٤ رمضان ٦٦٦هـ/ ٩ مايو ١٢٦٨م، شعر الداوية في القلاع القريبة منها بعدم جدوى الدفاع عن قلاعهم. فاستسلم الداوية الذين في قلعة بغراس في ١٣ مارس/ ٢٧ مايو من العام نفسه[2]. كما سارع نائب مقدم الداوية في صافيتا وانطرطوس بخطب ود السلطان بيبرس، وطلب الهدنة لكلتى القلعتين، وأطلق سراح ثلاثمائة من الأسرى المسلمين. فاشترط عليه السلطان تسليم مدينة جبله أولاً. عندئذ طلب نائب المقدم السماح له بالتوجه إلى مدينة عكا للحصول على موافقة مقدم جماعته. وبالفعل تنازل الداوية للمسلمين عن نصيبهم في مدينة جبلة. وعقدت

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٩٧-٢٩٨؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٧٦-٣٧٧؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١١٢-١١٣؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٢، ص٤، شافع بن علي: حسن المناقب، لوحة:١٠٥؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحة٢٩١، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٥١؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة١٦٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٦٦٥-٦٦٦؛ العيني:عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٢٨١؛ ابن ابي الفضائل: لنهج السديد، جـ١، ص٦٠٦-٦٠٧، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٧.

(٢) ابن عبد الزاهر، ص٣٢٥؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٣٨٤؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٢، ص٥، شافع بن علي: حسن المناقب، لوحة:١٠٥؛ الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص١٧٠؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣١٤؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ٢٠ لوحة٢٩١؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٥٢؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٦٧؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٧٠؛ العيني: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٢٨٧؛ ابن ابي الفضائل: النهج السديد، جـ١، ص٥١٤؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٧، وايضاً:

Les Gestes des chiprois,p.772;Annales de Terre sainte,in,A.R.L., VOI.II.part 2,p.455.

الهدنة لانطرطوس وصافيتا بشرط ألا يضيفوا به منشآت إلى تحصيناتها[1].

وهكذا أثمرت الهجمات الإسلامية المتواصلة على المدن والقلاع الصليبية بعامة ومواقع جماعة فرسان الداوية بصفة خاصة، عن استرداد المسلمين بعض قلاع الداوية فى صفد وشقيف ارنون وبغراس، مما جعل سياسة تلك الجماعة تتحول من الهجوم وشن الغارات على المواقع الإسلامية، إلى التقوقع والحيلولة دون سقوط بقية ماتحت أيديهم من مواقع وقلاع فى أيدى المسلمين. كما يتضح مما سبق أن سياسة السلطان بيبرس فى تلك الفترة كانت تنطوى على مهادنة فريق من الداوية، ومهاجمة فريق آخر، إلى أن تأتى الظروف الملائمة لمهاجمة أولئك الذين دخلوا فى الهدنة. وجدير بالذكر أن تلك السياسة لاتشين المسلمين بأية شائنة، خاصة إذا علمنا أن الصليبيين عامة لم يلتزموا قط ببنود المعاهدات التى عقدوها مع المسلمين، وإنما كان هدفهم من ذلك هو الحيلولة دون سقوط ماتحت أيديهم من ممتلكات فى أيدى المسلمين. ولم يمنعهم ذلك من التكاتف سوياً لمعاودة الكرة، وإعداد العدة لشن الهجوم تلو الآخر على المسلمين كلما واتتهم الفرصة، وفوق هذا وذاك يجب ألا ننسى أن الأراضى التى استولى عليها الصليبيون فى المشرق الإسلامى كانت ممتلكات إسلامية من قبل.

ومهما يكن فإنه بالرغم من انعقاد الهدنة بين المسلمين والداوية فى قلعتى صافيتا وانطرطوس، إلا أن الداوية فى صافيتا لم يلتزموا ببنود تلك الهدنة، وقدموا العون والمساعدة لإخوانهم فى مدينة طرابلس أثناء اغارات المسلمين على تلك المدينة، فانتهز السلطان تلك الفرصة، واعتبرها اخلالاً بالمعاهدة المبرمة بينهما، وسار

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٠٦/٣٣٠؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة٩٧؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٨ لوحة٩٤؛ شافع بن على: حسن المناقب، لوحة١١٧؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٦٦؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٤٨ وايضاً:
Les Gestes des chiprois,pp.772-773;Estoire d'Eracles,p.457.

بجيوشه تجاه صافيتا. عندئذ حضر نائب مقدم الداوية بين يديه، وطلب منه الموافقة على تسليم صافيتا مقابل البقاء على الهدنة مع انطرطوس فوافق السلطان وتم تجديد الهدنة بينهما لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشر أيام، وذلك في يوم الاثنين مستهل رمضان ٦٦٩هـ/ الثالث عشر من ابريل ١٢٧١م[١].

أما هذه الضربات المتتالية التى عانى منها الكيان الصليبى فى الشام بوجه عام، وجماعة الداوية على جماعة الخصوص، سارع الغرب الأوربى بإرسال حملة ضئيلة الحجم إلى المشرق الإسلامى بقيادة الأمير ادوارد الانجليزى Edward، وقد أرسى الأمير بسفنه على سواحل مدينة عكا فى التاسع من مايو ١٢٧١م/ السابع والعشرين من رمضان ٦٦٩هـ. وعلى الفور كشفت جماعة الفرسان الداوية عن نيتهما وشارك بعض فرسانها فى قلعة عثليث قوات الأمير الانجليزى ادوارد فى الهجوم على بعض المدن والقلاع الإسلامية، ومن بينهما قلعة قاقون، فى أواخر ربيع الثانى ٦٧٠هـ/ أواخر نوفمبر ١٢٧١م، وتمكنوا من قتل والى القلعة بجكا العلائى، وجرح وأسر العديد من المسلمين. عندئذ خرجت حامية مدينة حلب الإسلامية لنجدة المسلمين فى قاقون. فلما رأى الفرنج المدد الإسلامى عادوا مدبرين تجاه مدينة عكا. ولكن تمكنت القوات الإسلامية من اللحاق بهم، ودارت المناوشات بين الفريقين، والتى نجح خلالها المسلمون من استرداد أسراهم من

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٧٥، ٣٧٨، ٣٧٩؛ اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٤٤٤–٤٤٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٣٦؛ ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣١٦، الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوة٣٢٧–٣٢٨؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص٢٥٩؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٥٩١؛ العينى، عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٣١٩؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد ص٥٢٧–٥٢٨، ٥٣١؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهر، جـ٧، ص١٥٠؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٦٠، وايضاً:

Annales de Terre sainte,in,A.R.L.,VOI.II.part 2,p.455;Estoire d'Eracles,p.460.

الفرنج، وأسروا منهم عشرين فارساً[1].

وهكذا يتضح أن جماعة الفرسان الداوية لم تلتزم بالعهود والمواثيق مع الجانب الإسلامى، إنما كانت تغتنم كل فرصة لشن الهجوم على المدن والقلاع الإسلامي بمجرد أن تشعر بقوتها، أو عندما يشد من ازرها وصول امدادات من الغرب الأوربى. أما إذا شعر أفرادها بالوهن، أو تعرضوا لهزائم متتالية مالوا إلى الاستكانة وطلب الهدنة. ولعل هذا يفسر لماذا نعتهم بعض المؤرخين العرب بنهم ألد أعداء المسلمين، ولماذا حرص بعض القادة المسلمين ومن بينهم الظاهر بيبرس ومن قبله الناصر صلاح الدين على قتل فرسان تلك الجماعة عندما يقعون أسرى فى قبضتهم.

ولكن الأحداث أثبتت لقادة الفرنج أنهم باتوا أمام جبهة إسلامية متحدة بقيادة السلطان بيبرس، وأن خصمهم لن يتوانى عن الرد على هجماتهم؛ بصورة أعنف وأشد، وأن الحشود الصليبية التى وصلت من الغرب الأوربى لن تغير من الوضع القائم شيئاً، لهذا مالوا إلى المهادنة، وجاءت رسل الفرنج إلى السلطان بيبرس ملتمسة عقد الصلح. وكان طبيعيا بعد أن كبد السلطان المصرى الصليبيين العديد من الخسائر، واسترد الكثير من المدن والقلاع التى فى حوزتهم، أن يميل إلى المهادنة. وعقد بين الطرفين فى الحادى والعشرين من رمضان ٦٧٠هـ/ الثانى

---

(١) ابن عبد الظاه: الروض الزاهر، ص٣٩٦-٣٩٧؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٤٦٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٤٨؛ ابن كثير، البداية، جـ٣، ص٢٦١؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٦٠٠؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد، ص٥٤٦-٥٤٧؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٦٦، وايضاً:
Les Gestes des chiprois,pp.778-779;Estoire d'Eracles,p.461;Amadi chronique, voI.I, p.212.

والعشرين من ابريل ١٢٧٢م هدنة لمدة عشر سنوات، وأقسم على الإلتام بها كافة القادة الصليبيين ومن بينهم مقدم الداوية بنفسه[١]. وبذلك انهى السلطان بيبرس جهاده ضد الصليبيين بعقد تلك الهدنة معهم بعد ما وجه إليهم الكثير من الضربات، واسترد الكثير من المدن والقلاع التى كانت تحت أمرتهم.

وأثناء فترة الهدنة توفى المقدم توماس بيرارد، وخلفه فى رئاسة جماعة الفرسان الداوية المقدم وليم دى بوجيه Guillaum de Beaujeu وكان ذلك فى الثالث عشر من مايو ١٢٧٣م/ ٢٣ شوال ٦٧١هـ[٢].

وقد أراد الباب جريجورى العاشر Gregory X (١٢٧١ - ١٢٧٦م/ ٦٧٠ - ٦٧٥هـ) أن يستغل فترة الهدنة للإعداد لحملة صليبية جديدة تعمل على انقاذ الكيان الصليبى المتداعى فى الشام. لهذا دعا إلى عقد مجمع كنسى فى ليون فى مايو ١٢٧٤م/ ذى الحجة ٦٧٢هـ، حضره عدد كبير من الأساقفة، بالإضافة رلى بعض القادة الصليبيين فى الشرق، ومن بينهم مقدم الداوية وليم دى بوجيه. وفى هذا المؤتمر وجه البابا النداء لم يجد صدى عند كثير من ملوك الغرب الأوربى[٣] مما يكشف عن الفتور الذى أصاب الحركة الصليبية نذاك.

وبالرغم من أن المستقبل لم يكن يبشر بالخير بالنسبة لجماعة الفرسان الداوية إلا أنها أقدمت فى عام ١٢٧٦م/ ٦٧٥هـ على شراء بعض الأراضى المحيطة بمدينة عكا من أميرها الإقطاعى ويدعى توماس دى سانت بريتين. Thomas de

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٣٩؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـ٢، ص٤٧١؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٤٩-١٥٠؛ الكتبى: عيون التواريخ، جـ٢٠، لوحة٣٩٠؛ ابن كثير: العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٣٣٣؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٦٦، وايضاً:

Les Gestes des chiprois,p.779;Estoire d'Eracles,p.461;Annales des Terre sainte,in,A.O.L.,VOI.II.part 2,p.455,Amadi chronique, voI.I, pp.212-213.

(2)Les Gestes des chiprois,p.779;Estoire d'Eracles,p.463.

(3)Matthew of Westminster, The Flowers of History voI.II, pp. 463-468;Estoire d'Eracles,pp.466-467.

Saint Bertin دون الحصول على موافقة هيو الثالث Hugo III ملك قبرص والملك الأسمى لبيت المقدس (١٢٦٧ - ١٢٨٤م/ ٦٦٦ - ٦٨٣هـ)[1] مما جعل الداوية تنغمس في صراع مع هيو الثالث، والذى ضاق بإنقسام الجبهة الصليبية فعاد إلى بلاده[2].

ولم يكن النزاع السابق هو الخلاف الوحيد الذى انغمست فيه جماعة فرسان الداوية فى تلك الفترة. فقد أدت المنافسة التجارية بين التجار المسلمين الذين وفدوا من مدينة الموصل، وأقاموا علاقات تجارية مع جماعة الفرسان الاسبتارية، وبين التجار المسلمين الوافدين من مدينة بيت لحم، والذين وجدوا الحماية من جانب جامعة الفرسان الداوية، أدت تلك المنافسة التجارية إلى الإقتتال بين أفراد الجماعتين الرهانيتين العسكريتين فى شوارع عكا فى عام ١٢٧٦م/ ٦٧٥هـ[3].

كما نشب صراع مرير بين جماعة الفرسان الداوية وبين بوهمند السابع Bo-hemond VII أمير طرابلس (١٢٧٥ - ١٢٨٧م/ ٦٧٤ - ٦٨٤هـ) فى عام ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ، بسبب مساندة الداوية للأمير جويدو الثانى صاحب جبيل (١٢٧١ - ١٢٨٢م/ ٦٧٠ - ٦٨١هـ) وخصم أمير طرابلس. لذا قام الأمير بوهمند بتحطيم عمائر الداوية فى مدينة طرابلس الشام، وأهلك مزارعهم القريبة من المدينة. فرد الداوية بالهجوم على أملاكه فى حصن البترون بغية الاستيلاء عليه. ولكنهم تعرضوا للهزيمة، بعدما تصدت لهم حامية الحصن، وقتلت اثنى عشر فارسا من فرسانهم. وقد آثار هذا الهجوم الأمير بوهمند، فخرج بقواته وهاجم الداوية فى جبيل، ولكنه تعرض للهزيمة[4].

كل هذا يوضح أن جماعة الفرسان الداوية قد انحرفت كل الإنحراف عن

---

(1)Les Gestes des chiprois,p.782.
(2)Estoire d'Eracles,p.474,Amadi chronique, vol.I, p.212.
(3)Estoire d'Eracles,pp.474-475.
(4)Les Gestes des chiprois,pp.781-783;Estoire d'Eracles,p.481.

مبادئها الأولى القائمة على الزهد والعمل على المحافظة على الكيان الصليبي، وأصبح أفرادها لاهم لهم سوى زيادة ممتلكاتهم عن طريق شراء الأراضي وعن طريق ممارسة التجارة، بل دفعهم ذلك إلى حد الإقتتال مع إخوانهم الصليبيين. وكان هذا مدعاة إلى إنقسام الجبهة الصليبية على نفسها، ويشيراً ونذيراً بإقتلاع الوجود الصليبي من الشرق الأدنى الإسلامي بوجه عام، والقضاء على جماعة الفرسان الداوية بوجه خاص.

على أية حال، بوفاة السلطان بيبرس في ٢٧ المحرم ٦٧٦هـ/ أول يوليو ١٢٧٧م[1] تنتهي المصادمات بينه وبين جماعة فرسان الداوية.

لقد بلي بيبرس بلاءً حسناً في مجاهدة الداوية، ونجح في استرداد العديد من حصونهم وقلاعهم في الشام، واختتم جهاده معهم ومع باقي الفرنج الشام، بعقد الهدنة، فمهد بذلك الطريق لخلفائه لتوجيه الضربة الأخيرة إلى باقي معاقل الداوية وإلى الوجود الصليبي في الشام، وهذا ماسوف توضحه الصفحات التالية.

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزهر، ص٤٧٣؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة١٢٥-١٢٦؛ ابن ايبك، كنز الدرر، جـ٨، قسم١، لوحة١٨-١٨٧؛ ابو الفدا المختصر، جـ٤، ص١٠؛ شافع بن علي: حسن المناقب، لوحة ١٤٧-١٤٨؛ الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص١٧٧؛ العمري: مسالك الإبصار، جـ٢٧، قسم٤، لوحة٣٤٠؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص٣٢١؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ٢١، لوحة١٠٢-١٠٣؛ ابن الشحنة. روض المناظر، ورقة١٦٩؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم٢، ص٦٣٦؛ العيني في عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة٣٩٤، ٣٩٧-٣٩٩؛ ابن ابي الفضائل: النهج السديد، ص٤٤١؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة٢٩٢-٢٩٣.

الفصل التاسع

القضاء على جماعة الفرسان الداوية

فى المشرق الإسلامى

(١٢٧٧ - ١٢٩١م/ ٦٧٦ - ٦٩٠هـ)

- الصراعات بين الداوية والقادة الصليبيين، وأثرها على علاقاتهم بالمسلمين.
- اتفاقيات الصلح بين الداوية والسلطان قلاوون (١٢٨١ - ١٢٨٣م/ ٦٨٠ - ٦٨٢هـ).
- دور الداوية فى الصراع بين المسلمين والأرمن عام ١٢٨٥م/ ٦٨٤هـ.
- الصراع بين الداوية والصليبيين داخل مدينة طرابلس عام ١٢٨٧م/ ٦٨٦هـ، وأثره على علاقاتهم بالمسلمين.
- موقف الداوية من الهجوم المملوكى على مدينة طرابلس الشام عام ١٢٨٩م/ ٦٨٨هـ.
- دور الداوية فى الدفاع عن مدينة عكا عام ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ
- نهاية الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى وأثره على جماعة الفرسان الداوية.

بوفاة الملك الظاهر بيبرس فى المحرم ٦٧٦هـ/ يوليو ١٢٧٧م، فقدت الجبهة الإسلامية شخصية من أبرز الشخصيات التى كان لها أكبر الأثر فى تقويض أركان الكيان الصليبى في الشام. إذ كان للدور الكبير الذى قام به أعظم النتائج فى إضعاف الممالك الصليبية بصفة عامة، وجماعة الفرسان الداوية بصفة خاصة، بعدما نجح فى أن يفرط عقدها، ويستولى على أغلى مافيه من درر ونعنى به قلاعهم فى صفد، وشقيف ارنون، وبغراس، وصافيتا. ولهذا باتت جماعة فرسان الداوية فى حالة من الضعف، وليست فى حاجة إلا لضربة أخيرة من قبل المسلمين، تودى إلى اقتلاع جذورها من المشرق الإسلامى. وبذلك يكون الظاهر بيبرس قد مهد الطريق لخلفائه فى نيل شرف القضاء على الداوية، وإجلاء الصليبيين عن أراضى العروبة والإسلام في الشرق.

وبينما كان الحكام المسلمون يعدون العدة لإسترداد بقية الأراضى الإسلامية السليبة، أخذ الصليبيون يثيرون فيما بينهم المنازعات الداخلية، بصورة جعلتهم يزدادون ضعفاً ووهناً وكان هذا نذيراً بإنتهاء تواجدهم في المنطقة. هذا بالرغم من أنه لاحت للصليبيين في تلك الفترة فرصة عظيمة لو قدر لهم واغتنموها، لغيروا كثيراً من مجريات الأحداث، ونعنى بها تحالفهم مع الغزاة المغول الجدد الذين اجتاحوا منطقة الشام آنذاك. ولكن المنازعات التى ثارت فيما بينهم شغلتهم عن التفكير في التحالف مع أولئك الغزاة، ماضين في ذلك على نهج من سبقوهم من افرنج الشام، وخلافاً للسياسة التي أرسى قواعدها من قبل البابا انوسنت الرابع، والملك الفرنسي لويس التاسع. كل هذا انعش آمال المسلمين، وهيأ لهم الظروف المواتية لتوجيه الضربة النهائية لجماعة الداوية وللوجود الصليبى فى الشام.

ولمزيد من التفصيل نقول أنه بعد وفاة الظاهر بيبرس، خلفه على عرش مصر في أوائل ربيع الأول ٦٧٦هـ/ أوائل اغسطس ١٢٧٧م، أحد أولاده، ويدعى

الملك السعيد بركة[1]. وكان الملك الجديد سيء التدبير، ولم يستطع أن يحظى بتأييد كافة الأمراء المماليك، لذا قاموا بخلعه من السلطنة في ربيع الثاني ٦٧٨هـ/ اغسطس ١٢٧٩م، واتفقوا على تولية أخيه بدر الدين سلامش، ولقبوه بالملك العادل، وكان عمره آنذاك سبع سنوات. إلا أنه لم يعمر في منصبه إلا مدة ثلاثة شهور. إذ تم خلعه هو الآخر على يد الأمير سيف الدين قلاوون في يوم الأحد ٢٠ رجب ٦٧٨هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٢٧٩م، الذى حل محله وتلقب بالملك المنصور[2].

أما عن جماعة فرسان الداوية، فقد ظلوا على سياستهم القادمة على معاداة غير

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ١٢٨؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٢٨، قسم ١، لوحة ١٩٥؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص١١، العمرى: مسالك الأبصار، جـ٢٧، قسم ٤ لوحة ٣٤١؛ ابن الوردى: تتمه المختصر، جـ٢، ص ٣٢٢؛ الكتبى: عيون التاريخ، جـ٢١، لوحة ١٠٣، الحسن بن حبيب: جهينه الأخبار (مخطوط) ورقة ٤٤ (أ)؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين رزيق، بيروت ١٩٤٢ - ١٩٤٦، جـ٧، ص ٩٤؛ ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٦٩؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٦٥٥؛ المينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة ٤٠١ - ٤٠٢؛ ابن ابى الفضائل النهج السديد، ص ٤٥٢؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٢٩٨.

(٢) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ١٣٧ - ١٤٠؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم ١، لوحة ٢٠٣ - ٢٠٦، ابو الفدا: المختصر جـ٤، ص ١٢ - ١٣، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ٧٩، العمرى: مسالك الأبصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٤٤ - ٣٤٥، ابن الوردى: تتمه المختصر، جـ٢، ص ٣٢٤، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٢٩٠، ابن حبيب: تذكرة النبية فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦، جـ١، ص ٤٨؛ ابن الفرات: تارى ابن الفرات، جـ٧ ص ١٤٧ - ١٤٩، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٧٠، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٦٥٦ - ٦٥٨، المينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة ٤٢٨ - ٤٣١، ابن ابى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٤٧٠؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٠٦ - ٣٠٨.

من الصليبيين. ففى عام ١٢٧٩م/ ٦٧٨هـ، شن الداوية هجوما بحرياً على مدينة طرابلس التى كانت آنذاك فى حوزة خصمهم الأمير بوهمند السابع. ونجح اسطول الداوية المكون من اثنى عشرة سفينة من إلحاق الأضرار بميناء المدينة، بينما قاد وليم بوجيه - مقدم الداوية - بعض فرسانه، وشن هجوماً آخر من جهة البر على المدينة. وقد ثار هجوم الداوية البرى والبحرى على طرابلس، غضب الأمير بوهمند السابع، فأرسل اسطوله لمهاجمة مدينة صيدا، التى كانت آنذاك تابعة لجماعة الفرسان الداوية، وتمكن اسطول طرابلس من الحاق العديد من الأضرار بها[1].

وبذلك يتضح أن جماعة الفرسان الداوية لم تتورع فى تلك الفترة من معاداة بنى جلدتها من الصليبيين فى سبيل مصالحها الذاتية، وفى الوقت التى كانت الظروف تقضى عليها التكاتف لمواجهة البركان العربى الذى لاحت بشائره بتولية السلطان قلاوون زمام السلطة.

وخلال تلك الفترة لاح فى الأفق الخطر المغولى مرة أخرى، وذلك عندما تمكن المغول من الإستيلاء على مدينة حلب الإسلامية فى جمادى الآخرة ٦٧٩هـ/ اكتوبر ١٢٨٠م. لهذا رأى السلطان قلاوون أنه لايستطيع المقاتلة فى جبهتين فى آن واحد، وأنه من المفيد له مهادنة الصليبيين حتى يتفرغ لمواجهة الخطر المتجدد. ولم تكن أحوال الصليبيين - كما أشرنا آنفاً - تشجعهم على رفض طلب المهادنة، لذا تم عقد معاهدة بين الجماعات الرهبانية العسكرية، وصاحب طرابلس من جهة وبين السلطان قلاوون من جهة أخرى، وذلك فى ربيع الأول ٦٨٠هـ/ يوليو ١٢٨١م. وتضمنت هذه المعاهدة السماح للسفن المصرية بالقدوم إلى الموانى التى تحت حوزة الفرنج، وأن يتعهد أمراء الفرنج بعدم

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣١٦ - ٣٢٧ ، وأيضا:
Les Gestes des chiprois, p. 784; Annles de Terre Saivte, in, A. O. Vol. 2, part II, p. 457.

إقامة تحصينات جديدة، ويكون أمد الهدنة بينهما عشرة سنوات[١].

ويبدو أم مقدم الداوية - وليم بوجيه - قد قام بدور بارز فى اقناع القادة الصليبيين بضرورة الموافقة على عقد الهدنة مع سلطان مصر، مما كان له أكبر الأثر عند السلطان قلاوون، مما دفع المؤرخ ابن عبد الظاهر فى أن يصف مقدم الداوية بأنه كان صديقا للسلطان[٢].

وبعدما آمن السلطان قلاوون جانب الصليبيين، أخذ يعد العدة لمواجهة الخطر المغولى. فحشد قواته، وسار صوب مدينة حمص، والتقى بالمغول بقيادة منكوتمر بن هولاكو فى ١٥ رجب ٦٨٠هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٢٨١م. عند ظاهر حمص، حيث دارت الدائرة على جيش المغول، وتمكن المسلمون من احراز النصر الحاسم عليهم، مما اضطرهم إلى مغادرة أراضى الشام، والتقهقر إلى بلادهم[٣].

وبعد اندحار المغول، كان السلطان قلاوون لايزال يظهر ميله للبقاء على حالة السلام مع جيرانه من الفرج، فعقد هدنة مع الداوية فى الخامس من المحرم ٦٨١هـ/ الخامس عشر من ابريل ١٢٨٢م، كما عقد هدنة أخرى مع مقدم

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٠، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ١٦٥؛ الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٨١؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٥٢؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٢٩٢؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٢، ورقة ٤٥٨، ابن ابى الفضائل: النهج السديد، ص ٤٨٦؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٢١، وأيضا:
Les Gestes des chiprois, p. 785.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٩٣.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن تلك المعركة راجع:
ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٤٦ - ٤٧، بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٦٦-١ ١٦٧؛ الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٨٢ - ١٨٣، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ١٩٣ - ١٩٤، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٦٩٨؛ العينى: عقد الجمان جـ٢٢، ورقة ٤٥٩ - ٤٦٠، ابن ابى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٤٨٧ - ٤٨٨، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٢٢ - ٣٢٣.

الداوية وبعض القادة الصليبيين فى عكا فى الخامس من ربيع الأول ٦٨٢هـ/ الثالث من يونيو ١٢٨٣م، ولمدة عشر سنوات، تعهد الداوية فيها بعدم إضافة أية تحصينات إلى قلاعهم، وعدم الاعتداء على السفن والتجار المسلمين، كما تعهدوا بإخبار السلطان بحركة المغول إذا ماعادوا إلى المنطقة[١].

وخلال فترة الهدنة، كان الداوية لايزالون على عهدهم فى معاداة إخوانهم الصليبيين. فقد ظل الصراع قائما بينهم وبين الأمير بوهمند السابع أمير طرابلس، وأخذ كل من الطرفين يكيل الضربات إلى خصم، خاصة بعد محاولة الداوية الفاشلة فى فبراير ١٢٨٢م/ ذى القعدة ٦٨٠هـ، للتسلل إلى داخل مدينة طرابلس، والقيام بانقلاب، الغرض منه الإطاحة ببوهمند السابع، وإقصائه عن عرش طرابلس. ولكن الأمير بوهمند نجح فى اكتشاف خيوط المؤامرة، وقبض على فرسان الداوية الذين تسللوا إلى داخل المدينة، وزج بهم فى السجن، ثم أمر بقتلهم بعد ذلك[٢].

ويذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر، أنه فى أثناء منازلة السلطان قلاوون لقلعة المرقب التابعة للاسبتارية[٣] وفد إليه رسول من قبل الداوية فى بلاد الأرمن، ومعه كتاب التكفور[٤]، وكتاب آخر من وليم بوجيه مقدم الداوية، ومضمون الكتاب الثانى ينطوى على توسط مقدم الداوية فى طلب العفو عن التكفور. ويوضح المؤرخ ابن عبد الظاهر، سبب وساطة مقدم الداوية فى هذا الأمر، وهو أن رسل الأرمن كانوا

---

(١) عن النص الكامل لتلك المعاهدة: راجع:

ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٣٤ - ٤٣، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٦٢- ٢٧٢، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٦٨٥ - ٧٩٧

(2) Les Gestes des chiprois, p. 787.

(٣) كانت قلعة المرقب تابعة لجماعة الفرسان الاسبتارية، وقد نازلها السلطان قلاوون فى صفر ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م. راجع: المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٢٨

(٤) يقصد ليو الثالث ملك ارمينيا (١٢٦٩ - ١٢٨٩م/ ٦٦٨ - ٦٨٨هـ)

كلما جاءوا إلى السلطان ردهم دون جواب، وعلى هذا تحايل ملك الأرمن بالاستعانة بمقدم الداوية، والذى كان له عند السلطان قلاوون قدراً عظيماً، وله خدمة تستوجب إجابة سؤاله، وقبول شفاعته. ويزيد المؤرخ ابن عبد الظاهر الأمر وضوحا بقوله، أن رسول الداوية حمل للسلطان هدية من فضيات وزقمشة. ويوضح المؤرخ أنه فى نهاية اللقاء استجاب السلطان لوساطة مقدم الداوية، وقبل العفو عن التكفور مقابل أن يتعهد بدفع الجزية السنوية[1]، وعقدت بين الطرفين هدنة لمدة عشر سنوات تبدأ فى مستهل ربيع الآخر ٦٨٤هـ/ ٦ يونيو ١٢٨٥م[2].

وقد أثارت تلك الرواية التى أشار إليها المؤرخ ابن عبد الظاهر عدة تساؤلات منها: ما الدافع الذى جعل مقدم الداوية يقدم على التشفع لملك ارمينية عند السلطان المصرى؟ وماهى الخدمة التى قدمها مقدم الداوية للسلطان قلاوون، مما أدى إلى علو مكانته عنده؟

وبالنسبة للتساؤل الأول، نرى أن المصالح المشتركة بين الداوية وبين الأرمن منذ سنوات عديدة سابقة هى التى جعلت جماعة الفرسان الداوية تمتلك بعض الحصون الأراضى الأرمينية بهدف الدفاع عنها ضد أى هجوم إسلامى، تلك المصالح التى يبدو أنها هى التى دفعت مقدم الداوية للقيام بهذا الدور.

أما عن التساؤل الآخر، فبالرغم من أن المصادر العربية والغربية المتاحة لم تشر على الإطلاق إلى طبيعة العلاقات بين مقدم الداوية وبين السلطان قلاوون، إلا أنه يبدو أن الخدمة التى قدمها مقدم الداوية للسلطان تتمثل فى قيام مقدم الداوية بإقناع الصليبيين بضرورة عقد الهدنة معه. وكان السلطان فى حاجة إلى هذه الهدنة كى يتفرغ تماماً لمواجهة خطر المغول. ويلاحظ أن الأحداث التالية سوف ترجح هذا الرأى، خاصة وأن مقدم الداوية قد ظل على صداقته للسلطان قلاوون ولم يقم بأية هجوم على الممتلكات الإسلامية طوال عهد هذا السلطان.

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٩٢ - ١٠٢.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٢٧٠، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص

على أية حال، إذا كان مقدم الداوية قد قام في تلك الفترة بهذا الدور، فهذا لم يمنعه من الاستمرار هو وأفراد جماعته في الانغماس في الحروب الداخلية مع افرنج الشام، فلم ينسى الداوية صراعهم السابق مع هيو الثالث ملك قبرص، لذا عندما توفى الأخير في عام ١٢٨٤م/ ٦٨٣هـ، وخلفه ابنه هنرى، عارض الداوية تنصيب الملك الجديد، وأخذوا يضعون أمامه المراقيل حتى لايعترف به كافة القادة الصليبيين ملكا رسمياً على مدينة بيت المقدس[1].

وبذلك يتضح أن جماعة الفرسان الداوية، على الرغم من أن مقدمهم قد سعى إلى مهادنة سلطان مصر، مما أدى إلى تأجيل توجيه الضربة الإسلامية القاضية إلى فترة لاحقة، إلا أنه في الوقت نفسه انغمس بجماعته في الخلاف مع القادة الصليبيين مما كان له أكبر الأثر على إضعاف الكيان الصليبي في الشام.

أخذت أحوال الصليبيين تسير يوما بعد يوم من سئ إلى أسوأ، خاصة بعد وفاة بوهمند السابع في إكتوبر ١٢٨٧م/ رمضان ٦٨٦هـ، ولم يكن قد ترك وريثاً له، فخلفته أخته لوسيا Lucia التي مالت إلى منح الإمتيازات للجنوية في مدينة طرابلس، مما آثار البنادقة، وقام النزاع بين الجاليتين التجاريتين الإيطاليتين في المدينة. وقد انقسم الصليبيون إلى فريقين، كل منهما وقف إلى جانب أحد الطرفين المتنازعين. وفي هذا الصراع، وقف الداوية إلى جانب البنادقة. وقد انتهى الخلاف بين الفريقين بانتصار الجنوية، مما ازعج البنادقة وانصارهم، وجعلهم يرسلون مبعوثين من قبلهم إلى السلطان قلاوون لطلب المساعدة منه، وحثه على التدخل في مدينة طرابلس[2].

ويذكر صاحب كتاب «مآثر القبارصة»، أنه عندما توجه المبعوثان إلى مصر،

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٥٨، وأيضاً:

Les Gestes des chiprois, p. 792; Amadi, Chronique, Vol. I, p. 216.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٢٠ - ٣٢١، وأيضا:

Les Gestes des chiprois, p. 802.

والتقيا بالسلطان، وسمع مطلبهما، أمر بعقد مجلس، تقرر فيه ضرورة مهاجمة مدينة طرابلس. ويستطرد صاحب مآثر القبارصة قائلا أن مقدم الداوية علم عن طريق أحد أمراء السلطان، ويدعى صلاح، بنيه المسلمين على مهاجمة مدينة طرابلس، وأن الأمير المسلم حذر مقدم الداوية من هذا الهجوم، وناشده بالاستعداد لملاقاة المسلمين. فلما علم مقدم الداوية بهذا الأمر، وجه نداءه إلى سكان مدينة طرابلس، يطلب منهم سرعة الإستعداد لمواجهة المسلمين. ولكن لم يلتفت أحد من أهل المدينة لندائه، وظنوا أن تلك الرواية من نسج خياله، وذلك بسبب خصوماته السابقة مع أميرهم[1].

أما المؤرخ أبو الفدا فيقول أن الأمير بدر الدين بكتاش القمرى[2] هو الذى أخبر رسل الفرنج بعزم السلطان على مهاجمة طرابلس[3].

وعلى هذا يتضح أن الروايتين على طرفى نقيض، فبينما يرمى صاحب كتاب «مثر القبارصة» الزمير المسلم بتهمة الخيانة، يتضح من رواية المؤرخ ابى الفدا أن الأمير بدر الدين لم يراسل مقدم الداوية، وإنما رد على مطلب رسل الفرنج بإجبتهم بعزم السلطان.

وعند تحليل ماورد فى كلتى الروايتين تتضح عدة حقائق منها أن كلا من المؤرخين كان معاصراً للأحداث وقريباً من مسرحها. إذ كان صاحب كتاب «مآثر القبارصة» فى تلك الفترة من المقربين إلى جماعة الفرسان الداوية، ومطلعاً على كافة وثائقهم، بل أنه كان يعمل كاتباً خاصاً للمقدم وليم بوجيه[4]. بينما كان

---

(1) Les Gestes des chiprois, pp. 802 - 803.

(٢) هو الأمير بدر الدين بن عبد الله الفخرى النجمى أمير سلاح دولة المماليك ومقدم العساكر المصرية، وقد شارك فى العديد من المعارك ضد التتار والفرنج فى عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل. راجع: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٨٩، جـ٣؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٢٩٨، جـ٣.

(٣) ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) راجع تحليل المصادر ص من هذه الرسالة.

المؤرخ أبو الفدا قد شارك في الهجوم على مدينة طرابلس، وروى الكثير عن أحداث هذا الهجوم[1]. أما الحقيقة الثانية فتتضح في أن كلا المؤرخين قد انفردا بذكر تلك الرواية، بينما لم تشر إليها معظم المصادر العربية والغربية الأخرى. حقيقة أن المؤرخ أبو المحاسن قد أشار إلى أن «سير تلميه»[2] الفرنجى صاحب الحصن الذى أضر به صاحب طرابلس[3]، قد سأل السلطان الملك المنصور المساعدة، ووعده بمنافصة طرابلس[4]، إلا أن المؤرخ أبا المحاسن لم يشر إلى رد السلطان أو أحد أمرائه على هذا الطلب.

وتتضح الحقيقة الثالثة فى أن صاحب «مآثر القبارصة» رغم كونه قريبا من مسرح الأحداث، إلا أنه لم يشر إلى أسماء مبعوثى الفرنج، أو هويتهما، كما أنه لم يذكر على وجه التحديد أسماء زعماء الفرنج الذين أوفدوا هذين المبعوثين، مما يجعلنا نرجح أن تجاهل ذكر كل تلك الأمور كان أمراً متعمداً من جانب ذلك الكاتب. أما الحقيقة الرابعة فتتضح فى أن كاتب «مآثر القبارصة» لم يشر رلى طبيعة العلاقات التى كانت تربط مقدم الداوية بالأمير المسلم، كما أنه لم يوضح السبب الذى دفع الأمير إلى إبلاغ مقدم الداوية بنية السلطان قلاوون فى مهاجمة مدينة طرابلس الشام، مما يجعلنا نتشكك فى رواية تواطؤ الأمير المسلم مع مقدم الداوية وتتبين الحقيقة الخامسة فى أن اسم الأمير المسلم يختلف كل الإختلاف فى الروايتين، مما يؤكد التشكك السابق.

أما الحقيقة السادسة فتتضح فى أن المصادر العربية المتاحة لم تشر إلى وجود أحد الأمراء فى القصر السلطانى فى مصر فى تلك الفترة يدعى «صلاح»، مما يقطع الشك السابق باليقين، وينفى تماماً رواية اتصال الأمير المسلم بمقدم الداوية. وتتضح

---

(١) ابو الفدا: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٣.

(٢) يقصد به بارثليمو امبرياتشو صاحب جبيل.

(٣) يقصد به حصن مرقيه الذى كان تابعاً لجبيل.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٢٠ – ٣٢١.

الحقيقة السابقة كما ذكرها صاحب كتاب «مآثر القبارصة»، فى أن مقدم الداوية كان رجلاً مشكوكاً فى أقواله بالنسبة لأهل مدينة طرابلس نظراً لمؤامراته السابقة ضد أميرهم، مما جعلهم لايولون أدنى اهتمام لنصائحه. وأخيراً، يتضح من رواية صاحب «مآثر القبارصة» أنه كان على علم بما حدث للمبعوثين الفرنج، وما قام به السلطان عندما استمع إليهما. ومن الطبيعى أن معرفة كل هذه الأمور لاتتأتى لهذا الكاتب إلا عن طريق مقابلته للمبعوثين أو أحدهما، أو على الأقل يكون سيده قد أخبره بتلك التفاصيل، وكل هذه الأمور تجعلنا نرجح أن وليم بوجيه مقدم الداوية كان من بين زعماء الفرنج الذين أوفدوا هذين المبعوثين لطلب المساعدة من سلطان مصر، وحثه على مهاجمة مدينة طرابلس.

وأمام الحقائق السابقة، وفى محاولة للتوفيق بين الروايتين سالفتى الذكر يبدو أن مقدم الداوية عندما رأى انتصار حزب جنوه فى طرابلس، تآمر بارثليمو صاحب جبيل، وقررا إرسال مبعوثين سراً إلى القاهرة لحث سلطان مصر ضد طرابلس. وطالما كانت تلك الاتصالات تجرى فى سرية تامة، فلم يعلم بقية الزعماء الصليبيين بأمرها، ولم يشر إليها المؤرخون الغربيون الآخرون. ويبدو أيضاً أن أحد هذين المبعوثين على الأقل كان من الداوية، لذا حرص كاتب «مآثر القبارصة» على عدم ذكر اسميهما، رغم أنه أشار إلى تفاصيل تنقلاتهما. وأما عن رواية اتصال الزمير المسلم بمقدم الداوية، فسبق أن اثبتنا عدم صحتها.

ولعل التساؤل هنا: إذا لم تكن هناك اتصالات بين مقدم الداوية والأمير بدر الدين بكتاش، فما الدافع الذى جعل مقدم الداوية يردد تلك الرواية؟ وفى الإجابة هذا التساول يبدو أنه عندما عاد رسل الفرنج، وعلم مقدم الداوية بعزم السلطان على مهاجمة مدينة طرابلس، عندئذ خشى أن تنكشف أسرار اتصاله بالسلطان، ويقع عليه اللوم من قبل بقية الزعماء الصليبيين، لهذا نسج خيوط رواية اتصال الأمير المسلم به، وإخباره بعزم السلطان على مهاجمة طرابلس، حتى يزيل عن

نفسه أى تهمة قد توجه إليه فيما بعد. ولعل هذا هو الذى جعل أهل طرابلس لايثقون فى أحاديثه، وظنوا أن مايقدمه لهم من نصائح ماهو إلا خدعة من الخدع التى اعتدا عليها مقدم الداوية فى سياسته تجاه أميرهم السابق بوهمند السابع.

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان قلاوون لم يكن بحاجة إلى استدعائه لمهاجمة مدينة طرابلس، وذلك لأن أميرها بوهمند السابع قبل وفاته لم يلتزم ببنود المعاهدة مع المسلمين. إذ قامت قواته بالإعتداء على القوافل التجارية الإسلامية[1]. كما أنه بوفاته تكون الهدنة بين السلطان وأهل طرابلس قد انتهت ولهذا أخذ السلطان يعد العدة لمهاجمة المدينة.

توجه السلطان قلاوون بجيشه صوب مدينة طرابلس فى مستهل ربيع الأول ٦٨٨هـ/ ٢٥ مارس ١٢٨٩م، وضرب الحصار من حولها. وخلال تلك الفترة تناسى الصليبيون داخل المدينة خصوماتهم وخلافاتهم، وتكاتفوا سوياً، ووحدوا صفوفهم لمواجهة المسلمين. ولكن بالرغم من كل ذلك، إلا أن مقدم الداوية لم يبادر بإرسال أية نجدات إلى طرابلس، واكتفى بترك بعض فرسان الداوية ممن كانوا بداخل المدينة بقيادة بطرس دى مونكادا Pierre de Moncada[2] والماريشال جوفرى دى فنداك Goffroi de Venadac، ليشاركوا بقية القوات الصليبية الذين داخل المدينة فى الدفاع عنها، وصد الهجمات الإسلامية[3].

ويعترضنا تساؤل هو: إذا كان مقدم الداوية قد أراد أن يبعد عن نفسه أية تهمة

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٧٢؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٤٦.

(٢) بطرس دى مونكادا: كان يشغل منصب نائب مقدم الداوية فى أسبانيا، ثم وفد إلى عكا عام ١٢٨٢م/ ٦٨١هـ، ضمن النجدات التى جاءت من الغرب الأوربى وقتذاك. وظل متواجداً فى الشرق، وكان قد توجه بفرقة من قواته ومعه الماريشال جوفرى دى فنداك إلى طرابلس، بعد وفاة أميرها بوهمند السابع، وذلك لتأييد خليفته الأميرة لوسيا. راجع:

Melville, La Via des Templiers, p. 238;
Les Gestes des chiprois, pp. 803 - 804; Amadi, Chronique, Vol. I, p. 218.

قد توجه رليه بتحريضه للمسلمين على مهاجمة طرابلس بإدعائه لرواية اتصال الأمير المسلم به، وبالرغم من أن الصليبيين قد وحدوا صفوفهم عندما شعروا بالخطر الإسلامى، فلماذا ينضم إلى المدافعين عن المدينة، لكى يبعد عنه أية شائبة بعد ذلك؟

وللإجابة عن هذا السؤال يتضح أن مقدم الداوية لم يغامر بإرسال أية نجدات من رجاله إلى طرابلس، حرصا منه على الحفاظ على حياة بقية فرسانه من جهة، ومن جهة أخرى حتى لايؤدى ذلك إلى إثارة سلطان مصر ضده، فيقوم بمهاجمة قلاع جماعته فى الوقت الذى يعانى فيه الداوية والكيان الصليبى من الضعف، بصورة تجعلهم غير قادرين على مواجهة الهجمات الإسلامية. لهذا اكتفى بترك بعض فرسانه ممن كانوا داخل المدينة، للمشاركة فى الدفاع عنها، ويكون بذلك قد حقق أكثر من هدف فى آن واحد.

ومهما يكن من أمر، فقد كان للنشاط الكبير الذى أبداه المسلمون فى حصارهم لمدينة طرابلس، أكبر الأثر لنجاحهم فى فتحها نوة فى الرابع من شهر ربيع الأول ٦٨٨ هـ/ السادس والعشرين من ابريل ١٢٨٩م، حيث حل القتل والأسر بالكثير من المدافعين عنها، ومن بينهم فرسان الداوية[١].

وبذلك كانت الإنقسامات الداخلية، والتى كان الداوية طرفا فيها، سببا رئيسياً

---

(١) بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٨٢؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم ٢، لوحة ٢٥١ – ٢٥٢؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٣؛ الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ٢ص١٨٨؛ العمرى: مسالك الأبصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٥٩ – ٣٦٠، ابن الوردى: تتمه المختصر: جـ٢، ص ٣٣٥، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٣١٣، ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٢٢؛ ابن الشحنه: روض المناظر، ورقة ١٣٧، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٤٨، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٢١؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٥٣، وأيضا.
Les Gestes des chiprois, pp. 804 - 805; Anadi, chronique, Vol. I, p. 218; Matthow of Westminster, The Flowers of History, Vol. II, p. 485.

فى اشتعال نيران حرب أهلية بين الصليبيين أدت إلى انفراط عقدهم فى الشام وضياع حبات ذلك العقد الواحدة بعد الأخرى. وكان سقوط مدينة طرابلس فى يد المسلمين نذيراً بما سوف يحل فى المستقبل القريب بالكيان اللاتينى المنهار فى الشام. إذ أصبح من الواضح أن المدن والمعاقل الصليبية باتت تحت رحمة المسلمين، ولم يعد ثمة أمل بالنسبة للصليبيين سوى أن يستجيب الغرب الأوربى لنداء البابا العاجل، والاستعداد لإرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق[1]. ولكن هذا الأمل لم يكن سوى سراباً لتائه فى الصحراء. إذ تنصل كافة ملوك الغرب الأوربى وأمرائه من الإستجابة لنداء البابا بعد أن انغمسوا فى مشاكلهم الداخلية[2]، وهذا يوضح إلى أى مدى بلغ فتور الحركة الصليبية آنذاك.

لم تلق دعوة البابا الإستجابة إلا من بضع مئات من عامة المجتمع الغربى الذين توجهوا إلى مدينة عكا فى اغسطس ١٢٩٠م/ شعبان ٦٨٩هـ[3]. وكان حضورهم إلى الشام قد عجل بالكارثة التى حلت بالصليبيين فيما بعد. إذ دفعهم حماسهم إلى الإعتداء على بعض المسلمين الذين كانوا يقطنون بالقرب من مدينة عكا، آمنين مطمئين إلى الحماية التى كفلتها لهم المعاهدة المبرمة بين السلطان قلاوون والصليبيين فى عكا[4].

---

(1) Les Gestes des chiprois, p. 803; Amadi, Loe. Cit.

(2) Matthew of Westminatar, op. cit., pp. 485 - 486.

(3) Les Gestes des chiprois, p. 804; Amadi,chronique, Vol, I, pp. 218 - 219.

(٤) يبيرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٧٣، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٨٨؛ العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٠ - ٣٦١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٩٦؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٥٣ - ٧٥٤، العينى: عقد الجمان، جـ٢٣، ورقة ٢، ابن ابى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٣٢، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٥٣، وأيضا:

Les Gestes des chiprois, pp. 804 - 805; Amadi,chronique, Vol, I, p. 219.

Guillelmi de Nangico, chronicon, in, R. H. G. F., Vol. XX, p. 760; Ludolph Voun Suchems, Description of the Holy Land, in, P. P. T. S., Vol. XII, part 3, Paris, 1895, p. 54.

وعندما وصلت أنباء تلك الإعتداءات إلى مسامع السلطان، رأى أنها تمثل خرقاً للمعاهدة، وأخذ يعد العدة لمهاجمة الصليبيين فى عكا عاصمة كيانهم المنهار فى الأراضى المقدسة بعد فقدانهم نهائياً مدينة بيت المقدس. وعندما شعر الصليبيون بسؤ عاقبة أعمالهم، ارسلوا إلى السلطان يلتمسون الأعذار، وتعللوا بأن أولئك القادمين الجدد هم الذين قاموا بتلك الإعتداءات. عندئذ وافق السلطان على الاستمرار فى الهدنة فى حالة قيام الفرنة بتسليمه مرتكبى تلك الأحداث من الفرنج، وأوفد إلى عكا مبعوثين من قبله لتسلم المعتدين. وعندما توجه الرسل إلى عكا، ونقلوا إلى الصليبيين مطلب السلطان[1]، عقد القادة الصليبيون مجلساً للتشاور فى هذا الأمر. وفى هذا المجلس طالب مقدم الداوية بضرورة تجنب الصدام مع السلطان، والإسراع بتسليم المعتدين. ولكن هذا الرأى قوبل بالمعارضة من قبل بقية القادة الصليبيين[2].

أما الرحالة لودولف، فقد أشار إلى رواية مغايرة، مؤداها أن الرجل الحكيم والفارس الشجاع مقدم الداوية عندما علم بأن سلطان مصر قد عقد النية على مهاجمة عكا، عقد مجلساً مع أفراد جماعته فى المدينة، وتقرر فيه إيفاد المقدم نفسه إلى القاهرة لمقابلة سلطان مصر، لأنه كان صديقاً حميماً له، كى يسأله إعادة عقد الهدنة. ويزيد الرحالة لودولف الأمر وضوحا بقوله إن وليم بوجيه قد توجه بالفعل إلى القاهرة، ونجح فى إقناع السلطان بإعادة مهادنة مدينة عكا مقابل

---

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٧٣، الذهبى: دول الإسلام، جـ٣، ص ١٨٨، العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٠ - ٣٦١، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٩٦، المقريزى، السلوك، جـ١، قسم ٣، ٧٥٣ - ٧٥٤، العينى: عقد الجمان، جـ٢٣، ورقة ٢، ابن أبى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٣٢، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٥٣.

(2) Les Gestes des chiprois, pp. 405 - 406 ;
Amadi,chronique, p. 219; Guillelmi de Nongico, chronieon, in, R. H. G. F., Vol. XX, p. 760.

أن يدفع كل من بها ديناراً بندقياً، ويستطرد قائلا أنه عندما عاد متجهاً إلى عكا، وتوجه إلى كنيسة المدينة، وألقى خطبته، التى دعا فيها الناس إلى سرعة شراء السلم بأن يدفع كل منهم ديناراً بندقياً للسلطان، وإلا تعرضوا لإنتقامه، صاح الصليبيون صيحة واحدة فى وجه مقدم الداوية. «خائن المدينة، ويستحق الموت». فلما سمع مقدم الداوية ذلك، فر من أمام الحشود، وتوجه إلى مقر جماعته، ثم نجح فى التسلل إلى خارج المدينة، حيث توجه لمقابلة السلطان مرة أخرى، وقص عليه ماجرى. فابتهج السلطان، وأيقن أن الخلافات بين الصليبيين وبعضهم البعض قد اتسعت هوتها بحيث أصبحوا غير قادرين على الدفاع عن المدينة. فخرج بقواته وأقام معسكره بالقرب منها[1].

وفى ضوء ماتقدم، يتضح أن الرواية آنفة الذكر تخالف الوقائع التاريخية فى عدة أمور: منها أن الرحالة لودولف يصف المقدم وليم بوجيه بالشجاعة والحكمة، بينما ذكرت المصادر الغربية أن الصليبيين كانوا لايثقون فيه، نظراً لمؤامراته السياسية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المصادر العربية والغربية لم تشر إلى مقابلة مقدم الداوية للسلطان قلاوون قبل مهاجمة مدينة عكا، كما أنها لم تشر إلى موافقة سلطان مصر على إعادة مهادنة أهل عكا مقابل أن يدفع كل واحد منهم ديناراً بندقياً. ومن جهة ثالثة، فإن غالبية المصادر الغربية قد أجمعت على أن السلطان قلاوون لم يخرج قط فى أواخر حياته لمهاجمة عكا، إنما اعتبر امتناع الصليبيين عن الاستجابة لمطلبه، وتسليمه المعتدين، بمثابة إعلان الحرب. فأخذ يعد العدة لشن الهجوم على مدينة عكا، وأرسل إلى الأمراء المسلمين فى الشام، يأمرهم بتجهيز المجانيق اللازمة للحصار. ولكن مالبث أن داهمه المرض قبل خروجه من القاهرة، ودامت عليه علته إلى أن توفى فى يوم الجمعة السادس من ذى القعدة

---

(1) Ludolph von Suchems, Description of the Holy Land, in P. P. T. S., vol. X II, Part 3, pp. 54 - 56.

٦٨٩هـ/ العاشر من نوفمبر ١٢٩٠م، وخلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل[١].

وعندما انتقلت أنباء وفاة السلطان قلاوون إلى الصليبيين في عكا، عمت السعادة قلوبهم، وهدأت نفوسهم بزوال خطر الهجوم الإسلامي الوشيك[٢]. ولكن سرعان ماتلاشى هذا الزمل. إذ أن وفاة السلطان قلاوون لم تغير من الموقف شيئاً، حيث صمم ابنه الملك الأشرف خليل على إكمال ابيه قد عقد النية عليه، وأخذ يعد العدة لمهاجمة الصليبيين في عكا.

وفي مرحلة الاستعدادات، كتب الأشرف خليل إلى نوابه في كافة الأقطار يأمرهم بإيفاد العسكر إليه، وتجهيز الآلات والمجانيق، كما حثهم على الاستكثار من الحشود، وألا يتأخر أحد من الجند[٣].

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٧٧ - ١٧٨؛ بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٧٣ - ٢٧٥؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٣؛ الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٨٩؛ العمري: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٠ - ٣٦١؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٥ - ٣٣٦؛ ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٣١٦؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٣٥ - ١٣٦، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٩٤ - ٩٨؛ ابن الشحنه: روض المناظر، ورقة ١٧٣؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٥٥ - ٧٥٦؛ العيني: عقد الجمان، جـ١٣، ورقة ٣ - ١٠؛ ابن ابي الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٣٣؛ ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٥٧.

(2) Les Gestes des chiprois, pp. 707 - 708; Amadi, chronique, vol. I, p. 219.

(٣) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، لوحة ٢٨٣، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم ٣، لوحة ٢٧١، النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، لوحة ٥٥، ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٤، الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٨٩، العمري: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦١، ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٦، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٣٢٠، ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٣٧، ابنالفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ٩٦، ابن الشحنه: روض المناظر، ورقة ١٧٣؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٦٤ العيني: عقد الجمان، جـ٢٣، ورقة ٣٤، ابن ابي الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٤٠،، ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٥، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٦١.

أما عن الصليبيين، قد جمعوا فرسانهم من كافة المعاقل الصليبية فى الشام، واحتشد داخل مدينة عكا الغالبية العظمى من فرسان الداوية، على رأسهم المقدم وليم بوجيه، كما قام الصليبيون بتحصين ابراج المدينة وأسوارها[١].

وبالنسبة للقوات الإسلامية، فقد تجمع لدى المماليك حشد عظيم، والعديد من الات دك الحصون. وتوجهت تلك الحشود صوب عكا فى أوائل ربيع الثانى ٦٩٠هـ/ أواخر مارس ١٢٩١م، وضرب الحصار من حولها[٢].

وأهم مايعنينا من أحداث ذلك النزال، هو دور الداوية فى مقاومة القوات الإسلامية، والدفاع عن المدينة. وحتى يمكن معرفة هذا الدور لابد من تحديد موقع جماعة فرسان الداوية داخل المدينة. وفى هذا الصدد يذكر صاحب مآثر القبارصة أن الداوية تولوا أمر الدفاع عن المنطقة الشمالية من المدينة. هذا، بالإضافة إلى وجود بعض فرسانهم الذين قامو بالدفاع عن مقر الداوية داخل المدينة. والذى كان فى الجهة الشمالية الغربية منها[٣].

أما المؤرخ امادى فيقول أن الداوية قاموا بالدفاع عن المنطقة التى تقع على يسار الأمير عمورى Amaury أخى هنرى الثانى ملك قبرص والتى تقع فى الجهة الشمالية المواجهة للبحر[٤].

ومن الوصف الذى أورده المؤرخ أبو الفدا لتقسيم القوات الإسلامية التى ضربت الحصار حول عكا، يتضح أن قوات مدينة حماه والتى كان يصاحبها المؤرخ أبو الفدا

---

(1) Les Gestes des chiprois, pp. 807 - 808; Amadi, Chronique, Vol. I, p. 221; Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, in, P. P. T. S., vol. xII, Part 3, p. 56.

(٢) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٩، لوحة ٢٨٤؛ النويرى: المصدر السابق، جـ٩، لوحة ٥٥، الذهبى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٩٠، ابن الفرات: نفس الموضع؛ العينى: المصدر السابق،جـ٢٣، ورقة ٣٤ - ٣٥.

(3) Les Gestes des chiprois, p. 808 - 809.
(4) Amadi, chronique, Vol. I, p. 221.

كانت على ميمنة الجيش الإسلامى وفى مواجهة البحر[١].

وعلى ذلك يتضح أن القوة الرئيسية للداوية كانت ترابط عند المنطقة الشمالية من مدينة عكا وفى مواجهة قوات مدينة حماه.

أما عن دور الداوية فى الدفاع عن المدينة فيذكر صاحب كتاب مآثر القبارصة أنه عندما اشتدت هجمات المسلمين على المدينة، واستمرت المجانيق فى قذف الأسوار، رأى مقدم الداوية الخروج بفرسانه ليلاً ومهاجمة القوات الإسلامية المواجهة لهم. وفى ليلة الخامس عشر من ابريل ١٢٩١م/ ليلة الثالث عشر من ربيع الآخر ٦٩٠هـ، تسللت قوات الداوية إلى المعسكر الإسلامى، وهاجمت المسلمين. ولكن نظراً للظلام الدامس فقد تعثرت أقدام بعض فرسانهم فى خيام المعسكر، مما أدى إلى إيقاظ بقية المحاربين السملمين، فالتفوا حول فرسان الداوية وقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر، بينما نجح نفر قليل من الداوية ومن بينهم المقدم وليم بوجيه من الفرار والعودة إلى المدينة[٢].

أما المؤرخان أبو الفدا وابن الوردى فيذكران أن الفرنج قد خرجوا ليلاً أثناء مده الحصار، وكبسوا المعسكر، وهزموا الحراس، وتوغلوا إلى داخل الخيام، حتى أن فارسا منهم قد وقع فى داخل خيمة بعض الأمراء، فتم قتله، وتكاثرت عليهم العساكر، بينما ولى الفرنج منهزمين. وقد قتل عسكر حماة عدة منهم. وفى الصباح علق المظفر صاحب حماه عدة من رؤوس الفرنج على رقاب خيولهم التى تم أسرها[٣].

وهكذا يتضح تشابه الروايتين، وإن كان المؤرخان ابو الفدا وابن الوردى لم يذكرا أن الفرنج الذين قاموا بمهاجمة عسكر حماة كانوا من الداوية بينما أكدت

---

(١) ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٤.

(2) Les Gestes des chiprois, p. 810.

(٣) ابو الفدا: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٥، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٦.

المصادر الأجنبية ذلك. وبذلك يكون الداوية هم أول الصليبيين الذين حاولوا مهاجمة الجيش الإسلامى أثناء حصار مدينة عكا.

ولعل التساؤل هنا هو: إذا كان مقدم الداوية صديقاً للسلطان قلاوون من قبل مثلما أشار كل من المؤرخ ابن عبد الظاهر والرحالة لودولف، ولم يقم بأى إجراء هجومى ضد القوات الإسلامية فى عهد ذلك السلطان، فلماذا قام بهذا الدور الهجومى فى عهد ابنه الأشرف خليل؟.

وللإجابة على هذا التساؤل يتضح أن مقدم الداوية كان صديقاً للسلطان قلاوون، ولم يقم بأى إجراء هجومى طول عهده رغبة منه فى الحفاظ على ماتحت ايدى جماعته من قلاع ومدن، خاصة بعدما نجح الظاهر بيبرس من قبل فى توجيه الضربات المتتالية لتلك الجماعة واستولى على الكثير من قلاعها. لذلك حرصا من مقدم الداوية على المحافظة على ماتبقى من قلاع الداوية، ومال إلى المهادنة فى عهد السلطان قلاوون بعد ما أيقن أن الجبهة الصليبية تمر بمرحلة تفكك وانهيار، وأن القيام بأى عمل تهورى ضد المسلمين سوف يواجهه برد فعل قوى من قبلهم. أما فى عهد خليفته الملك الأشرف خليل، فقد أيقن مقدم الداوية أن الالتزام بسياسة المهادنة بات لايجدى أمام الهجوم الإسلامى على مدينة عكا والتى كان يوجد بها المقر الرئيسى للداوية، بعدما سقط مقرهم الأول فى مدينة بيت المقدس باسترداد المسلمين لها فى عام ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ. لكل ذلك تخلى مقدم الداوية وأفراد جماعته عن سياسة المهادنة، وشاركوا الصليبيين فى عكا فى الدفاع عن مدينتهم، لأن ضياع تلك المدينة يعنى بالطبع ضياع كل مايمتلكه أفراد تلك الجماعة من حصون وقلاع فى الشام.

وعلى أية حال، كان من نتائج فشل الهجوم للداوية على المعسكر الإسلامى أن تولد لدى الصليبيين بصفة عامة، والداوية بصفة خاصة شعوراً باليأس، لذا طلب مقدم الداوية من هنرى الثانى ملك قبرص – والذى كان متواجد آنذاك داخل

المدينة - بضرورة إيفاد اثنين من فرسانه إلى سلطان مصر، للتفاوض فى طلب الهدنة فوافق الملك القبرصي على الفور، وتم ايفاد مبعوثين من قبل الداوية إلى المعسكر الإسلامي وهما: وليم دى كافران Guillaums de Cafrane ووليم دى فيلليا Guillaume de Villger وقد استقبلهما السلطان، وسألهما قبل أن يستمع إلى مطالبهما عما إذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة، فأجابا بالنفى، وأنهما جاءا من قبل الملك للتفاوض في مصير من بداخل المدينة. فرد عليهم السلطان بأنه لايعنيه سوى تسليم المدينة، ولايشغل باله مصير من بداخلها. ولكن نظراً لصغر سن مليكهم ومرضه، فإنه سوف يوافق على منح من بداخل المدينة الآمان لو اذعنوا له، ومالوا إلى الإستسلام. عندئذ رد المبعوثان بأنهما يجب عليهما الرجوع مرة أخرى إلى مليكهما لنقل هذا المطلب إليه فسمح لهما السلطان بالعودة إلى المدينة[١]. ويبدو أن هذا المطلب الإسلامي قد قوبل بالرفض من قبل المدافعين عن المدينة من الصليبيين، ولذلك لم يشر صاحب كتاب مآثر القبارصة إلى مصير تلك المفاوضات، وإن كانت الأحداث التالية تؤكد صحة ماذكرناه.

ويروى المؤرخ العينى أنه أثناء حصار مدينة عكا، إذ بسهم قد رمى من قلعة المدينة، وفي نصله ورقة مشدد عليها بخيط، فوقع السهم فى وسط المعسكر، فأخذوه إلى السلطان. ولما فتح تلك القصاصة وجد فيها كتابة بالعربية تحذر السلطان وتطلب منه أن يحفظ عسكره فى تلك الليلة، لأن أهل عكا قد اتفقوا على الهجوم على معسكره ليلا، وفي النهاية يوضح كاتبها أنه من المسلمين. ويستطرد المؤرخ العينى بقوله: أن السلطان أمر بتبليغ الأمراء بهذا الأمر، وأن على كل أمير أن يحفظ مكانه. وحدث أنه فى تلك الليلة هبت عاصفة عاتية، ولما أظلم الليل اجتمعت جماعة من الداوية والاسبتارية، وخرجوا من أماكن كانوا يعرفونها، وركب بعضهم فى السفن إلى أن صاروا على البر، ثم هجموا على المعسكر الإسلامي. وكان أول هجومهم على الميسرة، وكان فيها مركز الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى، الذى

(1) Les Gestes des chiprois, p. 811.

كان على علم بأمرهم، فكمن لهم أن توسطوا الطريق داخل معسكره، فكبس عليهم، واحاطتهم قواته من كل جانب، وامطروهم بوابل من السهام، فقتلوا منهم نحو عشرين فارساً، وجرحوا جماعة، وأخذوهم أسرى. بينما توجه فريق آخر من أولئك الفرنج إلى الميمنة. وقد نجح هذا الفريق فى العودة إلى داخل المدينة سالماً، بعدما استولى على بعض آلات الحصار. ويرجع السبب فى ذلك - على حد قول المؤرخ العيني - أن الميمنة كان عليها الأمير الحلبى، ولما علم بأمر كبسه الفرنج، ركب بمن معه من الأمراء، وأراد أن يكمن لهم بالقرب من الميناء التى اتوا منها. فلما هجم الفرنج على خيام الميمنة ووجدوها خالية من المسلمين، فطنوا إلى ماأضمره الزمير الحلبى، فاستولوا على بعض الآلات وسلكوا طريقاً مغايراً إلى يالمدينة، بينما ظل الأمير الحلبى ينتظر قدوم الفرنج إلى أن أشرق الصباح، وتعالت صياح الفرنج من فوق أسوار المدينة وقد علقوا بعض ما استولوا عليه على السور[1].

ويتضح من تلك الرواية أن الداوية، على الرغم من فشل هجومهم السابق على القوات الإسلامية ليلاً، إلا أنهم ظلوا على نهج مباغتة المسلمين والهجوم عليهم والاستحواذ على مايمكن أن تقع أيديهم عليه كما يتضح أمر على جانب كبير من الأهمية ألا وهو أن الداوية، يشاركهم الاسبتارية، قد قاموا بالهجوم على ميسرة الجيش الإسلامي التى كان يتولاها الأمير بدر الدين بكتاشى، مما ينفى إلى حد بعيد الرواية السابقة التى أوردها صاحب كتاب مآثر القبارصة والتى ترمى هذا الأمير بالخيانة، وتتهمه بصداقة مقدم الداوية، ونقل أخبار المسلمين إليه.

ويتفق المؤرخ بيبرس الدوادر مع المؤرخين الغربيين امادى وصاحب كتاب مآثر القبارصة فى أن دخول المسلمين إلى مدينة عكا، كان من جهة برج القديس انطوان فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ ١٨ مايو ١٢٩١م، وأن مقدم الداوية عندما رأى حشود المسلمين تندفع إلى داخل المدينة، جمع قواته وتصدى لها

---

(١) العيني: عقد الجمان، جـ٢٣، ورقة ٣٦ - ٣٧.

فى تلك المنطقة، ولكنه أصيب بجراحج بالغة فحمله فرسانه إلى دار الداوية شمال غرب المدينة، حيث لقى حتفه، بينما ظل فرسان الداوية يدافعون عن مقرهم الذى كان أشبه بقلعة حصينة[١].

كما يتفق المؤرخان بيبرس الدوادار وابو الفدا مع الرحالة الغربى لودولف، وصاحب كتاب مآثر القبارصة فى أن المدافعين عن عكا عندما وجدوا المسلمين يقتحمون المدينة. فر الكثير منهم عن طريق البحر، بينما اتجه البعض الآخر رلى مقر الداوية، وظلوا يدافعون طيلة عشرة أيام بعد سقوط المدينة فى يد المسلمين، إلى أن يئسوا من المدافعة، فأعلنوا استسلامهم[٢] ولكن الرحالة لودولف يضيف على تلك الرواية بقوله بأن الداوية عندما رأوا أن برج قلعتهم قد تحطم مالوا إلى عقد المهادنة مع المسلمين فى الوقت الذى مل فيه المسلمون طول القتال، فوفقوا على منح الداوية الأمان نظير استسلامهم، على أن يخرج الداوية بكامل امتعتهم وأسلحتهم. ولكن ما أن خرج الداوية من القلعة وسلموها للمسلمين، حتى أمر السلطان بقتلهم جميعا[٣].

أما المؤرخ الذهبى فيوضح سبب قتل الداوية بعد مهادنتهم بقوله أن الداوية والاسبتارية بعد سقوط مدينة عكا قد استعصوا فى داخل أربعة أبرجة شواهق، فأمنهم السلطان. وعندما طلعت إليهم الأجناد، أغلق الفرنج الأبواب، ورموا السلطان، وقتلوا الأجناد. وبعد يومين أمنهم السلطان للمرة الثانية، ولكنه لم يف

---

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٩، لوحة ١٧٠ - ١٧١، وأيضا:
Les Gestes des chiprois, pp. 815 - 816; Amadi, Chronique, Vol. I, pp. 222 - 223.

(٢) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٩، لوحة ١٧١، ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٥، وزيضا:
Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, in P. P. T. S., vol. xII, Part 3, p. 59; Les Gestes des chiprois, pp. 816 - 818.

(3) Ludolph Von Suchems, op. cit., pp. 59 - 60.

لهم هذه المرة، وقتل منهم نحو الألفين، وأسر مثلهم. فلما رأى ذلك من بقى فى الأبرجة. لهذا أمر السلطان بنقب البرج. وعندما شعر الفرنج بذلك نزلوا بالأمان، فأمر السلطان بضرب رقابهم[1]. وعلى هذا يتضح أن الداوية كانوا هم أول من بدأوا بنقض الأمان الذى منحهم إياه السلطان، وقتلوا بض المسلمين الذين صعدوا إليهم، وليس كما أوضحه الرحالة لودولف من أن المسلمين هم الذين غدروا بالداوية. ومن ناحية أخر يذكر الرحالة لودولف أن استسلام الداوية، ودخول المسلمين قلعتهم كان فى الثانى عشر من مايو ١٢٩٢م/ الثالث والعشرون من جمادى الأول ٦٩١هـ[2].

لكن هذا التاريخ الذى أورده لودولف كان مغاير لتسلسل الوقائع التاريخية لأنه يعنى ببساطة أن الداوية ظلوا يدافعون عن قلعتهم قرابة عام من الزمن. وذلك يتعارض مع ما أجمع عليه المؤرخون العرب والغربيون من أن دخول المسلمين مدينة عكا كان فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ الثامن عشر من مايو ١٢٩١م[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا التاريخ يتعارض مع ما أورده لودولف نفسه من أن جماعة الفرسان الداوية ظلوا يدافعون عن قلعتهم لمدة

---

(١) الذهبى: دول الإسلام: جـ٢، ص ١٩٠،

(2) Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, in P. P. T. S., Vol. xII, p. 57.

(٣) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٩، لوحة ١٧١، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم ٣، لوحة ٢٧١ – ٢٧٢، ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص٢٥، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٩٠، العمرى: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٥ – ٣٦٦، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٦، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٣٢١، ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٣٧، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١١ – ١١٢، المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٦٥؛ العينى: عقد الجمان، جـ٢٣، ورقة ٣٨ – ٣٩، ابن ابى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٤٢، ابو المحاسن النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٠، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٦٤، وأيضا:
Les Gestes des chiprois, p. 817; Amadi, Chronique, Vol I, p. 223; Annales de Terre Saivte, in, A. O. L. Vol. 2, Part II, p. 460.

عشرة أيام بعد دخول المسلمين المدينة[1]. ولذا فمن المرجح أن استسلام الداوية كان فى الثامن والعشرين من مايو ١٢٩١م/ السابع والعشرين من جمادى الأولى ٦٩٠هـ.

وتروى المصادر الغربية مدى جشع أحد فرسان جماعة الداوية ويدعى روجر Roger الذى سارع بالاتجاه إلى ميناء عكا عندما نجح المسلمون فى اقتحامهم، واستقل سفينة كبيرة من سفن الداوية، ولم يسمح للفارين الصليبيين من نساء وأطفال وشيوخ بالصعود على ظهر السفينة إلا بعد دفع ما معهم من أموال ونفائس[2].

وتوضح هذه الرواية أن بعض فرسان جماعة الداوية التى كان من أهم مبادئها الزهد والورع، لم يتورعوا عن استغلال الظروف التى كان يمر بها الصليبيون لتحقيق المكاسب المادية والنفع الذاتى.

وكان لسقوط مدينة عكا أكبر الأثر على الكيان الصليبى فى المشرق الإسلامى بصفة عامة، وعلى جماعة فرسان الداوية بصفة خاصة. إذ أن سقوطها قد وضع حداً لمصير بقية المدن والقلاع الصليبية فى الشرق الإسلامى وجعلها تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى أيد المسلمين. وكان هذا أمراً طبيعياً، بعدما أرسل الصليبيون بصفة عامة، والداوية على وجه الأخص، الغالبية العظمى من فرسانهم للدفاع عن عكا. لذا بعد اندحار الصليبيين فى عكا، أصبحت بقية المدن والقلاع الصليبية شبه خاوية من المدافعين عنها وعلى استعداد للسقوط عند أول ضربة توجه إليها.

أما عن الداوية فى مدينة صيدا، فبعد وفاة مقدمهم وليم بوجيه فى عكا، سارعوا باختيار المشرف على الشئون المالية فى مدينة صيدا ويدعى تيبالد جودينى Thibaldi

(1) Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, in, P. P. T. S., Vol. xII, Part 3, p. 59.

(2) Les Gestes des chiprois, pp. 714 - 715; Amadi, Chronique, Vol. I, p. 225; Ludolph, op. cit, p. 61.

Gaudini، مقدماً عليهم[1]. وبعد تعيين تيبالد، أسرع بالإبحار إلى جزيرة قبرص لحشد المحاربين والاتجاه إلى صيدا، ومقاومة الهجوم الإسلامي. ولكن لم تلق دعوة تيبالد في جزيرة قبرص أية استجابة، لذا ظل قابعا في الجزيرة تاركاً فرسانه يواجهون مصيرهم المحتوم[2].

أما عن بقية الجبهة الإسلامية، فقد أرسل السلطان الأشرف خليل، فرقة من جيشه بقيادة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي للهجوم على صيدا. فتوجه إليها وضرب الحصار من حولها. وعندما شعر الداوية داخل المدينة بضعف قوتهم وقلة حيلتهم، ابحروا إلى قلعة المدينة المقامة في عرض البحر. لذا تمكن القوات الإسلامية من دخول صيدا بدون عناء في يوم السبت ١٥ رجب ٦٩٠هـ/ ١٤ يوليو ١٢٩١م. ثم أقامت جسراً للعبور إلى القلعة. وما أن شعر الداوية باقتراب القوات الإسلامية حتى أبحروا بسفنهم، وتوجه البعض منهم إلى جزيرة قبرص، بينما البعض الآخر إلى قلعة الداوية في انطرطوس[3].

ولم يبق للداوية سوى قلعتي عثليت وانطرطوس اللتين لم تصمدا أمام الهجوم الإسلامي. واضطر الداوية في انطرطوس إلى التسليم في ٥ شعبان ٦٩٠هـ/ ٣ اغسطس ١٢٩١م، بينما نجح المسلمون في دخول قلعة عثليت في منتصف

---

(1) Les Gestes des chiprois, p. 817.
(2) Amadi, Chronique, Vol. I, p. 226.

(٣) ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، لوحة ٢٧٣ - ٢٧٦؛ ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٢٥، الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٩١، العمري: مسالك الابصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٦، ابن الوردي: تتمة المختصر: تذكرة النبيه، جـ١، ص ١٣٧، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١١٣، ابن الشحنه: روض المناظر، ورقة ١٧٣ -؛ المقريزي: السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٦٦٥ - ٦٦٦، ابن ابي الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٤٥؛ ابو المحاسن النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٨ - ١٠، ابن بهادر: فتوح النصر، ورقة ٣٦٥؛ وأيضاً:

Les Gestes des chiprois, p. 817 - 818;
Amadi, Chronique, Vol. I, pp. 226 - 227;
Annales de Terre Saint, in, A, O. L., Vol. 2, Part II, p. 460.

شعبان/ منتصف اغسطس من العام نفسه. وتوجه بعض فرسان الداوية إلى جزيرة ارواد[1]، بينما اتجه البعض الآخر إلى جزيرة قبرص[2].

وبذلك انتهى الوجود الصليبى فى المشرق الإسلامى، وتم إجلاء جماعة فرسان الداوية عن أراضيه، وإن كانت تلك الجماعة قد احتفظت بمركز لها فى جزيرة أرواد أملاً فى أن يستجيب الغرب الأوربى لنداء البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨١ - ٦٩١هـ) Niekolas IV فى الإستعداد لإرسال حملة صليبية جديدة تعيد للصليبيين مكانتهم مرة أخرى[3]. ولكن اندحار الصليبيين وانقراض إماراتهم فى الشرق الإسلامى قوبل بنوع من عدم المبالاة من جانب ملوك وأمراء الغرب الأوربى. وبالرغم من الجهود الكبيرة التى بذلها البابا نيقولا الرابع فى أخريات حياته، إلا أنه فشل فى أن يثير بعض اللهب فى شلة الحماس الصليبى

(١) ارواد: جزيرة صغيرة فى البحر المتوسط، فى الجنوب الغربى من انطرطوس، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات منها. راجع

ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص ٢٥٢، جـ١، ابو الفدا: المختصر، جـ٤، ص ٤٧، السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٣٠٦، جـ١، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١١، جـ١، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص ٢٠٧.

(٢) ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، قسم ٣، لوحة ٣٧٤ - ٣٧٥، ابو الفدا: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٥، الذهبى: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٩١، العمرى: مسالك الأبصار، جـ٢٧، قسم ٤، لوحة ٣٦٦، ابن الوردى: تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٧، ابن كثير: البداية، جـ١٣، ص ٣٢١، ابن حبيب: المصدر السابق، جـ١، ص ١٣٧، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١١٣، ابن الشحنه: روض المناظر، ورقة ١٧٣، المقريزى: المصدر السابق، جـ١، قسم ٣، ص ٧٦٦، ابن أبى الفضائل: النهج السديد، جـ٢، ص ٥٤٨، ابو المحاسن: المصدر السابق، جـ٨، ص ١، ابن بهادر فتوح النصر، ورقة ٣٦٥، وأيضا:

Les Gestes des chiprois, p. 818; Amadi, Chronique, Vol. I, p. 227; Annales de Terre Sainte, in, A. O. L., Vol. 2, Part. II. p. 460; Ludolph Von Suchems, Description of the Holy Land, in, P. P. T. S., Vol. xII, Part 3, p. 40.

(3) Matthow of Westminster, The Flowers of History, vol. II, p. 489.

القديم، ذلك لأن الروح الصليبية كانت قد فقدت بريقها بعد مرور قرنين من الزمان، وأصبح المشرق الإسلامي، مرة أخرى، كتلة واحدة.

وبذلك سطر الداوية آخر صفحاتهم في المشرق الإسلامي، وإن كان لهم مركز ضعيف في جزيرة ارواد، فقد تمكن المماليك من اجلاءهم عنه في عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م.

قائمة المصادر والمراجع

- بيان المختصرات

أولا : مجموعات الحروب الصليبية الرئيسية.

ثانيا : المصادر الأجنبية.

ثالثا : المخطوطات والمخطوطات المصورة.

رابعا : المصادر العربية المطبوعة.

خامسا : المراجع الثانوية الأجنبية.

سادسا : المراجع الثانوية العربية والمعربة.

بيان بالمختصرات

A. O. L. -Les Archives de L'Orient Latin.

G. S. H. B. - Gorpus Scriptorum Historiae Byzantinae.

P. P. T. S. - Palestine pilgrims Text Society.

R. H. C. H. Occ - Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

R. H. G. F. - Recueil des Historiens des Gaules et de la France.

R. O. L. - Revue de L'Orient Latin.

أولا: مجموعات الحروب الصليبية

Les Archives de L'Orient Latin, Publiées par la Société de L'Orient Latin, 2 Vlos., Paris, 1884.

Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, 5 t., (1844 - 1895)

Palestine Pilgrims, Text Society, 13 Vols. and general Lndex, London, 1887 - 1897.

Revue de L'Orient Latin, Publiée sous la direction de M. Marguis Vogué et ch. Schefer, Paris, 1893 - 1911.

ثانيا: المصادر الأجنبية

Alexander III (pope),

1- Letter of pope Alexander III, cf. R. O. L. Vol. I, Paris, 1893, p. 51.

2- Letter of pope Alexander III to the Master of the Templars Bertrand de Blanquefort, dated, 7 June 1162, cf. Addison, The Knights Templars, London, 1842, pp. 68 - 69.

3- Letter of pope Alexander III, cf. R. O. L., Vol. XI, Paris, 1905, pp. 280 - 281.

4- Letter of pope Alexander III, cf. King, The Knghts Hospitallers, London, 1931, p. 123.

5- Letter of pope Alexander III, cf. Addison, Templars, p. 63.

6- Letter of pope Alexander III, cf. R. O. L. Vol. III, Paris, 1895, pp. 411 - 412.

7- Letter of pope Alexander III, dated, 1160, cf. R. O. L., Vol. XII, Paris, 1908, p. 411.

8- Letter of pope Alexander III, dated 1163, cf. R. O. L., Vol. XI, Paris, 1905, p. 412.

9- Letter of pope Alexander III, cf. Addison, Templars, pp. 63 - 68.

Alberti Aquonsis,

Historia Hiersolymitana, cf. R. H. C. - H. Occ. Vol. IV, Paris, 1879, pp. 265 - 713.

Amadi,

Chroniques d'Amadi et de Strambaldi, 2 Vols., Paris, 1891.

Ambroise, B.,

The Crusade of Richard Lion - Heart, New York , 1941.

Annals se Terre Saint, cf. A. O. L., Vol. 2, Paris, 1884, pp. 427

- 461.

Anonimous, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum

وقد اعتمدنا على الترجمة العربية للدكتور حسن حبشى المعنونة تحت اسم «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، القاهرة ١٩٥٨م.

Antonius Martyr,

The Holy places visied, cf. P. P. T. S. Vol. I., Part 2, London, 1887.

Anonymous pilgrims, cf. P. P. T. S. Vol. VI, Part I, London, 1894.

Arculfus,

The pilgrimage of Arculfus in the Holy Land, cf. P. P. T. S., Vol. III, Part 1, London, 1889.

Archives de Cassolas, cf. R. O. L., Vol. XI, Paris, 1905, pp. 400 - 440.

Baldwin II,

Letter of Baldwin II to St. Bernard, cf. Addison, The Knights Templars, London, 1842, pp. 12 - 13.

Benodicti of Petroburgensis,

Vita Honerici II, Anglicic Regis, cf. R. H. G. F., Vol. XV, Paris, 1818, pp. 406 - 546.

Bernard the Wise,

The Itinerary of Bernard the Wise, cf. P. P. T. S., Vol. III, Part 3, London, 1891.

Blanquefort,

Letter of Blanquefort, cf. Addison, Templars, London, 1842, pp. 52 - 52.

Bordeaux Pilgrim,

Itinerary from Bordeaux to Jerusalem, cf. P. P. T. S., Vol. I, Part 2, London, 1887.

Burchard Pilgrim,

Description of Mont Sion, cf. P. P. T. S., Vol. 12, London, 1896.

Cinnamus, T.,

Epistome Historiarum, in C. S. H. B., Bonn, 1836.

Danil,

The pilgrimage of the Russian Abbot Daiel in the Holy Land, cf. P. P. T. S., Vol. IV, Part 3, London, 1888.

Devizes, R. & Vinsauf, C.,

Chroniclos of the Crusade, London, 1848.

Einhard,

The life of Charlemagne, Miechigan Paress, U. S. A., 1960.

Eugenius III (pope),

1- Letter of pope Eugenius III to Louis VII, cf. R. H. G. F., Vol. XV., Paris, 1878, pp. 429 - 430.

2- Letter of Eugenius III, dated 16 June, 1185, ed., Delaville le Roulx, Documents concemant les Templiers, Paris, 1882.

3- Letter of Eugenius III, dated 16 June, 1158, cf. Archives de Malte, Vol. 8, Paris, 1882, Piéce I., p. 16.

Esherius, S.,

Deseription of Jerusalem, cf. P. P. T. S., Vol. II, Part I, London, 1890.

Eustace,

Letter of Eustace to Everard des Barres, cf. Addison, Templars,

London, 1842, pp. 43 - 44.

Fetellus,

Description of the Holy Land, cf. P. P. T. S., Vol. V, Part I, London, 1892.

Fulcher of Chartres,

A History of the expedition of Jerusalem (105=95 - 1127), U. S. A., 1969.

Grgori VIII (pope),

1- Letter of pope Gregori VIII, cf. Bendicti of Petroburgnsis, Vita Henerici II, Paris, 1818, p. 474.

2- Letter of Gregori VIII, cf., Roger de Hoveden, Annals, London, 1833, I, p. 70.

Guillelmi de Mangico,

Chronicon, cf., R. H. G. F., Vol. XX, Paris, 1840, pp. 543 - 633.

Hardrian IV (pope),

1- Letter of pope Hadrian IV, datod 1157, cf. R. O. L., Vol. XII, Paris, 1908, p. 411.

2- Letter of pope Hadrian IV, cf. R. H. G. F., Vol. XV, Paris, 1878, p. 681.

Henery II,

Letter of Henery II, Roger de Hoveden, Annals, 1833, II, p. 84.

Jerôme (St.),

The pilgrimege of the Holy Pula, cf. P. P. T. S., Vol. I, Part 5, London, 1887.

John of Wurzburs,

Description of the Holy Land, cf. P. P. T. S., Vol. V, Part 2, London, 1890.

Le Roulx,

Documents concerant les Templiers, Paris, 1882.

Louis VII,

Letter of Louis VIIto Suger, cf. R. H. G. F., Vol. XV, Paris, 1878, p. 497.

Ludolph Von Suchems,

Description of the Holy Land, cf. p. P. T. S., Vol. XII, Part 3, London, 1895.

Mathew of Westminster,

The Flowers of History, 2 Vols, London, 1853.

Michel le Syrien,

Chronique de Michel le Syrion Patriache Jacobite d'Antioche (1166 - 1199), Editée pour la Qremiére fois et tradiut en francais Par J. B. Chabot, 3 Vols., Paris, 1905.

Nicetas Choniates,

Historia, cf. C. S. H. B., Bonn, 1835.

Odo & Roger,

Letter of Odo and Roger to pope Alexander III, cf. ing The Knights Hospitallers, London, 1931, pp. 121 - 123.

Odo of Deuil,

De Profection Ludovice VII Orientem, New York, 1948.

Oliver Padenborn,

The Capture of Bamiatta, Philadalphia, 1948.

Otto Friesing,

The Deods of Fredrik Barbarossa, translated and annotaed by charles Christonpher Hieroo, New York, 1952.

Petro,

1- Letter of Petro to Everard des Barrs, dated, 1150, cf. R. H. G. F., Vol. XV, Paris, 1878, p. 650.

2- Letter of Petro to Suger, dated, 1150, cf. R. H. G. F., Vol. XV, Paris, 1878, p. 416.

Procopius,

1- Vandal War, cf. A soure book for Medieval History, tran. by, O. J. Thatcher & E. H. Heneal, New York, 1905.

2- Buildings of Justinian, cf. P. P. T. S., Vol. II, Part 4, London, 1889.

Radulfi de Diceto,

Imaginibus Historiarum, cf. R. H. G. F., Vol. XVII, Paris, 1878, pp. 615 - 659.

Raimund d'Aguilers,

Historua Francorum, cf. R. H. C. - H. Occ., Vol. III, paris, 1866, pp. 235 - 309.

Roger of Molins,

Letter of Roger of Molins Master of the Jnights Hospitallers, cf. Rôhrigeichs Jerusalem, (1100 - 1291), Innsbruck, 1898, pp. 325 380.

Roger of Wendover,

The Flowers of History, London, 1888.

Torricius,

1- Letter of Terricius, cf. Roger de Hoveden, Annals, London, 1833, II, p. 68 - 69.

2- Letter of Torricius to King Monery II, cf. Roger de Hoveden, Annals, 1833, Vol. II, pp. 90 - 91.

Ubmrn III (pope),

Letter of pope Urban III, cf. Documents des Templiers, Paris, 1882, p. 19.

Vitry, Jacques de,

The History of Jerusalem, Tran from the original Latin by Steward, London, 1896.

Williabld,

The Hodaeporiicon of Willibald, cf. P. P. T. S., Vol. III, Part 2, London, 1891.

William of Tyre,

A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., tran. & annotated by A. C. Kery, New York, 1943.

Eracles,

L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, in, R. H. C. - H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 1 - 481.

Ernoul,

Chronique d'Ernoul, ed Rôhricht, Geneve, 1882.

Esherius, S.,

Description of Jerusalem, in, P. P. T. S., Vol. II, Part I, London, 1890.

Fetellus,

Description of the Hol Land, in, P. P. T. S., Vol. V, Part I, London, 1892.

Guiblelmi de Nangico,

Chronicon, in, R. H. G. F., Vol. XX, Paris, 1840, pp. 543 - 633.

Hethoum, Comt de Gorigos,

Table Chronilogique, in, R. H. C. - Doc. Arm. Vol. I, Paris, 1869, pp. 471 - 490.

Innocent III (Pope),

1- Letter du pope Innocenti III, ed. Melville, La vie de Templiers, Paris, 1951, p. 152.

2- Letter du Pope Innocent III, dans, Patrologia Latina, Vol. X, p. 522, XXV, p. 306.

Radulf de Diceto,

Imainibus Historiarum, in, R. H. G. F., Vol. XVII, Paris, 1878, pp. 615 - 659.

Roger of Hoveden,

Annals, Comprising the History of England and other countries of Europe from A. D. 732 to A. D. 1201, Transform the with notes and illustrations by Henery. T. Riley, 2 Vols., London, 1883.

Roger of Wendover,

The Flowers of History, Comprising the History of England from the Descent of the Saxons to A. D. 1235, Trans. from the latin by . A. Giles, 2 Vols, London, 1848.

Rôhricht, R. (ed.),

Regesta Regni Hiroslymitani (1097 - 1291), Oeniponti, 1904.

Rothelin,

Contnuation de Guillaum de Tyr dite du mansucrit de Rothelin (1229 - 1261) in, R. H. C. - H. Occ. Vol. II, Paris, 1859, pp. 489 - 639.

Jacques de vityr,

The History of Jerusalem, in, P. P. T. S., Vol. XIV, London, Jean de.

Histoire de Saint Louis. Texte Original du XIV Seléca accompagné d'une traducttion en Francais modern Par. M. Nat alis de Wailly, Paris, 1874.

Les Gestes Chiprois, in, R. H. C. _ Doo. Arm., Vol. II, Paris, 1906.

Ludolph Von Suchems,

Description of the Holy Land, in, P. P. T. S., Vol. XII, Part 3, London, 1895.

Matthew of Westminster,

The Flowers of History, 2 Vols., London, 1853.

Matthew Paris,

English, 2 Vols., London, 1852 - 1853.

Odo of Deuil,

De profection Ludovice VII Orientem, New York, 1948.

Oliver Padenborn,

The Capture of Damiatta, Philadelphia, 1948.

Saewulf,

The pilgrimage of Saewulf to Jerusalem and the Holy Land, in, P. P. T. S., Vol. IV, Part 2, London, 1822.

Sanudo, M.,

Liber Secretorum Fidelium crucis, in, Gesta Dei per Francos, 2. T., Hanover, 1611.

Silvia of Aquitania,

The pilyrimage of Silvia of Aquitania to the Holy Places, in, P. P. T. S., Vol. I, Part 3, London, 1822.

Terricius,

Letter of Tericius, cf., Roger of Wendover, Annales, Vol. II, pp. 68 - 88.

Theoderich,

Dereription of the Holy Places, in, P. P. T. S., Vol. V, part 4, London, 1891.

Wiegler, P.,

the Infidel Emperor and His Struggles against the Pope, Achronical of the 13 the Century, Trans. by Brian W. Downs, London, 1930.

Willibald,

The Hodaeporicon of Willibald, in, P. P. T. S., Vol. III, Part 2, London, 1891.

William of Tyre,

A History of the deeds done beyond the Sea, Tran. And annotated by E. A. Babcock and A. C. Kery, 2 Vols., New York, 1943.

ثالثا: المخطوطات والمخطوطات المصورة[1]

ابن أبى السرور (ت ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م) محمد بن محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى:

«عيون الأخبار ونزهة الأبصار» - دار الكتب المصرية، رقم ٧٢ م تاريخ.

ابن ايبك (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١) ابو بكر بن عبد الله:

١- «درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان» - دار الكتب المصرية - رقم ٤٤٠٩ تاريخ.

٢- «كنز الدرر وجامع الغرر» - ٩جـ- دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ.

ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع الهجرى/ القرن الخامس عشر الميلادى) محمد بن محمد بن بهادر:

«فتوح النصر فى تاريخ مصر» - دار الكتب المصرى - رقم ٤٩٧٧ تاريخ.

ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى:

١- «نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام» - القطعة الأولى - حوادث ٦٢٨هـ إلى ٦٥٩هـ - دار الكتب المصرية - رقم ١٧٤٠ تاريخ.

٢- «الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين» - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٢٢ تاريخ.

ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) أبو القاسم عمر بن هبة الله:

---

(١) أشرنا إلى المخطوط بـ (ورقة) والمصور بـ (لوحة).

«بغية الطلب فى تاريخ حلب» – دار الكتب المصرية – رقم ٤٩٦٤ تاريخ.

بامخرمة (عاش فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى) أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن على:

«قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر» – جـ٦ – دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ.

بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) ركن الدين بيبرس المنصورى:

«زبدة الفكرة فى تاريخ أهل الهجرة» – جـ٩ – مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨ «تصوير شمسى».

شافع بن على (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م) شافع بن على بن عباس بن اسماعيل بن عساكر الكنانى العسقلانى المصرى:

«حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية – دار الكتب المصرية رقم ٢٢٢٤ تاريخ تيمور.

العمرى (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) ابن فضل الله:

«مسالك الابصار فى مسالك الامصار» – جـ٢٧ فى ٤ مجلدات – دار الكتب المصرية – رقم ح ٨٢٠٣.

الفيومى (ت حوالى ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) أحمد بن محمد بن على:

«نثر الجمان فى تاريخ الأعيان» – المجلد الأول والثاني – دار الكتب المصرية – رقم ١٧٤٦ تاريخ.

الكتبى (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بم أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين:

«عيون التواريخ» – ١٦ مجلداً يهمنا مجلد مكتوب عليه أن الجزء العشرون

- ويبتدئ من عام ٦٤٥هـ وينتهي إلى ٦٧٠هـ - دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ - «تصوير شمسى».

النويرى الكندى (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٢٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد:

«نهاية الأرب فى فنون الأدب» ٥٥ مجلداً - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة. «تصوير شمسى».

رابعا المصادر العربية المطبوعة

ابن ابى الفضائل (ت من منتصف القرن الثامن الهجرى/ منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) مفضل:

«النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد»، نشر المستشرق بولشيه، باريس ١٩١٢.

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) أبوالحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين:

«الكامل فى التاريخ»، ١٢ جزء، ليدن ١٨٥٣م.

ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) الحسن بن عمر بن الحسين عمر بن حبيب:

«تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه»، الجزء الأول، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦.

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم:

«وفيات الأعيان وأنباء الزمان»، تحقيق إحسان عباس، ٣جـ، بيروت ١٩٦٨.

ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم:

«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، تحقيق د. جمال الدين الشيال الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٤م.

ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) محى الدين:

١- «تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور»، تحقيق د. مراد كامل القاهرة ١٩٦١م.

٢- «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر»، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م.

ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٦٢م) كمال الدين ابن القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله

«زبدة الحلب فى تاريخ حلب»، نشر وتحقيق سامى الدهان، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية، دمشق، جـ١، ١٩٥١م، جـ٢، ١٩٦٧م.

ابن الفرات (ت ٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على:

«تاريخ الدول والملوك» المعروف بتاريخ ابن الفرات، نشر د. حسن محمد الشماع، جـ٤، البصرة، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م).

ابن القلانسى (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد:

«ذيل تاريخ دمشق»، بيروت ١٩٠٨م.

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) الحافظ بن كثير الدمشقى:

«البداية والنهاية فى التاريخ» ١٤ جـ فى ٧ مجلدات، بيروت ١٩٧٧م.

ابن منقذ (ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد:

«كتاب الاعتبار»، نشر فيليب حتى، برنستون ١٩٣٠م.

ابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب

«أخبار مصر»، ٢ ج، نشر هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٩م.

ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم ابن واصل:

«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» الأجزاء ١-٣ تحقيق الدكتور جمال

الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠م، وجزء ٤ - ٥ تحقيق د. حسنين محمد ربيع ومراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧م.

ابن الوردى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) أو الحض زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:

«تتمة المختصر فى أخبار البشر» ويعرف بتاريخ ابن الوردى، ٢ ج، القاهرة ١٢٨٥هـ.

أبو شامة (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى:

١- الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨هـ.

٢- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، نشر السيد عزت العطار الحسينى الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧م.

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ - ١٣٣٢م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن على:

«المختصر فى أخبار البشر»، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢٥م.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف:

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، ١٢ ج، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦).

الاصفهانى (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد:

«الفتح القسى فى الفتح القدسى»، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة ١٩٦٥م.

البلاذرى (ت ٢٧٥هـ/ ٨٩٢هـ) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر:

«فتوح البلدان»، بريل ١٨٦٦م.

الذهبى (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين:

«دول الإسلام»، ٢ ج، تحقيق فيهم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٧٤م.

القلقشندى (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أبو عبد الله زكريا بن حمد بن محمود:

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، ١٤ ج، القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠م.

المقدسى (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) شمس الدين ابو عبد الله المعروف بالبشارى:

«أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم» صورة بالأوفست عن طبعة ليدن ١٩٠٦م.

المقريزى (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباس أحمد:

«السلوك لمعرفة دول الملوك» الجزء الأول والثانى، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٥٨م.

ناصر خسرو (ت ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) أبو معين الدين:

«سفر نامه» تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) بو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين:

«معجم البلدان» ٨ ج فى ٤ مجلدات، القاهرة ١٣٢٣ - ١٣٢٤هـ.

خامسا: المراجع الثانوية الأجنبية

Addison, C. H. G.,

The Hnights Templars, London, 1842.

Barber, R.

The Knights & Chivalry, London, 1970.

Chaen, C.,

La Syrie de Nord á L'Epoque des Croisades et Principouté Franque d'Antioche, Paris, 1940.

Charpentier, J.,

L'Ordre des Templiers, Paris, 1944.

Curzon, H. D.,

La Régle du Temple, Paris, 1904.

Edward, J. M.,

The Trail of the Templars, London, 1928.

Grousset, R.

Histoire des Croissades et du Roysume France de Jerusalem, 3 Vols., Paris, 1936.

King, E. J.,

The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Lea, H.C.,

A History of Inquistion of the Middle Ages, New York, 1922.

Lacroix, M. P.,

La Chivalerie det les croisades, Paris, 1887.

Le Roulx, D.,

Les Hospitaliers en Terre Sainte et á Chypre, (1100 - 1310), Paris, 1904.

Lizerand, G.

Le Dossier de L'Affaire des Templiers. Paris, 1923.

Mayer, H. E.,

The Crusades, London, 1972.

Melville, M.,

La Vie des Templiers, Paris, 1951.

Michaud, J. F.,

Histoire des Croisades, 5 Vols., Paris, 1922.

Oman, C. W. A.,

History of the Art of War in the Middle Ages, London, 1924.

Pernoud, R.,

Les Templiers, Paris, 1977.

Prower, J.,

The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1973.

Rohricht, R.,

Geschichte des Konigrichs Jerusalem (110 - 1291), Innsbruck, 1898.

Setton, K. M.,

A History of the Cruseades, 3 Vols., London, 1950.

Schlumberger, G.,

Campagens du Roi Amury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1970.

Smail, R. C.,

1- Crusading warfare 1097 - 1193, London, 1956.

2- The Cursaders in Syria and the Holy Land, London, 1973.

Treece, H.,

The Crusades, New York, 1964

سادسا: المراجع الثانوية العربية والمعربة

اسمة زكى زيد (دكتور):

١- الصليبيون واسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية، الاسكندرية، ١٩٨٠م.

٢- صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٨١م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الاسكندرية ١٩٦٧م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

١- العدوان الصليبى على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصور وفارسكور، الاسكندرية، ١٩٦٩م.

٢- العدوان الصليبى على بلاد الشام. هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة، الاسكندرية، ١٩٧١م.

٣- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، طبعة ثانية، الاسكندرية، ١٩٦٧م.

درويش محفوظ النخيلى (دكتور):

السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٩م.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

١- الحروب الصليبية - صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ٢ ج، القاهرة ١٩٦٣م.

٢- أوربا العصور الوسطى، الطبعة الرابعة، ٢ ج، القاهرة ١٩٦٦م.

عبد الرحمن زكى (دكتور):

القلاع فى العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد السابع، القاهرة، ١٩٥٨.

عبد الرؤف عوف (دكتور):

الفن الحربى فى صدر الإسلام، القاهرة ١٩٦١م.

كلتون ج. ج:

عالم العصور الوسطى فى المنظم والحضارة، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف، الطبعة الثانية، الاسكندرية، ١٩٦٧م.

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور):

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الاسكندرية، ١٩٧٤م.

محمد مختار:

التوفيقات الإلهامية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣١١هـ.

محمود سعيد عمران (دكتور):

الحملة الصليبية الخامسة، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

مونروند (مكسيموس):

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليبيين، ترجمة مكسيموس مظلوم، ٢ ج، أورشليم، ١٨٦٥م.

الخاتمه

تكونت النواه الاولى لجماعة الفرمان الداويه فى مايو ١١١٨م/ صفر ٥٢١هـ كنتيجة مباشرة لتطور حركة الحج المسيحية تلك الحركة التى بدأت خلال القرن الرابع واستمرت حتى اندلاع الحروب الصليبيه، وقد شهدت هذه الحركه خلال تلك الفتره تطوراً كبيراً ، فزاد عدد افرادها بعد أن كان لا يتعدى اصابع اليد الواحدة.وقد وجد أولئك الحجاج معاملة طيبة من جانب السلطات الاسلامية سواء أكانت عباسية أم أخشيدية ام فاطمية، مما ساعد على نمو وأزدهار حركة الحج من الغرب الأوروبى الى الاراضى المقدسة.

وفى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أواخر القرن الخامس الهجرى تعرضت منطقة الشرق الأدنى لاضطرابات شديدة بسبب الغزو الصليبى وتكوين الامارات اللاتينية فى فلسطيم مما ادى الى قيام صراع مرير بين الصليبيين والمسلمين الذين سعوا لاسترداد املاكهم المسلوبه ووقف اولئك الحجاج فى تلك الفترة بجانب اخوانهم الصليبين فى صراعهم مع المسلمين فكان طبيعياً نتيجة لدورهم هذا أن يتعرضوا لمضايقات المسلمين آنذاك ، وعندما عجز الحكام الصليبيون فى الشرق الادنى عن تأمين طرق أولئك الحجاج، تكونت لهذا الغرض جامعة الفرسان الداوية، وكانت تتألف فى بداية الأمر من تسعة فرسان فرنسيين أقاموا فى جزء من المسجد الاقصى الذى اصبح فيما بعد المقر الرئيسى لتلك الجامعة .

وما لبس أن تطورت تلك الجماعة واصبحت هيئة معترف بها من جانب السلطات الزمينة والدينية فى الغرب والشرق الادنى وذلك نتيجة الجهود التى بذلها هيودى باينز أول مقدم لها وبسبب تأييد كل من الملك الصليبى بلدوين الثانى والقديس برنارد دى كليرفو وتشجيع البابا الرومانى هونوريوس الثانى. فأصبحت ذات صبغة شرعية لها لباسها ورايتها المميزتان.

وجدير بالذكر أن جماعة الفرسان الداوية كانت تعبر عن روح العصور الوسطى

فى الغرب واصدق تعبير من ناحيتان هامتان هما ناحية الدين وناحية الحرب، الدين الذى ارتبط بالمسيحيه وكنيستها التى اصبحت من الصق الاشياء بحياة الناس الخاصة والعامة والحرب التى ارتبطت بالفروسية والاقطاع وهما من ابرز خصائص تلك العصور وفيها يبرز الفارس ما يتعلمه من فنون القتال. لذا كان طبيمياً ازدهار هذا النظام فى ظل الصراع الصليبى الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى، حيث ارتبط فرسان الداوية بطرفى الصراع بين المسلمين والصليبين واصبحوا طرفاً ثالثاً فيه، ولم تقتصر مهمتم على أرشاد الحجاج المسيحين فحسب، بل قاموا بحمايتهم بعد ان زادت اعدادهم واتسعت املاكهم ، وبعد ان ضموا إليهم نخبة ممتازة من الفرسان المدربين وفدوا إليهم من مركز الجامعة المعددة فى الغرب الأوروبى، كما زادت المهام الموكلة إليهم فيما بعد واصبحوا يقومون بالعمل على حماية الكيان الصليبى فى الشرق الادنى. وفى الواقع ان جماعة فرسان الداوية قد ملأت فى تلك الآونة فراغاً كبيراً فى حياة الصليبيين فى الأراضى المقدسة فى وقت كان الصليبيين يعانون فيه الأمرين نتيجة لتناقص عدد المحاربين وقيام الخلافات فيما بينهم، فضلاً عن اعتدال كافتى الميزان فى الصراع الصليبى الاسلامى بعد حركة الإفاقة الإسلامية فى بواكير القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) ، فاصبحت تمثل معيناً لا يغضب من المحاربين الأشداء شاركوا الصليبيين فى الغالبية العظمى من معاركهم ضد المسلمين، وباتت تشكل جيشاً نظامى ثابت اختلف كل الاختلاف عن سائر الجيوش الصليبية الاقطاعية الأخرى، واختلفت بطبيعة الحال عن الجماعات الرهبانية المعروفة فى الغرب الأوروبى آنذاك.

ولقد تطور الأسلوب العسكرى لتلك الجماعة، فبعد ان كان افرادها يتبعون سياسة الدفاع حتى عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ، اصبحوا بعد هذه الفترة يشاركون فى الهجوم على المدن والقرى الإسلامية سواء بمفردهم أو بجانب أخوانهم الصليبيين فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية فى مصر ،والشام تسير بخطى سريعة نحو الضعف والانهيار بينما ظهرت قوى إسلامية فتية فى أعالى الشام والعراق بدأت فى

تكتيل المسلمين فى الشرق الأدنى الإسلامى والعمل على توحيد صفوفهم لمواجهة الخطر الصليبي ومن بين روادها الاول مودود واقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى.

ولم تقتصر مهمة الداوية فى هذا المجال على الأنغماس فى الصراع الصليبى الإسلامى والعمل على زيادة ثرواتهم وتوسيع رقعة ممتلكاتهم فى الأراضى المقدسة وإنما امتدت لشمل السعى الى نزاعات بين العناصر اللاتينية فى الشرق الأدنى وأضافوا الى منشآتهم العسكرية العديد من الابنية والتعزيزات الحربية. واستمر الحال على هذا المنوال حتى سقوط الدولة الفاطمية عام ١١٧١م / ٥٦٧ هـ وقيام دولة بني ايوب على انقاضها بفضل مؤسسها صلاح الدين الأيوبى. وكان صلاح الدين يستهدف اساساً تكتيل القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى لمواجهة الصليبيين ودفع خطرهم. ولذا كان طبيعياً أن يشتد العداء وان يتصاعد بين الداوية وبين مؤسسى الاسرة الايوبية. وقد بدأت علاقة العداء بينهما فى عام١١٧٠م/٥٦٦ هـ عندما قام صلاح الدين بمهاجمة بعض قلاعهم القريبة من الحدود المصرية. وعلى الرغم من فشله فى فتح تلك القلاع، وعلى الرغم من هزيمته على يد الصليبيين والداوية فى موقعة الرملة عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ ، الا انه نجح بعد أن قطع شوط كبير فى استكمال توحيد الجبهة الاسلامية ... فى ان يسدد للداوية ضربتين متتاليتين أولاهما فى موقعة مزج عيون عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ، والاخرى فى قلعة بيت جبريل فى العام نفسه. وكان لتلك الضربتين اكبر الاثر على الأوضاع العسكرية لتلك الجماعة ويكفى انها لم تشارك الصليبين فى صراعهم ضد المسلمين منذ تلك الفترة وحتى عام ١١٧٨م / ٥٨٣هـ. حيث انغمست فى تلك المرحلة فى المنازعات التى قامت بين لحكام اللاتين، والتى كان مرجعها العداء الشخصى ببين مقدمها جيراد ريد فور وبين ريموند امير طرابلس . وكان لتلك المنازعات اثرها فى هزيمة الصليبين فى موقعة حطين عام ١١٧٨م / ٥٨٣هـ فى وقت كانت فيه كفة الميزان فى الصراع بين المسلمين والصليبين قد اعتدلت بشكل واضح لصالح المسلمين ، وبدأ المد الاسلامى يفرض نفسه على حساب

الانحسار الصليبى .

لقد كان لهزيمة الصليبيين ومعهم الداوية فى موقعة حطين ، ثم سقط معظم قلاع الداوية فى قبضة صلاح الدين ، ما جعلهم يرمون بكل ثقلهم لحث الغرب الأوروبى على القيام بحملة صليبية جديدة عرفت فى عداد الحركة الصليبية بالحملة الصليبية الثالثة لكى تعيد للفرنج كرامتهم وتعوض هزيمتهم . واخذت الجماعة تستعد للقيام بهذا الدور فحشدت فرسانها فى مدينة صور، وشاركت الصليبين فى حصا مدينة عكا الاسلامية. ويلاحظ ان جماعة الداوية فى تلك المرحلة قد ابتعدت. كل البعد على الانغماس فى المنازعات الداخلية بين الصليبين فى الشرق الادنى ، ووضعت الصالح الصليبى العام فوق كل اعتبار، ولقد اتت تلك السياسة ثمارها، إذ تمكن الصليبيون من استرداد مدينة عكا والعديد من المدن التى سبق أن فتحها صلاح الدين فى موقعة حطين، كما عادت بالنفع على تلك الجماعة حيث أقامت لها قلعة جديدة فى مدينة يافا وكانت آنذاك تحت حكم اللاتين.

ولم ينته دور الجماعة عند هذا الحد، بل استمر بعد ذلك وإن كان قد توقفت فترة ليست بقصيرة بعد صلح الرملة، وموت صلاح الدين فى عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ.

فقد انتهت الهدنه بين المسلمين والصليبين فى المحرم ٦٠٧هـ / يوليو ١٢١٠م[1] ارسل الملك العادل يطلب منهم تجديد الهدنة بينهما، لكن الداوية

---

(١) بعد صلح الرملة عقدت هدنة اخرى بين المسلمين بقيادة العادل ملك مصر (٥٩٦- ٦١٥هـ/ ١٢٠٠-١٢١٨م) وبين عمورى الثانى الملك الاسمى لبيت المقدس (١١٩٧-١٢٠٥م/ ٥٩٣-٦٠٢هـ) فى يوليو ١١٩٨م/ رمضان ٥٩٤هـ لمدة ثلاث سنوات، كما تجددت تلك الهدنه فى عام ١٢٠٤م/ ٦٠١هـ لمدة ست سنوات ، عن هذه المعاهدات انظر:
ابن الأثير : الكامل، جـ١٢ . ص١٢٨ ، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص١٥٤، وايضاً:
Eracles, L'Estoire, pp. 227-228, 263, 305.

رفضوا اموافقة على ذلك. وربما يرجع موقفهم هذا الى شعورهم بان معظم قلاعهم قد فقدت ، وان الارتباط مع المسلمين فى معاهدة جديدة إنما يعنى استمرار فقدهم لتلك القلاع ولكن بالرغم من محاولات الداوية إلا ان القادة الصليبين وافقوا على تجديد الهدنة مع المسلمين لمدة خمس سنوات اخر ، وذلك لأن ميزان القوى فى الشرق الأدنى كان لا يزال فى صالح المسلمين. وعندما دنا موعد انتهاء تلك الهدنة ، اخذ الصليبيون يستعدون لمواجهة المسلمين، وقامت الاستعدادات فى الغرب الأوروبى على قدم وساق لارسال حملة جديدة الى الشرق تكون هدفها الاول استرداد بيت المقدس عن طريق ضرب مصر اولاً باعتبارها معقل الجهاد فى الشرق الادنى. وفى هذا النطاق عهد لمقدم الداوية تولى امر صرف الاموال على تلك الحملة، بينما اخذت جموع الصليبين تتوافد الى مدينة عكا التى كانت آنذاك فى حوزة اللاتين، وحشد الداوية فرسانهم استعداداً للمشاركة فى تلك الحمله، كما قاموا فى أوائل عام ١١١٨م / اوائل عام ٦٥١هـ ببناء قلعة حصينة فوق جبل الكرمل[١] واطلق عليها قلعة الحجاج او عتليت، واوكل لهم امر الدفاع عنها تعويضاً عما فقدوه من قلاع فى عهد صلاح الدين.

ومنذ نزول الحملة الصليبية الخامسة فى جيزة دمياط فى جمادى الأولى ٦١٥هـ اغسطس ١٢١٨م هزيمة الصليبين ورحيلهم عن ارض الكنانة فى رجب ٦١٨هـ/ سبتمبر ١٢٢١م إلا وكان للداوية دور بارز فى معظم احداثها[٢].

أما عن موقف الداوية من الامبراطور الالمانى فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠م/ ٦٠٩-٦٤٨هـ) خلال حملته على الشرق الادنى والمعروفة بالحملة الصليبية السادسة فقد ناصبوه العداء نتيجة لتوقيع البابا عليه قرار الحرمان، فضلاً عن

---

(١) الكرمل : جبل يشرف على حيفا بسواحل الشام، انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٧، ص٢٤٤.

(٢) عن احداث الحملة الصليبية الخامسة ودور الداوية فى احداثها انضر: محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الاسكندرية ١٩٧٨، فى صفحات متعددة.

انهم أستاؤا ان تؤخذ بيت المقدس من المسلمين بالصلح، وسماح الامبراطور للمسلمين بالاحتفاظ بالمسجد الاقصى الذين كان به مقرهم الرئيسي من قبل. وعلى هذا دبروا المؤامرات ضده، وحاولوا قتله في مدينة عكا عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ[١]

ولكنهم عزموا على تنفيذ تلك المؤامرة بسبب عودة فردريك الى بلاده في اول مايو ١٢٢٩م / ١٥ جمادى الثاني ٦٢٧ هـ[٢]

واستمر الدور العسكري لجماعة فرسان الداوية ضد المسلمين، ففي عام ١١٣٠م / ٦٢٧هـ شارك الداوية جماعة ةرسان الاسبتارية في التصدى لقوات الملك تقي الدين صاحب حماه ودارت بين الطرفين معركة كبيرة بالقرب من بعرين انتهت بهزيمتهم[٣] وفي العام التالي شنوا هجوماً على مدينة جبلة، واسروا بعض المسلمين. فتصدى لهم شهاب الدين صاحب حلب، وتمكن من الحاق الهزيمة بهم واطلاق سراح الاسرى المسلمين من ايديهم، واستعادة الغنائم والاسلاب التي كانت معهم[٤] وفي عام ١٢٣٦م / ٦٣٤هـ أغار الداوية ممن كانوا بقلعة بضراس على مراعى التركمان القريبة من قلعتهم، فارسل إليهم السملك المعظم فخر الدين صاحب حران تارن شاه بين صلاح الدين على رأس قوة من عسكر حلب. وتمكن توارن ششاه من فرض الحصار حول قلعة بغراس، وهدم بعض المواضع من اسوارها، وكاد ان يستولي عليها ولا تدخل بوهمند الخامس امير انطاكية (١٢٣٣ - ١٢٥١م/ ٦٣٠-٦٤٩ هـ) حيث تقرر عقد

---

(١) ابن ايبك: كنز الدور، جـ٧، ورقة ٢٩٧، العيني: عقد الجمان، جـ١٨ قسم ١، لحة ٨٤.

(٩٢ عن علاقة الداوية بفردريك الثاني انظر:

Wiegler, p., The Infidel Emperor and his Struggles aginst the pope, London, 1930, pp. 20,108, 110,137,

(٣) العيني: المصدر السابق، جـ١٨، قسم ١، لوحة ١١٠-١١١، ابن بهادر: فتح النصر، ورقة ١١٧.

(٤) ابن الاثير: الكامل ، جـ١٢، ص٣٣٠، العيني: المصدر السابق، جـ١٨، قسم١، لوحة ١١٦، ابن بهادر: المصدر السابق، ورقه ١١٨.

الهدنة بين المسلمين والداوية لمدة عامين. لكن الداوية ما لبثوا أن قاموا في عام ١٢٣٧م / ٦٣٥هـ بمحاولة لاسترداد قلعة درباك من يد المسلمين. فخرج اليهم عسكر حلب مرة أخرى، واشتبكوا معهم ، وقتلوا الكثير منهم ومن بينهم مقدمهم وليم دى مونتفرت Willia de Montfert ، واسروا من تبقى منهم لذلك اضطرت بقية فرق الداوية الى المحافظة على مهادنة المسلمين(١) .

هكذا كانت الحرب سجالاً بين الداوية وبين مسلمي الشرق الادنى، وكانوا يحرزون النصر فى المعارك بينما لحقت بهم الهزائم في معارك اخرى . وعلى اية حال لم تكن بينهما معركة حاسمة بالمعنى المفهوم بسبب اعتدال ميزان القوى بين الفريقين المتضارعين ولكن الداوية رأوا استغلال ظروف الخلاف التى كانت تثور بين وقت وآخر وبين افراد الاسرة الايوبية فى مصر والشام بمناصرة فريق ضد آخر. ويتضح هذا الموقف وما يكشف عنه عندما اشتد النزاع بين الصالح نجم الدين ايوب ملك مصر وبين الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق. إذ انضم الداوية في هذا الصراع الي الأخير فمنحهم مكافأة على ذلك قلعة صفد فى عام ١٢٤٠م / ٦٣٨هـ(٢) . ولما بلغ هذا النزاع قمته انضم الخوازميه الى جانب الصالح نجم الدين، بينما وقف الصليبيون ومن بينهم الداوية والناصر داود صاحب الكرك الى جانب الصالح اسماعيل. وفى عام ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ قام الخوازمية ومعهم جند مصر بالهجوم على مدينة بيت المقدس، وقتلوا عدداً كبيراً من الداوية(٣) ونجحوا في استعادتها الى غير رجعة من قبضة الصليبين. ونتيجة لذلك حشد الصليبيون قواتهم في عكا ، وانضمت إليهم قوات الملك الناصر داواود، والملك المنصور ابراهيم أمير

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٥، ص١٣٢-١٣٣، وايضاً:
Ercles, L'Estiore, pp. 403-405.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٠١-٣٠٢، وايضاً:
Eracles, Op. cit., p. 418.

(٣) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٣٧، وايضاً:
Matthew paris, English History, London, 1852, pp. 482, 492-493.

حمص، وسار الجميع ومعهم الداوية فى اتجاه مدينة غزة، فخرج اليهم الجيش المصرى بقيادة ركن الدين بيبرس زعمه قوات الخوازمية ، والتقى الجمعان فى ١٧ اكتوبر ١٢٤٤م ٥ ٣ جمادى الاولى ٦٤٢ هـ بالقرب من غزة وكان النصر حليف المصريين والخوارزمية، بينما قتل من الداوية عدد كبير من بينهم مقدمهم أرمان بريجورد Armand Bregaurd . وكان لتلك الهزيمة اثراً كبيراً على نشاط الداوية بحيث انه لم يكن لهم أى دور عسكرى ضد المسلمين إلا بعد قدوم حملة لويس التاسع الى مصر فى أواسط القرن الثالث عشر الميسلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) . والواقع ان الداية كان لهم دوراً كبيراً فى احداث تلك الحملة منذ الاعداد لها عام ١٢٤٦م / ٦٤٤هـ حتى رحيلها عن مصر عام ١٢٥٠م / ٦٤٨هـ[١] . كما شاركوا ايضاً الملك الفرنسى فى حملته على الشام[٢] .

وهكذا يتضح ان دور تلك الجماعة لم ينته بعقد صلح الرملة عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ بل استمر قائماً فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) وان الداوية على الرغم من انحرافهم عن المبادىء الأولى التى وضعت فى مؤتمر تروى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ، الا انهم قدموا للصليبيين فى الشرق الادنى خدمات كثيرة .

وقد اقتصر نشاطهم بعد ذلك فى الانغماس فى المشاكل الداخلية للصليبين ، فضلاً عن اتجاههم لممارسة النشاط المالى، والابتعاد كليةً عن الدور المعهود لهم من قبل. وقد أثر هذا بالطبع على قدراتهم العسكريه إلى ان سقطت مدينة عكا فى قبضة الاشرف خليل عام ١٢٩١م / ٦٩٠هـ لذلك تهاوت قلاعهم فى صيدا

---

(١) عن حملة لويس التاسع على مصر ودور الداوية فى احداثها ، انظر : جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على مصر وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، الاسكندرية ١٩٦٩، فى صفحات متعددة.

(٢) عن دور الداوية فى حملة لويس على الشام، انظر جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبى على بلاد الشام وهزيمة لويس التاسع فى الاراضى المقدسة، الاسكندرية ١٩٧٠ ، فى صفحات متعددة.

وعليت فى نفس العام ، واصبح كل ما تملكه جماعة الفرسان الداوية فى الشرق الأدنى قلعة صغيرة تقع فى جزيرة ارواد بالقرب من انطرسس، وقد مكث القليل منهم بها الى ان رحلوا عنها ١٣٠٣م / ٧٠٢هـ؛ وبذلك ينتهى الدور الذى قامت به تلك الجماعة فى علاقاتها بمسلمى الشرق الأدنى وفى بدايات القرن الرابع عشر الميلادى (أوائل القرن الثامن الهجرى) وعلى وجه التحديد فى عام ١٣٠٨م / ٧٠٨هـ، تمت محاكمة فرسانها على يد الملك الفرنسى فيليب الرابع المعروف بفيليب الجميل وصدر الحكم بادانتهم ومصادرة اموالهم واملاكهم فى كل انحاء الغرب الأوروبى وعلى هذا يسدل الستار نهائياً على تلك الجماعة.

الملاحق

الملحق الاول: نص المؤرخ امادى عن نشأة جماعة الفرسان الداوية

أنظـــر : Amadi, Chroniques D'Amadi et Strambaldi, Paris, 1981, PP. 28-29 .

الملحق الثانى : مقتطفات من تاريخ هرقل حول أحداث موقعة صفورية عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ بين المسلمين والصليبيين، ودور جماعة الداوية منها .

أنظر : Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et al Conquest de la Terre d'Outremer, R.H.C.H. Oce., t, II, Paris, 1859, PP. 40-44 .

الملحق الثالث : قائمة بأسماء مقدمى الداوية وتورايخ رئاستهم للجماعة
(١١١٨م - ١١٩٣م / ٥١٢-٥٨٩هـ)

الملاحق

رأينا أن نذيل الرسالة بثلاثة ملاحق هامة لها صلة مباشرة بموضوع البحث وتلقى المزيد من الاضواء على بعض جوانبه، ملحقان منها لايزالان بلغتهما الاصلية القديمة أولهما نص مقتبس من حوليات أمادى والثانى مقتطفات من تاريخ هرقل أما الملحق الثالث فهو عبارة عن قائمة باسماء مقدمى الداوية ابان الفترة الزمنية موضوع الدراسة .أما عن الملحق الاول، فلاشك أن حوليات المؤرخ امادى تعتبر من المصادر الهامة في تاريخ الحروب الصليبية بصفة عامة، وتاريخ جماعة الفرسان الداوية على وجه الخصوص وهى لاتزال مدونه بلغتها الاصلى وهى الايطالية القديمة، ولم تترجم بعد إلي أى لغة حديثة، والنص الذى وقع اختيارنا عليه من هذه الحولية يتعلق بنشأة جماعة الداوية .

وترجع أهمية فى أنه يوضح خطوات تكوينها، وان كان أمادى يرى أنها نشأة فى عام ١١١٩م/٥١٣هـ ولكن الاشارة الهامة في هذا النص هى أن أفرادها قد أقسموا بالدفاع عن الحجاج المسيحيين مرتين . وقد اعتمدنا على هذه الراوية فى تبرير سر اختلاف كثير من المؤرخين القدامى والحدثيين حول العام الذى تكونت فيه الجماعة . ويزيد من أهمية النص أن كاتبة كان مقيما فى جزيرة قبرص، مما جعله يطلع على بعض الوثائق المفقودة لجماعة الفرسان الداوية .

ويمثل الملحق الثانى نصا من كتاب تاريخ هرقل، والذى يفسر بصورة واضحة احداث موقعة صفورية بين المسلمين وجماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية فى أول مايو ١١٨٧م/ ١٩ صفر ٥٨٣هـ وترجع أهمية هذا النص إلى أن كتاب تاريخ هرقل لم يترجم من اللغة الفرنسية القديمة التى دون بها، فضلا عن أن المصادر العربية لم تلق بالضوء الكافى على أحداث تلك المعركة بينما انفرد كتاب تاريخ هرقل بذكر احداثها بصورة واضحة وأن اعابة عدم تنظيمها من الناحية الزمنية . وتمثل تلك المعركة حدثا هاما فى تاريخ جماعة الفرسان الداوية لانها وقعت قبل

معركة حطين الشهيرة بثلاثة أيام، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونها بداية لمعركة حطين . ويوضح النص أيضا مدى عجرفة مقدم الداوية جيرارد ريد فورد، وكيف أن أبى أن يستمع إلى نصيحة كل من جيمس ما يللى ماريشال الداوية، روجردى مولاى مقدم الاسبتارية، وصمم على مهاجمة المسلمين عندما رأى فى قلة اعدادهم فرصة ذهبية لتحقيق النصر عليهم . وكان مقدم الاسبتارية ومارشال الداوية على علم تام بتكتيكات المسلمين الحربية، وأيقنا أن الفرقة التى امامهم من المسلمين لا تمثل القوة الحقيقية لهم . وقد صدق ظنهما، فمجرد أن أشتبك معهم الداوية والاسبتارية، خرجت فرق المسلمين الاخرى واطبقت عليهم، وقتلهم عن بكرة أبيهم، ولم ينج منهم سوى ثلاثة فرسان ومعهم المقدم جيرارد . وبذلك وقعت جماعة الفرسان الداوية الثمن غالياً نظير عجرفة مقدمها، مما كان له أكبر الاثر على هزيمتهم فى موقعة حطين .

أما الملحق الثالث فهو بمثابة ترتيب زمنى لمقدمى الفرسان الداوية منذ أن أصبحت هيئة معترفا بها من السلطتين العلمانية والدينية فى الغرب وفى الشرق اللاتينى عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ وحتى زمن المقدم الذى عاصر وفاة صلاح الدين الايوبى عام ١١٩٣م/ ٥٨٩هـ . وقد راعينا أثبات اسماء المقدمين وفترات رئاستهم للجماعة بالتقويميين الهجرى والميلادى .

الملحق الاول

نص المؤرخ أمادى عن نشأة جماعة فرسان الداوية .

Amadi, Chroniques d'Amadi et Strambaldi,
Paris, 1891, PP. 28-29 أنظر :

In questo tempo vetinvano assan personal de licn et poveri per visitar el Santo Sepulero et altri lochi de Hierusalem; et erano molti ladri per le strade, che spogliavano li peregrini, che andavano simplicemente, et li amazavano. Dapoi, alcuni amici de Dio, per devotion et per gran arder di carita che havevano, abandonato el mondo per servir a Jhesu Christo, feceno profession per la man del patrisarcha de Hierusalem, et feceno voto solemne de diffender et guardar li poveri

CHRONIQUE D'AMADI.

Peregrini da li malvagii ladri Saracini, et gardavano le vie; et nel modo di canonici regulari promisseno obedientia, castita et viver senza proprio, per esser franchi cavaglieri del superno re Et questi furono fra Hugo de Pavens[1] et fre Giofredo de Santo Aumer, quali erano honorevol baroni et amici de Dio et della Christianita Et in questa santa proposicion, non erano piu che nove cavagheri, et vivevano di quello che li davano li Christiani, et hanno servito nove anni con l'abito seculare; et li re di Hierusalem et soi cavaglieri, et li patriarchi sustentavano del suo questi cavaglieri, che havevano abandonato il tutto per il bon Jhesu; a quali donavano alcuni beni stabili in remission de li loro peccati, Questi non havevano ancora ne chiesie ne casa certa, et pero el re Baduin dal Borgo, dal Borgo, secondo re di Hierusalem li ha concesso una parte del suo palazo, con una spiagia al Templum Domini, Per servires; et perche stantiavano al Tempio, sonno ditti li cavaglieri del Tempio Et quando feceno cosi nove anni in questa poverta et profession, visseno et se acordorono in quella casa con un medesimo costume[2] .

الترجمة العربية

وفي ذلك الوقت[1] ، أتى أيضا بعض الاشخاص من الفقراء والمعدمين لزيارة القبر المقدس وغيره من الاماكن الي مدينة بيت المقدس. كما قدمت أعداد غفيرة من الحجاج بعد ذلك، وقد ملأ - حب الله - قلوبهم بالعاطفة والحماسة الفياضة . وزهدوا في الحياة الدنيا، فقدموا لخدمة المسيح، وتعهدوا أمام بطريرك بيت المقدس وأقسموا قسما عظيما بالدفاع عن الحجاج (المسيحيين) وحمايتهم من مضايقات المسلمين التى كانوا يعانون منها، والحفاظ على حياتهم . وتعهد (أولئك) الرهبان النظاميون بالالتزام بهذا القسم، كما أدى الفرسان الفرنسيون نفس القسم. وكان على رأسهم هيودى بانيز، وجود فرى دى سانت أمير، وكذلك البارونات الاشراف من محبى الله في المسيحية ، وكان عدد أولئك الفرسان لا يتجاوز التسعة ممن كانوا يعيشون على هبات المسيحيين . وقضوا في الخدمة تسع سنوات يتزيون بالزى العادى . وكان ملك بيت المقدس وفرسانه والبطاركة ينعمون عليهم بالمال والمأكل، اذ أن أولئك الفرسان قد تركوا كل مالديهم من متاع الدنيا من أجل خدمة يسوع (المسيح) . وقد تبرع بعض (المسيحيين) لهم بالاموال تكفيراً عن خطاياهم وذنوبهم ولما كان أولئك الفرسان لا يمتلكون كنيسة أو منزلا يأويهم، فقد وهبهم الملك بلدوين الثانى[2] جانبا من القصر[3] الواقع بالقرب من معبد الرب للاقامة فيه ومن هنا استمد فرسان المعبد تسميتهم . وبعد مرور تسع سنوات من حياة الزهد، أصبح لهم زيا خاصا لهم .

---

(١) أى فى سنة ١١١٩م

(٢) هو ملك بيت المقدس اللاتينى، حكم من سنة ١١١٨ إلى ١١٣١م .

(٣) المقصود بذلك المسجد الأقصى .

الملحق الثاني

مقتطفات من تاريخ هرقل حول احداث صفورية عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ بين المسلمين والصليبيين ودور جماعة الداوية فيها .

Eracles, L'Estoire de Eracles Emperur et al

Conquest de la Terre dOutremer, R.H.C,- Oce., t. II, Paris, 1859, PP. 40-44.

النص الاصلي

L' ESTOIRE DE ERACLES EMPEREUR.,

I cuenz lor[1] avoit mande Li devant dit maistre estoit bonz chevaliers et segur[2], de son cors si[3] amesprisoit toutes autres gens, come cil qui estoittrop outrecuides[4],il ne vost[5] croire cinseil[6] dou mastre del Ospital, frere Roger des Molins, ne de frere jaque de Mailli qui[7] estoit mareschal douv Temple sinz le ranpona[8] et li dist que il parloit come home qui beoit[9] a toir[10] et li dist; Vos amez trop cele " teste blonde, qui si bien la volez garder[11] " Dont li mareschaus[12] li respondi que il ne s'en fuireit[13] mie de la bataille, ainz remaindroit ou champ come prodome[14] et il 'en fuireit come mauvais[15] recreant[16] Donc vint li maistres dou Temple et li chevalier qui estoient avec lui[17], si se ferirent es[18] Sarrasinz, et[19] li maistres del Ospital ausi, et[20] li Sarrasin les recurent[21] moult[22] lieement[23] si[24] les forelostrent[25] si que li Crestien ne parurent entreaus[26]; car li Sarrasin[27] estoient encores[28] vil mile chevaliers armez[29] et li Crestien n'en estoient que cent et xl[30] La ot[31] li maistres del Ospitau[32] la teste copée[33], et tuit li chevalier dou Templeausi[34], fors solcment le maistre dou Temple[35] qui s'en eschapa soi[36] tiers de chevalier[37]; et li xl chevalier, qui esttoient en garnison a[38] Nazareth de par le roi[39] furent tuit[40] pris[41]

Quant li escuier dou Temple et del Ospitau[42] virent que li chevalier[43] se estoient ferus[44] entre les Sarrasinz[45], si[46] tornerent en fuie O[47] tout lor[48] harnois[49], si que dou hernois[50] des[51] Crestienz[52] n'i Ot riens[53] perdu .

CHAPITRE XXVII

Or vos dirai que li maistres dou Temple fist. Si[54] come[55] il passa Nazaret et[56] il aloit encontre les Sarrasins[57], il[58] envoia un sergent batant a cheval arrieres[59]; et fist crier par Nazareth[60] que tuit cil qui armes porroient porter alassent[61] apres

LI VINTETROISIESMES LIVRES.

Lui au gaaing, car il avoient[1] les Sarrasins[2] desconfiz, Lors s'en[3] issirent[4] cil[5] de[6] Nazareth, tuit cil[7] qui aler i[8] porent[9], et corurent tant que il vindrent la ou[11] la bataille avoit este Si troverent les Crestienz morz et desconfiz; et[12] li Sarrasin[13] lor corurent sus, si[14] les pristrent[15] toz Quant li Sarrasin orent desconfit[16] les Crestiens et oicz, si[17] pristrent[18] les testes des chevaliers[19] Crestiens[20], que il avoient tues[21], si[22] les atacherent[23] sur[24] les fers des lances[25]; si[26] en menerent[27] prisonz[28] lies[29], et s'en[30] passerent devant[31] Tabarie Quant li Crestien qui dedenz Tabarié[32] estoient[33], virent[34] que li Crestien estoient pris et desconfit[35], et que li Sarrasin[36] portoient[37] les testes sur lor[38] lances .

CHAPITRE XXVIII

Balian, qui a Naples estoit, quant ce vint la nuit, si mut[42], si come il ot en

LESTOIR DE ERACLES EMP

Convent[1] an maistre dou Temple el a celui[2] del Opsital, por[3] aler

aprez caus[4] Quant il ot erré[5] ii milles, si vint a[6] une cile, qui a a non le Sabast Si[7] s'apensa[8] que il estoit moult[9] haat jor, et que il n'en iroit[10] avant, si[11] auroit messe oye[12] Lors[13] si[14] torna a la maison de l'evesque[15], si le fist lever, et se assist avec lui[16], et parla tant[17] que la giaite[18] traist[19] le jor Lors fist li evesques[20] revestir un suen[21] chapelain, et li qst[22] chanter[23] messe[24] Quant Balianz ot oye la[25] messe[26], si[27] s'en ala, geant[28] leure, apres le maistre dou Temple[29], et ala[30] tant que il vint au chastel[31] les tenles dou covent trove[32] tendues, si[33] n'eny[34] avoit nului[35] dedens[36]; Jors se mer eilla moult, que il ne trova a cui demander que ce poeit[37] estre[38] . Lors fist un suen[39] vallet[40] entrer[41] dedenz le chastel, por enquerre se il trovereil[42], qui li deist qui[43] ce poeit[44] " estre[45] " Li vallez ala et cria par[46] le chastel[47]; onques ni vit home, jui li seust dire noveles, que[48] il malades, qui gesoient[49] dedens[50] une chambr; et[51] cil ne li[52] sorent dire noveles[53], Lors vint a[54] son seignor, si[55] li[56] dist que il n'i avoit[57] nului[58] trove, qui noveles li seust[59] dire Donc vint ses sires, si i comanda que il montast a cheval, et alast aprés lui[60], si[61] alerent vers Nazaret Quant[62] il orent un po[63] esloigné[64] le chastel, si s'en issi[65] un frere dou Temple a cheval, et eria que il le atendissent; et il atendirent tant que il vint. Balian d'Ybelin si, li demanda ques noveles, et il dist; mauvaises. Si li conta que li maistres de L'Ospital avoit la teste copée, et tuit li chevalier deu Temple; si n'en y avoit que trois eschapés et le

LA VINTETROISIESMES LIVRES

Can the don Temple et trois de chevalicrs; el les nevaliers, que li rois snt en garnison a' Nazarech, estoient luit pris, Ouanl Balian d' Ybelin of neveles si en fist grant duel; si apela un suen sergent, et l'envoia arrent Naples, a la roine sa feme, conter ces noveles et dire que ele comanlast que tuit si chevalier de Naples fussent la quit a lui

a Nazareth.

CHAPITRE XXIX

Quant Balian d'Ybelin ot trové le maistre dou Ten ple a Nazareth, si ala a lui si li dcinanda de cele bataille, coment ele avcn esté Et il li dist

L'ESTOIRE DE ERACLES EMPEREUR

que moult[1] se estoient[2] bien provez[3], et moult y[4] avoient L Grestien[5] ociz des[6] Sarrasinz, et estoient ja[7] desconfiz[8], quant un enbuschement, que il avoient en[9] une montaigne, les forclost[10], dont[11] il furent desconfiz Lors pristrent[12] conseil que il envoieroient[13], la ou la bataille avoit esté por les cors les core des chevabers[14] enfoir[15] . Donc[16] firent prendre touz les somiers de la cite, et envoierent por les cor, si[17] les firent aporter[18] a Nazaret, por[19] enfoir[20] . Lendemain mut[21] Balian et l'arcevesque de Sur et li maistres dou Temple[22] por[23] aler a Tabarié . Quant[24] il furent hors de la[25] cité, si s'en retorna[26] li maistres dou Temple[27], por ice que il ne poeit chevaucher[28], tant par eestoit doloros[29] des cos[30] que il avoit receus[31] en la bataille le jor levant; mais[32] Balianz et li arceverques de Sur[33] alerent a Tabarie Quant li cuenz de Triple[34] sot que Balianz et li arcevesques de Sur venoient[35] a lui[36], si[37] ala encontre[38], moult dolens et moult corrocés[40] de l'aventure[40], qui estoit avaeaue le jor devant .

الملحق الثاني

الترجمة العربية

(اتجه كل من مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية[1] وباليان وتابعة) لمقابلة الكونت (ريموند صاحب طرابلس) وكان مقدم الداوية من أحسن الفرسان ومن (أعظمهم) ثقة بنفسه وكان يزدرى كل من حوله ولما كان شديد التكبر، فقد رفض قبول نصيحة كل من مقدم الاسبتارية الاخ روجردى مولاله والاخ جاك مايللى ماريشال الداوية فقال (مقدم الداوية للماريشال) : أن تعلقك برأسك الشقراء هذا بلغ من القوة ما جعلك تحرص على الاتفقدها[2] فرد عليه الماريشال بأنه لن يفرقط من المعركة، وسوف يبقى فى ساحة القتال، فى حين أن مقدم الداوية سوف يهرب مثل أى خائن ثم توجه مقدم الداوية ومن معه من الفرسان (الى ميدان القتال)، فقتلهم المسلمون ومعهم مقدم الاسبتارية أيضا . فعندما بدأت المعركة واجههم المسلمون بشجاعة ، وقاموا بتطويقهم بصورة جعلتهم غير قادرين على المعركة، لان المسلمين كانوا فى أعداد غفيرة تزيد عن سبعة آلاف من الفرسان، فى حين لم يتجاوز عدد المسيحيين مائة واربعين فارسا (وفى هذه المعركة) قتل مقدم الاسبتارية وقطعت رأسة، كما حل القتل بمعظم فرسان الداوية فيما عدا مقدمهم الذى فربرفقة ثلاثة من الفرسان ، أما الفرسان الاربعون الذين عينهم الملك[3] كحامية للناصرة فقد ثم أسرهم ولما رأى اتباع الداوية والاسبتارية أن الفرسان قد حل بهم القتل على يد المسلمين ولو الادبار حاملين

---

(١) مقدم الداوية هو جيرارد ريدفورد امام مقدم الاسبتارية فكان روجردى مولان .

(٢) هذه هى الترجمة الحرفيجة للنص، والمراد ان مقدم الداوية جيرارد ريدفورد يرمى الماريشال بالجبن لخوفة على حياته من خوض المعركة، وما يأتى بعد ذلك فى الترجمة ما يفسر هذا المعنى

(٣) المقصود عموری االول ملك بيت المقدس الصليبى، حكم من عام ١١٦٢ الى عام ١١٧٣م (٥٥٨-٥٦٧هـ)

كل السروج خوفا من أن تقع خوفا من أن تقع سروج المسيحيين في يد المسلمين ....

....

....

وسوف أقصى عليكم ما قام به مقدم الداوية (قبل المعركة) فهو عندما كان يمر بالناصرة لمواجهة المسلمين، أنقذ واحدا من السرجندية[1] الخيالة ممن كانوا فى موخرة القوات كي يستدعى من الناصرة كل من يقدر على حمل السلاح ويلحق به الايقاع الهزيمة بالمسلمين وعلى هذا، خرج أولئك من الناصرة وتبعوه جميعا إلى الميدان الذى دارت فيه المعركة ولكنهم وجدوا أن المسيحين قد لحقت بهم الهزيمة وتعرضوا للقتل أما المسلمون فقد كانوا يعقلون رؤوس القتلى المسيحين على أسنة لارماح، ويسوقون الباقين مقيدين كأسرى ثم مروا طبرية، فشاهدهم المسيحيون من داخل طبرية وهو يحملون رؤوس القتلى أسنة الرماح . ...

....

....

وكان باليان- صاحب نابلس - قد وعد كلا من مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية بأنه سوف يلحق بهما . ولما حل المساء سار (باليان) مسافة ميلين وانحرف فى اتجاه مدينة سبسطية[2]، ففكر في أن يتوجه إلى الكنيسة فى الفجر لانه لا يستطيع مواصلة السير من غير أن يقوم بتأدية القداس بها .

وعلى هذا، اتجه إلي منزل الاسقف وايقظه من نومة، وجالسه وحادثه، ثم راح السقف يرتل الصلوات وبعد أن استمع (باليان) الى القداس، واصل سيرة بسرعة للحاق بمقدم الداوية في اتجاه القلعة[1] فشاهد خيام الداوية خالية، فانتابه الذهول

(١) السرجندة : كوكبة من الجند يقومون بخدمة الفرسان فى ميدان المعركة .

(٢) سبسطية : بلده من نواحى فلسطين بينها وبين القدس مسيرة يومين وبها قبر كل من النبى زكريا ويحيى عليهما السلام،وهى من أعمال نابلس، انظر : ياقوت الحموى معجم البلدان، جـ٥، ص٢٩

لعدم وجود أى فرد يسأله عما حدث ومن ثن اتجه خادمه[٢] إلى داخل القلعة على أمل مقابلة أى فرد، الا أنه لم يعثر على أى انسان يخبره بما يجرى فطاف بحجرات القلعة فوجد اثنين من المرضى (من الدواية) كانا راقدين بداخل أحدى الغرف، ولكنهما عجزا عن شرح ما حدث فعاد (ارنولد) إلى سيدة وأخبره بأنه لم يجد أحد يفسر له ماوقع فأستأنف (باليان وخادمة) السير فى اتجاه الناصرة، وبعد أن سارا قليلا شاهدا فارسا جريحا من الداوية فوق جواده، فانتظره حتى أقبل عليهما . وسأله باليان صاحب نابلس عما حدث، فرد عليه الفار س قائلا : أنها زخبار سيئة « ثم روى له أن مقدم الاسبتارية قد اجتزت رأسه هو وكل فرسان الداوية فيما عد ثلاثة منهم، بالاضافة الى مقدم الداوية، وأن كل الفرسان الذين كان الملك (عمورى الأول) قد شكل منهم حامية للناصرة قد وقعوا فى الاسر ولما سمع هذه الاخبار انتابه الحزن واستدعى واحدا من السرجندية وانفذه إلى زوجته بنابلس ليقص عليها تلك الاخبار، ولكن تأمر كل فرسان نابلس بأن يلحقوا به ليلا بالناصرة .

وقد لحق الكونت باليان صاحب نابلس بمقدم الداوية فى الناصرة وتوجه اليه وساله عما تم فى المعركة فأخبره (مقدم الداوية) بأن المسيحييم وان برهنوا على قدرتهم وقتلوا عددا كبيرا من المسلمين، الا أنهم هزموا جميعا فى كمين فوق أحد الجبال، وطلب (مقدم الداوية) من باليان المشورة عمن يرسلهم من لافراسن إلى أرى المعركة لكى يقوموا بدفن جثث (الموتى من) الفرسان فقاموا بجمع كل الخيول الموجودة فى الناصرة لنقل الجثث ودفنها فى المدينة وفى صبيحة يوم الاثنين[٣] ولما وصلوا إلى الخارج المدينة، قفل مقدم الداوية عائدا لانه لم يكن باستطاعة ركوب جواده لما كان يحسه من الام بسبب الجراح التى أصيب بها فى معركة اليوم السابق ، ولكن باليان ورئيس اساقفه صور توجها الى طبريه ولما علم الكونت صاحب طرابلس بأن باليان ورئيس أساقفه صور فى طريقهما اليه، خرج لمقابلتهما، وقد تولاه الغضب والحزن بسبب مغامرة اليوم السابق .

الملحق الثالث

---

(١) المقصود قلعة ل فولة .

(٢) اورنولد

(٣) الموافق ٢ مايو ١١١٧م / ٢٠ صفر ٥٨٣ هـ

قائمة بأسماء مقدمى الداوية وتواريخ رئاستهم للجماعة
(١١١٨م-١١٩٣م/ ٥١٢-٥٨٩هـ)

١- هيــودى بايز Huge de Payens (١١٢٩-١١٣٦م/٥٢٣-٥٣٠هـ)

٢- روبرت دى كراون Robert de Craon(١١٣٦-١١٤٨م/٥٣٠-٥٤٣هـ)

٣- ايفرارد دى بار Everad des Barres (١١٤٨-١١٥٠م/٥٤٣-٥٤٤هـ)

٤- برنارد دى تريميلاى

Bernnard de Tremelay (١١٥١-١١٥٣م/٥٤٦-٥٤٨هـ)

٥- برتراندى بلانكفورت

Bertrand de Blanque fort (١١٥٤-١١٦٨م/٥٤٩-٥٦٣هـ)

٦- فيليب أو نابلس Philp of Nablus (١١٦٨-١١٧١م/٥٦٣-٥٦٧هـ)

٧- اوادواى ساند أماند Odo de St. Amand(١١٧١-١١٨٠م/٥٦٧-٥٧٦هـ)

٨- أورنولددى تورج Arnold de Torroge(١١٨٠-١١٨٥م/٥٧٦-٥٨١هـ)

٩- جيرارد ريدفورت Gerard Riderfort (١١٨٥-١١٨٩م/٥٨١-٥٨٥هـ)

١٠- والــتر walter (١١٨٩-١١٩١م/٥٨٥-٥٨٧هـ)

١١- روبرت دى سابل obert de Sable (١١٩١-١١٩٦م/٥٨٧-٥٩٢هـ)

فهـــرس

الصفحة



